حياة القلوب

تفسير كلام علام الغيوب

الجزء الأول

تأليف

أبي عمرو سعيد بن مصطفى دياب

الألوكة

www.alukah.net

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

مُقَدِّمَة

الحمد لله الذي جعل كتابه روحًا تحيا به الأرواح، ونورًا تستضيءُ به القلوبُ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾.[1]

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنزلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا﴾.[2]

وذكرًا يرتفعُ به كلُ وضيعٍ، ويتعززُ به كلُ ذليلٍ؛ قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾.[3]

وَقَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَمَا إِنَّ نَبِيَّكُمْ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِنَّ اللهَ يَرْفَعُ بِهَذَا الْكِتَابِ أَقْوَامًا، وَيَضَعُ بِهِ آخَرِينَ».[4]

وحقًا يَزْهَقُ أَمَامَهُ كُلُ باطلٍ، ودليلًا يهتدي به كلُ حائرٍ، وشفاءً لأدواء النفوسِ والقلوب، ورحمةً للعالمين، ومحجةً للسالكين، وحجةً على الخلق أجمعين، ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾.[5]

وبرهانًا واضحًا على وحدانيته، ودليلًا ساطعًا على ألوهيته، ﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا﴾.[6]

وجعله مباركًا لمن قرأه، واستمع إليه، وتدبره، وعمل بما فيه، قَال اللهُ تَعَالَى: ﴿كِتَابٌ أَنزلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الأَلْبَابِ﴾.[7]

---

١ – سورة الشُّورَى: الآية/ ٥٢

٢ – سورة النساء: الآية/ ١٧٤

٣ – سورة الزُّخْرُفِ: الآية/ ٤٤

٤ – رواه مسلم– كِتَابُ صَلَاةِ الْمُسَافِرِينَ وَقَصْرِهَا، بَابُ فَضْلِ مَنْ يَقُومُ بِالْقُرْآنِ، وَيُعَلِّمُهُ، وَفَضْلِ مَنْ تَعَلَّمَ حِكْمَةً مِنْ فِقْهٍ، أَوْ غَيْرِهِ فَعَمِلَ بِهَا وَعَلَّمَهَا، حديث رقم: ٨١٧

٥ – سورة فُصِّلَتْ: الآية/ ٤٢

٦ – سورة النِّسَاء: الآية/ ٨٢

٧ – سورة طه: الْآيَة / ٢٩

فأرفعُ الناسِ عند الله مترلةً أكثرهم لكتاب الله أخذًا، وأوفرهم منه حظًا؛ قَال الله تَعَالَى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾.[1]

وأمر الله تعالى عباده بتدبر آياته، وندبهم إلى فهم مراده من كلامه؛ قَال الله تَعَالَى: ﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا﴾.[2]

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿كِتَابٌ أَنزلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الأَلْبَابِ﴾.[3]

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾.[4]

وأمر الله تعالى بتعلم آياته وتعليمها، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلا تَكْتُمُونَهُ﴾.[5]

لذلك كان الْوَاجِبُ عَلَى الْعُلَمَاءِ الْكَشْفُ عَنْ مَعَانِي كَلَامِ اللَّهِ، وَتَفْسِيرُ ذَلِكَ، وَطَلَبُهُ مِنْ مَظَانِّهِ، وتَعلُّم ذَلِكَ وَتَعْلِيمُهُ، لينالوا به خيري الدنيا والآخرةِ، فهو دستورُ حياةِ الناسِ، وسبيلُ سعادَتِهم في الدنيا والآخرةِ.

وحَضَّ الله تعالى العلماءَ على ترغيب الناسِ في التمسكِ بكتاب الله تعالى، وأخبرَ أن هذا دليلَ الإصلاحِ وعلامةَ الفلاحِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾.[6]

وأخبر النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن خيرَ الناسِ مَنْ تَعَلَّمَ القُرْآنَ وَعَلَّمَهُ؛ فَعَنْ عُثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ القُرْآنَ وَعَلَّمَهُ».[7]

---

١ – سورة فَاطِر: الْآيَةَ / ٣٢

٢ – سورة النِّسَاء: الْآيَةَ /٨٢

٣ – سورة ص: الْآيَةَ / ٢٩

٤ – سورة مُحَمَّدٍ: الْآيَةَ / ٢٤

٥ – سورة آلِ عِمْرَانَ: الآية/ ١٨٧

٦ – سورةالأعراف: الآية/ ١٧٠

٧ – رواه البخاري– كِتَابُ فَضَائِلِ القُرْآنِ، بَابٌ: خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ القُرْآنَ وَعَلَّمَهُ، حديث رقم: ٥٠٢٧

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وحَذَّرَ اللهُ تعالى أَشَدَّ التَّحْذِيرِ مِنَ الإِعْرَاضِ عَنْ كِتَابِهِ، أو اتخاذِهِ وسيلةً لعرضٍ دُنيوي؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلا أُولَئِكَ لَا خَلاقَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ وَلا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.[1]

فَقد ذَمَّ اللَّهُ تَعَالَى أَهْلَ الْكِتَابِ قَبْلَنَا بِإِعْرَاضِهِمْ عَنْ كِتَابِ اللَّهِ تعالى، وَإِقْبَالِهِمْ عَلَى الدُّنْيَا وَجَمْعِهَا، وَاشْتِغَالِهِمْ بِغَيْرِ مَا أُمِرُوا بِهِ مِنَ اتِّبَاعِ كِتَابِ اللَّهِ، فمن فعل من هذه الأمة فعلهم، ناله من الذم ما نالهم وفوق ما نالهم.

وتوعَّدَ مَنْ أعرضَ عنه وكذَّبَهُ وكَفَرَ به أشدَّ الوعيدِ، وهَدَّدَهُ أبلغَ تهديدٍ؛ فقالَ: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الأحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾.[2]

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ * وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾.[3]

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ * وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾.[4]

ورغبة في أن أُنْظَمَ في سِلْكِ مَنْ خَدَمَ كتابَ اللهِ تعالى، وتَشَرَّفَ بالنسبةِ إلى أهلِ القرآنِ، يَسَّرَ الله تبارك وتعالى بفضله ومَنِّهِ الكلامَ عن تفسيرِ آياتِهِ البينات في محاضراتٍ، ثم جمعتها في كتاب وسميته: (حَيَاةُ الْقُلُوبِ تَفْسِيرُ كَلَامِ عَلَّامِ الْغُيُوبِ)، أسأل الله تعالى أن يتقبله بقبول حسن، وأن يجعله ذخرًا ليوم الميعاد، وأن يجعله حجةً لي لا حجةً علي، وأن ينفعني به ومن شاء من عباده، إنه خيرُ مأمولٍ وأكرمُ مسؤولٍ.

سَعِيدُ بْنُ مُصْطَفَى دِيَابِ

الدوحة: في ٩ جمادى الأولى/ ١٤٣٦هـ

٢٨/ ٢/ ٢٠١٥م

---

١ - سورة آلِ عِمْرَانَ: الآية/ ٧٧

٢ - سورة هُودٍ: الآية/ ١٧

٣ - سورة الأعراف: الآية/ ١٨٢، ١٨٣

٤ - سورة الْقَلَمِ: الآية/ ٤٤، ٤٥

تَعْرِيفُ التَّفْسِيرِ

التَّفْسِيرُ لغةً: تَفْعِيلٌ مِنَ الْفَسْرِ، وَهُوَ الْبَيَانُ وَالْكَشْفُ والإظهارُ والتفصيلُ.

يُقَال: فَسَرَ الشيءَ يَفْسِرُه ويَفْسُرُه وفَسَّرَه: أَبانَهُ.[١]

وكُلُّ شيْءٍ يُعْرَفُ بِهِ تَفْسِيرُ الشيْءِ ومَعْنَاه فَهُوَ تَفْسِرَته. وَفِي البَصَائر: كُلُّ مَا تَرْجَمَ عَن حالِ شيْءٍ فَهُوَ تَفْسِرَتُه.[٢]

قال الله تعالى: ﴿وَلا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾.[٣]

قَالَ الضَّحَّاكُ: ﴿وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ أَيْ تَفْصِيلًا.[٤]

وقَالَ اللَّيْث: الفَسْر: التَّفْسِير وَهُوَ بيانٌ وتفصيلٌ للْكتاب.[5]

واشتقاقهُ: من الفَسْرِ وهو نظر الطبيب إِلى البَوْل ليَستدِلَ بلوْنه على عِلّة المريض.

قال الأزهري: قَالَ اللَّيْث: التَّفْسِرةُ: اسمٌ للبَوْل الَّذِي يَنظُر فِيهِ الْأَطِبَّاء يَستدِلون بلوْنه على عِلّة العليل، وكلُّ شَيْءٍ يُعْرَف بِهِ تَفْسِير الشَّيْءِ وَمَعْنَاهُ فَهُوَ تَفسرَته.[6]

وَاصْطِلَاحًا: قَالَ الزَّرْكَشِيُّ: التَّفْسِيرُ عِلْمٌ يُفْهَمُ بِهِ كِتَابُ اللَّهِ الْمُنَزَّلِ عَلَى نَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَبَيَانَ مَعَانِيهِ، وَاسْتِخْرَاجِ أَحْكَامِهِ وَحِكَمِهِ.[٧]

---

١ - تاج العروس (١٣/ ٣٢٣)

٢ - تاج العروس (١٣/ ٣٢٤)

٣ - سُورَةُ الْفُرْقَانِ: الآية/ ٣٣

٤ - تفسير القرطبي (١٣/ ٢٩)

٥ - تهذيب اللغة (١٢/ ٢٨٣)

٦ - تهذيب اللغة (١٢/ ٢٨٣)

٧ - البرهان في علوم القرآن (١/ ١٣)

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الْفَرْقُ بَيْنَ التَّفْسِيرِ وَالتَّأْوِيلِ:

اختلف العلماء في الْفَرْقِ بَيْنَ التَّفْسِيرِ وَالتَّأْوِيلِ على عدة أقوال:

منها: التَّفْسِيرُ: كشف الْمُرَاد عَن اللَّفْظ الْمُشكل. والتأويل: رد أحد المحتملين إِلَى مَا يُطَابق الظَّاهِر.[1]

وقيل: التَّفْسِير: هُوَ الْإِخْبَار عَن إِفْرَاد آحَاد الْجُمْلَة. والتأويل: الْإِخْبَار بِمَعْنى الْكَلَام.

وقيل: التَّفْسِير: إِفْرَاد مَا انتظمه ظَاهر التَّنْزِيل. والتأويل: الْإِخْبَار بغرض الْمُتَكَلّم بِكَلَام.

وقيل: تَفْسِير الْكَلَام إِفْرَاد آحَاد الْجُمْلَة وَوضع كل شَيْء مِنْهَا مَوْضِعه.

والتَّأْوِيل: اسْتِخْرَاج معنى الْكَلَام لَا على ظَاهِرَه بل على وَجه يحْتَمل مجَازًا أَو حَقِيقَة، وَمِنْه يُقَال تَأْوِيل الْمُتَشَابه.

وقيل: التفسير بيان وضع اللفظة حقيقة أو مجازا كتفسير الصراط بالطريق، والصيب بالمطر.

والتأويل: تفسير باطن اللفظ مأخوذ من الاول وهو الرجوع لعاقبة الامر. قاله الثعلبي.

وقيل: التَّفْسِيرُ: شَرْحُ مَا جاءَ مُجْمَلاً من القصَص فِي الكِتَاب الْكَرِيم، وتعْرِيفُ مَا تَدُلّ عَلَيْهِ أَلْفَاظُه الغَرِيبَة، وتَبْيِينُ الأُمور الَّتِي أُنْزِلَتْ بسَبَبِهَا الآيُ. والتَأْوِيلُ: هُوَ تَبْيِينُ مَعْنَى المُتَشَابِهِ. والمُتشابِهُ: هُوَ مَا لَمْ يُقْطَعْ بفَحْوَاهُ من غَيْرِ تَردُّد فِيهِ، وَهُوَ النَّصُّ.[2]

وقَالَ الرَّاغِبُ: التَّفْسِيرُ أَعَمُّ مِنَ التَّأْوِيلِ؛ وَأَكْثَرُ اسْتِعْمَالِهِ فِي الْأَلْفَاظِ وَمُفْرَدَاتِهَا، وَأَكْثَرُ اسْتِعْمَالِ التَّأْوِيلِ فِي الْمَعَانِي وَالْجُمَلِ، وَأَكْثَرُ مَا يُسْتَعْمَلُ فِي الْكُتُبِ الْإِلَهِيَّةِ، وَالتَّفْسِيرُ يُسْتَعْمَلُ فِيهَا وَفِي غَيْرِهَا.

فالتَّفْسِيرُ: إما أن يُستعمل في غريب الألفاظ نحو " البحيرة " والسائبة " والوصيلة "، أو في " وجيز يُبيّنٌ ويُشرح " كقوله: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾.

وإما في كلام مُضمنٍ بقصة لا يمكن تصوره " إلا " بمعرفتها نحو قوله: ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ﴾، وقوله: ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا﴾ الآية .

---

١ - تهذيب اللغة (١٢/ ٢٨٣)

٢ - تاج العروس (١٣/ ٣٢٤)

وَأَمَّا التَّأْوِيلُ: فإنه يستعمل مرة عامًا ومرة خاصًا، نحو " الكفر " المستعمل تارة في الجحود المطلق، وتارة في جحود الباري خاصة، و" الإيمان " المستعمل في التصديق المطلق تارة، وفي تصديق دين الحق تارة، وإما في لفظ مشترك بين معان مختلفو نحو لفظة " وجد " المستعملة في الجدة والوجد والوجود.[1]

وكل هذه الأقوال تدور حول معنى متقارب، وهو أن التفسير عبارة عن كشف معاني الألفاظ، والتأويل بيان معاني الجمل والآيات بصورة مجملة.

ولعل تعريف الرَّاغِب الأصفهاني للتَّفْسِير، وَالتَّأْوِيلِ أَعَمُّ وأشمل وأدق مِنَ غيره.

وَقَالَ أبو عبيدة، والمبرد، وابْنُ الْأَعرَابِي: التَّفْسِير والتأويل، بمعْنَى وَاحِد.

١ - تفسير الراغب الأصفهاني (١/ ١١)

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

فَضْلُ عِلْمِ التَّفْسِيرِ وَأَهَمِّيَّتُهُ

لعلمِ التَّفْسِيرِ فَضْلٌ عظيم جدًا، فبه يعرفُ المرادُ من كلامِ اللهِ تعالى، وبه تستنبط معني القرآن، وهو السبيل لتدبر كلام العزيز الحميد، وقد كان للصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينِ ومن بعدهم عناية عظيمة بمدارسة كلام الله تعالى، فَمِنْ ذَلِكَ ما ثبت عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: "لَمْ أَزَلْ حَرِيصًا عَلَى أَنْ أَسْأَلَ عُمَرَ بْنَ الخَطَّابِ، عَنِ المَرْأَتَيْنِ مِنْ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، اللَّتَيْنِ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾، [التحريم: ٤] حَتَّى حَجَّ وَحَجَجْتُ مَعَهُ، وَعَدَلَ وَعَدَلْتُ مَعَهُ بِإِدَاوَةٍ فَتَبَرَّزَ، ثُمَّ جَاءَ فَسَكَبْتُ عَلَى يَدَيْهِ مِنْهَا فَتَوَضَّأَ، فَقُلْتُ لَهُ: يَا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ مَنِ المَرْأَتَانِ مِنْ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، اللَّتَانِ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾؟ قَالَ: وَاعَجَبًا لَكَ يَا ابْنَ عَبَّاسٍ، هُمَا عَائِشَةُ وَحَفْصَةُ".[1]

وممَّا يدل على شَرَفِ علم التَّفْسِيرِ أن اللهَ تَعَالَى قَالَ: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً﴾. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ﴾ الْمَعْرِفَةُ بِالْقُرْآنِ نَاسِخُهُ وَمَنْسُوخُهُ وَمُحْكَمُهُ وَمُتَشَابِهُهُ وَمُقَدَّمُهُ وَمُؤَخَّرُهُ وَحَلَالُهُ وَحَرَامُهُ وَأَمْثَالُهُ.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ﴾.

قَالَ عَمْرُو بْنُ مُرَّةَ: مَا مَرَرْتُ بِآيَةٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ لَا أَعْرِفُهَا إِلَّا أَحْزَنَتْنِي لِأَنِّي سَمِعْتُ اللَّهَ يَقُولُ: ﴿وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ﴾.

وَقَالَ الْحَسَنُ: مَا أَنْزَلَ اللَّهُ آيَةً إِلَّا وَهُوَ يُحِبُّ أَنْ تُعْلَمَ فِيمَ أُنْزِلَتْ وَمَا أَرَادَ بِهَا.[2]

وممَّا يدل على شَرَفِ علم التَّفْسِيرِ أَنَّ مَوْضُوعَهُ هو كَلَامُ اللَّهِ تَعَالَى الَّذِي هُوَ يَنْبُوعُ كُلِّ حِكْمَةٍ وَمَعْدِنُ كُلِّ فَضِيلَةٍ فِيهِ نبأ ما قبلكم وخبر مَا بَعْدَكُمْ وَحُكْمُ مَا بَيْنَكُمْ لَا يَخْلُقُ عَلَى كَثْرَةِ الرَّدِّ وَلَا تَنْقَضِي عَجَائِبُهُ وَأَمَّا مِنْ جِهَةِ الْغَرَضِ فَلِأَنَّ الْغَرَضَ مِنْهُ هُوَ الِاعْتِصَامُ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى وَالْوُصُولُ إِلَى السَّعَادَةِ الْحَقِيقِيَّةِ الَّتِي لَا تَفْنَى وَأَمَّا مِنْ جِهَةِ شِدَّةِ الْحَاجَةِ فَلِأَنَّ كُلَّ كَمَالٍ دِينِيٍّ أَوْ دُنْيَوِيٍّ عَاجِلِيٍّ أَوْ آجِلِيٍّ مُفْتَقِرٌ إِلَى الْعُلُومِ الشَّرْعِيَّةِ وَالْمَعَارِفِ الدِّينِيَّةِ وَهِيَ مُتَوَقِّفَةٌ عَلَى الْعِلْمِ بِكِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى.

لذلك اجتهد الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُم في تعلم العلوم عامة، والتفسير خاصة لصلته بِكِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى.

---

١ - رواه البخاري- كِتَابُ النِّكَاحِ، بَابُ مَوْعِظَةِ الرَّجُلِ ابْنَتَهُ لِحَالِ زَوْجِهَا، حديث رقم: ٥١٩١، ومسلم- كِتَابُ الطَّلَاقِ، بَابٌ فِي الْإِيلَاءِ، وَاعْتِزَالِ النِّسَاءِ، وَتَخْيِيرِهِنَّ وَقَوْلِهِ تَعَالَى: {وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ} [التحريم: ٤]، حديث رقم: ١٤٧٩

٢ - المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (١/ ٤٠)، وتفسير القرطبي (١/ ٢٦)

فعَنْ مَسْرُوقٍ، قَالَ: قَالَ عَبْدُ اللَّهِ يعني ابْنَ مَسْعُوْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وَاللَّهِ الَّذِي لاَ إِلَهَ غَيْرُهُ، مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ إِلَّا أَنَا أَعْلَمُ أَيْنَ أُنْزِلَتْ، وَلاَ أُنْزِلَتْ آيَةٌ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ إِلَّا أَنَا أَعْلَمُ فِيمَ أُنْزِلَتْ، وَلَوْ أَعْلَمُ أَحَدًا أَعْلَمَ مِنِّي بِكِتَابِ اللَّهِ، تُبَلِّغُهُ الإِبِلُ لَرَكِبْتُ إِلَيْهِ».[1]

وَقَالَ شَقِيقُ بْنُ سَلَمَةَ: خَطَبَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ فَقَالَ: «وَاللَّهِ لَقَدْ أَخَذْتُ مِنْ فِي رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِضْعًا وَسَبْعِينَ سُورَةً، وَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمَ أَصْحَابُ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنِّي مِنْ أَعْلَمِهِمْ بِكِتَابِ اللَّهِ، وَمَا أَنَا بِخَيْرِهِمْ»، قَالَ شَقِيقٌ: فَجَلَسْتُ فِي الحِلَقِ أَسْمَعُ مَا يَقُولُونَ، فَمَا سَمِعْتُ رَادًّا يَقُولُ غَيْرَ ذَلِكَ.[2]

وعن عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه ذَكَرَ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ وَوَصْفَهُ بِالْعِلْمِ، فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ: جُعِلْتُ فداءك! تصف جابر بِالْعِلْمِ وَأَنْتَ أَنْتَ! فَقَالَ: إِنَّهُ كَانَ يَعْرِفُ تَفْسِيرَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرادُّكَ إِلى مَعادٍ﴾.[3]

وقال الشعبي: رَحَلَ مَسْرُوقٌ إِلَى الْبَصْرَةِ فِي تَفْسِيرِ آيَةٍ، فَقِيلَ لَهُ: إِنَ الَّذِي يُفَسِّرُهَا رَحَلَ إِلَى الشَّأْمِ: فَتَجَهَّزَ وَرَحَلَ إِلَى الشَّأْمِ حَتَّى عَلِمَ تَفْسِيرِهَا.[4]

وَقَالَ مُجَاهِدٌ: أَحَبُّ الْخَلْقِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى أَعْلَمُهُمْ بِمَا أُنْزِلَ.[5]

وَقَالَ عِكْرِمَةُ فِي قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهاجِراً إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾، طلبت اسمَ هذا الرجلِ الذي خَرَجَ مِنْ بَيْتِهِ مُهاجِراً إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ أَرْبَعَ عَشْرَةَ سَنَةً حَتَّى وَجَدْتُهُ.

قَالَ ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ: هُوَ ضَمْرَةُ بْنُ حَبِيبٍ.[6]

---

١ - رواه البخاري- كِتَابُ فَضَائِلِ القُرْآنِ، بَابُ القُرَّاءِ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حديث رقم: ٥٠٢٢، ومسلم- كتاب فَضَائِلِ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُمْ، بَابُ مِنْ فَضَائِلِ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ وَأُمِّهِ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُمَا، حديث رقم: ٢٤٦٣

٢ - رواه البخاري- كِتَابُ فَضَائِلِ القُرْآنِ، بَابُ القُرَّاءِ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حديث رقم: ٥٠٠٠، ومسلم- كتاب فَضَائِلِ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُمْ، بَابُ مِنْ فَضَائِلِ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ وَأُمِّهِ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُمَا، حديث رقم: ٢٤٦٢

٣ - سورة القصص: الآية/ ٨٥

٤ - المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (١/ ٤٠)، وتفسير القرطبي (١/ ٢٦)

٥ - المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (١/ ٤٠)، وتفسير القرطبي (١/ ٢٦)

٦ - تفسير القرطبي (١/ ٢٦)

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وَقَالَ إِيَاسُ بْنُ مُعَاوِيَةَ: مَثَلُ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ وَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ تَفْسِيرَهُ، كَمَثَلِ قَوْمٍ جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ مَلِكِهِمْ لَيْلًا وَلَيْسَ عِنْدَهُمْ مِصْبَاحٌ، فَتَدَاخَلَتْهُمْ رَوْعَةٌ وَلَا يَدْرُونَ مَا فِي الْكِتَابِ، وَمَثَلُ الَّذِي يَعْرِفُ التَّفْسِيرَ كَمَثَلِ رَجُلٍ جَاءَهُمْ بِمِصْبَاحٍ فَقَرَءُوا ما في الكتاب.[1]

١ – المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (١/ ٤٠)، تفسير القرطبي (١/ ٢٦)

سُورَةُ الْفَاتِحَةِ

سُورَةُ الْفَاتِحَةِ هي أول سورة في ترتيب سور القرآن وهي أعظم سورة في القرآن، ولعظيم شأنها نزلت مرتين، مرة بمكة، ومرة بالمدينة على قول بعض العلماء.

فَضْلُ سُورَةِ الْفَاتِحَةِ:

لم يرد في فضل سُورَةٍ من سُوَرِ القُرْآنِ مثلمَا ورد في فضلِ سُورَةِ الْفَاتِحَةِ، فهِيَ أَعْظَمُ سُورَةٍ فِي القُرْآنِ بنَصِّ كَلَامِ النبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فعَنْ أَبِي سَعِيدِ بْنِ المُعَلَّى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كُنْتُ أُصَلِّي فِي المَسْجِدِ، فَدَعَانِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَلَمْ أُجِبْهُ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي كُنْتُ أُصَلِّي، فَقَالَ: «أَلَمْ يَقُلِ اللَّهُ: ﴿اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾». [الأنفال: ٢٤]، ثُمَّ قَالَ لِي: «لَأُعَلِّمَنَّكَ سُورَةً هِيَ أَعْظَمُ السُّوَرِ فِي القُرْآنِ، قَبْلَ أَنْ تَخْرُجَ مِنَ المَسْجِدِ». ثُمَّ أَخَذَ بِيَدِي، فَلَمَّا أَرَادَ أَنْ يَخْرُجَ، قُلْتُ لَهُ: «أَلَمْ تَقُلْ لَأُعَلِّمَنَّكَ سُورَةً هِيَ أَعْظَمُ سُورَةٍ فِي القُرْآنِ»، قَالَ: ﴿الحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ﴾، «هِيَ السَّبْعُ المَثَانِي، وَالقُرْآنُ العَظِيمُ الَّذِي أُوتِيتُهُ».[1]

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَرَجَ عَلَى أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَا أُبَيُّ» وَهُوَ يُصَلِّي، فَالتَفَتَ أُبَيٌّ وَلَمْ يُجِبْهُ، وَصَلَّى أُبَيٌّ فَخَفَّفَ، ثُمَّ انْصَرَفَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَعَلَيْكَ السَّلَامُ، مَا مَنَعَكَ يَا أُبَيُّ أَنْ تُجِيبَنِي إِذْ دَعَوْتُكَ» فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي كُنْتُ فِي الصَّلَاةِ، قَالَ: " أَفَلَمْ تَجِدْ فِيمَا أُوحِيَ إِلَيَّ أَنْ ﴿اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤] " قَالَ: بَلَى وَلَا أَعُودُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ، قَالَ: «تُحِبُّ أَنْ أُعَلِّمَكَ سُورَةً لَمْ يَنْزِلْ فِي التَّوْرَاةِ وَلَا فِي الإِنْجِيلِ وَلَا فِي الزَّبُورِ وَلَا فِي الفُرْقَانِ مِثْلُهَا»؟ قَالَ: نَعَمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «كَيْفَ تَقْرَأُ فِي الصَّلَاةِ»؟ قَالَ: فَقَرَأَ أُمَّ القُرْآنِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا أُنْزِلَتْ فِي التَّوْرَاةِ وَلَا فِي الْإِنْجِيلِ وَلَا فِي الزَّبُورِ وَلَا فِي الفُرْقَانِ مِثْلُهَا، وَإِنَّهَا سَبْعٌ مِنَ المَثَانِي وَالقُرْآنُ الْعَظِيمُ الَّذِي أُعْطِيتُهُ».[2]

---

١ – رواه البخاري– كِتَابُ تَفْسِيرِ القُرْآنِ، بَابُ مَا جَاءَ فِي فَاتِحَةِ الكِتَابِ، حديث رقم: ٤٤٧٤

٢ – رواه التِّرْمِذِيُّ– أَبْوَابُ فَضَائِلِ الْقُرْآنِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بَابُ مَا جَاءَ فِي فَضْلِ فَاتِحَةِ الكِتَابِ، حديث رقم: ٢٨٧٥ ، وقال: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وهي نورٌ من الله تعالى، ومنحةٌ ربانيةٌ للنَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولهذه الأمةِ، ولذا نَزَلَ مَلَكٌ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ لَمْ يَنْزِلْ قَطُّ إِلَّا لِيُبَشِّرَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بها وبخَوَاتِيمِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ؛ فَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: بَيْنَمَا جِبْرِيلُ قَاعِدٌ عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَمِعَ نَقِيضًا مِنْ فَوْقِهِ، فَرَفَعَ رَأْسَهُ، فَقَالَ: «هَذَا بَابٌ مِنَ السَّمَاءِ فُتِحَ الْيَوْمَ لَمْ يُفْتَحْ قَطُّ إِلَّا الْيَوْمَ، فَنَزَلَ مِنْهُ مَلَكٌ، فَقَالَ: هَذَا مَلَكٌ نَزَلَ إِلَى الْأَرْضِ لَمْ يَنْزِلْ قَطُّ إِلَّا الْيَوْمَ، فَسَلَّمَ، وَقَالَ: أَبْشِرْ بِنُورَيْنِ أُوتِيتَهُمَا لَمْ يُؤْتَهُمَا نَبِيٌّ قَبْلَكَ: فَاتِحَةُ الْكِتَابِ، وَخَوَاتِيمُ سُورَةِ الْبَقَرَةِ، لَنْ تَقْرَأَ بِحَرْفٍ مِنْهُمَا إِلَّا أُعْطِيتَهُ».[1]

ومعنى: «سَمِعَ نَقِيضًا»: أي سَمِعَ صوتًا كصوتِ البابِ إذا فُتِحَ.

وَمنْ فضلها أنها تَضَمَّنَت ما في الْقُرْآنِ من مَعَانٍ، فكل مَا في الْقُرْآنِ قد أُجْمِلَ فيها، وحوته آياتها؛ فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أُمُّ القُرْآنِ هِيَ السَّبْعُ المَثَانِي وَالقُرْآنُ العَظِيمُ».[2]

بل إنها تَضَمَّنَت ما فِي التَّوْرَاةِ، وَالْإِنْجِيلِ، وَالْقُرْآنِ، و لم تنزل سورةٌ لَا فِي التَّوْرَاةِ، وَلَا فِي الْإِنْجِيلِ، وَلَا فِي الْقُرْآنِ مِثْلَ الفاتحة في الفضلِ والمنزلةِ؛ فعَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِي التَّوْرَاةِ، وَلَا فِي الْإِنْجِيلِ، وَلَا فِي الْقُرْآنِ مِثْلَ أُمِّ الْكِتَابِ، وَهِيَ السَّبْعُ الْمَثَانِي».[3]

وهي كذلك شفاءٌ لأمراضِ النفوسِ، وأدواءِ القلوبِ، وعلاجٌ لعللِ الأبدانِ، بها يُستَنْزَلُ الشفاءُ، وتستجلبُ العافيةُ؛ فَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ نَاسًا مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانُوا فِي سَفَرٍ، فَمَرُّوا بِحَيٍّ مِنْ أَحْيَاءِ الْعَرَبِ، فَاسْتَضَافُوهُمْ فَلَمْ يُضِيفُوهُمْ، فَقَالُوا لَهُمْ: هَلْ فِيكُمْ رَاقٍ؟ فَإِنَّ سَيِّدَ الْحَيِّ لَدِيغٌ أَوْ مُصَابٌ، فَقَالَ رَجُلٌ مِنْهُمْ: نَعَمْ، فَأَتَاهُ فَرَقَاهُ بِفَاتِحَةِ الْكِتَابِ، فَبَرَأَ الرَّجُلُ، فَأُعْطِيَ قَطِيعًا مِنْ غَنَمٍ، فَأَبَى أَنْ يَقْبَلَهَا، وَقَالَ: حَتَّى أَذْكُرَ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَتَى

---

١ - رواه مسلم- كِتَابُ صَلَاةِ الْمُسَافِرِينَ وَقَصْرِهَا، بَابُ فَضْلِ الْفَاتِحَةِ، وَخَوَاتِيمِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ، وَالْحَثِّ عَلَى قِرَاءَةِ الْآيَتَيْنِ مِنْ آخِرِ الْبَقَرَةِ، حديث رقم: ٨٠٦

٢ - رواه البخاري- كِتَابُ تَفْسِيرِ القُرْآنِ، بَابُ قَوْلِهِ: {وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ المَثَانِي وَالقُرْآنَ العَظِيمَ} [الحجر: ٨٧] ، حديث رقم: ٤٧٠٤

٣ - رواه ابن خزيمة في صحيحه- كِتَابُ الصَّلَاةِ، بَابُ فَضْلِ قِرَاءَةِ فَاتِحَةِ الْكِتَابِ، مَعَ الْبَيَانِ أَنَّهَا السَّبْعُ الْمَثَانِي، وَأَنَّ اللَّهَ لَمْ يُنْزِلْ فِي التَّوْرَاةِ وَلَا فِي الْإِنْجِيلِ وَلَا فِي الْقُرْآنِ مِثْلَهَا، حديث رقم: ٥٠١، وقال الأعظمي: إسناده صحيح

النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ وَاللهِ مَا رَقَيْتُ إِلَّا بِفَاتِحَةِ الْكِتَابِ فَتَبَسَّمَ وَقَالَ: «وَمَا أَدْرَاكَ أَنَّهَا رُقْيَةٌ؟» ثُمَّ قَالَ: «خُذُوا مِنْهُمْ، وَاضْرِبُوا لِي بِسَهْمٍ مَعَكُمْ».[1]

وبها قوامُ صلاةِ العبادِ، وتغني عن غيرها ولا يغني عنها سواها؛ فَعَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا صَلَاةَ لِمَنْ لَمْ يَقْتَرِئْ بِأُمِّ الْقُرْآنِ».[2]

أَسْمَاءُ سُورَةِ الْفَاتِحَةِ:

ورد لسُورَةِ الْفَاتِحَةِ أسماء عدة، ولاشك أن كثرة الأسماء تدل على شرف المسمى.

ومن هذه الأسماء:

الأول: (فاتحة الكتاب).

سميت بذلك لأن بها افتتح القرآن، وبها تفتتح كتابة المصاحف.

الثاني: (سورة الْحَمْدِ).

سميت بذلك لافتتاحها بالحمد لله.

الثالث: (أُمُّ الْقُرْآنِ).

سميت بذلك لأنها أصل القرآن وأم كل شيء أصله، وَيُبْدَأُ بِقِرَاءَتِهَا فِي الصَّلَاةِ وَقِيلَ: إِنَّمَا سُمِّيَتْ بِذَلِكَ لِرُجُوعِ مَعَانِي الْقُرْآنِ كُلِّهِ إِلَى مَا تَضَمَّنَتْهُ.

وهذه تسميةُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لها؛ فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «مَنْ صَلَّى صَلَاةً لَمْ يَقْرَأْ فِيهَا بِأُمِّ الْقُرْآنِ فَهِيَ خِدَاجٌ».[3]

---

١ - رواه البخاري- كِتَاب الْإِجَارَةِ، بَاب مَا يُعْطَى فِي الرُّقْيَةِ عَلَى أَحْيَاءِ الْعَرَبِ بِفَاتِحَةِ الْكِتَابِ، حديث رقم: ٢١١٥، رواه مسلم- كِتَابُ السَّلَامِ، بَابُ جَوَازِ أَخْذِ الْأُجْرَةِ عَلَى الرُّقْيَةِ بِالْقُرْآنِ وَالْأَذْكَارِ، حديث رقم: ٢٢٠١

٢ - رواه البخاري- كِتَابُ الأَذَانِ، بَابُ وُجُوبِ القِرَاءَةِ لِلْإِمَامِ وَالمَأْمُومِ فِي الصَّلَوَاتِ كُلِّهَا، فِي الحَضَرِ وَالسَّفَرِ، وَمَا يُجْهَرُ فِيهَا وَمَا يُخَافَتُ، حديث رقم: ٧٥٦، ومسلم- كِتَابُ الصَّلَاةِ، بَابُ وُجُوبِ قِرَاءَةِ الْفَاتِحَةِ فِي كُلِّ رَكْعَةٍ، وَإِنَّهُ إِذَا لَمْ يُحْسِنِ الْفَاتِحَةَ، وَلَا أَمْكَنَهُ تَعَلُّمُهَا قَرَأَ مَا تَيَسَّرَ لَهُ مِنْ غَيْرِهَا، حديث رقم: ٣٩٤

٣ - رواه مسلم- كِتَابُ الصَّلَاةِ، بَابُ وُجُوبِ قِرَاءَةِ الْفَاتِحَةِ فِي كُلِّ رَكْعَةٍ، وَإِنَّهُ إِذَا لَمْ يُحْسِنِ الْفَاتِحَةَ، وَلَا أَمْكَنَهُ تَعَلُّمُهَا قَرَأَ مَا تَيَسَّرَ لَهُ مِنْ غَيْرِهَا، حديث رقم: ٣٩٥

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الرابع: (أُمُّ الْكِتَاب).

قَالَ الْبُخَارِيُّ فِي أَوَّلِ كِتَاب تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ: بَاب مَا جَاءَ فِي فَاتِحَةِ الْكِتَاب، وَسُمِّيَتْ أُمَّ الْكِتَاب لأَنَّهُ يُبْدَأُ بِكِتَابَتِهَا فِي الْمَصَاحِفِ وَيُبْدَأُ بِقِرَاءَتِهَا فِي الصَّلَاةِ.[1]

وقد ورد تسميتها بأُمِّ الْكِتَاب النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فهو الذي سماها بذلك، فعَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِي التَّوْرَاةِ، وَلَا فِي الْإِنْجِيلِ، وَلَا فِي الْقُرْآنِ مِثْلَ أُمِّ الْكِتَاب، وَهِيَ السَّبْعُ الْمَثَانِي».[2]

وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَهْطًا، مِنْ أَصْحَاب النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ انْطَلَقُوا فِي سَفْرَةٍ سَافَرُوهَا فَنَزَلُوا بِحَيٍّ مِنْ أَحْيَاءِ الْعَرَب فَقَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّ سَيِّدَنَا لُدِغَ فَهَلْ عِنْدَ أَحَدٍ مِنْكُمْ شَيْءٌ يَنْفَعُ صَاحِبَنَا، فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ: نَعَمْ وَاللَّهِ إِنِّي لأَرْقِي وَلَكِنِ اسْتَضَفْنَاكُمْ فَأَبَيْتُمْ أَنْ تُضَيِّفُونَا، مَا أَنَا بِرَاقٍ حَتَّى تَجْعَلُوا لِي جُعْلاً، فَجَعَلُوا لَهُ قَطِيعًا مِنَ الشَّاءِ، فَأَتَاهُ فَقَرَأَ عَلَيْهِ أُمَّ الْكِتَاب وَيَتْفُلُ حَتَّى بَرَأَ كَأَنَّمَا أُنْشِطَ مِنْ عِقَالٍ، قَالَ: فَأَوْفَاهُمْ جُعْلَهُمُ الَّذِي صَالَحُوهُمْ عَلَيْهِ فَقَالُوا: اقْتَسِمُوا فَقَالَ: الَّذِي رَقَى لاَ تَفْعَلُوا حَتَّى نَأْتِيَ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَنَسْتَأْمِرَهُ فَغَدَوْا عَلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَذَكَرُوا لَهُ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مِنْ أَيْنَ عَلِمْتُمْ أَنَّهَا رُقْيَةٌ، أَحْسَنْتُمْ، اقْتَسِمُوا، وَاضْرِبُوا لِي مَعَكُمْ بِسَهْمٍ».[3]

وعَنْ أَبِي سَعِيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «فِي كُلِّ صَلَاةٍ قِرَاءَةُ قُرْآنِ أُمِّ الْكِتَاب فَمَا زَادَ».[4]

الخامس: (الْكَافِيَةُ).

سَمَّاهَا يَحْيَى بْنُ أَبِي كَثِيرٍ بذلك، وسميت بالْكَافِيَة؛ لِأَنَّهَا تَكْفِي عَمَّا عَدَاهَا وَلَا يَكْفِي مَا سِوَاهَا عَنْهَا،وَلِأَنَّهَا تَكْفِي عن غيرها في الصلاة ولا يكفي عنها غيرها.

---

١ - صحيح البخاري- كِتَاب تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ (١٣/ ٣٨٥)

٢ - رواه ابن خزيمة في صحيحه- كِتَابُ الصَّلَاةِ، بَابُ فَضْلِ قِرَاءَةِ فَاتِحَةِ الْكِتَاب، مَعَ الْبَيَانِ أَنَّهَا السَّبْعُ الْمَثَانِي، وَأَنَّ اللَّهَ لَمْ يُنْزِلْ فِي التَّوْرَاةِ وَلَا فِي الْإِنْجِيلِ وَلَا فِي الْقُرْآنِ مِثْلَهَا، حديث رقم: ٥٠١، وقال الأعظمي: إسناده صحيح

٣ - الحديث رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ وتقدم تخريجه، وهذه رواية أبي داود- كتاب الطب، باب كَيْفَ الرُّقَى، حديث رقم: ٣٩٠٢

٤ - رواه ابن أبي شيبة في المصنف- كِتَابُ الصَّلَوات، باب مَنْ قَالَ لَا صَلَاةَ إِلَّا بِفَاتِحَةِ الْكِتَاب وَمَنْ قَالَ وَشَيْءٍ مَعَهَا،حديث رقم: ٣٦٢٣

السادس: (السَّبْعُ الْمَثَانِي).

سميت بذلك لأنها تثنى في الصلاة ويقرأ بها في كل ركعة، وهذه التسمية وردت في كتاب الله تعالى؛ قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾.[1]

اختلف العلماء في تفسير السَّبْعِ الْمَثَانِي على قولين:

القول الأول:

هي السبع الطُّوَل.

ويعنون بها: البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنعام، والأعراف، ويونس. وهو قول ابن مسعود، وابن عمر، وابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبير، والضحاك وغيرهم.

القول الثاني:

المراد بالسَّبْعِ الْمَثَانِي فاتحة الكتاب؛ لأنها تثنى في الصلاة ويقرأ بها في كل ركعة،

وهو قول عمر، وعلي، وابن مسعود، وَابْنِ عَبَّاسٍ. وبه قال إبراهيم النخعي، وعبد الله بن عبيد بن عُمَيْر، وابن أبي مليكة، وشَهْر بن حَوْشَب، والحسن البصري، ومجاهد، وقتادة.

فعَنْ عَبْدِ خَيْرٍ قَالَ سُئِلَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ السَّبْعِ الْمَثَانِي فَقَالَ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ فَقِيلَ لَهُ إِنَّمَا هِيَ سِتُّ آيَاتٍ فَقَالَ ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ آيَةٌ.[2]

وَعَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي السَّبْعِ الْمَثَانِي قَالَ: هِيَ فَاتِحَةُ الْكِتَابِ قَرَأَهَا ابْنُ عَبَّاسٍ بِ (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ) سَبْعًا. قَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ فَقُلْتُ لأَبِي أَخْبَرَكَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ عَنِ ابْنِ

١- سورة الحجر: الآية/ ٨٧

٢ - رواه الدارقطني- حديث رقم: ١١٩٤، والبيهقي في السنن الكبرى- كتاب الصلاة، باب الدَّلِيلِ عَلَى أَنَّ (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ) آيَةٌ تَامَّةٌ مِنَ الْفَاتِحَةِ، حديث رقم: ٢٤٨٤

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَالَ: (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ) آيَةٌ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ؟ قَالَ: نَعَمْ. ثُمَّ قَالَ: قَرَأَهَا ابْنُ عَبَّاسٍ ب (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ) فِي الرَّكْعَتَيْنِ جَمِيعًا.[1]

والراجح القول الثاني أن المراد السَّبْعِ الْمَثَانِي فاتحة الكتاب؛ وذلك لأن النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سماها بذلك وقد تقدم حديثُ أَبِي سَعِيدِ بْنِ المعَلَّى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وفيه: «هِيَ السَّبْعُ المَثَانِي، وَالقُرْآنُ العَظِيمُ الَّذِي أُوتِيتُهُ».[2]

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أُمُّ القُرْآنِ هِيَ السَّبْعُ المَثَانِي وَالقُرْآنُ العَظِيمُ».[3]

السابع: (سورة الصَّلَاةِ).

سميت بذلك؛ لما ثبت عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «مَنْ صَلَّى صَلَاةً لَمْ يَقْرَأْ فِيهَا بِأُمِّ الْقُرْآنِ فَهِيَ خِدَاجٌ» ثَلَاثًا غَيْرُ تَمَامٍ. فَقِيلَ لِأَبِي هُرَيْرَةَ: إِنَّا نَكُونُ وَرَاءَ الْإِمَامِ؟ فَقَالَ: «اقْرَأْ بِهَا فِي نَفْسِكَ»؛ فإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «قَالَ اللهُ تَعَالَى: قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، قَالَ اللهُ تَعَالَى: حَمِدَنِي عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ: ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾، قَالَ اللهُ تَعَالَى: أَثْنَى عَلَيَّ عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾، قَالَ: مَجَّدَنِي عَبْدِي – وَقَالَ مَرَّةً فَوَّضَ إِلَيَّ عَبْدِي – فَإِذَا قَالَ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ قَالَ: هَذَا بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ قَالَ: هَذَا لِعَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ».[4]

١- رواه البيهقي في السنن الكبرى- كتاب الصلاة، باب افْتِتَاحِ الْقِرَاءَةِ فِي الصَّلَاةِ ب (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ) وَالْجَهْرُ بِهَا إِذَا جَهَرَ بِالْفَاتِحَةِ، حديث رقم: ٢٤٧٩

٢ – تقدم تخريجه.

٣ – رواه البخاري- كِتَابُ تَفْسِيرِ القُرْآنِ، بَابُ قَوْلِهِ: {وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ المَثَانِي وَالقُرْآنَ العَظِيمَ} [الحجر: ٨٧]، حديث رقم: ٤٧٠٤

٤ – رواه مسلم- كِتَابُ الصَّلَاةِ، بَابُ وُجُوبِ قِرَاءَةِ الْفَاتِحَةِ فِي كُلِّ رَكْعَةٍ، وَإِنَّهُ إِذَا لَمْ يُحْسِنِ الْفَاتِحَةَ، وَلَا أَمْكَنَهُ تَعَلُّمُهَا قَرَأَ مَا تَيَسَّرَ لَهُ مِنْ غَيْرِهَا، حديث رقم: ٣٩٥

الثامن: (أَسَاسُ الْقُرْآنِ).

سميت بذلك لأنها تجمع ما في القرآن وَسَمَّاهَا بذلك ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

روى الثعلبي عن وكيع قال: إن رجلا أتى الشعبي فشكا إليه وجع الخاصرة، فقال: عليك بأَسَاسِ الْقُرْآنِ. قال: وما أَسَاسُ الْقُرْآنِ؟ قال: فاتحة الكتاب. قال الشعبي: سمعت عَبْدَ اللّهِ بْنَ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا غير مرّة يقول: إن لكل شيء أساسًا، وَأَسَاسُ الكتبِ الْقُرْآنُ، وَأَسَاسُ الْقُرْآنِ الفاتحة.[1]

التاسع: (الْوَافِيَةُ).

سَمَّاهَا بِذَلِكَ سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ؛ لأنها لا تقسم في القراءة في الصلاة كما يقسم غيرها من السور، فلو قرأ من سائر السور نصفها في ركعة ونصفها الآخر في ركعة لأجزأ ولو نصفت الفاتحة في ركعتين لم تصح الصلاة.

العاشر: (الشِّفَاءُ).

وقد ورد هذا الاسم في حديث رواه الدارمي والبيهقي عَنْ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ عُمَيْرٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلى الله عَليهِ وسَلم: «فِي فَاتِحَةُ الْكِتَابِ شِفَاءٌ مِنْ كُلِّ دَاءٍ».[2]

---

١ - الكشف والبيان عن تفسير القرآن (١ / ١٢٨)

٢ - رواه الدارمي- كِتَابُ فَضَائِلِ القُرآنِ، بابُ فَضْلِ فَاتِحَةِ الْكِتَابِ، حديث رقم: ٣٦٩١، والبيهقي في شعب الإيمان- تعظيم القرآن، فصل في فضائل السور والآيات، حديث رقم: ٢١٥٤، وفي سنده ضعف لانقطاعه

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

من الأحكامِ الفقهيةِ المتعلقةِ بالفَاتِحَةِ أن الصَلاَةَ لا تصحُ بدونِهَا.

فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «مَنْ صَلَّى صَلَاةً لَمْ يَقْرَأْ فِيهَا بِأُمِّ الْقُرْآنِ فَهِيَ خِدَاجٌ».[1]

وَعَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «لاَ صَلاَةَ لِمَنْ لَمْ يَقْرَأْ بِفَاتِحَةِ الكِتَابِ».[2]

وهذه السورة هي أعظم سورة في كتاب الله تعالى، وذلك لأنها اشتملت على ما في كتاب الله تعالى، ففي هذه السورة العظيمة أنواع التوحيد الثلاثة، توحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية، وتوحيد الأسماء والصفات.

فتوحيد الربوبية في قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

وتوحيد الألوهية في قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

وتوحيد الأسماء والصفات في قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

وفيها كذلك تقسيم الناس إلى صنفين لا ثالث لهما أهل الإيمان الذين هداهم الله تعالى لتوحيده وعبادته، وإلى كفار مغضوب عليهم قد ضلوا سبيل الرشاد، كما في قوله تعالى: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ﴾.

وفيها كذلك جزاء المؤمنين الموحدين، وأنهم أهل النعيم، الذين فازوا برضوان الله تعالى، وفيها جزاء المعاندين المكذبين وأنهم قد باؤوا بسخط الله تعالى وغضبه، لتنكبهم الصِرَاطَ، وبعدهم عن الهدى والرشاد.

---

١ - رواه مسلم- كِتَابُ الصَّلَاةِ، بَابُ وُجُوبِ قِرَاءَةِ الْفَاتِحَةِ فِي كُلِّ رَكْعَةٍ، وَإِنَّهُ إِذَا لَمْ يُحْسِنِ الْفَاتِحَةَ، وَلَا أَمْكَنَهُ تَعَلُّمُهَا قَرَأَ مَا تَيَسَّرَ لَهُ مِنْ غَيْرِهَا، حديث رقم: ٣٩٥

٢ - تقدم تخريجه.

الكَلَامُ عَنْ الِاسْتِعَاذَةِ

يُسْتَحَبُّ لِمَنْ أَرَادَ قِرَاءَةَ الْقُرْآنِ أَنَّ يستَعِيذَ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ؛ لقول الله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾.[1]

مَحَلُّ الِاسْتِعَاذَةِ:

وَمَحَلُّ الِاسْتِعَاذَةِ قَبْلَ الْقِرَاءَةِ، كما ثبت ذلك عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ كَبَّرَ، ثُمَّ يَقُولُ: «سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ وَتَبَارَكَ اسْمُكَ، وَتَعَالَى جَدُّكَ، وَلَا إِلَهَ غَيْرَكَ»، ثُمَّ يَقُولُ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» ثَلَاثًا، ثُمَّ يَقُولُ: «اللَّهُ أَكْبَرُ كَبِيرًا» ثَلَاثًا، «أَعُوذُ بِاللَّهِ السَّمِيعِ الْعَلِيمِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ مِنْ هَمْزِهِ، وَنَفْخِهِ، وَنَفْثِهِ».[2]

وَعَنِ ابْنِ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ دَخَلَ فِي الصَّلَاةِ، قَالَ: «اللَّهُ أَكْبَرُ كَبِيرًا، اللَّهُ أَكْبَرُ كَبِيرًا» ثَلَاثًا، «الْحَمْدُ لِلَّهِ كَثِيرًا، الْحَمْدُ لِلَّهِ كَثِيرًا» ثَلَاثًا، «سُبْحَانَ اللَّهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا» ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ، مِنْ هَمْزِهِ، وَنَفْخِهِ، وَنَفْثِهِ».[3]

قَالَ عَمْرٌو يعني: ابْنَ مُرَّةَ: هَمْزُهُ: الْمُوتَةُ، وَنَفْثُهُ: الشِّعْرُ، وَنَفْخُهُ: الْكِبْرُ.

فالمراد بقوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ.....﴾، إِذَا أَرَدْتَ الْقِرَاءَةَ، ونظير هذا قوله تعالى: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ﴾.[4]

فإن المراد بقوله: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ﴾، إِذَا أَرَدْتُمُ الْقِيَامَ، وليس المراد من الآية الوضوء بعد الفراغ من الصلاة كما هو المتبادر، كذلك هنا ليس المراد الاستعاذة بعد الفراغ من القراءة، وإن روي ذلك عن بعض العلماء، لأن السنة بينت محل الاستعاذة فيتعين المصير إليه.

---

١ – سورة النَّحْلِ: الآية/ ٩٨

٢ – رواه أحمد– حديث رقم: ١١٤٧٣، وأبو داود– كِتَاب الصَّلَاةِ، أَبْوَابُ تَفْرِيعِ اسْتِفْتَاحِ الصَّلَاةِ، بَابُ مَنْ رَأَى الِاسْتِفْتَاحَ بِسُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ، حديث رقم: ٧٧٥، والترمذي– أَبْوَابُ الصَّلَاةِ عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بَابُ مَا يَقُولُ عِنْدَ افْتِتَاحِ الصَّلَاةِ، حديث رقم: ٢٤٢، بسند صحيح

٣ – رواه ابن ماجه: كِتَابُ إِقَامَةِ الصَّلَاةِ، وَالسُّنَّةُ فِيهَا، بَابُ الِاسْتِعَاذَةِ فِي الصَّلَاةِ، حديث رقم: ٨٠٧، وفي سند ضعف

٤ – سورة الْمَائِدَةِ: الآية/ ٦

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وعلى هذا عمل القراء من عهد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى يومنا هذا، قال الشاطبي رحمه الله:[1]

إِذَا مَا أَرَدْتَ الدَّهْرَ تَقْــرَأُ فَاسْــتَعِذْ ***** جِهَاراً مِنَ الشَّيْطَانِ بِــاللهِ مُسْــجَلاَ

عَلَى مَا أَتَــى فِــي النَّحْــلِ يُسْــراً ***** وَإِنْ تَزِدْ لِرَبِّكَ تَنْزِيهاً فَلَسْتَ مُجَهَّلَــا

وقال ابن الجزري رحمه الله:[2]

وَقُــلْ أَعُــوذُ إِنْ أَرَدتَ تَقْــرَا ***** كَالنَّحْــلِ جَهْــراً لِجَمِيــعِ الْقُــرَّا

مَعْنَى الِاسْتِعَاذَةِ:

وَمَعْنَى الِاسْتِعَاذَةِ:

هِيَ الِالْتِجَاءُ إِلَى اللَّهِ تعالى وَالِاحتماءُ بِجَنَابِهِ مِنْ شَرِّ كُلِّ ذِي شَرٍّ.

قال ابن منظور: عَاذَ بِهِ يَعُوذُ عَوْذاً وعِياذاً ومَعاذاً: لَاذَ بِهِ ولجأَ إِليه وَاعْتَصَمَ. ومعاذَ اللهِ أَي عِيَاذاً بِاللَّهِ.

قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ﴾.[3]

أَي نَعُوذُ بِاللَّهِ مَعَاذًا أَن نأْخذ غَيْرَ الْجَانِي بِجِنَايَتِهِ، نَصَبَهُ عَلَى الْمَصْدَرِ الَّذِي أُرِيدَ بِهِ الْفِعْلُ.

قال اللَّيْثُ: يُقَالُ فُلَانٌ عَوَذٌ لَكَ أَي ملجأٌ. وَفِي الْحَدِيثِ: «إِنما قَالَهَا تَعَوُّذاً».[4]

أَي إِنما أَقرَّ بِالشَّهَادَةِ لَاجِئًا إِليها وَمُعْتَصِمًا بِهَا لِيَدْفَعَ عَنْهُ الْقَتْلَ وَلَيْسَ بِمُخْلِصٍ فِي إِسلامه.[5]

وَالْعِيَاذَةُ تَكُونُ لِدَفْعِ الشَّرِّ، وَاللِّيَاذُ يَكُونُ لِطَلَبِ جَلْبِ الْخَيْرِ كَمَا قَالَ الْمُتَنَبِّي:

يَا مَــنْ أَلُــوذُ بِــهِ فِيمَــا أُؤَمِّلُــهُ ***** وَمَــنْ أَعُــوذُ بِــهِ مِمَّــنْ أُحَــاذِرُهُ

---

١ – متن الشاطبية– بَابُ الاسْتِعَاذَةِ (ص: ٨)

٢ – متن «طيبة النشر» في القراءات العشر– بَابُ الاسْتِعَاذَةِ (ص: ٣٨)

٣ – سورة يوسف: الآية/ ٧٩

٤ – رواه البخاري– بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: {وَمَنْ أَحْيَاهَا} [المائدة: ٣٢]، حديث رقم: ٦٨٧٢، ومسلم– بَابُ تَحْرِيمِ قَتْلِ الْكَافِرِ بَعْدَ أَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، حديث رقم: ٩٦، عن أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ بلفظ: «إِنَّمَا كَانَ مُتَعَوِّذًا».

٥ – لسان العرب مادة (عوذ)

لَا يَجْبُرُ النَّاسُ عَظْمًا أَنْتَ كَاسِــرُهُ ***** وَلَا يَهِيضُونَ عَظْمًــا أَنْــتَ جَــابِرُهُ

فضلُ الِاسْتِعَاذَةِ وأهميتها:

عن سُلَيْمَانَ بْنِ صُرَدٍ، قَالَ: اسْتَبَّ رَجُلَانِ عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَغَضِبَ أَحَدُهُمَا، فَاشْتَدَّ غَضَبُهُ حَتَّى انْتَفَخَ وَجْهُهُ وَتَغَيَّرَ: فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنِّي لَأَعْلَمُ كَلِمَةً، لَوْ قَالَهَا لَذَهَبَ عَنْهُ الَّذِي يَجِدُ» فَانْطَلَقَ إِلَيْهِ الرَّجُلُ فَأَخْبَرَهُ بِقَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَالَ: «تَعَوَّذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ» فَقَالَ: أَتُرَى بِي بَأْسٌ، أَمَجْنُونٌ أَنَا، اذْهَبْ.[1]

قال ابنُ كثيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: وَمِنْ لَطَائِفِ الِاسْتِعَاذَةِ أَنَّهَا طَهَارَةٌ لِلْفَمِ مِمَّا كَانَ يَتَعَاطَاهُ مِنَ اللَّغْوِ وَالرَّفَثِ، وَتَطْيِيبٌ لَهُ وَتَهَيُّؤٌ لِتِلَاوَةِ كَلَامِ اللَّهِ وَهِيَ اسْتِعَانَةٌ بِاللَّهِ وَاعْتِرَافٌ لَهُ بِالْقُدْرَةِ وَلِلْعَبْدِ بِالضَّعْفِ وَالْعَجْزِ عَنْ مُقَاوَمَةِ هَذَا الْعَدُوِّ الْمُبِينِ الْبَاطِنِيِّ الَّذِي لَا يَقْدِرُ عَلَى مَنْعِهِ وَدَفْعِهِ إِلَّا اللَّهُ الَّذِي خَلَقَهُ، وَلَا يَقْبَلُ مُصَانَعَةً، وَلَا يُدَارَى بِالْإِحْسَانِ، بِخِلَافِ الْعَدُوِّ مِنْ نَوْعِ الْإِنْسَانِ كَمَا دَلَّتْ عَلَى ذَلِكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ فِي ثَلَاثٍ مِنَ الْمَثَانِي، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿**إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلا**﴾.[2]

وَقَدْ نَزَلَتِ الْمَلَائِكَةُ لِمُقَاتَلَةِ الْعَدُوِّ الْبَشَرِيِّ يَوْمَ بَدْرٍ، وَمَنْ قَتَلَهُ الْعَدُوُّ الْبَشَرِيُّ كَانَ شَهِيدًا، وَمِنْ قَتَلَهُ الْعَدُوُّ الْبَاطِنِيُّ كَانَ طَرِيدًا، وَمَنْ غَلَبَهُ الْعَدُوُّ الظَّاهِرُ كَانَ مَأْجُورًا، وَمَنْ قَهَرَهُ الْعَدُوُّ الْبَاطِنُ كَانَ مَفْتُونًا أَوْ مَوْزُورًا، وَلَمَّا كَانَ الشَّيْطَانُ يَرَى الْإِنْسَانَ مِنْ حَيْثُ لَا يَرَاهُ اسْتَعَاذَ مِنْهُ بِالَّذِي يَرَاهُ وَلَا يَرَاهُ الشيطان.[3]

---

١ – رواه البخاري– كِتَابُ الأَدَبِ، بَابُ مَا يُنْهَى مِنَ السِّبَابِ وَاللَّعْنِ، حديث رقم: ٦٠٤٨، ومسلم– كتاب الْبِرِّ وَالصِّلَةِ وَالْآدَابِ، بَابُ فَضْلِ مَنْ يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ وَبِأَيِّ شَيْءٍ يَذْهَبُ الْغَضَبُ، حديث رقم: ٢٦١٠

٢ – سورة الْإِسْرَاءِ: الآية/ ٦٥

٣ – تفسير ابن كثير (١/ ١١٤)

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

سببُ الِاسْتِعَاذَةِ مِنَ الشَّيْطَانِ:

لما كان عدو الإنسان لا يخرج عن كونه آدميًا، أو مِنَ الشَّيَاطِينِ، بَيَّنَ اللهُ تعالى لعباده كيفية تجنب عداوتهما، والنجاة من كيدهما، فأمر بمصانعة العدو الإنسي، الذي يستميله المعروف، ويأسره الإحسان، لكريم أصله، وحسن منبته؛ كما قيل:

أحسن إلى الناس تستعبد قلوبهم ***** فطالما استعبد الإنسانَ إحسانُ

وإن أساء مسيء فليكن لك في ***** عروض زلته صفح وغفران

ولما كان العدو الشيطاني لا سبيل إلى بمصانعته بحال، ولا يزيده الإحسان إليه إلا عداوةً وبغيًا، ولا يزيده الحلمُ عنه إلا سفاهةً وغيًا، لتأصل عداوته، وسوء طبعه، أمر الله تعالى، بالاستعاذة بالله تعالى منه، إذ لا سبيل إلى استمالته بحال.

بَيَّنَ اللَّهُ تَعَالَى الواجب على العباد مع الفريقين، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ * وَإِمَّا يَنزغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نزغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.[1]

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ * وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ * وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ﴾.[2]

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ * وَمَا يُلَقَّاهَا إِلا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ * وَإِمَّا يَنزغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نزغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.[3]

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: فَهَذِهِ ثَلَاثُ آيَاتٍ لَيْسَ لَهُنَّ رَابِعَةٌ فِي مَعْنَاهَا، وَهُوَ أَنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِمُصَانَعَةِ الْعَدُوِّ الْإِنْسِيِّ وَالْإِحْسَانِ إِلَيْهِ، لِيَرُدَّهُ عَنْهُ طبعُهُ الطَّيب الْأَصْلِ إِلَى الْمُوَادَّةِ وَالْمُصَافَاةِ، وَيَأْمُرُ بِالِاسْتِعَاذَةِ بِهِ مِنَ الْعَدُوِّ الشَّيْطَانِيِّ لَا مَحَالَةَ؛ إِذْ لَا يَقْبَلُ مُصَانَعَةً وَلَا إِحْسَانًا وَلَا يَبْتَغِي غَيْرَ هَلَاكِ ابْنِ آدَمَ، لِشِدَّةِ الْعَدَاوَةِ بَيْنَهُ

---

١ - سورة الْأَعْرَافِ: الآية/ ١٩٩، ٢٠٠

٢ - سورة الْمُؤْمِنُونَ: الآية/ ٩٦- ٩٨

٣ - سورة فُصِّلَتْ: الآية/ ٣٤- ٣٦

وَبَيْنَ أَبِيهِ آدَمَ مِنْ قَبْلُ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ﴾.[1]

وَقَالَ: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾.[2]

وَقَالَ: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلا﴾.[3]

وَقَدْ أَقْسَمَ لِلْوَالِدِ إِنَّهُ لَمِنَ النَّاصِحِينَ، وَكَذَبَ، فَكَيْفَ مُعَامَلَتُهُ لَنَا وَقَدْ قَالَ: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لأغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾.[4]

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ * إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾.[5]

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾. الآية/ ١

اختلفَ الْعُلَمَاءُ فِي تَقْدِيرِ الْمُتَعَلِّقِ بِالْبَاءِ فِي قَوْلِهِ تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾، هَلْ هُوَ اسْمٌ أَوْ فِعْلٌ فمَنْ قَدَّرَهُ باسْمٍ، كان تَقْدِيرُهُ: باسْمِ اللَّهِ ابْتِدَائِي، أو باسْمِ اللَّهِ قراءتي، ودَلَّ عَلَى هَذَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.[6]

وَمَنْ قَدَّرَهُ بِالْفِعْلِ كان تَقْدِيرُهُ: ابدأ بِبِسْمِ اللَّهِ، إِذَا قُدِّرَ المحذُوفُ أَمْرًا، أَوِ ابْتَدَأْتُ بِبِسْمِ اللَّهِ، إِذَا قُدِّرَ المحذُوفُ خَبَرًا، ودَلَّ عَلَى هَذَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾.[7]

وهكذا في كل أمر أراده المسلم سواءً كَانَ وُضُوءًا أَوْ صَلَاةً، قِرَاءَةً أَوْ كِتَابةً، أَكْلًا أَوْ شُرْبًا، قِيَامًا أَوْ قُعُودًا، يجوز أَنْ يُقَدِّرَ الْفِعْلُ وَمَصْدَرُهُ، وَكِلَا الأَمْرَين صَحِيحٌ، تَبَرُّكًا وَتَيَمُّنًا بِبِسْمِ اللَّهِ، وَاسْتِعَانَةً بالتَّسْمِيَةِ عَلَى إِتْمَامِ العملِ، ورجاءَ القبولِ مِنْ اللهِ تعالى.

واختلف العلماء في الِاسْمِ هل هو عَيْنُ الْمُسَمَّى أَوْ غَيْرُهُ؟

---

١ - سورة الْأَعْرَافِ: الآية/ ٢٧

٢ - سورة فَاطِرٍ: الآية/ ٦

٣ - سورة الْكَهْفِ: الآية/ ٥٠

٤ - سورة ص: الآية/ ٨٢، ٨٣

٥ - سورة النَّحْلِ: الآية/ ٩٨، ٩٩، تفسير ابن كثير (١/ ١١٠)

٦ - سورة هُودٍ: الآية/ ٤١

٧ - سورة الْعَلَقِ: الآية/ ١

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

والصحيحُ أن الِاسْمَ يُرَادُ بِهِ الْمُسَمَّى تَارَةً، وَيُرَادُ بِهِ اللَّفْظُ الدَّالُّ على الْمُسَمَّى تَارَةً أُخْرَى.

فَإِذَا قُلْتَ: قَالَ اللَّهُ كَذَا، أَوْ سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمِدَهُ، وَنَحْوَ ذَلِكَ فَهَذَا الْمُرَادُ بِهِ الْمُسَمَّى نَفْسُهُ، وَإِذَا قُلْتَ: اللَّهُ اسْمٌ عَرَبِيٌّ، وَالرَّحْمَنُ اسْمٌ عَرَبِيٌّ، وَالرَّحمن مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ وَنَحْوَ ذَلِكَ فَالِاسْمُ هَا هُنَا هُوَ الْمُرَادُ لَا الْمُسَمَّى.[1]

وَاتَّفَقَ الْعُلَمَاءُ عَلَى أَنَّهَا بَعْضُ آيةٍ مِنْ سورَة النَّمْلِ، ثمّ اختلفوا: هَلْ هِيَ آيَةٌ مُسْتَقِلَّةٌ فِي أَوَّلِ كُلِّ سُورَةٍ، أَوْ آيَةٌ مِنْ أَوَّلِ كُلِّ سُورَةٍ كُتِبَتْ فِي أَوَّلِهَا، أَوْ أَنَّهَا بَعْضُ آيَةٍ مِنْ أَوَّلِ كُلِّ سُورَةٍ، أَوْ أَنَّهَا كَذَلِكَ فِي الْفَاتِحَةِ دُونَ غَيْرِهَا، أَوْ أَنَّهَا إِنَّمَا كُتِبَتْ لِلْفَصْلِ، لَا أَنَّهَا آيَةٌ؟

وَقَدْ جَزَمَ قُرَّاءُ مَكَّةَ وَالْكُوفَةِ بِأَنَّهَا آيَةٌ مِنَ الْفَاتِحَةِ وَمِنْ كُلِّ سُورَةٍ، وَخَالَفَهُمْ قُرَّاءُ الْمَدِينَةِ وَالْبَصْرَةِ وَالشَّامِ فَلَمْ يَجْعَلُوهَا آيَةً لَا مِنَ الْفَاتِحَةِ وَلَا مِنْ غَيْرِهَا مِنَ السُّوَرِ، قَالُوا: وَإِنَّمَا كُتِبَتْ لِلْفَصْلِ وَالتَّبَرُّكِ.

قال الشاطبي رحمه الله:[2]

وأمُّ القرآنِ الكـــلُ سَـــبْعًا يَعُـــدُّهَا ***** لكـــنْ عَلَـــيهِم أولًـــا يُسْـــقِطُ المثـــرِ

ويعتاض بسمِ اللهِ، والمســـتقيمَ قُـــلْ ***** لكلٍ وَمَا عَدُّوا الـــذينَ علَـــى ذِكْـــرِ

وروى أَبُو دَاوُدَ بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ لَا يَعْرِفُ فَصْلَ السُّورَةِ حَتَّى يَنْزِلَ عَلَيْهِ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ.

فعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا يَعْرِفُ فَصْلَ السُّورَةِ حَتَّى تَنَزَّلَ عَلَيْهِ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ».[3]

وَافْتَتَحَ بِهَا الصحابةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُم كِتَابَ اللَّهِ تعالى، وبهذا استدل من قال هِيَ آيَةٌ مِنْ سُورَةِ الْفَاتِحَةِ.

---

١ - انظر شرح الطحاوية (ص: ٨٢)

٢ - انظر معالم اليسر شرح ناظمة الزهر (ص/ ٦٥)

٣ - رواهُ أَبُو دَاوُدَ- كِتَاب الصَّلَاةِ، أَبْوَابُ تَفْرِيعِ اسْتِفْتَاحِ الصَّلَاةِ، بَابُ مَنْ جَهَرَ بِهَا، حديث رقم: ٧٨٨، وصححه الألباني

المواطنُ التي تُشْرَعُ فيها الْبَسْمَلَةُ:

تُشْرَعُ الْبَسْمَلَةُ في عدة مواطن لما لها من بَرَكَةٍ، ومن تلك المواطن:

١- عِنْدَ الأكل؛ لِمَا ثَبَتَ عَنْ عُمَرَ بْنِ أَبِي سَلَمَةَ، قَالَ: كُنْتُ فِي حِجْرِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَكَانَتْ يَدِي تَطِيشُ فِي الصَّحْفَةِ، فَقَالَ لِي: «يَا غُلَامُ، سَمِّ اللهَ، وَكُلْ بِيَمِينِكَ، وَكُلْ مِمَّا يَلِيكَ».[١]

٢- وَعِنْدَ دُخُولِ الْخَلَاءِ؛ لِمَا ثَبَتَ عَنْ عَلِيٍّ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " سِتْرُ مَا بَيْنَ الْجِنِّ وَعَوْرَاتِ بَنِي آدَمَ إِذَا دَخَلَ الْكَنِيفَ أَنْ يَقُولَ: بِسْمِ اللَّهِ».[٢]

٣- وَفِي أَوَّلِ الْوُضُوءِ؛ لِمَا ثَبَتَ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ، أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «لَا وُضُوءَ لِمَنْ لَمْ يَذْكُرِ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ».[٣]

٤- وعند الذبح؛ فعَنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَرَأَيْتَ إِنْ أَحَدُنَا أَصَابَ صَيْدًا وَلَيْسَ مَعَهُ سِكِّينٌ أَيَذْبَحُ بِالْمَرْوَةِ وَشِقَّةِ الْعَصَا؟ فَقَالَ: «أَمْرِرِ الدَّمَ بِمَا شِئْتَ، وَاذْكُرِ اسْمَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ».[٤]

٥- وعند دخول الليل، وَإِغْلَاقِ الأَبْوَابِ، وايكاءِ الأسقيةِ؛ فعَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «إِذَا اسْتَجْنَحَ اللَّيْلُ، أَوْ قَالَ: جُنْحُ اللَّيْلِ، فَكُفُّوا صِبْيَانَكُمْ، فَإِنَّ الشَّيَاطِينَ تَنْتَشِرُ حِينَئِذٍ، فَإِذَا ذَهَبَ سَاعَةٌ مِنَ العِشَاءِ فَخَلُّوهُمْ، وَأَغْلِقْ بَابَكَ وَاذْكُرِ اسْمَ اللَّهِ،

---

١ - رواه البخاري- كِتَابُ الأَطْعِمَةِ، بَابُ التَّسْمِيَةِ عَلَى الطَّعَامِ وَالأَكْلِ بِاليَمِينِ، حديث رقم: ٥٣٧٦، ومسلم- كِتَابُ الْأَشْرِبَةِ، بَابُ آدَابِ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ وَأَحْكَامِهِمَا، حديث رقم: ٢٠٢٢

٢ - رواه ابن ماجه- كِتَابُ الطَّهَارَةِ وَسُنَنِهَا، بَابُ مَا يَقُولُ الرَّجُلُ إِذَا دَخَلَ الْخَلَاءَ، حديث رقم: ٢٩٧، بسند صحيح

٣ - رواه أَحْمَدَ- حديث رقم: ١١٣٧٠، وابن ماجه- بَابُ مَا جَاءَ فِي التَّسْمِيَةِ فِي الْوُضُوءِ، كِتَابُ الطَّهَارَةِ وَسُنَنِهَا، حديث رقم: ٣٩٧، بسند حسن

٤ - رواه أبو داود- كِتَاب الضَّحَايَا، بَابٌ فِي الذَّبِيحَةِ بِالْمَرْوَةِ، حديث رقم: ٢٨٢٤، والنسائي- كِتَابُ الصَّيْدِ وَالذَّبَائِحِ، الصَّيْدُ إِذَا أَنْتَنَ، حديث رقم: ٤٣٠٤، بسند صحيح

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وَأَطْفِئْ مِصْبَاحَكَ وَاذْكُرِ اسْمَ اللَّهِ، وَأَوْكِ سِقَاءَكَ وَاذْكُرِ اسْمَ اللَّهِ، وَخَمِّرْ إِنَاءَكَ وَاذْكُرِ اسْمَ اللَّهِ، وَلَوْ تَعْرُضُ عَلَيْهِ شَيْئًا».[1]

٦- وعند إرسال الكَلْبِ الْمُعَلَّمِ على الصيد؛ فعَنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنِّي أُرْسِلُ الْكِلَابَ الْمُعَلَّمَةَ، فَيُمْسِكْنَ عَلَيَّ، وَأَذْكُرُ اسْمَ اللهِ عَلَيْهِ، فَقَالَ: «إِذَا أَرْسَلْتَ كَلْبَكَ الْمُعَلَّمَ، وَذَكَرْتَ اسْمَ اللهِ عَلَيْهِ فَكُلْ»، قُلْتُ: وَإِنْ قَتَلْنَ؟ قَالَ: «وَإِنْ قَتَلْنَ، مَا لَمْ يَشْرَكْهَا كَلْبٌ لَيْسَ مَعَهَا».[2]

٧- وعند الجماع؛ فَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «أَمَا إِنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا أَتَى أَهْلَهُ، وَقَالَ: بِسْمِ اللَّهِ، اللَّهُمَّ جَنِّبْنَا الشَّيْطَانَ وَجَنِّبِ الشَّيْطَانَ مَا رَزَقْتَنَا، فَرُزِقَا وَلَدًا لَمْ يَضُرَّهُ الشَّيْطَانُ».[3]

٨- وعند الخروج من البيت؛ فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ قَالَ – يَعْنِي – إِذَا خَرَجَ مِنْ بَيْتِهِ: بِسْمِ اللَّهِ، تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ، لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ، يُقَالُ لَهُ: كُفِيتَ، وَوُقِيتَ، وَتَنَحَّى عَنْهُ الشَّيْطَانُ».[4]

٩- وعند تعثر الدابة، أو تعسر أمر من الأمور؛ فعَنْ أَبِي الْمَلِيحِ، عَنْ رَجُلٍ، قَالَ كُنْتُ رَدِيفَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَعَثَرَتْ دَابَّةٌ، فَقُلْتُ: تَعِسَ الشَّيْطَانُ، فَقَالَ: «لَا تَقُلْ تَعِسَ الشَّيْطَانُ، فَإِنَّكَ إِذَا قُلْتَ ذَلِكَ تَعَاظَمَ حَتَّى يَكُونَ مِثْلَ الْبَيْتِ، وَيَقُولُ: بِقُوَّتِي، وَلَكِنْ قُلْ: بِسْمِ اللَّهِ، فَإِنَّكَ إِذَا قُلْتَ ذَلِكَ تَصَاغَرَ حَتَّى يَكُونَ مِثْلَ الذُّبَابِ».[5]

١٠- وعند الرقية؛ فعَنْ عُثْمَانَ بْنِ أَبِي الْعَاصِ الثَّقَفِيِّ أَنَّهُ، قَالَ: قَدِمْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَبِي وَجَعٌ قَدْ كَادَ يُبْطِلُنِي فَقَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " اجْعَلَ

---

١ - رواه البخاري-كِتَابُ بَدْءِ الخَلْقِ، بَابُ صِفَةِ إِبْلِيسَ وَجُنُودِهِ، حديث رقم: ٣٢٨٠، ومسلم- كتاب الأشربة، باب الأمر بتغطية الإناء وإيكاء السقاء حديث رقم: ٢٠١٢

٢ - رواه مسلم- كِتَابُ الصَّيْدِ وَالذَّبَائِحِ وَمَا يُؤْكَلُ مِنَ الْحَيَوَانِ، بَابُ الصَّيْدِ بِالْكِلَابِ الْمُعَلَّمَةِ، حديث رقم: ١٩٢

٣ - رواه البخاري- كِتَابُ بَدْءِ الخَلْقِ، بَابُ صِفَةِ إِبْلِيسَ وَجُنُودِهِ، حديث رقم: ٣٢٧١

٤ - رواه الترمذي- أَبْوَابُ الدَّعَوَاتِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بَابُ مَا يَقُولُ إِذَا خَرَجَ مِنْ بَيْتِهِ، حديث رقم: ٣٤٢٦، بسند صحيح

٥ - رواه أبو داود- كِتَاب الْأَدَبِ، بَابُ لَا يُقَالُ خَبُثَتْ نَفْسِي، حديث رقم: ٤٩٨٢

يَدَكَ الْيُمْنَى عَلَيْهِ ثُمَّ قُلْ: بِسْمِ اللَّهِ، أَعُوذُ بِعِزَّةِ اللَّهِ وَقُدْرَتِهِ مِنْ شَرِّ مَا أَجِدُ، سَبْعَ مَرَّاتٍ "، فَفَعَلْتُ ذَلِكَ، فَشَفَانِي اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ.[1]

وبعض هذه المواطن تجب فيها التسمية، وبعضها تستحب.

﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

بين هذين الاسمين الكريمين عمومٌ وخصوصٌ من وجه، فالرَّحْمَنُ أعم من وجه وأخص من وجه، وَالرَّحِيمُ أعم من وجه وأخص من وجه.

فالرَّحْمَنُ اسْمٌ عامٌ لِجَمِيعِ الْخَلْقِ، وَلِهَذَا ذَكَرَ اللَّهُ تعالى الِاسْتِوَاءَ بِاسْمِهِ الرَّحْمَنِ لِيَعُمَّ جَمِيعَ خَلْقِهِ بِرَحْمَتِهِ، قَالَ تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ﴾.[2]

وَقَالَ تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾.[3]

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾.[4]

وَعَلَى هذا فإِنَّ اسْمَ الرَّحْمَنِ أَشَدُّ مُبَالَغَةً فِي الرَّحْمَةِ من اسْمِ الرَّحِيمِ لِعُمُومِهَا فِي الدَّارَيْنِ لِجَمِيعِ خَلْقِهِ.

وهو اسْمٌ خَاصٌّ بِهِ تعالى لَمْ يُسَم بِهِ غَيْرُهُ قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾.[5]

وَالرَّحِيمُ أعمُ من جهة أنه ليس خاصًا بالله تبارك وتعالى بل يتسمى به المخلوق؛ قال الله تعالى واصفًا نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿لَقَدْ جاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ ما عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُفٌ رَحِيمٌ﴾.[6]

---

١ – رواه عبد بن حميد في مسنده– حديث رقم: ٣٨٢

٢ – سورة الْفُرْقَانِ: الآية/ ٥٩

٣ – سورة طه: الآية/ ٥

٤ – سورة الزُّخْرُفِ: الآية/ ٤٥

٥ – سورة الْإِسْرَاءِ: الآية/ ١١٠

٦ – سورة التوبة: الآية/ ١٢٨

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وَالرَّحِيمُ أخصُ من جهة أنه اسْمٌ خَاصٌّ بِالْمُؤْمِنِينَ قَالَ اللَّهُ تعالى: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾.[1]

فَخَصَّهُمْ اللَّهُ تعالى بِاسْمِهِ الرَّحِيمِ.

وَالرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ اسمان لله تعالى يدلان على صفة عظيمة من صفات الله تعالى وهي صفة الرحمة، الأول: يدل على الرحمة العامة بسائر الخلق.

والثاني: يدل على رحمة خاصة، والمؤمن له من هاتين الصفتين النصيب الأوفر، فهو داخل مع سائر الخلق بالاسم الأول، وله رحمة خاصة بالاسم الثاني.

والله عز وجل وسعت رحمته كل شيء؛ كما قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾.[2]

فأشقى الناس كل الناس من ليس له في رحمة الرحمن الرحيم نصيب.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾. الآية/ ٢

الْحَمْدُ هو الثناءُ الحسنُ ويكون على كل ما يحدث للإنسان، سواء كان محبوبًا له أومكروهًا من أقدار الله تعالى التي تصيب العباد لأن الله تعالى له الحكمة البالغة.

فما تراه أنت بلاءً وشرًا قد يكون نعمة وخيرًا: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾.[3]

فله الحمد على ما أنعم من نعم وما أكثرها، وله الحمد على ما قدر من المقادير، إذ لطف بنا وجعل ذلك تمحيصًا للخطيا، وتكفيرًا للسيئات، فله الحمد في الأولى والآخرة.

وقد أثنى الله تعالى على نفسه في كتابه بالحمد تعليمًا لعباده ليثنوا عليه بذلك.

كما قال الله تعالى في هذه السورة الكريمة: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

وقال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾.[4]

---

١ - سورة الْأَحْزَاب: الآية/ ٤٣

٢ - سورة الْأَعْرَافِ: الآية/ ١٥٦

٣ - سورة البقرة: الآية/ ٢١٦

٤ - سورة الأنعام: الآية /١

وقال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلاً أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلاثَ وَرُبَاعَ﴾.[1]

وقال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾.[2]

وبين الحمد والشكر عموم وخصوص من وجه، فالحمد أعم من وجه لأنه يكون في مقابلة النعم وغيرها؛ فهو: أعم من الشكر سببًا؛ لأنه سبحانه وتعالى يُحْمَدُ على كل شيء، يُحْمَدُ لذاته، وصفاته، وأحكامه، وأقداره؛ فعَنْ أَبِي مُوسَى الأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِذَا مَاتَ وَلَدُ العَبْدِ قَالَ اللَّهُ لِمَلَائِكَتِهِ: قَبَضْتُمْ وَلَدَ عَبْدِي، فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، فَيَقُولُ: قَبَضْتُمْ ثَمَرَةَ فُؤَادِهِ، فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، فَيَقُولُ: مَاذَا قَالَ عَبْدِي؟ فَيَقُولُونَ: حَمِدَكَ وَاسْتَرْجَعَ، فَيَقُولُ اللَّهُ: ابْنُوا لِعَبْدِي بَيْتًا فِي الجَنَّةِ، وَسَمُّوهُ بَيْتَ الحَمْدِ».[3]

والحمد أخص متعلقًا من الشكر، لأن الشكرَ لا يكون إلا في مقابلة النعم، والشكرُ أعم متعلقًا، لأنه يكون باللسان، واليد، والقلب، لقول الله تعالى:﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا﴾.[4]

وقال بعضهم:

أَفَادَتْكُمُ النَّعْمَاءُ مِنِّى ثلاثةً ***** يَـــدِي ولِسَـــانِى والضَّـــمِيرَ المُحَجَّبَـــا

قال الزمخشري: والحمد يكون باللسان وحده، فهو بهذا إحدى شعب، والحمد رأس؛ لأنّ ذكر النعمة باللسان والثناء على موليها، أشيع لها وأدلّ على مكانها من الإعتقاد وآداب الجوارح لخفاء عمل القلب،

---

١ – سورة فاطر: الآية /١

٢ – سورة سبأ: الآية /١

٣ – رواه أحمد– حديث رقم: ١٩٣٠٤، والترمذي– كتاب الجنائز، باب فضل المصيبة إذا احتسب، حديث رقم: ٩٧٨، والبيهقي في السنن– كتاب الجنائز، جماع أبواب البكاء على الميت، باب ما يرجى في المصيبة بالأولاد إذا احتسبهم، حديث رقم: ٦٧٣٩، بسند حسن.

٤ – سورة سبأ: الآية/ ١٣

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وما في عمل الجوارح من الاحتمال، بخلاف عمل اللسان وهو النطق الذي يفصح عن كلّ خفي ويجلي كل مشتبه،والحمد نقيضه الذمّ، ونقيضه الكفران.[1]

وقيل: ثناء على الله بأفعاله وأنعامه، والحمد ثناء بأوصافه.

﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

الرَّبُّ هُوَ: الْمَالِكُ الْمُتَصَرِّفُ، وَالسَّيِّدُ الْمُطَاعُ، وَالْمُتَصَرِّفُ لِلْإِصْلَاحِ، وَهُوَ اللَّهُ تَعَالَى.

وَلَا يُسْتَعْمَلُ الرَّبُّ معرفًا إِلَّا لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، فلا يستعمل لِغَيْرِ اللَّهِ تعالى، بَلْ لابد من الْإِضَافَةِ تَقُولُ: رَبُّ الدَّارِ، رَبُّ العَمَلِ، وَأَمَّا الرَّبُّ فَلَا يُقَالُ إِلَّا لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.

وَالْعَالَمِينَ: جَمْعُ عَالَمٍ، وَهُوَ كُلُّ مَوْجُودٍ سِوَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.

فالْعَالَمِينَ كل ما خلق الله تعالى من السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا، كما بَيَّنَ ذلك نبي الله موسى عليه السلام في احتجاجه على فرعون قال الله تعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ * قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ﴾.[2]

وهو رَبُّ الْعَالَمِينَ فما من مخلوق إلا وهو يحتاج إليه تعالى، ويفتقر إليه، وكل مخلوق رزقه عليه قال تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾.[3]

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾.[4]

وكما شملت نعمه الخلائق، استحق سبحانه جميع المحامد؛ لذلك جمع الله تعالى بين لفظ: ﴿الْحَمْدُ﴾ الذي يفيد الاستغراق، ولفظ: ﴿الْعَالَمِينَ﴾ الذي يفيد العموم هنا، وجمع بينهما أيضًا في قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.[1]

١- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (١/ ٩)

٢ - سورة الشعراء: الآية/ ٢٣، ٢٤

٣ - سورة هود: الآية/ ٦

٤ - سورة فَاطِرٍ: الآية/ ١٥

﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾. الآية/ ٣

فِي تَكْرَارِ صفةِ الرَّحْمَنِ، وصفةِ الرَّحِيمِ تَنْبِيهٌ عَلَى عِظَمِ قَدْرِ هَاتَيْنِ الصِّفَتَيْنِ، لِيَعظُمَ أَمَلُ الْعَبْدِ فِي الْعَفْوِ إِذَا زَلَّ، وَيَقْوَى رَجَاؤُهُ فِي المغفرة إِذَا هَفَا، وأن رَبَّ الْعَالَمِينَ وخالقَ الخلقِ أجمعين، أرحمُ بعبادِهِ من الوالدةِ بولدها، ومن رحمته تعالى أنزال الكتب، وإرسال الرسل.

عَنْ عُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قَدِمَ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَبْيٌ، فَإِذَا امْرَأَةٌ مِنَ السَّبْيِ قَدْ تَحْلُبُ ثَدْيَهَا تَسْقِي، إِذَا وَجَدَتْ صَبِيًّا فِي السَّبْيِ أَخَذَتْهُ، فَأَلْصَقَتْهُ بِبَطْنِهَا وَأَرْضَعَتْهُ، فَقَالَ لَنَا النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَتُرَوْنَ هَذِهِ طَارِحَةً وَلَدَهَا فِي النَّارِ» قُلْنَا: لاَ، وَهِيَ تَقْدِرُ عَلَى أَنْ لاَ تَطْرَحَهُ، فَقَالَ: «لَلَّهُ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هَذِهِ بِوَلَدِهَا».[٢]

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾. الآية/ ٤

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ قَالَ: لَا يَمْلِكُ أَحَدٌ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ مَعَهُ حُكْمًا، كَمِلْكِهِمْ فِي الدُّنْيَا.[٣]

فلا مُلْكَ يَوْمَ الدِّينِ لأحد مع الله بل لله المُلْكُ خالصًا له دون جميع خلقه، فلا ينازعه الملك يومئذ مَلِكٌ من ملوك الدنيا ولا جبارٌ من الجبابرة، بل الكلُ خاضعٌ ذليلٌ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ﴾.[٤]

فالملوك يومئذ أذلةٌ صاغرون، كما قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ إِلا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا﴾.[٥]

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾.[٦]

وَيَوْمُ الدِّينِ هو يَوْمُ الْجَزَاءِ والحساب، ويطلق الدِّينُ ويراد به عدة معان في كتاب الله تعالى،

---

١ - سورة الجاثية: الآية/ ٣٦

٢ - رواه البخاري- كِتَابُ الأَدَبِ، بَابُ رَحْمَةِ الوَلَدِ وَتَقْبِيلِهِ وَمُعَانَقَتِهِ، حديث رقم: ٥٩٩٩، ومسلم- كتاب التَّوْبَةِ، بَابٌ فِي سِعَةِ رَحْمَةِ اللهِ تَعَالَى وَأَنَّهَا سَبَقَتْ غَضَبَهُ، حديث رقم: ٢٧٥٤

٣ - تفسير الطبري (١/ ١٤٩)

٤ - سورة النَّمْلِ: الآية/ ٨٧

٥ - سورة مَرْيَمَ: الآية/ ٩٣: ٩٥

٦ - سورة غافر: الآية/ ١٦

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

فيطلق ويراد به الْجَزَاءُ؛ كما في هذه الآية: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾.

ويطلق ويراد به الملك؛ كما في قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾.[1]

ويطلق ويراد به الْمِلَّةُ؛ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾.[2]

ويطلق ويراد به الإسلامُ؛ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾.[3]

ويطلق الدِّينُ ويراد به الزَّعْمُ؛ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾.[4]

وَكَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.[5]

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾. الآية/ ٥

قَالَ قَتَادَةُ: يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُخْلِصُوا لَهُ الْعِبَادَةَ، وَأَنْ تَسْتَعِينُوهُ عَلَى أَمْرِكُمْ.

والعبادة هي كمال الطاعة مع كمال الحب والذل.

وقال شيخ الإسلام: العبادة اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأفعال الظاهرة والباطنة.

وقدم الضمير وهو: ﴿إِيَّاكَ﴾ على الفعلين: ﴿نَعْبُدُ﴾، و﴿نَسْتَعِينُ﴾، لتَخْصِيصِ اللَّهِ تعالى بالْعِبَادَةِ، وَإفراده بالطَّاعَةِ، وَتَخْصِيصِهِ بِالتَّوَكُّلِ عَلَيْهِ دون سواه.

ولو كان الكلام: (نَعْبُدُكَ)، و(نَسْتَعِينُكَ)، لاحتمل في اللغة، ونعبد معك غيرك، ونستعين معك بغيرك، وهذا شرك ينافي الإخلاص.

لذلك قدم الضمير المنفصل: ﴿إِيَّاكَ﴾، على الفعلين كما ذكرنا للتَخْصِيصِ.

---

١ - سُورَة يُوسُف: الآية/ ٧٦

٢ - سُورَة الْكَافِرُونَ: الآية/ ٦

٣ - سُورَة آل عمران: الآية/ ١٩

٤ - سُورَة آل عمران: الآية/ ٢٤

٥ - سُورَة الحجرات: الآية / ١٦

وفي هذه الآية مع الآية السابقة من الأساليب البلاغية: الْالتِفَاتُ مِنَ الْغَيْبَةِ في قوله: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾، لِلْخِطَابِ في قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

قال أبو حيان رحمه الله: وَفَائِدَتُهُ أَنَّهُ لَمَّا ذَكَرَ أَنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ الْمُتَّصِفِ بِالرُّبُوبِيَّةِ وَالرَّحْمَةِ وَالْمُلْكِ، وَالْمَلِكِ لِلْيَوْمِ الْمَذْكُورِ، أَقْبَلَ الْحَامِدُ مُخْبِرًا بِأَثَرِ ذِكْرِهِ الْحَمْدَ الْمُسْتَقِرَّ لَهُ مِنْهُ وَمِنْ غَيْرِهِ، أَنَّهُ وَغَيْرُهُ يَعْبُدُهُ وَيَخْضَعُ لَهُ.[1]

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾. الآية/ ٦

وَالْهِدَايَةُ تنقسمُ إلى هِدَايَةِ الْإِرْشَادِ وَالدَّلَالَةِ، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾.[2]
وَإلى هِدَايَةِ التَّوْفِيقِ، كَما في قَوْلِ الله تعالى حكاية عن أَهْلِ الْجَنَّةِ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا﴾.[3]

وتأتي لِلْإِرْشَادِ وَالتَّوْفِيقِ معًا كما في هذه الآية.

وفي الآية من الأساليب البلاغية التضمينُ، فالأصل أن الْهِدَايَةَ تَتَعَدَّى بِاللَّامِ، كَمَا في قَوْلِهِ تَعَالَى حكاية عنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا﴾.[4]

وَقَدْ تَتَعَدَّى بِإِلَى، كَمَا في قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾.[5]

وَكَمَا في قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾.[6]

وَكَمَا في قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾.[7]

وهُنَا الْهِدَايَةُ تَعَدَّت بِنَفْسِهَا، ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، فَتَضَمَّنَ الفعلُ: ﴿اهْدِنَا﴾ مَعْنَى أَلْهِمْنَا، أَوْ وَفِّقْنَا.

وَالصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ، هُوَ الطَّرِيقُ الْوَاضِحُ الَّذِي لَا اعْوِجَاجَ فِيهِ.

---

١ - البحر المحيط في التفسير (١/ ٤٢)
٢ - سورة الشُّورَى: الآية/ ٥٢
٣ - سورة الْأَعْرَافِ: الآية/ ٤٣
٤ - سورة الْأَعْرَافِ: الآية/ ٤٣
٥ - سورة النَّحْلِ: الآية/ ١٢١
٦ - سورة الصَّافَّاتِ: الآية/ ٢٣
٧ - سورة الشُّورَى: الآية/ ٥٢

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

قَالَ الْإِمَامُ أَبُو جَعْفَرِ بْنُ جَرِيرٍ: أَجْمَعَتِ الْأُمَّةُ مِنْ أَهْلِ التَّأْوِيلِ جَمِيعًا عَلَى أَنَّ: ﴿الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، هُوَ الطَّرِيقُ الْوَاضِحُ الَّذِي لَا اعْوِجَاجَ فِيهِ.[1]

واختلف في المراد بالصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ، فقيل هو كِتَابُ اللَّهِ؛ فعَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ كِتَابُ اللَّهِ".[2]

وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: "إِنَّ هَذَا الصِّرَاطَ مُحْتَضَرٌ تَحْضُرُهُ الشَّيَاطِينُ يَقُولُونَ: يَا عِبَادَ اللهِ هَذَا الطَّرِيقُ فَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ فَإِنَّ الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ كِتَابُ اللهِ ".[3]

وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أيضًا: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ قَالَ: هُوَ الْإِسْلَامُ.

وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، قَالَ: الْحَقُّ.

وَقَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، هُوَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: وَكُلُّ هَذِهِ الْأَقْوَالِ صَحِيحَةٌ، وَهِيَ مُتَلَازِمَةٌ، فَإِنَّ مَنِ اتَّبَعَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَاقْتَدَى بِاللَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ، فَقَدِ اتَّبَعَ الْحَقَّ، وَمَنِ اتَّبَعَ الْحَقَّ فَقَدِ اتَّبَعَ الْإِسْلَامَ، وَمَنِ اتَّبَعَ الْإِسْلَامَ فَقَدِ اتَّبَعَ الْقُرْآنَ، وَهُوَ كِتَابُ اللَّهِ وَحَبْلُهُ الْمَتِينُ، وَصِرَاطُهُ الْمُسْتَقِيمُ، فَكُلُّهَا صَحِيحَةٌ يُصَدِّقُ بَعْضُهَا بَعْضًا، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ.[4]

---

١ - تفسير الطبري (١/ ١٧٠)

٢ - رواه ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ في التفسير (٣/ ٧٢١)

٣ - رواه الطبراني في الكبير- حديث رقم: ٩٠٣١

٤ - تفسير ابن كثير (١/ ١٣٩)

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ﴾. الآية/ ٧

الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ هُمُ الْمَذْكُورُونَ فِي سُورَةِ النِّسَاءِ، وهذا من تفسير القرآن بالقرآن، فإن قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾، مجملٌ وقد أتى تفصيله في قول الله تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا * ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا﴾.[١]

وهؤلاء الْمَذْكُورُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ بِطَاعَتِهم له، وَعِبَادَتِهم إياه دون ما سواه، وأَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ برضوانه، وأنعم الله عليهم بجنته، كما أخبر الله تبارك وتعالى بذلك في قوله: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.[٢]

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ * جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾.[٣]

﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ﴾.

أي: غَيْرِ صِرَاطِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ، وَهُمُ الَّذِينَ عَلِمُوا الْحَقَّ فَعَدَلُوا عَنْهُ، واستبان لهم طريق الهدى فحادوا عنه وَهُمَ الْيَهُودُ، وَغَيْرِ صِرَاطِ الضَّالِّينَ، وَهُمُ الَّذِينَ لَمْ يَهْتَدُوا إِلَى الْحَقِّ أبتداءً، و لم يبصروا له طريقًا، وَهُمَ النَّصَارَى.

فعَنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «اليَهُودُ مَغْضُوبٌ عَلَيْهِمْ وَالنَّصَارَى ضُلَّالٌ».[٤]

فَالْيَهُودُ عَلِموا الحق و لم يتبعوه، وَالنَّصَارَى فَقَدُوا الْعِلْمَ ولَمْ يَهْتَدُوااليه؛ وَلِهَذَا كَانَ الْغَضَبُ لِلْيَهُودِ، وَالضَّلَالُ لِلنَّصَارَى، لِأَنَّ مَنْ عَلِمَ وَتَرَكَ اسْتَحَقَّ الْغَضَبَ، بِخِلَافِ مَنْ لَمْ يَعْلَمْ.

---

١ – سورة النِّسَاءِ: الآية/ ٦٩، ٧٠

٢ – سورة التَّوْبَةِ: الآية/ ١٠٠

٣ – سورة البينة: الآية/٧، ٨

٤ – رواه الترمذي– أَبْوَابُ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بَابٌ: وَمِنْ سُورَةِ فَاتِحَةِ الكِتَابِ، حديث رقم: ٢٩٥٤، وصححه الألباني

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّ زَيْدَ بْنَ عَمْرِو بْنِ نُفَيْلٍ خَرَجَ إِلَى الشَّأْمِ يَسْأَلُ عَنِ الدِّينِ، وَيَتْبَعُهُ، فَلَقِيَ عَالِمًا مِنَ اليَهُودِ فَسَأَلَهُ عَنْ دِينِهِمْ، فَقَالَ: إِنِّي لَعَلِّي أَنْ أَدِينَ دِينَكُمْ، فَأَخْبِرْنِي، فَقَالَ: لاَ تَكُونُ عَلَى دِينِنَا حَتَّى تَأْخُذَ بِنَصِيبِكَ مِنْ غَضَبِ اللَّهِ، قَالَ زَيْدٌ مَا أَفِرُّ إِلَّا مِنْ غَضَبِ اللَّهِ، وَلاَ أَحْمِلُ مِنْ غَضَبِ اللَّهِ شَيْئًا أَبَدًا، وَأَنَّى أَسْتَطِيعُهُ فَهَلْ تَدُلُّنِي عَلَى غَيْرِهِ، قَالَ: مَا أَعْلَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ حَنِيفًا، قَالَ زَيْدٌ: وَمَا الحَنِيفُ؟ قَالَ: دِينُ إِبْرَاهِيمَ لَمْ يَكُنْ يَهُودِيًّا، وَلاَ نَصْرَانِيًّا، وَلاَ يَعْبُدُ إِلَّا اللَّهَ، فَخَرَجَ زَيْدٌ فَلَقِيَ عَالِمًا مِنَ النَّصَارَى فَذَكَرَ مِثْلَهُ، فَقَالَ: لَنْ تَكُونَ عَلَى دِينِنَا حَتَّى تَأْخُذَ بِنَصِيبِكَ مِنْ لَعْنَةِ اللَّهِ، قَالَ: مَا أَفِرُّ إِلَّا مِنْ لَعْنَةِ اللَّهِ، وَلاَ أَحْمِلُ مِنْ لَعْنَةِ اللَّهِ، وَلاَ مِنْ غَضَبِهِ شَيْئًا أَبَدًا، وَأَنَّى أَسْتَطِيعُ فَهَلْ تَدُلُّنِي عَلَى غَيْرِهِ، قَالَ: مَا أَعْلَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ حَنِيفًا، قَالَ: وَمَا الحَنِيفُ؟ قَالَ: دِينُ إِبْرَاهِيمَ لَمْ يَكُنْ يَهُودِيًّا وَلاَ نَصْرَانِيًّا، وَلاَ يَعْبُدُ إِلَّا اللَّهَ، فَلَمَّا رَأَى زَيْدٌ قَوْلَهُمْ فِي إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ خَرَجَ، فَلَمَّا بَرَزَ رَفَعَ يَدَيْهِ فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَشْهَدُ أَنِّي عَلَى دِينِ إِبْرَاهِيمَ".[1]

وَكُلٌّ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى ضَالٌّ مَغْضُوبٌ عَلَيْهِ، لَكِنَّ أَخَصَّ أَوْصَافِ الْيَهُودِ الْغَضَبُ عَلَيْهِم كَمَا قَالَ فِيهِمْ: ﴿مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾.[2]

وَأَخَصُّ أَوْصَافِ النَّصَارَى الضَّلَالُ كَمَا قَالَ: ﴿قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾.[3]

١ - رواه البخاري- كتَابُ مَنَاقِبِ الأَنْصَارِ، بَابُ حَدِيثِ زَيْدِ بْنِ عَمْرِو بْنِ نُفَيْلٍ، حديث رقم: ٣٨٢٧

٢ - سورة الْمَائِدَةِ: الآية/ ٦٠

٣ - سورة الْمَائِدَةِ: الآية/ ٧٧

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

نزولها:

سُورَةُ الْبَقَرَةِ مَدَنِيَّةٌ. وقِيلَ: هِيَ أَوَّلُ سُورَةٍ نَزَلَتْ بِالْمَدِينَةِ.

ترتيبها:

هي السورة الثانية في ترتيب المصحف.

عدد آياتها:

٢٨٦ آية.

أسماؤها:

ورد لسُورَةِ الْبَقَرَةِ عدةُ أسماءٍ منها:

الأول: (سُورَةُ الْبَقَرَةِ).

سميت بذلك؛ لورود قصة البقرة فيها، وسماها بذلك رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

الثاني: (فُسْطَاطُ الْقُرْآنِ).

سميت بذلك؛ لِعِظَمِهَا، وَكَثْرَةِ أَحْكَامِهَا وَمَوَاعِظِهَا، وسماها بذلك عبد الله ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كما سيأتي بيان ذلك.

الثالث: (سَنَامُ الْقُرْآنِ).

سميت بذلك؛ لِعِظَمِ شأنها، وسمو مكانتها بين سور القرآن، كما يظهر هذا جليًا من الأحاديث التي وردت في فضلها، وسماها بذلك عبد الله بن مسعود رضي الله عنه كما سيأتي بيان ذلك.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

فَضْلُ سُورَةِ الْبَقَرَةِ:

هَذِهِ السُّورَةُ فَضْلُهَا عَظِيمٌ وَثَوَابُهَا جَسِيمٌ، و لم لا؟ وهي سَنَامُ الْقُرْآنِ وفُسْطَاطُه.

ومما ورد في فضل هذه السورة ما ثبت عَنْ أَبِي أُمَامَةَ الْبَاهِلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «اقْرَءُوا الْقُرْآنَ فَإِنَّهُ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ شَفِيعًا لِأَصْحَابِهِ، اقْرَءُوا الزَّهْرَاوَيْنِ الْبَقَرَةَ، وَسُورَةَ آلِ عِمْرَانَ، فَإِنَّهُمَا تَأْتِيَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ، أَوْ كَأَنَّهُمَا غَيَايَتَانِ، أَوْ كَأَنَّهُمَا فِرْقَانِ مِنْ طَيْرٍ صَوَافَّ، تُحَاجَّانِ عَنْ أَصْحَابِهِمَا، اقْرَءُوا سُورَةَ الْبَقَرَةِ، فَإِنَّ أَخْذَهَا بَرَكَةٌ، وَتَرْكَهَا حَسْرَةٌ، وَلَا تَسْتَطِيعُهَا الْبَطَلَةُ». قَالَ مُعَاوِيَةُ: بَلَغَنِي أَنَّ الْبَطَلَةَ: السَّحَرَةُ.[1]

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «لَا تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ مَقَابِرَ، إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْفِرُ مِنَ الْبَيْتِ الَّذِي تُقْرَأُ فِيهِ سُورَةُ الْبَقَرَةِ».[2]

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ سَنَامًا، وَإِنَّ سَنَامَ الْقُرْآنِ سُورَةُ الْبَقَرَةِ، وَإِنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ لُبَابًا، وَإِنَّ لُبَابَ الْقُرْآنِ الْمُفَصَّلُ».[3]

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعْثًا وَهُمْ نَفَرٌ، فَدَعَاهُمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «مَاذَا مَعَكَ مِنَ الْقُرْآنِ»؟ فَاسْتَقْرَأَهُمْ حَتَّى مَرَّ عَلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ وَهُوَ مِنْ أَحْدَثِهِمْ سِنًّا قَالَ: «مَاذَا مَعَكَ يَا فُلَانُ؟» قَالَ: مَعِي كَذَا وَكَذَا، وَسُورَةُ الْبَقَرَةِ قَالَ: «مَعَكَ سُورَةُ الْبَقَرَةِ؟» قَالَ: نَعَمْ قَالَ: «اذْهَبْ، فَأَنْتَ أَمِيرُهُمْ».[4]

---

١ - رواه مُسْلِمٌ- كِتَابُ صَلَاةِ الْمُسَافِرِينَ وَقَصْرِهَا، بَابُ فَضْلِ قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ، وَسُورَةِ الْبَقَرَةِ، حديث رقم: ٨٠٤

٢ - رواه مُسْلِمٌ- كِتَابُ صَلَاةِ الْمُسَافِرِينَ وَقَصْرِهَا، بَابُ اسْتِحْبَابِ صَلَاةِ النَّافِلَةِ فِي بَيْتِهِ، وَجَوَازِهَا فِي الْمَسْجِدِ ، حديث رقم: ٧٨٠

٣ - رواه الدارمي- وَمِنْ كِتَابِ فَضَائِلِ الْقُرْآنِ، بَابُ: فِي فَضْلِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ ، حديث رقم: ٣٤٢٠ بسند حسن

٤- رواه التِّرْمِذِيُّ- أَبْوَابُ فَضَائِلِ الْقُرْآنِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بَابُ مَا جَاءَ فِي فَضْلِ سُورَةِ البَقَرَةِ وَآيَةِ الكُرْسِيِّ، حديث رقم: ٢٨٧٦، وَصَحَّحَهُ، وابن خزيمة- كِتَابُ الْإِمَامَةِ فِي الصَّلَاةِ، وَمَا فِيهَا مِنَ السُّنَنِ مُخْتَصَرٌ مِنْ كِتَابِ الْمُسْنَدِ، بَابُ اسْتِحْقَاقِ الْإِمَامَةِ بِالِازْدِيَادِ مِنْ حِفْظِ الْقُرْآنِ، وَإِنْ كَانَ غَيْرُهُ أَسَنَّ مِنْهُ وَأَشْرَفَ، حديث رقم: ١٥٠٩، وابن حبان- بَابُ فَرْضِ مُتَابَعَةِ الْإِمَامِ، ذِكْرُ اسْتِحْقَاقِ الْإِمَامَةِ بِالِازْدِيَادِ مِنْ حِفْظِ الْقُرْآنِ عَلَى الْقَوْمِ وَإِنْ كَانَ فِيهِمْ مَنْ هُوَ أَحْسَبُ وَأَشْرَفُ مِنْهُ، حديث رقم: ٢١٢٦، والحاكم- حديث رقم: ١٦٢٢، وصححه

وَعَنْ أُسَيْدِ بْنِ حُضَيْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: بَيْنَمَا هُوَ يَقْرَأُ مِنَ اللَّيْلِ سُورَةَ البَقَرَةِ، وَفَرَسُهُ مَرْبُوطَةٌ عِنْدَهُ، إِذْ جَالَتِ الفَرَسُ فَسَكَتَ فَسَكَتَتْ، فَقَرَأَ فَجَالَتِ الفَرَسُ، فَسَكَتَ وَسَكَتَتِ الفَرَسُ، ثُمَّ قَرَأَ فَجَالَتِ الفَرَسُ فَانْصَرَفَ، وَكَانَ ابْنُهُ يَحْيَى قَرِيبًا مِنْهَا، فَأَشْفَقَ أَنْ تُصِيبَهُ فَلَمَّا اجْتَرَّهُ رَفَعَ رَأْسَهُ إِلَى السَّمَاءِ، فَإِذَا مِثْلُ الظُّلَّةِ فِيهَا أَمْثَالُ المَصَابِيحِ، حَتَّى مَا يَرَاهَا، فَلَمَّا أَصْبَحَ حَدَّثَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: اقْرَأْ يَا ابْنَ حُضَيْرٍ، اقْرَأْ يَا ابْنَ حُضَيْرٍ، قَالَ: فَأَشْفَقْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنْ تَطَأَ يَحْيَى، وَكَانَ مِنْهَا قَرِيبًا، فَرَفَعْتُ رَأْسِي فَانْصَرَفْتُ إِلَيْهِ، فَرَفَعْتُ رَأْسِي إِلَى السَّمَاءِ، فَخَرَجَتْ حَتَّى لاَ أَرَاهَا، قَالَ: «وَتَدْرِي مَا ذَاكَ؟»، قَالَ: لاَ، قَالَ: «تِلْكَ المَلاَئِكَةُ دَنَتْ لِصَوْتِكَ، وَلَوْ قَرَأْتَ لَأَصْبَحَتْ يَنْظُرُ النَّاسُ إِلَيْهَا، لاَ تَتَوَارَى مِنْهُمْ».[1]

قَالَ ابْنُ الْعَرَبِيِّ: سَمِعْتُ بَعْضَ أَشْيَاخِي يَقُولُ: فِيهَا أَلْفُ أَمْرٍ وَأَلْفُ نَهْيٍ وَأَلْفُ حُكْمٍ وَأَلْفُ خَبَرٍ.

١ – رواه البخاري– كِتَابُ فَضَائِلِ القُرْآنِ، بَابُ نُزُولِ السَّكِينَةِ وَالمَلاَئِكَةِ عِنْدَ قِرَاءَةِ القُرْآنِ، حديث رقم: ٥٠١٨، ومسلم– كِتَابُ صَلَاةِ الْمُسَافِرِينَ وَقَصْرِهَا، بَابُ نُزُولِ السَّكِينَةِ لِقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ، حديث رقم: ٧٩٦

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿الم﴾. الآية/ ١

بدأت هذه السورة بثلاثة حُرُوفٍ من الْحُرُوفِ الْمُقَطَّعَةِ ﴿الم﴾ وَلَا شَكَّ أَنَّ هَذِهِ الْحُرُوفَ لَمْ يُنْزِلْهَا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَبَثًا وَلَا سُدًى، بل لحكمة عظيمة وغاية جليلة.

وَقَدِ اخْتَلَفَ الْمُفَسِّرُونَ فِي الْحُرُوفِ الْمُقَطَّعَةِ الَّتِي فِي أَوَائِلِ السُّوَرِ، ما المراد منه؟

والراجح أَنَّ هَذِهِ الْحُرُوف إنما ذُكِرَتْ فِي أَوَائِلِ السُّوَرِ الَّتِي ذُكِرَتْ فِيهَا بَيَانًا لِإِعْجَازِ الْقُرْآنِ، وَأَنَّ الْخَلْقَ عَاجِزُونَ عَنْ مُعَارَضَتِهِ بِمِثْلِهِ، مَعَ أَنَّهُ تَرَكَّبَ مِنْ هَذِهِ الْحُرُوفِ الْمُقَطَّعَةِ الَّتِي يَتَخَاطَبُونَ بِهَا.

وَلِهَذَا كُلُّ سُورَةٍ افْتُتِحَتْ بِالْحُرُوفِ الْمُقَطَّعَةِ فَلَا بُدَّ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا الِانْتِصَارُ لِلْقُرْآنِ، وَبَيَانُ إِعْجَازِهِ وَعَظَمَتِهِ، وَهَذَا مَعْلُومٌ بِالِاسْتِقْرَاءِ، وَقد وَقَعَ هذا فِي تِسْعٍ وَعِشْرِينَ سُورَةً، كما في هذه السورة، وكما في قوله تَعَالَى: ﴿الم * اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ * نزل عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾.[١]

وَأيضًا قَالَ تَعَالَى: ﴿المص * كِتَابٌ أُنزل إِلَيْكَ فَلا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ﴾.[٢]

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿الر كِتَابٌ أَنزلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾.[٣]

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿الم * تَنزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.[٤]

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿حم * تَنزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.[٥]

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿حم * عسق * كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.[٦]

---

١ - سورة آلِ عِمْرَانَ:الآية/ ١: ٣

٢ - سورة الْأَعْرَافِ: الآية/ ١، ٢

٣ - سورة إِبْرَاهِيمَ: الآية/ ١

٤ - سورة السَّجْدَةِ: الآية/ ١، ٢

٥ - سورة فُصِّلَتْ: الآية/ ١، ٢

٦ - سورة الشُّورَى: الآية/ ١: ٣

وليس المراد هنا استقصاء هذه المواضع التي ذُكِرَتْ فيها هذه الحروفُ المقطعةُ، وإنما المراد بيان أنها ذكرت لبيان عجز العرب عن معارضة القرآن، مع أنه من جنس حروفهم التي يتخاطبون بها.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾. الآية/ ٢

يخبرنا الله تبارك وتعالى أَنَّ هَذَا الْكِتَابَ يعني الْقُرْآن لَا شَكَّ فِيهِ أَنَّهُ نَزَلَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، ومن صفات هذا الْكِتَابِ أنه هُدًى لِلْمُتَّقِينَ، وهو كذلك مَوْعِظَةٌ مِنْ اللَّهِ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ.

﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾.

ذَلِكَ اسم للإشارة إلى البعيد، واستعمل هنا للإشارة إلى القرآن على قربه؛ إيذانا بعلو شأنه وارتفاع منزلته، وسمو مكانته، في الإعجاز، والبيان، والتشريع، والأحكام، والقصص، والأمثال، فنزل بُعْدُ المرتبةِ والمكانةِ منزلةَ البُعْدِ الحِسِّي.

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾: هَذَا الْكِتَابُ.

وَكَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ، وَعِكْرِمَةُ، وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ، وَالسُّدِّيُّ، وَمُقَاتِلُ بْنُ حَيَّانَ، وَزَيْدُ بْنُ أَسْلَمَ، وَابْنُ جُرَيْجٍ: أَنَّ ذَلِكَ بِمَعْنَى هَذَا، وَالْعَرَبُ تُقَارِضُ بَيْنَ هَذَيْنِ الِاسْمَيْنِ مِنْ أَسْمَاءِ الْإِشَارَةِ فَيَسْتَعْمِلُونَ كُلًّا مِنْهُمَا مَكَانَ الْآخَرِ، وَهَذَا مَعْرُوفٌ فِي كَلَامِهِمْ.[١]

قال ابن مالك: وقد ينوب ذو البعد عن ذي القرب لعظمة المشير أو المشار إليه، وذو القرب عن ذي البعد لحكاية الحال، وقد يتعاقبان مشارا بهما إلى ما ولياه.[٢]

﴿لَارَيْبَ فِيهِ﴾.

الرَّيْبُ هو الشَّكُّ مع التُّهْمَةِ، وهُوَ قَلَقُ النَّفْسِ وَاضْطِرَابُهَا.

قال أبوالفتح الخوارزمي: (رَيبُ): (رَابَهُ رَيْبًا) شَكَّكَهُ وَالرِّيبَةُ الشَّكُّ وَالتُّهْمَةُ وَمِنْهَا الْحَدِيثُ: «دَعْ مَايَرِيبُك إلَى مَالَا يَرِيبُك فَإِنَّ الْكَذِب رِيبَةٌ وَإِنَّ الصِّدْقَ طُمَأْنِينَةٌ». أَيْ يُشَكِّكُك وَيُحَصِّلُ فِيك الرِّيبَةَ وَهِيَ فِي الْأَصْلِ قَلَقُ النَّفْسِ وَاضْطِرَابُهَا أَلَا تَرَى كَيْفَ قَابَلَهَا بِالطُّمَأْنِينَةِ، وَهِيَ السُّكُونُ وَذَلِكَ أَنَّ النَّفْسَ لَا تَسْتَقِرُّ مَتَى شَكَّتْ فِي أَمْرٍ وَإِذَا أَيْقَنَتْهُ سَكَنَتْ وَاطْمَأَنَّتْ.[٣]

---

١ - تفسير ابن كثير (١/ ١٦٢)

٢ - التذييل والتكميل في شرح كتاب التسهيل (٣/ ٢٠٦)

٣ - المغرب في ترتيب المعرب (ص: ٢٠٣)

وَمما يدل على أن الرَّيْبَ يُسْتَعْمَلُ فِي التُّهْمَةِ قَولُ جَمِيل:

بُثَيْنَةُ قَالَتْ يَاجَمِيلُ أَرَبْتَنِي ***** فَقُلْتُ كِلَانَا يَا بُثَيْنُ مُرِيبُ

وليس مجرد الشك، فإن الشك: هو تردد الذهن بين أمرين على حد سواء.

وذلك أن المشركين – مع شكهم في القرآن – كانوا يتهمون النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بأنه هو الذي افتراه وألفه، وليس مُنَزَّلًا من عند الله تعالى؛ كما قَالَ تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا * وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلا﴾.[1]

وقال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ﴾.[2]

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾.[3]

فتولى الله تعالى الدفاع عن نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ونفي التهمة عنه، وبين أن كتابه أسمى من أن تتطرق إليه الريب، وأجل من أن تصل إليه الظنون.

﴿هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾.

من صفات هذا الكتاب العظيم، أنه كتابُ هِدَايَةٍ، ينيرُ دروبَ السائرين إلى الله تعالى، وتستضيءُ بنوره قلوبُ الْمُؤْمِنِينَ، كَمَا قَالَ تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾.[4]

---

١ – سورة الْفُرْقَانِ: الآية/ ٤، ٥

٢– سورة هود: الآية/ ٣٥

٣– سورة النحل: الآية/ ١٠٣

٤– سورة الإسراء: الآية/ ٩

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وكَمَا قَالَ تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾.[1]

وليست هذه الْهِدَايَةُ إِلَّا لِلْمُتَّقِينَ الْأَبْرَارُ، كَمَا قَالَ: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾.[2]

فهُوَ فِي نَفْسِهِ هُدًى، ونور، وَلَكِنْ لَايَنَالُهُ إِلَّا الْمُؤْمِنُونَ الْمُتَّقُونَ الْأَبْرَارُ.

قال ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ أَيْ: الَّذِينَ يَحْذَرُونَ مِنَ اللَّهِ عُقُوبَتَهُ فِي تَرْكِ مَايَعْرِفُونَ مِنَ الْهُدَى، وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ فِي التَّصْدِيقِ بِمَا جَاءَ بِهِ.

والتَّقْوَى هي الخشية، والخوف؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿يُنزِلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلا أَنَا فَاتَّقُونِ﴾.[3]

قَالَ تَعَالَى: ﴿هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ﴾.[4]

أَيْ: هُوَ أَهْلٌ أَنْ يُخاف مِنْهُ.

قالَ ابنُ سِيدَه: التَّقْوَى أَصْلُه وَقْوَى، وَهِي فَعْلَى من وَقَيْتُ.[5]

وَعَنْ طَلْقِ بْنِ حَبِيبٍ، قَالَ: التَّقْوَى أَنْ تَعْمَلَ بِطَاعَةِ اللَّهِ رَجَاءَ رَحْمَةِ اللَّهِ عَلَى نُورٍ مِنَ اللَّهِ، وَالتَّقْوَى أَنْ تَتْرُكَ مَعْصِيَةَ اللَّهِ مَخَافَةَ عَذَابِ اللَّهِ عَلَى نُورٍ مِنَ اللَّهِ.

وسُئِل عليٌّ رضي الله تعالى عنه عن التَّقوى، فقال: هي الخوفُ من الجَليل، والعملُ بما في التنزيل، والاستعدادُ ليوم الرَّحيل.

وَلا يَبْلُغُ العَبْدُ حقيقةَ التَّقوى حتى يَدَعَ مالا بأس به حذرًا مما به بأسٌ.

١- سورة يُونُسَ: الآية/ ٥٧

٢- سورة فُصِّلَتْ: الآية/ ٤٤

٣- سورة النَّحْلِ: الآية/ ٢

٤- سُورَةُ الْمُدَّثِّرِ: الآية/ ٥٦

٥ - تاج العروس (٤٠/ ٢٢٩)

فعَنْ عَطِيَّةَ السَّعْدِيِّ، وَكَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا يَبْلُغُ الْعَبْدُ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُتَّقِينَ حَتَّى يَدَعَ مَا لَا بَأْسَ بِهِ حَذَرًا مِمَّا بِهِ بَأْسٌ».[1]

وقال ابنُ عُمر: لا يَبْلُغُ العَبْدُ حقيقةَ التَّقوى حتى يَدَعَ ما حاكَ في الصَّدر.

﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾. الآية/ ٣

ثم بين الله تعالى صفات المتقين فقال يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَالْإِيمَانُ قَوْلٌ وَاعْتِقَادٌ وَعَمَلٌ يَزِيدُ وَيَنْقُصُ.

والغَيْبُ: مصدرُ غَابَ وهو كل ما استتر عن العين، كما قال تعالى حكاية عن سليمان عليه السلام: ﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ﴾.[2]

أي: مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أحضرَ وستره ساتر فأَخْطَأَهُ بَصَرِي، أَمْ لَمْ يَحْضُرْ.

فالغَيْبُ ما لا يقع تحت الحواسّ، ولا تقتضيه بدائه العقول، ومنه قَوْلُهُ تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ * بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾.[3]

ويطلق الغَيْبُ باعتبار نسبته إلى الناس، لا إلى الله تعالى، فإنه لا يغيب عنه شيء فِي الْأَرْضِ ولا في السَّماءِ؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾.[4]

وإنما يُعلمُ الغَيْبُ بخبر الأنبياء عليهم السلام، ولا سبيل لأحد إلى العلم به؛ كما قال تعالى: ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلا اللَّهُ﴾.[5]

وَالمراد بالغَيبِ هنا كلُ ما غَابَ عَنِ الْعِبَادِ مِنْ أَمْرِ الْجَنَّةِ، وَالنَّارِ، والملائكةِ، والعرشِ، والكرسيِّ، واللوحِ، وَكلِ مَا ذُكِرَ فِي الْقُرْآنِ.

﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾.

أي: يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ بِفُرُوضِهَا، وحدودها، وشروطها، والمداومة عليها، وليس المراد مجرد الصلاة.

---

١ - رواه الطبراني في الكبير- حديث رقم: ٤٤٦

٢ - سورة النمل: الآية/ ٢٠

٣ - سورة مَرْيَمَ: الآية/ ٧٧، ٧٨

٤ - سورة النمل: الآية/ ٧٥

٥ - سورة النَّمْلِ: الآية/ ٦٥

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

قال الراغب: إقامة الصلاة: توفية حدودها وإدامتها، وتخصيص " الإقامة " تنبيه على أنه لم يرد إيقاعها فقط.

ولهذا لم يأمر بالصلاة و لم يمدح بها إلا بلفظ الإقامة نحو: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ﴾.[1]

وقوله: ﴿وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ﴾.[2]

وقوله: ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾.[3]

و لم يقل المصلي إلا في المنافقين: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾.[4]

وذلك تنبيه أن المصلين كثيرٌ، والمقيمين لها قليلٌ، كما قال عمر رضي الله عنه: (الحاج قليل والركب كثير).[5]

﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾.

قيل المراد بذلك الزَّكَاةُ الْمَفْرُوضَةَ، لاقترانها بالصَّلاةِ، كما قال تعالى هنا: ﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾.

وكما قال تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.[6]

أَيْ: أَقِيمُوا صَلَاتَكُمُ الْوَاجِبَةَ عَلَيْكُمْ، وَآتُوا الزَّكَاةَ الْمَفْرُوضَةَ.

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾: زَكَاةُ أَمْوَالِهِمْ.

وقيل المراد بذلك مطلق النفقة، فمن صفات عباد الله المتقين أنهم يُنْفِقُونَ مِمَّا آتَاهُمُ اللَّهُ ورَزَقَهُمْ من صنوف الخيرِ عَلَى أَهْلِيهِمْ، وَذوي قَرَابَتِهِمْ، وَالْفُقَرَاءِ، والمحتاجين؛ لأن الأنفاق ذكر في سياق المدح.

فعَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِنَّكَ لَنْ تُنْفِقَ نَفَقَةً تَبْتَغِي بِهَا وَجْهَ اللَّهِ إِلَّا أُجِرْتَ عَلَيْهَا، حَتَّى مَا تَجْعَلُ فِي فَمِ امْرَأَتِكَ».[1]

---

١ - سورة هود: الآية/ ١١٤

٢ - سورة الإسراء: الآية/ ٧٨

٣ - سورة المائدة: الآية/ ٥٥

٤ - سورة الماعون: الآية/ ٤، ٥

٥ - تفسير الراغب الأصفهاني (١/ ٨١)

٦ - سُورَةُ النُّورِ: الآية/ ٥٦

وَروي هذا عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَابْنِ مَسْعُودٍ، وغيرهما قَالَوا: هِيَ نَفَقَةُ الرَّجُلِ عَلَى أَهْلِهِ، وَهَذَا قَبْلَ أَنْ تُنَزَّلَ الزَّكَاةُ.

والراجح أن الإنفاق في الآية يشمل الْوَاجِبَ الْمَنْدُوبَ.

قال الفخر الرازي: يَدْخُلُ فِي الْإِنْفَاقِ الْمَذْكُورِ فِي الْآيَةِ، الْإِنْفَاقُ الْوَاجِبُ، وَالْإِنْفَاقُ الْمَنْدُوبُ، وَالْإِنْفَاقُ الْوَاجِبُ أَقْسَامٌ: أَحَدُهَا: الزَّكَاةُ وَهِيَ قَوْلُهُ فِي آيَةِ الْكَنْزِ: ﴿وَلا يُنْفِقُونَها فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾.[٢]

وَثَانِيهَا: الْإِنْفَاقُ عَلَى النَّفْسِ وَعَلَى مَنْ تَجِبُ عَلَيْهِ نَفَقَتُهُ.

وَثَالِثُهَا: الْإِنْفَاقُ فِي الْجِهَادِ.

وَأَمَّا الْإِنْفَاقُ الْمَنْدُوبُ فَهُوَ أَيْضًا إِنْفَاقٌ لِقَوْلِهِ: ﴿وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْناكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ وَأَرَادَ بِهِ الصَّدَقَةَ لِقَوْلِهِ بَعْدَهُ: ﴿فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾.[٣]

فَكُلُّ هَذِهِ الْإِنْفَاقَاتِ دَاخِلَةٌ تَحْتَ الْآيَةِ لِأَنَّ كُلَّ ذَلِكَ سبب لاستحقاق المدح.[٤]

---

١ - رواه البخاري- كِتَابُ الإِيمَانِ، بَابٌ: مَا جَاءَ إِنَّ الأَعْمَالَ بِالنِّيَّةِ وَالحِسْبَةِ، وَلِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى، حديث رقم: ٥٦، ومسلم- كِتَابُ الْوَصِيَّةِ، بَابُ الْوَصِيَّةِ بِالثُّلُثِ، حديث رقم: ١٦٢٨

٢ - سورة التَّوْبَةِ: الآية/ ٣٤

٣ - سورة الْمُنَافِقُونَ: الآية/ ١٠

٤ - مفاتيح الغيب (٢/ ٢٧٧)

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

قَولُهُ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِما أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَما أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾. الآية/ ٤

أَيْ: وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِمَا جِئْتَ بِهِ مِنَ عند اللَّهِ تعالى، والمراد به القرآن، وعبر عنه بلفظ الماضي ﴿أُنزل﴾ وإن كان بعضه لم يترل بعد تغليبًا لما نزل منه على ما لم يترل.

وَيُؤْمِنُونَ بِما أُنْزِلَ من الكتب على مِنْ قَبْلَكَ من المرسلين.

واختلف في الْمُرَادِ بِالْمُؤْمِنِينَ في هذه الآية والتي قبلها، هل هما صنف واحد أم هما صنفان؟

فَاخْتَارَ ابْنُ جَرِيرٍ، والفخر الرازي وغيرهما أن المراد بِالْمُؤْمِنِينَ في الآية الأولى مَنْ آمنَ مِنْ مُشْرِكِي الْعَرَبِ، وفي الآية الثانية من آمن من أهل الكتاب، كعَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ وَأَمْثَالِهِ.

وَعَنْ مُجَاهِدٍ وَأَبِي الْعَالِيَةِ وَالرَّبِيعِ بْنِ أَنَسٍ وَقَتَادَةَ: أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ فِي الْآيَتَيْنِ صنفٌ وَاحِدٌ، وَإِنَّمَا تَعَدَّدَتْ صفاتهم، فَالْعَطْفُ فِي الآيتين عَطْفُ صِفَاتٍ لَا عَطْفُ مَوْصُوفِينَ، ويكون ذلك من قبيل عطف الخاص على العام، فإن الغيب عام يشمل جميع أركان الإيمان، وما ذكر في هذه الآية خاصٌ، وَالسَّبَبُ فِي ذِكْرِ هَذَا الْخَاصِّ بَعْدَ ذَلِكَ الْعَامِّ، الثناء على من كانت هذه صفاته.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: بَلْ نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَاتُ الْأَرْبَعُ فِي مُؤْمِنِي أَهْلِ الْكِتَابِ خَاصَّةً.[1]

والراجح: أنها تشمل كل من آمن بالله ربًا وبالإسلام دينًا، وبمحمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نبيًا، وما أنزل إليه وما أنزل من قبله، ولا يلزم من ذِكْرِ الْإِيمَانِ بِمَا أُنْزِلَ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَمَا أُنْزِلَ إِلَى مَنْ قَبْلَهُ أن يكون ذَلِكَ وَصْفًا خاصًا بمن آمن مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، كما لا يلزم أن يكون ذكر الغيب في الآية الأولى خاصًا بمشركي العرب.

وقد أمر الله تعالى بين الآمرين معا الإيمان بالقرآن والإيمان بالكتب السابقة ي غير آية كما في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نزل عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزل مِنْ قَبْلُ﴾.[2]

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزل إِلَيْنَا وَأُنزل إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ﴾.[3]

---

١ - جامع البيان (١/ ٢٤٤)

٢ - سورة النِّسَاءِ: الْآيَةَ/ ١٣٦

٣ - سورة الْعَنْكَبُوتِ: الْآيَةَ/ ٤٦

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾.[1]

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾.[2]

وَقَالَ: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾.[3]

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾.

أي: بالدَّارِ الْآخِرَةِ، وفي الكلام إيجاز بالحذف، والْآخِرَةُ، صِفَةٌ لِلدَّارِ، وَإِنَّمَا صَارَتِ آخِرَةً لَتَقَدُّمَ الْأُولَى عليها، وَسُمِّيَتْ الدَّارُ الْآخِرَةُ آخِرَةً لأنه ليس بعدها دَّارٌ فهي وإن كانت التَّالِيَةُ لِلْأُولَى لكنها لما كان لا يعقبها دارٌ سُمِّيَتْ بالدَّارِ الْآخِرَةِ.

والْيَقِينُ في اللغة هو: الْعِلْمُ، وَإِزَاحَةُ الشَّكِّ، وتحقيقُ الأَمر، واليَقِين: نَقيض الشَّكِّ، وَالْعِلْمُ نقيضُ الْجَهْلِ، تَقُولُ عَلِمْتُه يَقِينًا.[4]

والْيَقِينُ هُوَ: الْعِلْمُ بِالشَّيْءِ بَعْدَ أَنْ كَانَ صَاحِبُهُ شَاكًّا فِيهِ، ولا يطلق اليقين إلا على العلم المكتسب، لِذَلِكَ لَا يُوصَفُ اللَّهُ تَعَالَى بِأَنَّهُ يَتَيَقَّنُ الْأَشْيَاءَ.

وَلَا يُعْتَدُّ بِمَا دُونَ الْيَقِينِ فِي الْإِيمَانِ، وَقَدْ قَالَ اللهُ تَعَالَى فِي اعْتِقَادِ قَوْمٍ: ﴿وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾.[5]

وفي الكلام تعريض بمشركي قريش الذين ينكرون البعث والنشور والحساب؛ كما قَالَ اللَّهُ تعالى: ﴿وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾.[6]

وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلا الدَّهْرُ﴾.[7]

---

١ - سورة الْمَائِدَةِ: الْآيَةَ/ ٦٨

٢ - سورة الْبَقَرَةِ: الْآيَةَ/ ٢٨٥

٣ - سورة النِّسَاءِ: الْآيَةَ/ ١٥٢

٤ - لسان العرب (١٣/ ٤٥٧)

٥ - سُورَةُ النَّجْمِ: الآية/ ٢٨

٦ - سُورَةُ الْأَنْعَامِ: الآية/ ٢٩

٧ - سُورَةُ الْجَاثِيَةِ: الآية/ ٢٤

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

فقد كانوا يقولون: (إنما هي أرحام تدفع، وأرض تبلع، ومن مات فات، وصار إلى الرفات، ولا عود بعد الفوات).

لذلك قال الله تعالى: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾.[1]

١ - سُورَةُ التَّغَابُنِ: الآية/ ٧

قَولُهُ تَعَالَى: ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾. الآية/ ٥

الإشارة هنا إلى مَنْ تقدم فِي الْآيَتَيْنِ السَّابِقَتَيْنِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ والثناء عليهم بالْإِيمَانِ بِالْغَيْبِ، وَإِقَامِ الصَّلَاةِ، وَالْإِنْفَاقِ مِنَ الَّذِي رَزَقَهُمُ اللَّهُ، وَالْإِيمَانِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَى الرَّسُولِ، وَالْإِيمَانِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ على مَنْ قَبْلَهُ مِنَ الرُّسُلِ، وَاليقين بِالدَّارِ الْآخِرَةِ، وما فيها من البعث والجزاء.

أَيْ: عَلَى نُورٍ وَتَوْفِيقٍ مِنْ رَبِّهِمْ، وَاسْتِقَامَةٍ عَلَى مَا جَاءَهُمْ، من عند الله تعالى، ومن كان كذلك فقد فاز فوزًا عظيمًا، وسعد السعادةَ الحقيقيةَ، و لَمَ لَا واللهُ تعالى قد شهدَ له بالفلاحِ.

وقد اشتملت هذه السورة العظيمة على جملة من الموضوعات تعالج جملة القضايا، وترسي دعائم الدولة الإسلامية التي أسسها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والموضوع الأول في هذه السورة الكريمة يتحدث عن أصناف الناس، فالناس أقسام ثلاثة لا رابع لها، مؤمنون، وكافرون، ومُنَافِقُونَ، وقد نزلت في هذه السورة أَرْبَعُ آيَاتٍ فِي نَعْتِ الْمُؤْمِنِينَ، وَآيَتَانِ فِي نَعْتِ الْكَافِرِينَ، وَثَلَاثَ عَشْرَةَ فِي صفات الْمُنَافِقِينَ.

ودلالة ذلك أن خطر المنافقين أعظمُ بكثيرٍ جدًا على هذه الأمة من خطرِ الكفارِ، وسيأتي بيان ذلك موضحًا إن شاء الله.

قَالَ مُجَاهِدٍ: أَرْبَعُ آيَاتٍ مِنْ أَوَّلِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ فِي نَعْتِ الْمُؤْمِنِينَ، وَآيَتَانِ فِي نَعْتِ الْكَافِرِينَ، وَثَلَاثَ عَشْرَةَ فِي الْمُنَافِقِينَ.[1]

قال ابن كثير رحمه الله: فَهَذِهِ الْآيَاتُ الْأَرْبَعُ عَامَّةٌ فِي كُلِّ مُؤْمِنٍ اتَّصَفَ بِهَا مِنْ عَرَبِيٍّ وَعَجَمِيٍّ، وَكِتَابِيٍّ مِنْ إِنْسِيٍّ وَجِنِّيٍّ، وَلَيْسَ تَصِحُّ وَاحِدَةٌ مِنْ هَذِهِ الصِّفَاتِ بِدُونِ الْأُخْرَى، بَلْ كُلُّ وَاحِدَةٍ مُسْتَلْزِمَةٌ لِلْأُخْرَى وَشَرْطٌ مَعَهَا، فَلَا يَصِحُّ الْإِيمَانُ بِالْغَيْبِ وَإِقَامُ الصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ إِلَّا مَعَ الْإِيمَانِ بِمَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمَا جَاءَ بِهِ مَنْ قَبْلَهُ مِنَ الرُّسُلِ وَالْإِيقَانِ بِالْآخِرَةِ، كَمَا أَنَّ هَذَا لَا يَصِحُّ إِلَّا بِذَاكَ.[2]

---

١ - تفسير الطبري (١/ ٢٤٦)

٢ - تفسير ابن كثير (١/ ١٧١)

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

قَولُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾. الآية/ ٦

هذا هو الصنف الثاني من الأصناف الثلاثة المذكورة في هذه الآيات، وهم (الكفار).

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾.

أَيْ: غَطوا الْحَقَّ وَسَتَرُوهُ، وأصل الكفرِ الستر والإخفاءُ، لذلك يقال للفلاح الذي يزرع الأرض كافر لأنه يستر البذر في الأرض، قال الله تعالى: ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ﴾.[1]

أَيْ: يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ نَبَاتُ ذَلِكَ الزَّرْعِ، وسمي الكافرُ كافرًا لأنه جحد وجود الله تعالى وستر تلك الحقيقة التي لا أوضح منها، وفي كل شيء له آيه تدل على أنه واحد.

سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ إِنْذَارُكَ وَعَدَمُهُ، ثم بين سبحانه علة ذلك فقال: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ فلا يدخلها إيمان، ولا يخرج منها كفر، فهي في الحقيقة ميتة، وخَتَمَ اللَّهُ كذلك عَلَى أَسْمَاعِهِمْ، فلا ينتفعون بموعظة، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾.[2]

وهم المعنيون بقول الله تعالى: ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ * وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ﴾.[3]

﴿وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ﴾.

فلا ينتفعون بنور الإيمان الذي عم ارجاء الكون، وفاق نور الصباح في ضيائه، ولكنه عمى البصيرة والأبصار.

كما قيل:

قد تُنْكِرُ العينُ ضوءَ الشمسِ من رَمَدٍ ***** وينكرُ الفمُ طعمَ الماءِ من سقمِ

---

١ - سُورَةُ الْحَدِيدِ: الآية/٢٠

٢ - سُورَةُ الْمُلْكِ: الآية/ ١٠

٣ - سُورَةُ الرُّومِ: الآية/ ٥٢، ٥٣

فالْخَتْمُ يكون عَلَى الْقَلْبِ وَالسَّمْعِ، وَالْغِشَاوَةُ تكون عَلَى الْبَصَرِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً﴾.[1]

﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾.

فَلَا يُؤْمِنُونَ بِمَا جِئْتَهُمْ بِهِ، من الهدي؛ لأنهم سبق في علم الله تعالى كفرهم وضلالهم، لإعراضهم عن الهدى وبعدهم عن الإيمان، قَالَ الله تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾.[2]

في هذه الآية من الأساليب البلاغية عامٌ يراد به الخصوص لأن كثيرًا من الكفار قد آمنوا عند إنذارهم، فيكون المقصود الوعيدُ الشديدُ لعموم الكفار، والتحذير من مغبة البقاء في الضلال.

١ - سُورَةُ الجَاثِيةِ: الآية/ ٢٣

٢ - سُورَةُ الصَّفِّ: الآية/ ٥

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

قَولُهُ تَعَالَى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ (٨) يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (٩) فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾. الآية/ ٨-١٠

الصنف الثالث من الأصناف المذكورة في هذه الآيات: الْمُنَافِقِونَ؛ وهم قوم أظهروا الإسلام، وأسروا الكفر، يجيدون التلون، ويتقنون المخادعة، قالوا بألسنتهم آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ، وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ حقيقة؛ لأن الإيمان لم يعرف إلى نفوسهم طريقًا، و لم تخالط بشاشته قلوبهم.

ولئلا يفتضح أمرهم وينكشف سرهم كانوا يحرصون على الإعلان عن ولائهم للدين وانتمائهم إليه كلما كانوا بين المؤمنين، وإذا أتوا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ زيادة في الاختفاء، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ﴾.[1]

والنِّفَاقُ: هُوَ إِظْهَارُ الْخَيْرِ وَإِسْرَارُ الشَّرِّ.

قال أَبو عُبَيْدٍ: سُمِّيَ المنافقُ مُنافقاً للنَّفَق وَهُوَ السَّرَب فِي الأَرض، وَقِيلَ: إِنَّمَا سُمِّيَ مُنافقاً لأَنه نافَقَ كَالْيَرْبُوعِ وَهُوَ دُخُولُهُ نَافِقَاءَهُ. يُقَالُ: قَدْ نَفَقَ بِهِ ونافَقَ، وَلَهُ جُحْرٌ آخَرُ يُقَالُ لَهُ القاصِعاء، فَإِذَا طلِبَ قَصَّع فَخَرَجَ مِنَ القاصِعاء، فَهُوَ يَدْخُلُ فِي النافِقاء وَيَخْرُجُ مِنَ القاصِعاء، أَوْ يَدْخُلُ فِي القاصِعاء وَيَخْرُجُ مِنَ النافِقاء، فَيُقَالُ هَكَذَا يَفْعَلُ المُنافق، يَدْخُلُ فِي الإِسلام ثُمَّ يَخْرُجُ مِنْهُ مِنْ غَيْرِ الْوَجْهِ الَّذِي دَخَلَ فِيهِ.[2]

وَعَنْ حُذَيْفَةَ أَنَّهُ قِيلَ لَهُ: مَا النِّفَاقُ؟ قَالَ: أَنْ يَتَكَلَّمَ بِالْإِسْلَامِ وَلَا يَعْمَلَ بِهِ.

وَهُوَ أَنْوَاعٌ: اعْتِقَادِيٌّ، وَعَمَلِيٌّ.

فالنِّفَاقُ الاعْتِقَادِيُّ هُوَ الَّذِي يَخْلُدُ صَاحِبُهُ فِي النَّارِ، وَالنِّفَاقُ العَمَلِيُّ مِنْ أَكْبَرِ الذُّنُوبِ.

وَلَمْ يَكُنْ فِي مَكَّةَ نِفَاقٌ لظُهُورِ الْكُفْرِ وضَعْفِ المؤمنين، وَالْمُهَاجِرُونَ لَمْ يَكُنْ فِيهِمْ أَحَدٌ من الْمُنَافِقِينَ، لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ أَحَدٌ يُهَاجِرُ مكرَهًا، بَلْ يُهَاجِرُ وَيَتْرُكُ مَالَهُ، وَوَلَدَهُ، وَأَرْضَهُ رَغْبَةً فِيمَا عِنْدَ اللَّهِ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ.

---

١ - سُورَةُ الْمُنَافِقُونَ: الآية/ ١

٢ - لسان العرب (١٠/ ٣٥٩)

﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾.

يَعْتَقِدُونَ بِجَهْلِهِمْ أَنَّهُمْ بِذَلِكَ يَخْدَعُونَ اللَّهَ، وَأَنَّهُ يَرُوجُ عَلَيْهِ ما يظهرونه من الدين، مع إخفائهم الكفر، وَأَنَّ ذَلِكَ نَافِعُهُمْ عِنْدَهُ، فعاملوا الله معاملة الصبيان لجَهْلِهِمْ بعظيم شأنه، وسوء ظنهم به، ونسوا إِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى، وَيُخَادِعُونَ الَّذِينَ آمَنُوا فيعاملونهم معاملة الْمُؤْمِنِينَ لِلْمُؤْمِنِينَ، من المحبة والبر والإحسان إليهم، وقد انطوت على البغضِ قلوبهمُ، وفاضت بالشرِ نُفوسُهم.

﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إِلا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾.

وهم في الحقيقة وَلَا يَخْدَعُونَ إِلا أَنْفُسَهُمْ؛ لأنه مَنْ يُخَادِعِ اللَّهَ يَخْدَعْهُ، فالجزاء من جنس العمل، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾.[1]

﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾.

هذا سبب نفاقهم، أن قلوبهم مريضة بالشك، والشبه التي لا تزول عنها، إلا من رحم الله.

قال أبو حيان: وَالْمَرَضُ: مَصْدَرُ مَرِضَ، وَيُطْلَقُ فِي اللُّغَةِ عَلَى الضَّعْفِ وَالْفُتُورِ، وَمِنْهُ قِيلَ: فُلَانٌ يُمْرِضُ الْحَدِيثَ أَيْ يُفْسِدُهُ وَيُضْعِفُهُ.

وَقَالَ ابْنُ عَرَفَةَ: الْمَرَضُ فِي الْقَلْبِ: الْفُتُورُ عَنِ الْحَقِّ، وَفِي الْبَدَنِ: فُتُورُ الْأَعْضَاءِ، وَفِي الْعَيْنِ: فُتُورُ النَّظَرِ.

وَيُطْلَقُ وَيُرَادُ بِهِ الظُّلْمَةُ، قَالَ:

فِي لَيْلَةٍ مَرِضَتْ مِنْ كُلِّ ناحيةٍ ***** فما يحس بِهِ نجم ولا قمر

وَقِيلَ: الْمَرَضُ: الْفَسَادُ.[2]

---

١ - سورة النِّسَاء: الآية/ ١٤٢

٢ - البحر المحيط في التفسير (١/ ٨٦، ٨٧)

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وهذه المعاني الثلاثة اجتمعت في قلوب المنافين، نعوذ بالله من الخزي والخذلان، فهم لفساد قلوبهم يعتريهم الْفُتُورُ عَنِ الْحَقِّ، والكسل عن الطاعات؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلا قَلِيلا﴾.[1]

وأمراض القلوب نوعان: وهما مذكوران في القرآن، مرض الشبهة، وهو المذكور هنا، ومرض الشهوة وهو المراد في قول الله تعالى: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾.[2]

وأعظمُ أمراض القلوب خطرًا وأشَدُها على صاحبها ضررًا مرضُ الشبهةِ، وقلما يبرأُ منه أحدٌ.

﴿فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾.

أي: زَادَهُمْ شَرًّا إِلَى شَرِّهِمْ، وَضَلَالَةً إِلَى ضَلَالَتِهِمْ، وَرِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ؛ كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ﴾.[3]

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾.

لأنهم ما صدقوا يومًا في إيمانهم، بل الكذب من أخص صفاتهم، كذبٌ في الاعتقاد، وكذبٌ في الأقوال، وكذبٌ في الأفعال، وكذبٌ في الأحوال.

ولأنهم كانوا يُكَذِّبُونَ بما جاءهم به رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وعليه تحمل قراءة الجمهور: ﴿بِمَا كَانُوا يُكَذِّبُونَ﴾.

---

١ - سورة النِّسَاءِ: الآية/ ١٤٢

٢ - سورة الأحزاب: الآية/ ٣٢

٣ - سورة التَّوْبَةِ: الآية/ ١٢٥

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (١١) أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ﴾. الآية/ ١١، ١٢

إذا اطلع المؤمنون على شيء من شرهم وإفسادهم، قَالُوا لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ - ولا شيء أعظم إفسادًا في الأرض من إظهار الكفر، ومعادة دين الله تعالى، والطعن في أحكام الكتاب والسنة، ومعادة أولياء الله المؤمنين، والسخرية والاستهزاء منهم، وهو شغل المنافقين الشاغل، ودأبهم في كل عصر ومصر - رد عليهم المنافقون بقولهم: إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ، وتأمل لفظ: ﴿إِنَّمَا﴾ الذي يفيد الحصر والقصر، إي إنَّ عملَنا قاصرٌ على الإصلاح، وهذا خداع آخر منهم للمؤمنين، وليس هناك إفسادٌ كإفسادهم، وإذا كان فِي الْأَرْضِ مُفْسِدُونَ فهم أولى من يتصف بذلك.

عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَعَنْ أُنَاسٍ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَاتُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾، أَمَّا لَاتُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ، قَالَ: الْفَسَادُ هُوَا لْكُفْرُ، وَالْعَمَلُ بِالْمَعْصِيَةِ.

روى ابن جرير: عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَابْنِ مَسْعُودٍ، وَعَنْ نَاسٍ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ قال: هُمُ الْمُنَافِقُونَ. أَمَّا: ﴿لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾. فَإِنَّ الْفَسَادَ هُوَ الْكُفْرُ وَالْعَمَلُ بِالْمَعْصِيَةِ.

وَعَنْ أَبِي الْعَالِيَةِ، فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَاتُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ﴾ قَالَ: يَعْنِي: لَاتعصُوا فِي الْأَرْضِ، وَكَانَ فَسَادُهُمْ ذَلِكَ نشر المَعْصِي في الأرض؛ لِأَنَّهُ مَنْ عَصَى اللَّهَ فِي الْأَرْضِ أَوْ أَمَرَ بِمَعْصِيَةِ اللَّهِ، فَقَدْ أَفْسَدَ فِي الْأَرْضِ؛ لِأَنَّ صَلَاحَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ بالطَّاعة.

وَقال مُجَاهِدٌ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَاتُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ﴾ قَالَ: إِذَا رَكِبُوا مَعْصِيَةَ اللَّهِ، فَقِيلَ لَهُمْ: لَاتَفْعَلُوا كَذَا وَكَذَا، قَالُوا: إِنَّمَا نحن على الهدى، مصلحون.[1]

قال ابن جرير الطبري رحمه الله: لِأَنَّ اللَّهَ جَلَّ ثَنَاؤُهُ قَدْ كَانَ فَرَضَ عَلَيْهِمْ عَدَاوَةَ الْيَهُودِ وَحَرْبَهُمْ مَعَ الْمُسْلِمِينَ، وَأَلْزَمَهُمُ التَّصْدِيقَ بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَبِمَا جَاءَ بِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ كَالَّذِي أَلْزَمَ مِنْ ذَلِكَ الْمُؤْمِنِينَ، فَكَانَ لِقَاؤُهُمُ الْيَهُودَ عَلَى وَجْهِ الْوَلَايَةِ مِنْهُمْ لَهُمْ، وَشَكِّهِمْ فِي نُبُوَّةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَفِيمَا جَاءَ بِهِ أَنَّهُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ أَعْظَمُ الْفَسَادِ، وَإِنْ كَانَ ذَلِكَ كَانَ عِنْدَهُمْ إِصْلَاحًا وَهُدًى: فِي

---

١ - انظر تفسير الطبري (١/ ٢٩٨)، وتفسير ابن كثير (١/ ١٨٠)

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

أَدْيَانِهِمْ، أَوْ فِيمَا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْيَهُودِ، فَقَالَ جَلَّ ثَنَاؤُهُ فِيهِمْ: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ﴾، دُونَ الَّذِينَ يَنْهَوْنَهُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ عَنِ الْإِفْسَادِ فِي الْأَرْضِ ﴿وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.[1]

قال الله تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.[2]

ولا إفساد في الأرض أعظم من الكفر بالله تعالى، ومحاربة دينه، والطعن في شريعته، ومعادة أوليائه، وموالاة أعدائه؛ وكل هذا كان للمنافقين – الذين يظهرون الإسلام ويبطنون الكفر – النصيب الأوفر ثم يزعمون أنهم يريدون الإصلاح، ويتشدق الواحد منهم بإنه يدافع عن دين الله، وأي دين هذا الذي يدافع عنه بالطعن في سنةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟

وأي دين هذا الذي يدافع عنه بسَبِّ أصحابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟

وأي دين هذا الذي يدافع عنه بلمزِ أحكامِ الشريعة الغراء؟

﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَايَشْعُرُونَ﴾.

لا شك أن أقبح حال يكون فيها الإنسان أن تنتكس فطرته، فيرى الحق باطلًا والباطل حقًا، والمنكر معروفًا والمعروف منكرًا، والخير شرً والشر خيرًا، فلا يميز بين إيمان وكفر، أو بين هدىً وضلال، أو بين إصلاح وإفساد، وهذه هي العلة في أن هؤلاء المنافقين يستميتون في الدفاع عن باطلهم، ونصرته، ويجهرون بمعادة الحق، ويسعون بكل سبيل لطمس معالمه؛ قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ﴾.[3]

يرون أن موسى كان مفسدًا في الأرض، وأن فرعون كان هو المصلح العظيم.

وَقَالَ قَوْمُ لُوطٍ: ﴿أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾.[4]

عَدُّوا التطهرَ ذنبًا يوجب العقاب، وعيبًا جزاؤه الطرد من البلاد.

اللهم إنا نعوذ بك من عمى البصيرة، وفساد السريرة.

---

١ – تفسير الطبري (١/ ٣٠١)

٢ – سورة الرُّومِ: الآية/ ٤١

٣ – سورة الأعراف: الآية/ ١٢٧

٤ – سورة النَّمْلِ: الآية/ ٥٦

قَولُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ﴾. الآية/ ١٣

إِذَا قِيلَ لِلْمُنَافِقِينَ آمِنُوا كَإِيمَانِ النَّاسِ وصَدِّقُوا كَمَا صَدَّقَ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ نَبِيٌّ وَرَسُولٌ، وَأَنَّ مَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ حَقٌّ، فإن من لوازم الإيمان أن تطيعوا لله ولرسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ طاعة مطلقة، فَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ فِي امْتِثَالِ مَا أَمَرَ وَتَرْكِ مَا نهى عنه وَزجَر، ومن لوازم الإيمان مُوَالَاةُ الْمُؤْمِنِينَ وَمعَاداةُالْكَافِرِينَ، ومن لوازم الإيمان النَّصِيحَةُ لِلَّهِ وَلِكِتَابِهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُسْلِمِينَ، وعدم الكيد لدين الله وَلِلْمُسْلِمِينَ كما يظهر من أقوالكم وأفعالكم.

قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ ونكون نَحْنُ وَهَؤُلَاءِ بِمَنْزِلَةٍ وَاحِدَةٍ وَعَلَى طَرِيقَةٍ وَاحِدَةٍ وَهُمْ سُفَهَاءُ، وَيَعْنُونَ بِهِم أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهذه سخرية واستهزاء منهم أَصْحَابِ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

﴿وَإِذا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قالُوا آمَنَّا وَإِذا خَلَوْا إِلى شَياطِينِهِمْ قالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّما نَحْنُ مُسْتَهْزِؤُنَ﴾.

يخبر الله تعالى عن حال المنافقين بأنهم إِذا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قالُوا آمَنَّا، تسترا بقولهم هذا من أن يفتضح أمرهم، وليأمنوا من أنفسهم وأموالهم، وَإِذا انصرفوا إِلى شَياطِينِهِمْ، وهم أَصْحَابُهُمْ مِنَ الْيَهُودِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُنَافِقِينَ، وخَلَوْا بهم، وأمنوا أن يسمع كلامهم أحد من المسلمين، اظهروا ولائهم لهم وصرحوا بمحبتهم، وَقالُوا إِنَّا مَعَكُمْ، واعتذروا عن مجالستهم للمسلمين بقولهم إِنَّما نَحْنُ مُسْتَهْزِؤُنَ و لم نؤمن بدينهم و لم نتبع ما جاء به نبيهم، إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ سَاخِرُونَ بِأَصْحَابِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وَتَكُونُ الشَّيَاطِينُ مِنَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾.[١]

﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾.

أَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى أَنَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ، جَوَابًا لَهُمْ وَمُقَابَلَةً عَلَى صَنِيعِهِمْ، فَيَظْهَرُ لَهُمْ مِنْ أَحْكَامِهِ فِي الدُّنْيَا، يَعْنِي مِنْ عِصْمَةِ دِمَائِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ خِلَافَ الَّذِي لَهُمْ عِنْدَهُ فِي الْآخِرَةِ، يَعْنِي مِنَ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ.

والجزاء من جنس العمل، فإذا كان ذَلِكَ عَلَى وَجْهِ الِانْتِقَامِ منهم وَالْمُقَابَلَةِ بِالْعَدْلِ، وَالْمُجَازَاةِ على استهزائهم بالمؤمنين فَلَا يَمْتَنِعُ ذَلِكَ.

---

١ - سورة الْأَنْعَام: الآية/ ١١٢

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

﴿وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾.

أَيْ يُمْهِلُهُمْ وَيُمْلِي لَهُمْ، وَيَمُدُّهُمْ بِطُولِ الْعُمْرِ حَتَّى يَزِيدُوا فِي الطُّغْيَانِ فَيَزِيدُهُمْ فِي كُفْرِهِمْ، فيظلوا مُتَرَدِّدِينَ مُتَحَيِّرِينَ فِي عَمَى عَنِ الرُّشْدِ.

كَمَا قَالَ تعالى:﴿إِنَّما نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدادُوا إِثْماً﴾.[1]

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾.

عَدَلوا عَنِ الْهُدَى إِلَى الضَّلَالِ، وَعَنْ الْإِيمَانُ إِلَى الْكُفْرِ، وعبر عن حالهم بلفظ: ﴿اشْتَرَوُا﴾ لِأَنَّ الشِّرَاءَ إِنَّمَا يَكُونُ فِيمَا يُحِبُّهُ الْمُشْتَرِي، فإِذَا أَحَبَ العَبْدُ شَيئًا بَذَلَ الثَّمَنَ لشرَائِهِ،فَمَا رَبِحُوا فِي تِجَارَتِهِمْ، وَخَسِرَتْ صَفْقَتُهُمْ، وَمَا كَانُوا رَاشِدِينَ فِي صَنِيعِهِمْ ذَلِكَ، وأنى لهم الربح، ومن أين يأتيهم الْهُدَى وقد خَرَجُوا مِنَ الْهُدَى إِلَى الضَّلَالَةِ، وَمِنَ الْجَمَاعَةِ إِلَى الْفُرْقَةِ، وَمِنَ الْأَمْنِ إِلَى الْخَوْفِ، وَمِنَ السُّنَّةِ إِلَى الْبِدْعَةِ.

اللهم إنا نعوذ بك من الضَّلَالَةِ بعد الْهُدَى وَمِنَ الْحَوْرِ بَعْدَ الْكَوْرِ.

---

١ - سورة آل عمران: الآية/ ١٧٨

قَولُهُ تَعَالَى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ (١٧) صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ (١٨) أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ (١٩) يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾. الآية/ ١٧-٢٠

ضَرَبَ اللَّهُ لِلْمُنَافِقِينَ فِي هذه الْآيَاتِ مَثَلَيْنِ مَثَلًا بِالنَّارِ، وَمَثَلًا بِالْمَطَرِ، لبيان حال المنافقين.

في المثل الأول شبَّه اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى صِنْفًا مِنْ الْمُنَافِقِينَ، فِي اسْتِبْدَالِهِمُ الضَّلَالَةَ عِوَضًا عَنِ الْهُدَى، وَاسْتِحْبَابِهِمُ الغَيّ عَلَى الرّشَد، وَصَيْرُورَتِهِمْ بَعْدَ التَّبْصِرَةِ إِلَى الْعَمَى، بِرَجُلٍ كان في ظُلمة لا يُبْصِر بسببها مَا عَنْ يَمِينه وشِماله وَلا يُبْصِر ما وَرَائِهِ وَلا مَا بَيْنَ يَدَيْهِ، فأَوقد نَارًا، فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ أَبْصَرَ بِهَا مَا عَنْ يَمِينِهِ وَشِمَالِهِ، ومَا حَوْلَه مِنْ قَذًى وأَذًى، وَانْتَفَعَ بنورها واستَأنس بِهَا، ثم طُفِئَتْ نَارُهُ، فَرَجَعَ إِلَى ظُلْمَتِه الأُولى، وَصَارَ فِي ظَلَامٍ شَدِيدٍ، لَا يُبْصِرُ وَلَا يَهْتَدِي، وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ أَصَمُّ لَا يَسْمَعُ، أَبْكَمُ لَا يَنْطِقُ، وأَعْمَى لَوْ كَانَ فِي ضِيَاءٍ لَمَا أَبْصَرَ؛ فَلِهَذَا لَا يَرْجِعُ إِلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ قَبْلَ ذَلِكَ، فَكَذَلِكَ هَؤُلَاءِ الْمُنَافِقُونَ، لما آمَنُوا فِي أول أمرهم اكْتَسَبُوا نُورًا، وَعَرَفُوا الْحَلَالَ مِنَ الْحَرَامِ، وَالْخَيْرَ مِنَ الشَّرِّ، ثُمَّ لما كَفَرُوا بعد ذَلِكَبِنِفَاقِهِمْ أَبْطَلُوا ذَلِكَ النُّورَ فَوَقَعُوا فِي حَيْرَةٍ عَظِيمَةٍ، فَإِنَّهُ لَا حَيْرَةَ أَعْظَمُ مِنْ حَيْرَةِ الدِّينِ.

قول الله تعالى: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾.

صُمٌّ لَا يَسْمَعُونَ الْهُدَى، ولا ينتفعون به، بُكْمٌ عن الكلام بالإيمان والخير، عُمْيٌ لَا يُبْصِرُونَ الحقَ، ولا يهتدون إليهِ، وَلَا يَعْقِلُونَهُ، وَلَا يَرْجِعُونَ إِلَى الهُدَى بعد الضَّلَالِ، فهم صُمٌّ عن سماع الحق، وبُكْمٌ عن التكلم به، وعُمْيٌ عن رؤيته، فهم وإن كانت لهم هذه الحواس، فهم لا ينتفعون بها في الحقيقة؛ كما قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لايَفْقَهُونَ بِها وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لايُبْصِرُونَ بِها وَلَهُمْ آذانٌ لايَسْمَعُونَ بِها أُولئِكَ كَالْأَنْعامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولئِكَ هُمُ الْغافِلُونَ﴾.[1]

كما قَالَ تَعَالَى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾.[2]

وَفي الكلام من الأساليب البلاغية الْتَفَاتٌ مِنَ الْوَاحِدِ إِلَى الْجَمْعِ، فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ .....﴾، وَلا شك أن الإلتفات أَفْصَحُ فِي الْكَلَامِ، وَأَبْلَغُ فِي النِّظَامِ.

١- سورة الأعراف: الآية/ ١٧٩

٢ - سورة الْمُنَافِقُونَ: الآية/ ٣

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

قَولُهُ تَعَالَى: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ (١٩) يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾. الآية/ ١٩، ٢٠

هذا المثل الثاني الذي ضَرَبَهُ اللَّهُ تَعَالَى لِضَرْبٍ آخَرَ مِنَ الْمُنَافِقِينَ، وَهُمْ قَوْمٌ يَظْهَرُ لَهُمُ الْحَقُّ تَارَةً، وَيَشُكُّونَ فيهِ تَارَةً أُخْرَى،مُتحَيِّرِينَ بَيْنَ الْإِيمَانِ وَالْكُفْرِ، فَلَا هُمْ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا، وَلَا مَعَ الْكَافِرِينَ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا، يَعْتَرِيهِمُ الشَّكُّ، فَتَارَةً يَمِيلُون إِلَى هَؤُلَاءِ، وَتَارَةً يَمِيلُون إِلَى أُولَئِكَ، كما قال تعالى: ﴿مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ﴾.[1]

والصَّيِّبُ هُوَ: الْمَطَرُ إذا نَزَلَ مِنَ السَّمَاءِ فِي حَالِ ظُلُمَاتٍ، وَهِيَ الشُّكُوكُ وَالْكُفْرُ وَالنِّفَاقُ. ﴿وَرَعْدٌ﴾ وَهُوَ مَا يُزْعِجُ الْقُلُوبَ مِنَ الْخَوْفِ الشَّدِيدِ وَالْفَزَعِ، ﴿وَبَرْقٌ﴾ وَهُوَ مَا يَلْمَعُ فِي قُلُوبِ هَؤُلَاءِ الضَّرْبِ مِنَ الْمُنَافِقِينَ فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ، مِنْ نُورِ الْإِيمَانِ.

﴿يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ﴾.

وَلَا يُجْدِي عَنْهُمْ حَذَرُهُمْ شَيْئًا؛ فَإِنَّ اللَّهَ مُحِيطٌ بِهِمْ بِقُدْرَتِهِ، وَهُمْ تَحْتَ مَشِيئَتِهِ وَإِرَادَتِهِ، وَالصَّوَاعِقُ: جَمْعُ صَاعِقَةٍ، وَهِيَ نَارٌ تَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَقْتَ الرَّعْدِ الشَّدِيدِ، ﴿يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ﴾ أَيْ: لِشِدَّتِهِ وَقُوَّتِهِ فِي نَفْسِهِ، وَضَعْفِ بَصَائِرِهِمْ، وَعَدَمِ ثَبَاتِهَا لِلْإِيمَانِ.

يقول سيد قطب رحمه الله: ولا شك أنه مشهد عجيب، حافل بالحركة، مشوب بالاضطراب، فيه تيه وضلال، وفيه رعب وأهوال، وفيه فزع وحيرة، مجرد تخيله يصيب الإنسان بالرعب فكيف بمن عاش فيه.

صَيِّبٌ مِنَ السَّمَاءِ هاطل غزير ﴿فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ﴾، ﴿كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ﴾، ﴿وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا﴾، وقفوا حائرين لا يدرون أين يذهبون، وهم في فزع ﴿يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ﴾.

إن الحركة التي تغمر هذا المشهد من الصيب الهاطل، إلى الظلمات والرعد والبرق، إلى أولئك الحائرين الفزعين، إلى الخطوات المروعة الوجلة، التي تقف عندما يخيم الظلام.

---

١ - سورة النِّسَاءِ: الآية/ ١٤٣

إن هذه الحركة في المشهد لترسم – عن طريق التأثر الإيحائي– حركة التيه والاضطراب والقلق والأرجحة التي يعيش فيها أولئك المنافقون، بين لقائهم للمؤمنين، وعودتهم للشياطين، بين ما يقولونه لحظة ثم ينكصون عنه فجأة، بين ما يطلبونه من هدى ونور، وما يفيئون إليه من ضلال وظلام.[1]

١ – في ظلال القرآن (١/ ٤٦)

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

قَولُهُ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾. الآية/ ٢٠، ٢١

هذا هو الموضوع الثاني في هذه السورة الكريمة وهو بيان الغاية من خلق الناس، لماذا خلقنا الله؟

لماذا أوجدنا الله تعالى على ظهر هذه الأرض؟

ما خلقنا الله تعالى سدى ولا تركنا هملًا، بل خلقنا لغاية جليلة، ولحكمة عظيمة هي عبادته سبحانه؛ ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ ...﴾، وهذه العلة من خلق الناس ليست قاصرة عليهم، بل هي العلة من خلق الجن كذلك؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلا لِيَعْبُدُونِ﴾.[1]

بل العلة من خلق الخلق جميعًا توحيد الله تعالى وعبادته؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾.[2]

والعبادة وتوحيد الله تعالى حَقُّ اللهِ تَعَالَى عَلَى الْعِبَادِ؛ فعَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَا مُعَاذُ، أَتَدْرِي مَا حَقُّ اللهِ عَلَى الْعِبَادِ؟» قَالَ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «أَنْ يُعْبَدَ اللهُ وَلَا يُشْرَكَ بِهِ شَيْءٌ»، قَالَ: «أَتَدْرِي مَا حَقُّهُمْ عَلَيْهِ إِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ؟» فَقَالَ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «أَنْ لَا يُعَذِّبَهُمْ».[3]

قال ابن القيم رحمه الله: الْعِبَادَةُ هِيَ: كَمَالُ الْحُبِّ مَعَ كَمَالِ الْخُضُوعِ وَالذُّلِّ.[4]

وهي بهذا الوصف لا تنبغي إلا لله تعالى، والعبودية أعلى مرتبة يمكن أن يصل إليها مخلوق، لذلك ذكر الله تعالى نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بصفة العبودية في أعلى المقامات وأرفعها، في مقام الوحي، وفي مقام الإسراء، وفي مقام الدعوة.

ففي مقام الوحي قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ﴾.[1]

---

١ - سُورَةُ الذَّارِيَاتِ: الآية/ ٥٦

٢ - سُورَةُ الْإِسْرَاءِ: الآية/ ٤٤

٣ - رواه البخاري- كِتَابُ التَّوْحِيدِ، بَابُ مَا جَاءَ فِي دُعَاءِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أُمَّتَهُ إِلَى تَوْحِيدِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، حديث رقم: ٧٣٧٣، ومسلم- كِتَابُ الْإِيمَانَ، بَابُ مَنْ لَقِيَ اللهَ بِالْإِيمَانِ وَهُوَ غَيْرُ شَاكٍّ فِيهِ دَخَلَ الْجَنَّةَ وَحُرِّمَ عَلَى النَّارِ، حديث رقم: ٣٠

٤ - الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي (ص: ٢٢٨)

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نزلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾.[٢]

وفي مقام الدعوة قَالَ: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ﴾.[٣]

وَفي مقام الإسراء قَالَ: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلا﴾.[٤]

وأخبر سبحانه أنه لا يستحق العبادة غيره؛ لأنه الخالق والرازق، وبيده وحده النفع والضر.

﴿الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.

وكيف يُعْبَدُ من لا يخلق شيئا وهو مخلوق، ولا يملك نفعا ولا ضرًا ولا يملك موتًا ولا حياةً ولا نشورًا، ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ﴾.[٥]

﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.

بين سبحانه وتعالى أثر العبادة على صاحبها، وأنها أعظم مولد للتقوى في قلوب العباد.

﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا﴾.

ثم بين سبحانه أن من دلائل استحقاقه وحده للعبادة دون ما سواه أنه جَعَلَ الأَرْضَ فِرَاشًا فهي ممهدة لحياة الإنسان، ولو شاء الله لجعل الحياة عليها مستحيلة كغيرها من الكواكب.

﴿وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾.

هذا البناء المحكم الذي ليس فيه خلل ولا اضطراب بِغَيْرِ عَمَدٍ ولا يعلم مدى سعتها إلا الله تعالىرَفَعَ السَّمَاءَ بِغَيْرِ عَمَدٍ، وَجَعَلَهَا مُسْتَوِيَةً مِنْ غَيْرِ أَوَدٍ، وَجَعَلَ فِيهَا الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ آيَتَيْنِ وَزَيَّنَهَا بِالنُّجُومِ، ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾.[٦]

﴿وَأَنزلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ﴾.

---

١ - سُورَةُ الْكَهْفِ: الآية/ ١

٢ - سُورَةُ الْفُرْقَانِ: الآية/ ١

٣ - سُورَةُ الْجِنِّ: الآية/ ١٩

٤ - سُورَةُ الْإِسْرَاءِ: الآية/ ١

٥ - سورة النحل: الآية/ ١٧

٦ - سورة الرعد: الآية/ ٢

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ومن نعمَهِ تعالى عَلَى خَلْقِهِ، أَنَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا، فَأَخْرَجَ بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى، مَا بَيْنَ ثِمَارٍ وَزُرُوعٍ، مُخْتَلِفَةِ الْأَلْوَانِ وَالْأَشْكَالِ، وَالطُّعُومِ وَالرَّوَائِحِ وَالْمَنَافِعِ،فكان ذلك رِزْقًا للخلق جميعًا، فهُوَ الْخَلاقُ الْعَلِيمُ، وهُوَ الرَّزَّاقُ الْكَرِيمُ، وَكُلُّ شَيْءٍ رِزْقُهُ عَلَيْهِ، وَكُلُّنَا مُفْتَقِرٌ إِلَيْهِ.

سُئِلَ أَعْرَابِيٌّ: مَا الدَّلِيلُ عَلَى وُجُودِ الرَّبِّ تَعَالَى؟ فَقَالَ: يَا سُبْحَانَ اللَّهِ، إِنَّ الْبَعْرَةَ لَتَدُلُّ عَلَى الْبَعِيرِ، وَإِنَّ أَثَرَ الْأَقْدَامِ لَتَدُلُّ عَلَى الْمَسِيرِ، فَسَمَاءٌ ذَاتُ أَبْرَاجٍ، وَأَرْضٌ ذَاتُ فِجَاجٍ، وَبِحَارٌ ذَاتُ أَمْوَاجٍ؟ أَلَا يَدُلُّ ذَلِكَ عَلَى وُجُودِ اللَّطِيفِ الْخَبِيرِ؟

فَيَا عَجَبًا كَيْفَ يُعْصَى الْإِلَهُ ***** أَمْ كَيْفَ يَجْحَدُهُ الْجَاحِدُ

وَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةً ***** تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ وَاحِدُ

﴿فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

الْأَنْدَادُ: جمع ند وهو المثيل والنظير والمساوي، يصرف له ما لا ينبغي إلا لله من العبادة، وينسب إليه ما لا ينبغي إلا لله من النعم، وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَأنها لَا تَنْفَعُ وَلَا تَضُرُّ، وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّهُ لَا رَبَّ لَكُمْ يَرْزُقُكُمْ غَيْرُهُ.

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: الْأَنْدَادُ هُوَ الشِّرْكُ أَخْفَى مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ عَلَى صَفَاةٍ سَوْدَاءَ فِي ظُلْمَةِ اللَّيْلِ، وَهُوَ أَنْ يَقُولَ: وَاللَّهِ وَحَيَاتِكَ يَا فُلَانُ، وَحَيَاتِي، وَيَقُولُ: لَوْلَا كَلْبَةُ هَذَا لَأَتَانَا اللُّصُوصُ الْبَارِحَةَ، وَلَوْلَا الْبَطُّ فِي الدَّارِ لَأَتَى اللُّصُوصُ، وَقَوْلُ الرَّجُلِ لِصَاحِبِهِ: مَا شَاءَ اللَّهُ وَشِئْتَ، وَقَوْلُ الرَّجُلِ: لَوْلَا اللَّهُ وَفُلَانٌ، لَا تَجْعَلْ فِيهَا فُلَانًا، هَذَا كُلُّهُ بِهِ شِرْكٌ.

قَولُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٢٣) فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾. الآية/ ٢٣، ٢٤

اشتملت الآيتان السابقتان عَلَى الدَّلَالَةَ عَلَى وَحْدَانِيَّةِ اللَّهِ وَدلائل قُدْرَتِهِ فِي الكون، ففيهما دَّلَالَةُ على توحيدِ الإلوهيةِ، وتوحيدِ الربوبيةِ، وتوحيدِ الأسماءِ والصفات، ولما كان الركن الأول من أركان الدين يشتمل على جزئين، توحيد الله بالعبادة، (لَا إِلَهَ إِلَّااللَّهُ)، وتوحيد الرسول بالإتباع، (محمد رَسُولُ اللهِ)، أتت هاتان الآيتان لتقرير هذا المعنى، وهو الشق الثاني من شهادة التوحيد، (محمد رَسُولُ اللهِ). ففيهما دلَيلٌ عَلَى نُبُوَّةِ نَبِيِّ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَأَنَّ مَا جَاءَ بِهِ لَيْسَ مُفْتَرًى مِنْ عِنْدِهِ، ﴿إِنْ هُوَ إِلا وَحْيٌ يُوحَى﴾.[١]

ولما كانت الشبهة التي زعم المشركون أنها تمنعهم من الإيمان، وتحول بينهم وبين اتباع القرآن والاستجابة لنبي الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، هي الشك في أن هذا القرآن كلام الله كما سجل القرآن ذلك عليهم: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾.[٢]

وَكَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلا﴾.[٣]

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنزلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾.[٤]

وما قالوا ذلك إلا تنفيرًا للناس عن دين الله تعالى، وتشويشًا على الحق الذي جاء به رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من عند الله تعالى.

أما هم فإنهم فإنه يعلمون علم اليقين، ويقرون في أنفسهم أنه هذا القرآن كلام الله تعالى، وقد سجل العليم بمكنونات النفوس، الخبير بما تكنه الضمائر ذلك عليهم، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَالُوا لَوْلا نزلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾.[٥]

---

١ - سورة النَّجْم: الآية/ ٤

٢ - سورة الْأَنْفَال: الآية/ ٣١

٣ - سورة الْفُرْقَانِ: الآية/ ٥

٤ - سورة النَّحْلِ: الآية/ ٢٤

٥ - سورة الزُّخْرُفِ: الآية/ ٣١

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾.[1]

فتحداهم الله تعالى أن يعارضوا هذا القرآن ولو بسُورَةٍ واحدة وَقَالَ مُخَاطِبًا لهم: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نزلْنَا عَلَى عَبْدِنَا﴾ يَعْنِي: مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ﴾ مِنْ مِثْلِ مَا جَاءَ بِهِ إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّهُ كلام بشرٍ أو أَسَاطِيرُ الأوَّلِينَ كما زعمتم، فَعَارِضُوهُ بِمِثْلِ مَا جَاءَ بِهِ، وَاسْتَعِينُوا عَلَى ذَلِكَ بِمَنْ شِئْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ، فإنكم لا تستطيعون ذلك.

وكان الله تبارك وتعالى قد تحداهم قبل ذلك أن يأتوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ فعجزوا قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾.[2]

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾.[3]

ثم تحداهم أن يأتوا بِعَشْرِ سُوَرٍ فعجزوا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾.[4]

ثم تحداهم أن يأتوا بِسُورَةٍ واحدةٍ فعجزوا، وهم اساطينُ الْفَصَاحَةِ، وَأَرْبَابُ الْبَلَاغَةِ، كما في هذه السورة، وَقَالَ فِي سُورَةِ يُونُسَ: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾.[5]

ثم تحداهم تحديًا آخر فَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا﴾، أَيْ: إذا لَمْ تَفْعَلُوا ذلك منذ نزل القرآن، وَلَنْ تَفْعَلُوا ذَلِكَ فِي المستقبل أَبَدًا. وَهَذِهِ مُعْجِزَةٌ أُخْرَى، وَهُوَ أَنَّهُ أَخْبَرَ أَنَّ هَذَا الْقُرْآنَ لَا يستطيع أحدٌ أن يُعَارِضه أَبَدًا ولو اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى ذلك.

وأنى لهم أن يعارضوه وهو معجزة الله الخالدة وحجته البالغة، فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «مَا مِنَ الأَنْبِيَاءِ نَبِيٌّ إِلَّا أُعْطِيَ مِنَ الآيَاتِ مَا مِثْلُهُ أُومِنَ، أَوْ آمَنَ، عَلَيْهِ البَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيتُ وَحْيًا أَوْحَاهُ اللَّهُ إِلَيَّ، فَأَرْجُو أَنِّي أَكْثَرُهُمْ تَابِعًا يَوْمَ القِيَامَةِ».[1]

---

١ - سورة الْأَنْعَام: الآية/ ٣٣

٢ - سورة الْقَصَصِ: الآية/ ٤٩

٣ - سورة الْإِسْرَاءِ: الآية/ ٨٨

٤ - سورة هُودٍ: الآية/ ١٣

٥ - سورة يُونُسَ: الآية/ ٣٨

ثم حذرهم الله تعالى من مغبة التمادي في الباطل، وقد تبين عجزهم، وانكشف عوارهم، أن جزاء المعاندين نارًا ليست كنار الدنيا، بل نارٌ وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ، والوَقُود، هُوَ مَا يُلْقَى فِي النَّارِ لِإِضْرَامِهَا كَالْحَطَبِ كَمَا قَالَ: ﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾.[٢]

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: هِيَ حِجَارَةٌ مِنْ كِبْرِيتٍ، خَلَقَهَا اللَّهُ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي السَّمَاءِ الدُّنْيَا، يُعِدُّهَا لِلْكَافِرِينَ.[٣]

وقوله تعالى: ﴿أُعِدَّتْ﴾، يفيد بأن النار موجودة الآن، كما أن الجنة كذلك موجودة الآن.

---

١ - رواه البخاري- كِتَابُ فَضَائِلِ القُرْآنِ، بَابٌ: كَيْفَ نَزَلَ الوَحْيُ، وَأَوَّلُ مَا نَزَلَ، حديث رقم: ٤٩٨١، ومسلم- كِتَابُ الْإِيمَانِ، بَابُ وُجُوبِ الْإِيمَانِ بِرِسَالَةِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى جَمِيعِ النَّاسِ، وَنَسْخِ الْمِلَلِ بِمِلَّتِهِ، حديث رقم: ١٥٢

٢ - سورة الْجِنِّ: الآية/ ١٥

٣ - رَوَاهُ الْحَاكِمُ فِي مُسْتَدْرَكِهِ- حديث رقم: ٣٠٣٤

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

قَولُهُ تَعَالَى: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾. الآية/ ٢٥

لَمَّا ذَكَرَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ جَزَاءَ الْكَافِرِينَ بِهِ وَبِرُسُلِهِ، ومَا أَعَدَّهُ لهم مِنَ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ، ذَكَرَ جَزَاءَ الْمُؤْمِنِينَ بِهِ وَبِرُسُلِهِ ومَا أَعَدَّهُ لهم من النعيم المقيم، وهذا شأن القرآن المقارنة بين حال المؤمنين وحال الكافرين، كما قال تعالى:﴿فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٨) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.[١]

وكما قال تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.[٢]

وكما قال تعالى: ﴿فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ (٨٥) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾.[٣]

وَهَذَا مَعْنَى تَسْمِيَةِ الْقُرْآنِ "مَثَانِيَ" عَلَى أَصَحِّ أَقْوَالِ الْعُلَمَاءِ، وَهُوَ ذِكْرُ الشَّيْءِ وَمُقَابِلُهُ؛ مثل أَنْ يَذْكُرَ الْإِيمَانَ وَيُتْبِعَهُ بِذِكْرِ الْكُفْرِ، أَوْ عَكْسِهِ، أَوْ حَالَ السُّعَدَاءِ ثُمَّ الْأَشْقِيَاءِ، أَوْ عَكْسِهِ.

سميت الْبَشَارَةُ بذلك؛ لأنه يَظْهَرُ أَثَرُهَا عَلَى الْبَشَرَةِ لِتَغَيُّرِهَا عند سماع ما يَسُرُ، والأصل في الْبَشَارَةِ أن تكون بِالْخَيْرِ، وَقد تُسْتَعْمَلُ فِي الشَّرِّ عَلَى سبيل التهكم، كما في قول اللَّهِ تَعَالَى: ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُم عَذَابًا أَلِيمًا﴾.[٤]

وكما في قول اللَّهِ تَعَالَى: ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.[٥]

---

١ - سورة البَقَرَةِ: الآية/ ٣٨، ٣٩

٢ - سورة البَقَرَةِ: الآية/ ٢٥٧

٣ - سورة الْمَائِدَةِ: الآية/ ٨٥، ٨٦

٤ - سورة النساء: الآية/ ١٣٨

٥ - سورة الانشقاق: الآية/ ٢٤

وفي قوله تعالى: ﴿أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ﴾، بيان أَنَّهَا لَيْسَتْ بِجَنَّةٍ وَاحِدَةٍ، وَلَكِنَّهَا جَنَّاتٌ كَثِيرَةٌ، وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّ أُمَّ الرُّبَيِّعِ بِنْتَ البَرَاءِ وَهِيَ أُمُّ حَارِثَةَ بْنِ سُرَاقَةَ أَتَتِ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَتْ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، أَلاَ تُحَدِّثُنِي عَنْ حَارِثَةَ، وَكَانَ قُتِلَ يَوْمَ بَدْرٍ أَصَابَهُ سَهْمٌ غَرْبٌ، فَإِنْ كَانَ فِي الجَنَّةِ صَبَرْتُ، وَإِنْ كَانَ غَيْرَ ذَلِكَ، اجْتَهَدْتُ عَلَيْهِ فِي البُكَاءِ، قَالَ: «يَا أُمَّ حَارِثَةَ إِنَّهَا جِنَانٌ فِي الجَنَّةِ، وَإِنَّ ابْنَكِ أَصَابَ الفِرْدَوْسَ الأَعْلَى».[1]

وتأمل لفظ اللام من كلمة: ﴿لَهُمْ﴾ الذي يفيد التمليك، فهي لهم أبدًا لا يزولون عنها، ولا تزول عنهم؛ كما قال تعالى: ﴿لا يمسهم فيها نصب وما هم منها بمخرجين﴾.[2]

وكما قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوها بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.[3]

وكما قال تعالى عن أهل الجنة: ﴿وَقالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعامِلِينَ﴾.[4]

ثم شرع في وصف تلك الجنات فقال: ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾، أَيْ: مِنْ تَحْتِ قُصُورِهَا وَغُرَفِهَا وَأَشْجَارِهَا، وهي صورة عجيبة من صور النعيم الذي لا ينقطع في الجنة.

﴿كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا﴾.

ورد أنهم يُؤْتَوْنَ بِالثَّمَرَةِ فِي الْجَنَّةِ، فَإِذَا نَظَرُوا إِلَيْهَا قَالُوا: هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ فِي دَارِ الدُّنْيَا، فَتَقُولُ الْمَلَائِكَةُ لَهُمُ: "كُلُوا، فَإِنَّ اللَّوْنَ وَاحِدٌ، وَالطَّعْمُ مُخْتَلِفٌ".

وربما كان في هذا التشابه الظاهري والتنوع الداخلي مزية المفاجأة في كل مرة، وهي ترسم جوًا من الدعابة الحلوة، والرضى السابغ، والتفكه الجميل، بتقديم المفاجأة بعد المفاجأة، وفي كل مرة ينكشف التشابه الظاهري عن شيء جديد! يزيد من تشوقهم إلى كل ما في الجنة لذة ونعيم، فلا تعتريهم سآمة، ولا يتطرق إلى نفوسهم ملل،ولا يرتضون بها بَدَلا، وَلَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلا.

---

١ - رواه البخاري- كِتَابُ الجِهَادِ وَالسِّيَرِ، بَابُ مَنْ أَتَاهُ سَهْمٌ غَرْبٌ فَقَتَلَهُ، حديث رقم: ٢٨٠٩

٢ - سورة الحجر: الآية/ ٤٨

٣ - سورة الزخرف: الآية/ ٧٢

٤ - سورة الزمر: الآية/ ٧٤

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

﴿وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ﴾.

مُطَهَّرَةٌ مِنَ كل عيب ومن رديء الأخلاق، ومن كل قَذَرٍ وَمن كل أَذَى، مِنَ الْحَيْضِ، وَالْغَائِطِ، وَالْبَوْلِ، وَالنُّخَامِ، وَالْبُزَاقِ، وَالْمَنِيِّ.

وَمُطَهَّرَةٌ أَبْلَغُ مِنْ طَاهِرَةٍ وَأَجْمَعُ.

وَمَما يدل على أن هَذِهِ الطَّهَارَة تشمل الطَّهَارَة من كل خلق قبيح كذلك قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَنزعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ﴾.[1]

﴿وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

من تَمَامِ سَعَادَةِ أهلِ الجنةِ أَنَّهُمْ مَعَ هَذَا النَّعِيمِ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ مِنَ الْمَوْتِ، فِي خلودٍ لَا آخِرَ لَهُ وَلَا انْقِضَاءَ، وفِي نَعِيمٍ سَرْمَدِيٍّ أَبَدِيٍّ لَيسَ لَهُ انتهَاءُ.

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يُؤْتَى بِالْمَوْتِ كَهَيْئَةِ كَبْشٍ أَمْلَحَ، فَيُنَادِي مُنَادٍ: يَا أَهْلَ الجَنَّةِ، فَيَشْرَئِبُّونَ وَيَنْظُرُونَ، فَيَقُولُ: هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، هَذَا المَوْتُ، وَكُلُّهُمْ قَدْ رَآهُ، ثُمَّ يُنَادِي: يَا أَهْلَ النَّارِ، فَيَشْرَئِبُّونَ وَيَنْظُرُونَ، فَيَقُولُ: وهَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، هَذَا المَوْتُ، وَكُلُّهُمْ قَدْ رَآهُ، فَيُذْبَحُ ثُمَّ يَقُولُ: يَا أَهْلَ الجَنَّةِ خُلُودٌ فَلاَ مَوْتَ، وَيَا أَهْلَ النَّارِ خُلُودٌ فَلاَ مَوْتَ، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ﴾، وَهَؤُلاَءِ فِي غَفْلَةٍ أَهْلُ الدُّنْيَا ﴿وَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾ [مريم: ٣٩]».[2]

---

١ - سورة الْأَعْرَافِ: الآية/٤٣

٢ - رواه البخاري- كِتَابُ تَفْسِيرِ القُرْآنِ، بَابُ قَوْلِهِ: {وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الحَسْرَةِ} [مريم: ٣٩] ، حديث رقم: ٤٧٣٠، ومسلم- كتاب الْجَنَّةِ وَصِفَةِ نَعِيمِهَا وَأَهْلِهَا، بَابُ النَّارُ يَدْخُلُهَا الْجَبَّارُونَ وَالْجَنَّةُ يَدْخُلُهَا الضُّعَفَاءُ، حديث رقم: ٢٨٤٩

قَولُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلا الْفَاسِقِينَ﴾. الآية/ ٢٦

سَبَبُ نُزُولِ الْآيَةِ:

قَالَ الْحَسَنُ وَقَتَادَةُ: لَمَّا ذَكَرَ اللَّهُ الذُّبَابَ وَالْعَنْكَبُوتَ فِي كِتَابِهِ، وَضَرَبَ لِلْمُشْرِكِينَ بِهِ الْمَثَلَ ضَحِكَتِ الْيَهُودُ وَقَالُوا: مَا يُشْبِهُ هَذَا كَلَامَ اللَّهِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَةَ.

أَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَةَ رَدًّا عَلَى الْكُفَّارِ لَمَّا أَنْكَرُوا مَا ضَرَبَهُ سُبْحَانَهُ مِنَ الْأَمْثَالِ في كلامه المنزل على رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فالله سبحانه وتعالى له الحكمة البالغة، وله القدرة الباهرة، وكما يستدل الخلق على قدرته الباهرة، وحكمته البالغة، بآياته العظيمة في الكون كالسماء والنجوم والكواكب والبحار والأنهار والجبال، كذلك تظهر حكمته جلية في أدق مخلوقاته ومنها البعوضة، هذه البعوضة التي هي أحقر المخلوقات عند الناس في رأسها مائة عين، وفي فمها ثمانية وأربعون سنا، وفي صدرها ثلاثة قلوب، قلب مركزي، وقلب لكل جناح، وهي كذلك تملك جهازًا حراريًا يمكنها من رؤية الأجسام عن طريق حرارتها، وتملك كذلك جهازًا لتحلل الدم، وجهازًا لتمييع الدم ليسهل عليها امتصاصه، ويسري في خرطومها عند امتصاصه من الأجسام، وتملك كذلك جهازًا للتخدير، لتخدر الأجسام التي تقف عليها، وتمتص منها الدماء، وفي خرطومها ست سكاكين، فسبحان ﴿الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾.[1]

فإذا ضرب الله تعالى المثل بشيء فإنه يستحق التأمل والتدبر لما يحتوي عليه من حكمة عظيمة، ولما في إيراده من غاية جليلة، فالواجب عليكم أيها الناس ألا تقابلوا تلك الأمثال التي يضربها الله تعالى لكم بالسخرية والضحك؛ فإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ.

وَالْحَيَاءُ لُغَةً: تغير وانكسار يعرض للإنسان من تخوف مايعاب به ويذم عليه.

وَشَرْعًا: خُلُقٌ يَبْعَثُ عَلَى اجْتِنَابِ الْقَبِيحِ مِنْ الْأَفْعَالِ وَالْأَقْوَالِ، وَيُمْنَعُ مِنْ التَّقْصِيرِ فِي حَقِّ ذِي الْحَقِّ.[2]

وقيل: الْحَيَاءُ خُلُقٌ يَبْعَثُ عَلَى تَجَنُّبِ الْقَبِيحِ، ويَحُضُ عَلَى ارتِكَابِ الحَسَنِ.[1]

١- سورة طه: الآية/ ٥٠

٢ - الموسوعة الفقهية (٢٥٩/١٨)

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وهذا في حق البشر، أما في حق الله تعالى، فَالْحَيَاءُ صفةٌ من صفات الله تعالى الثابتة بالكتاب والسنة، وشأنها شأنُ سائر الصفات، نثبت لله تعالى منها ما أثبته لنفسه في كتابه، وما أثبته له رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في سنته، على الوجه الذي يليق به سبحانه، بلا تكييف، ولا تعطيل، ولا تحريف، ولا تأويل، ومما يدل على ثبوت هذه الصفة لله تعالى ما ثبت عَنْ سَلْمَانَ الْفَارِسِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ حَيِيٌّ كَرِيمٌ يَسْتَحْيِي ىإِذَا رَفَعَ الرَّجُلُ إِلَيْهِ يَدَيْهِ أَنْ يَرُدَّهُمَا صِفْرًا خَائِبَتَيْنِ».[٢]

وَعَنْ يَعْلَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَأَى رَجُلاً يَغْتَسِلُ بِالْبَرَازِ، فَصَعِدَ الْمِنْبَرَ فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ ثُمَّ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ جَلَّ ثَنَاؤُهُ حَيِيٌّ سِتِّيرٌ يُحِبُّ الْحَيَاءَ وَالسِّتْرَ، فَإِذَا اغْتَسَلَ أَحَدُكُمْ فَلْيَسْتَتِرْ».[٣]

ومع ذلك فَضَرْبُ اللهِ تعالى لتلك الأمثالِ لا يُسْتَحْيَى منه، لأنه ليس فيه ما يُعَابُ، تعالى الله عما يقولون علوًا كبيرًا.

فالله تَعَالَى لَا يَسْتَحْيِي، وَلَا يَسْتَنْكِفُ، وَلَا يَخْشَى أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا، أَيْ: أَيَّ مَثَلٍ كَانَ، بِأَيِّ شَيْءٍ كَانَ، صَغِيرًا كَانَ أَوْ كَبِيرًا.

وَفائدةُ ذكرِ ﴿مَا﴾ هَاهُنَا لِلتَّقْلِيلِ، أَيْ: أَيَّ مَثَلٍ ولو كَانَ، صَغِيرًا.

﴿فَمَا فَوْقَهَا﴾.

أَيْ: فَمَا دُونَهَا فِي الصِّغَرِ، وَالْحَقَارَةِ، وقد تجلى هذا الأمر في زماننا هذا، فرأينا من الميكروبات والفيروسات ما أعجز الأطباءَ، وحارت معه الأفهام، وهي مخلوقات متناهية في الصغر، ومع ذلك حصدت الملايين من الأرواح، فسبحان الخلاق العليم.

---

١ - الشمائل المحمدية (٢/٢٠٠)

٢ - رواه أبو داود- كتاب الصلاة، باب الدعاء، حديث رقم: ١٤٨٨، والترمذى- أَبْوَابُ الدَّعَوَاتِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بَابٌ، حديث رقم: ٣٦٢٧ ، وابن ماجه- كِتَابُ الدُّعَاءِ، بَابُ رَفْعِ الْيَدَيْنِ فِي الدُّعَاءِ، حديث رقم: ٣٨٦٥، بسند صحيح

٣ - رواه أحمد- رقم: ١٧٨٩٣، وأبو داود- كتاب الحمام، باب النهى عن التعرى، حديث رقم: ٣٥١٥، والبيهقي في السنن الكبرى- كتاب الطهارة، جماع أبواب الغسل من الجنابة، باب الستر في الغسل عند الناس، حديث رقم: ٩٠١

ثم بَيَّنَ سبحانه حالَ الناس مع أمثالِ الله تعالى، وأنهم ينقسمون إلى فريقين:

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾.

فيكون المثل سببًا في زيادة إيمانهم، ﴿وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا﴾، وأثرًا من آثار هدايتهم، ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلا﴾.

فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى،لا يستضيئون بنوره ولا ينتفعون بوعظه، لأن اللَّهَ تعالى طَبَعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ بكفرهم؛ كما قال تعالى:﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾.[1]

فلَا يَعْقِلُونَ مَا يُقَالُ لهم،لأنهم ليس لهم فَهْمٌ صَحِيحٌ، وَلَا يَكْتَرِثُونَ لَهُ لأنهم ليس لهم قَصْدٌ صَحِيحٌ.

﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا﴾.

فَيَزِيدُ الكفار والْمُنَافِقِينَ ضَلَالَةً إِلَى ضَلَالِهِمْ لِتَكْذِيبِهِمْ بِمَا قَدْ عَلِمُوهُ حَقًّا يَقِينًا، وَيَزِيدُ الْمُؤْمِنِينَ هُدًى إِلَى هُدَاهُمْ وَإِيمَانًا إِلَى إِيمَانِهِمْ، لِتَصْدِيقِهِمْ بِمَا قَدْ عَلِمُوهُ حَقًّا يَقِينًا.

﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلا الْفَاسِقِينَ﴾.

فَسَقُوا، فَأَضَلَّهُمُ اللَّهُ عَلَى فِسْقِهِمْ، وَالْفَاسِقُ: هُوَ الْخَارِجُ عَنِ طَاعَةِ الله تعالى، يقال: فَسَقَتِ الرُّطْبَةُ: إِذَا خَرَجَتْ مِنْ قِشْرَتِهَا.

وَفِي الْآيَةِ من الأساليب البلاغية: اللَفُّ وَالنَّشْرُ غيرُ الْمُرتَّب، فقد ذَكَرَ فِي اللَّفِّ ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾، ثم ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، وَذَكَرَ فِي النَّشْرِ: ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا﴾، ثم ﴿يَهْدِي بِهِ كَثِيرًا﴾.

---

١ - سورة محمد: الآية/ ١٦

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

قَولُهُ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾. الآية/ ٢٧

ثم بين صفات هؤلاء الْفَاسِقِينَ فقال: ﴿الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾. ويدخل في هَذِهِ الْآيَةِ جَمِيعُ أَهْلِ الْكُفْرِ وَالشِّرْكِ وَالنِّفَاقِ، وَعَهْدُ اللَّهِ إِلَى جَمِيعِ هؤلاء هو أخذ الميثاق عليهم المذكور في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا﴾.[1]

وَتَوْحِيدُهُ سبحانه، وَمَا وَضَعَ لَهُمْ مِنَ الْأَدِلَّةِ عَلَى رُبُوبِيَّتِهِ، وَنَقْضُهُمْ ذَلِكَ: تَرْكُهُمُ الْإِقْرَارَ بِمَا ثَبَتَتْ لَهُمْ صِحَّتُهُ بِالْأَدِلَّةِ، وَتَكْذِيبُهُمُ الرُّسُلَ وَالْكُتُبَ، مَعَ عِلْمِهِمْ أَنَّ مَا أَتَوْا بِهِ حَقٌّ من عند الله تعالى.

﴿وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾.

قِيلَ: مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ هُوَ قَرَابَةُ الْأَرْحَامِ، وَقِيلَ: كُلُّ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ فِي كُتُبِهِ مِنْ تَشْرِيعٍ وَتَكْلِيفٍ، فهو مِمَّا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ، وَصِلَةُ الْأَرْحَامِ وَالْقَرَابَاتُ تَدْخُلُ فِي ذلك تبعًا.

﴿وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ﴾.

مِنْ بَابِ عَطْفِ الْعَامِّ عَلَى الْخَاصِّ فإن نَقْضَهُمْ لعَهْدِ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ، وقطعهم لَمَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ، من أعظم الفساد، مع ما يقترفونه من الذنوب، والفواحش.

﴿أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾.

خَسِرُوا الدُّنْيَا؛ لأنهم عاشوا فيها عيشةَ البهائمِ، لهثًا وراءَ اللذاتِ، وسعيًا لطلب الشهواتِ، فكانوا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ، وَخَسِرُوا الْآخِرَةَ لما ينتظرُهُم مِنَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، بإعراضهم عن الإيمان، وترك استجابتهم لرسل الله.

---

١ - سورة الْأَعْرَافِ: الآية/ ١٧٢، ١٧٣

قَولُهُ تَعَالَى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

الآية/ ٢٨

ما زال حديثنا عن الموضوع الثاني في هذه السورة الكريمة، وهو بيان الغاية من خلق الناس، والأدلة على وحدانية الله تعالى وأنه وحده هو الذي يستحق العبادة دون سواه.

وفي هذه الآية ينكرُ اللَّهُ تَعَالَى على من كفر به، وعبد غَيْرَهُ وهو الخالق سبحانه، ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ﴾ أَيْ: كَيْفَ تَجْحَدُونَ وُجُودَ اللَّهِ أَوْ تَعْبُدُونَ مَعَهُ غَيْرَهُ! وَدَلَالَتُهُ عَلَيْكُمْ ظَاهِرَةٌ جَلِيَّةٌ، كُلُّ أَحَدٍ يَعْلَمُهَا مِنْ نَفْسِهِ، فَإِنَّهُ مَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ إِلَّا وَيَعْلَمُ أَنَّهُ كَانَ مَعْدُومًا ثُمَّ وُجِدَ، ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا﴾.[1]

كُنْتُمْ عَدَمًا فَأَخْرَجَكُمْ إِلَى الْوُجُودِ، ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ، كُنْتُمْ عَدَمًا قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَكُمْ فَهَذِهِ مَيْتَةٌ، ثُمَّ أَحْيَاكُمْ فَأَخْرَجَكُمْ إِلَى الْوُجُودِ فَخَلَقَكُمْ فَهَذِهِ حَيَاةٌ، ثُمَّ يُمِيتُكُمْ فَتَرْجِعُونَ إِلَى الْقُبُورِ فَهَذِهِ مَيْتَةٌ أُخْرَى، ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَهَذِهِ حَيَاةٌ أُخْرَى، ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ﴾.[2]

وَعَبَّرَ سبحانه عَنِ العَدَمِ قَبْلَ الْوُجُودِ بِالْمَوْتِ؛ لأنهما يَشْتَرِكَانِ بِجَامِعِ عَدَمِ الْإِحْسَاسِ فيهما.

---

١ - سورة الْإِنْسَانِ: الآية/ ١

٢ - سورة النَّحْلِ: الآية/ ١٧

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

قَولُهُ تَعَالَى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾. الآية/ ٢٩

ثم ذَكَرَ تَعَالَى دَلَالَةً أخرى من دلائل قدرته على الخَلْقِ وَهو أمر يُشَاهِدُه جميع الناس، ليس به خفاء ولا التباس، وهو خَلْق السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وما فيهما.

فما من شيء في الكون صغر أو كبر، دق أو عظم إلا وهو من خلق الله، ومن بديع صنعه، يتكلمُ بلسانٍ فصيحٍ، ويعرب ببيانٍ بليغٍ، أنه عبدٌ لله مربوبٌ، ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾.[1]

ثم تأتي الحقيقة التي يغفل عنها أكثر الناس، وهي أن مَا فِي السَمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مخلوق من أجل الناس، ومسخر لهم ليتفرغوا هم لعبادة ربهم جل وعلا، ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ﴾.

وتأمل لفظ: ﴿لَكُمْ﴾، لتعلم أن الكونَ مذللٌ لكَ منقادٌ لكَ بما فِيهِ مِنْ بِحَارٍ، وأنهارٍ، وَقِفَارٍ، وَجِبَالٍ وَأَشْجَارٍ، وَحَيَوَانٍ، وَطُيُورٍ، وَنَبَاتٍ، وَثِمَارٍ، الكلُ مسخرٌ لكَ بأمرِ الملكِ، ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ * وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾.[2]

نعم مسخرٌ لك أنت، ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ﴾.[3]

لتعبد الله وتوحده، لتذكره وتشكره.

وتأمل لفظ: ﴿جَمِيعًا﴾ لتعلم أن ما منعك منه وحظره عليك، إنما هو حفظًا وصيانةً لك، وليس تضيقًا عَلَيْك، صيانةً لبدنك حَرَّمَ الْمَيْتَةَ، وَالدَّمَ، وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ، وحفظًا لنفسك حَرَّمَ القتلَ، وحفظًا لعقلك حَرَّمَ الخمرَ، وحفظًا لعرضك حَرَّمَ الزنا، وحفظًا لمالك حَرَّمَ السرقةَ، ومن كان كذلك معك كيف لا تتوق نفسُك شوقًا إليه، وكيف لا تَفيضُ عينُك حياءً منه، وكيف لم يتقطع قلبك من محبته.

﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

الأصل في الِاسْتِوَاءِ أن يُعَدِّيَ بعَلَى قَالَ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ﴾.[1]

---

١ - سورة الْإِسْرَاءِ: الآية/ ٤٤

٢ - سورة إِبْرَاهِيمَ: الآية/ ٣٢، ٣٣

٣ - سورة الْجَاثِيَةِ: الآية/ ١٣

وفي هذه الآية عُدِّيَ الِاسْتِوَاءُ بِإِلَى فتَضَمَّن الِاسْتِوَاءُ هَاهُنَا مَعْنَى الْقَصْدِ وَالْإِقْبَالِ، أَيْ: قَصَدَ إِلَى السَّمَاءِ، ﴿فَسَوَّاهُنَّ﴾.

أَيْ: فَخَلَقَ السَّمَاءَ سَبْعًا، وَالسَّمَاءُ هَاهُنَا اسْمُ جِنْسٍ، فَلِهَذَا قَالَ: ﴿فَسَوَّاهُنَّ﴾، و لم يقل فَسَوَّاهَا.

﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

أَيْ: وَعِلْمُهُ مُحِيطٌ بِجَمِيعِ مَا خَلَقَ، ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ﴾.[٢]

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلا يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾.[٣]

ومَنْ كان هذا شأنه كان مُسْتَحِقًا للحمدِ بلا انقطاعٍ، مستوجبًا للشكرِ مع كل نَفَسٍ، فلَكَ الْحَمْدُ يا خالقي مِلْءَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمِلْءَ مَا بَيْنَهُمَا وَمِلْءَ مَا شِئْتَ، مِنْ شَيْءٍ بَعْدُ.

---

١ – سورة الْفُرْقَانِ: الآية/ ٥٩

٢ – سورة سَبَأٍ: الآية/ ٣

٣ – سورة الْأَنْعَامِ: الآية/ ٥٩

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

قَولُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾. الآية/ ٣٠

هَذَا هُوَ الْمَوْضُوعُ الثَّالِثُ مِنْ مَوَاضِيعِ هَذِهِ السُّورَةِ الْعَظِيمَةِ، وَهُوَ مَوْضُوعُ اسْتِخْلَافِ بَنِي آدَمَ فِي الأَرْضِ.

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ﴾.

أَيْ: وَاذْكُرْ يَا مُحَمَّدُ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ، وَاقْصُصْ عَلَى قَوْمِكَ ذَلِكَ.

﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾.

خَلِيفَة اسْمُ جِنْسٍ أَيْ: قَوْمًا يَخْلُفُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا قَرْنًا بَعْدَ قَرْنٍ وَجِيلًا بَعْدَ جِيلٍ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الأَرْضِ﴾.[1]

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ﴾.[2]

وَمِنْ الخَطَأِ اعتِقَاد أَنَّ الإِنْسَانَ خَلِيفَةُ اللَّهِ فِي الأَرْضِ، فَإِنَّ الْخَلِيفَةَ لَا يكُونُ إِلَا عَنْ غائبٍ، وَاللَّهُ تَعَالَى لَا يَغِيبُ.

وَلَيْسَ الْمُرَادُ بِالْخَلِيفَةِ هَا هُنَا آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقَطْ كَمَا يَقُولُهُ بعضُ الْمُفَسِّرِينَ، بل المقصود بذلك جميع بني آدم، ودليل ذَلِكَ قَوْلُ الْمَلَائِكَةِ: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾، فَإِنَّهُمْ أَرَادُوا أَنَّ مِنْ هَذَا الْجِنْسِ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ، وَكَأَنَّهُمْ عَلِمُوا ذَلِكَ بِمَا فَهِمُوهُ مِنَ الطَّبِيعَةِ الْبَشَرِيَّةِ فَإِنَّهُ أَخْبَرَهُمْ أَنَّهُ يَخْلُقُ هَذَا الصِّنْفَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ، وَأَنَّهُمْ سَيَقَعُ بَيْنَهُمْ مِنَ الْمَظَالِمِ وَيحدثُ منهم مِنَ الْمَآثِمِ والمعاصي، مع الطاعات، والأعمال الصالحات.

﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾.

هَذَا القَوْلُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ لَيْسَ اعْتِرَاضًا عَلَى اللَّهِ، وَلَا حَسَدًا لِبَنِي آدَمَ، كَمَا قَدْ يَتَوَهَّمُهُ البَعْضُ، وَإِنَّمَا هُوَ سُؤَالُ اسْتِعْلَامٍ وَاسْتِكْشَافٍ عَنِ الْحِكْمَةِ فِي ذَلِكَ، عَلَى وَجْهِ الِاسْتِرْشَادِ، يَقُولُونَ: يَا رَبَّنَا، مَا الْحِكْمَةُ فِي خَلْقِ هَؤُلَاءِ مَعَ أَنَّ مِنْهُمْ مَنْ يُفْسِدُ فِي الْأَرْضِ وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ، فَإِنْ كَانَ الْمُرَادُ عِبَادَتُكَ، فَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ، وَلَا يَصْدُرُ مِنَّا شَيْءٌ مِنَ الإفساد وَسَفْكِ الدِّمَاءِ.

---

١ - سورة الْأَنْعَامِ: الآية/ ١٦٥

٢ - سورة النَّمْلِ: الآية/ ٦٢

﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾.

أَيْ نُعَظِّمُكَ وَنُمَجِّدُكَ وَنُطَهِّرُ ذِكْرَكَ عَمَّا لَا يَلِيقُ بِكَ ونُصَلِّي لَكَ، وأصل الكلام وَنُقَدِّسُك فضمن التقديس معنى الصَّلَاةِ لِأَنَّ الصَّلَاةَ تَشْتَمِلُ عَلَى التَّعْظِيمِ وَالتَّقْدِيسِ وَالتَّسْبِيحِ.

فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى مُجِيبًا لَهُمْ: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أَيْ: إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ الْمَصْلَحَةِ الرَّاجِحَةِ فِي خَلْقِ هَذَا الصِّنْفِ عَلَى الْمَفَاسِدِ الَّتِي ذَكَّرْتُمُوهَا مَا لَا تَعْلَمُونَ أَنْتُمْ؛ فَإِنِّي سَأَجْعَلُ فِيهِمُ الْأَنْبِيَاءَ، وَأُرْسِلُ فِيهِمُ الرُّسُلَ، وَيُوجَدُ فِيهِمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ، وَالصَّالِحُونَ وَالْعُبَّادُ، وَالْخَاشِعُونَ، وَالْأَبْرَارُ وَالْمُقَرَّبُونَ، وَالْعُلَمَاءُ الْعَامِلُونَ.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

قَولُهُ تَعَالَى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٣١) قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾. الآية/ ٣١، ٣٢

أراد اللَّهُ تَعَالَى أن يُبَيِّنَ لِلْمَلَائِكَةِ شَرَفَ آدَمَ عَلَى الْمَلَائِكَةِ، ومنزلته بِمَا اخْتَصَّهُ بِهِ مِنْ عِلم أَسْمَاءِ كُلِّ شَيْءٍ دُونَهُمْ، فعَلَّمَهُ أَسْمَاءَ الْأَشْيَاءِ كُلِّهَا، ذَوَاتَهَا وَأَفْعَالَهَا، اسْمَ كُلِّ دَابَّةٍ، وَكُلِّ طَيْرٍ، وَكُلِّ شَيْءٍ.

﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ﴾.

عَرَضَ أَصْحَابَ الْأَسْمَاءِ يَعْنِي: الْمُسَمَّيَاتُ عَلَى الْمَلَائِكَةِ.

﴿فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾.

إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ أَنَّ بَنِي آدَمَ لا يصدر عنهم إلا الإفسَادُ فِي الْأَرْضِ، وَلا يقعُ منهم إلا سَفْكُ الدِّمَاءِ، فَإِذَا كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ أَسْمَاءَ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ عَرَضْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ تُشَاهِدُونَهُمْ، فَأَنْتُمْ بِمَا هُوَ غَيْرُ مَوْجُودٍ أَحْرَى أَنْ تَكُونُوا غَيْرَ عَالِمِينَ.

﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾.

لَفْظُ: (سُبْحَانَ) مَصْدَرٌ قَلَّمَا يُسْتَعْمَلُ إِلَّا مُضَافًا كَمَعَاذَ اللهِ، وَالْمَعْنَى نُقَدِّسُكَ وَنُنَزِّهُكَ أَنْ يَكُونَ أَحَدٌ يَعْلَمُ الْغَيْبَ غَيْرُكَ.

أَيْ: أَنْتَ الْعَلِيمُ بِكُلِّ شَيْءٍ، الْحَكِيمُ فِي خَلْقِكَ وَأَمْرِكَ، وَفِي تَعْلِيمِكَ مَنْ تَشَاءُ وَمَنْعِكَ العِلْمَ مَنْ تَشَاءُ، لَكَ الْحِكْمَةُ فِي ذَلِكَ، وَالْعَدْلُ التَّامُّ، وَهَذَا تَقْدِيسٌ وَتَنْزِيهٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ لِلَّهِ تَعَالَى أَنْ يُحِيطَ أَحَدٌ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ.

قَولُهُ تَعَالَى: ﴿قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾. الآية/ ٣٣

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ﴾، فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ ظَهَرَ فَضْلُ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، عَلَى الْمَلَائِكَةِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، فِي سَرْدِهِ مَا عَلَّمَهُ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ أَسْمَاءِ الْأَشْيَاءِ، فَقَالَ سُبْحَانَهُ: أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأرْضِ، لَا يَخْفَى عَلَيَّ شَيْءٌ: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ وَلا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾.[1]

١ - سورة يُونُسَ: الآية/ ٦١

﴿وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾.

أَيِ: فَلَا يَخْفَى عَلَيَّ شَيْءٌ من أقوالكم ولا أفعالكم، سَوَاءٌ عِنْدِي سَرَائِرُكُمْ، وَعَلَانِيَتُكُمْ، ﴿سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ﴾.[1]

يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ الضَّمَائِرُ، وَمَا تَنْطَوِي عَلَيْهِ السَّرَائِرُ، كَمَا يَعْلَمُ مَا تُبْدِيهِ الظَّوَاهِرُ مِنْ سَائِرِ الْخَلَائِقِ.

قَولُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾. الآية/ ٣٤

أَيِ: اذْكُرْ يَا مُحَمَّدُ إِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ، وَفِي أَمَرِ اللَّهِ تَعَالَى لِلْمَلَائِكَةِ بِالسُّجُودِ لِآدَمَ عليه السلام كَرَامَةٌ عَظِيمَةٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى امْتَنَّ بِهَا عَلَى آدَمَ وَذُرِّيَّتِهِ، ومما يدل على هذا الشرف قَولُ مُوسَى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لآدَمَ: «أَنْتَ آدَمُ الَّذِي خَلَقَكَ اللهُ بِيَدِهِ وَنَفَخَ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ، وَأَسْجَدَ لَكَ مَلَائِكَتَهُ، وَأَسْكَنَكَ فِي جَنَّتِهِ».[2]

وَذِكْرُ الْمُؤْمِنِينَ له تلك المنةَ عند طلب الشَّفَاعَةِ منه فَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يُجْمَعُ الْمُؤْمِنُونَ يَوْمَ القِيَامَةِ فَيَقُولُونَ: لَوِ اسْتَشْفَعْنَا إِلَى رَبِّنَا فَيُرِيحُنَا مِنْ مَكَانِنَا هَذَا، فَيَأْتُونَ آدَمَ فَيَقُولُونَ لَهُ: أَنْتَ آدَمُ أَبُو البَشَرِ، خَلَقَكَ اللَّهُ بِيَدِهِ، وَأَسْجَدَ لَكَ المَلاَئِكَةَ، وَعَلَّمَكَ أَسْمَاءَ كُلِّ شَيْءٍ فَاشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّنَا حَتَّى يُرِيحَنَا، فَيَقُولُ لَهُمْ: لَسْتُ هُنَاكُمْ فَيَذْكُرُ لَهُمْ خَطِيئَتَهُ الَّتِي أَصَابَ».[3]

وَسُجُودُ المَلاَئِكَةِ لآدَمَ سُجُودُ تَشْرِيفٍ وَتَحِيَّةٍ وَتَكْرِيمٍ وَتَعْظِيمٍ، وَقَدْ كَانَ سُجُودُ التَحِيَّةِ مَشْرُوعًا فِي الشَّرَائِعِ السَّابِقَةِ فِي الْأُمَمِ الْمَاضِيَةِ،كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾.[4]

---

١ - سورة الرَّعْدِ: الآية/ ١٠

٢ - رواه البخاري- كِتَابُ أَحَادِيثِ الأَنْبِيَاءِ، بَابُ وَفَاةِ مُوسَى وَذِكْرِه بَعْدُ، حديث رقم: ٣٤٠٩ ، ومسلم- كتاب الْقَدَرِ، بَابُ حِجَاجِ آدَمَ وَمُوسَى عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، حديث رقم: ٢٦٥٢

٣ - رواه البخاري- كِتَابُ تَفْسِيرِ القُرْآنِ، بَابُ قَوْلِ اللَّهِ: {وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا} [البقرة: ٣١]، حديث رقم: ٤٤٧٦ ، ومسلم- كِتَابُ الْإِيمَانِ، بَابُ أَدْنَى أَهْلِ الْجَنَّةِ مَنْزِلَةً فِيهَا، حديث رقم: ١٩٣

٤ - سورة يُوسُفَ: الآية/ ١٠٠

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وَنُسِخَ ذلك فِي شَرِيعَتِنَا، فَعَنْ قَيْسِ بْنِ سَعْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: أَتَيْتُ الْحِيرَةَ فَرَأَيْتُهُمْ يَسْجُدُونَ لِمَرْزُبَانٍ لَهُمْ فَقُلْتُ: رَسُولُ اللَّهِ أَحَقُّ أَنْ يُسْجَدَ لَهُ، قَالَ: فَأَتَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقُلْتُ: إِنِّي أَتَيْتُ الْحِيرَةَ فَرَأَيْتُهُمْ يَسْجُدُونَ لِمَرْزُبَانٍ لَهُمْ فَأَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَحَقُّ أَنْ نَسْجُدَ لَكَ، قَالَ: «أَرَأَيْتَ لَوْ مَرَرْتَ بِقَبْرِي أَكُنْتَ تَسْجُدُ لَهُ؟» قَالَ: قُلْتُ: لَا، قَالَ: «فَلَا تَفْعَلُوا، لَوْ كُنْتُ آمِرًا أَحَدًا أَنْ يَسْجُدَ لِأَحَدٍ لَأَمَرْتُ النِّسَاءَ أَنْ يَسْجُدْنَ لِأَزْوَاجِهِنَّ لِمَا جَعَلَ اللَّهُ لَهُمْ عَلَيْهِنَّ مِنَ الْحَقِّ».[1]

وَالْمَلَائِكَةُ جَمْعُ مَلَكٍ وهي مَخْلُوقَاتٌ نُورانيةٌ، لا تتصف بذكورة ولا أنوثة، خُلِقَت لعبادة الله تعالى، والشياطين مَخْلُوقَاتٌ نَارِيةٌ، فيهم ذكورٌ وإناثٌ، وهم مكلفون مثل بني آدَمَ.

فَعَنْ عَائِشَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «خُلِقَتِ الْمَلَائِكَةُ مِنْ نُورٍ، وَخُلِقَ الْجَانُّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ، وَخُلِقَ آدَمُ مِمَّا وُصِفَ لَكُمْ».[2]

﴿فَسَجَدُوا إِلا إِبْلِيسَ﴾.

إنما دَخَلَ إِبْلِيسُ فِي خِطَابِ اللَّهِ تَعَالَى لِلْمَلَائِكَةِ بِالسُّجُودِ لِآدَمَ؛ لِأَنَّهُ كان معهم وَتشَبَّه بِهِمْ فِي أَفْعَالِهِمْ وَلَمْ يَكُنْ مِنْ عُنْصرهم، والأمر إذا كان للأعلى شمل الأدنى، وعلى هذا فالاستثناء في الآية استثناء منقطع، ومن الخطأ قول بعض المفسرين أن إِبْلِيسَ كان من الْمَلَائِكَةِ.

﴿أَبَى وَاسْتَكْبَرَ﴾.

الإِبَاءُ: أَشدُّ الِامْتِنَاعِ مع الْكَرَاهَةِ، وَاسْتَكْبَرَ: اسْتَعْلَى وطَغَى وَجَاوَزَ حَدَّه.

وقد ظهر هذا الإباء وَالْعِنَادُ وَالِاسْتِكْبَارُ جليًا في كلام إِبْلِيسَ مع الله تبارك وتعالى، قَالَ إِبْلِيسُ - لَعَنَهُ اللَّهُ - افْتِخَارًا بنفسه، وَاحْتِقَارًا لِآدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾.[3]

وَقَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾.[4]

وَقَالَ: ﴿لَمْ أَكُنْ لأسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾.[5]

---

١ - رواه أبو داود-كِتَاب النِّكَاحِ، بَابٌ فِي حَقِّ الزَّوْجِ عَلَى الْمَرْأَةِ ، حديث رقم: ٢١٤٠، بسند صحيح

٢ - رَوَاهُ مُسْلِمٌ-كِتَابُ الزُّهْدِ وَالرَّقَائِقِ، بَابٌ فِي أَحَادِيثَ مُتَفَرِّقَةٍ، حديث رقم: ٢٩٩٦

٣ - سورة الْإِسْرَاءِ: الآية/ ٦١

٤ - سورة الْأَعْرَافِ: الآية/ ١٢

٥ - سورة الْحِجْرِ: الآية/ ٣٣

﴿وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾.

أَيْ: كَانَ فِي عِلْمِ اللَّهِ مِنَ الْكَافِرِينَ، وَصَارَ مِنَ الْعَاصِينَ الْكَافِرِينَ بِسَبَبِ امْتِنَاعِهِ.

وإنما كان الحاملُ لعَدُوِّ اللَّهِ إِبْلِيسَ على عدم السجود لآدمَ، عَلَيْهِ السَّلَامُ الحَسَدُ وَالكِبْرُ، حَسَدَه عَلَى مَا أَعْطَاهُ اللَّهُ مِنَ الْكَرَامَةِ.

لذلك قيل: الْحَسَدُ أَوَّلُ ذَنْبٍ عُصِيَ اللَّهُ بِهِ فِي السَّمَاءِ، وَأَوَّلُ ذَنْبٍ عُصِيَ بِهِ فِي الْأَرْضِ، فَأَمَّا فِي السَّمَاءِ فَحَسَدُ إِبْلِيسَ لِآدَمَ، وَأَمَّا فِي الْأَرْضِ فَحَسَدُ قَابِيلَ لِهَابِيلَ.

قَولُهُ تَعَالَى: ﴿وَقُلْنَا يَاآدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَاتَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (٣٥) فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ (٣٦) فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾. الآيات: ٣٥- ٣٧

أخبر الله تعالى عن تكريمه لآدَمَ: أَنَّهُ أَبَاحَ له الْجَنَّةَ يَسْكُنُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ، وَيَأْكُلُ مِنْهَا مَا يشَاءُ رَغَدًا، والألف واللام في ﴿الْجَنَّةَ﴾، للعهد أي: الْجَنَّةَ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ومما يدل على أن الجنة التي أمر آدم أن يسكنها هي الجنة التي في السماء، ما ثبت عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "احْتَجَّ آدَمُ وَمُوسَى، فَقَالَ مُوسَى: يَاآدَمُ أَنْتَ أَبُونَا خَيَّبْتَنَا وَأَخْرَجْتَنَا مِنَ الْجَنَّةِ....."[1].

فلو كانت هذه الجنة في الأرض لما عاتب موسى عليه السلام آدمَ على الخروج منها.

وزَوْجُ آدَمَ هِي حَوَّاءُ عَلَيْهَا السَّلَامُ، أُمُّ البَشَرِ خَلَقَهَا الله تعالى مِنْ ضِلْعِ آدَمَ الْأَيْسَرِ مِنْ خَلْفِهِ وَهُوَنَائِمٌ، كما قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْها زَوْجَها﴾.[2]

فلمَا اسْتَيْقَظَ رَآهَا فَأَعْجَبَتْهُ، فَأَنِسَ إِلَيْهَا وَأَنِسَتْ إِلَيْهِ، وَجَعَلَ اللهُ لَهُ سَكَنًا مِنْ نَفْسِهِ، قَالَ اللَّهُ تعالى له: ﴿يَاآدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا﴾.

وَالرَّغَدُ هو الْعَيْشُ الْوَاسِعُ الْهَنِيءُ الطَّيِّبُ، الَّذِي لَايصيبُ صَاحِبَهُ العَنَاءُ والتعبُ في تحصيلِهِ.

---

١ - رواه البخاري- كِتَابُ أَحَادِيثِ الأَنْبِيَاءِ، بَابُ وَفَاةِ مُوسَى وَذِكْرِهِ بَعْدُ، حديث رقم: ٣٤٠٩، ومسلم- كتاب الْقَدَرِ، بَابُ حِجَاجِ آدَمَ وَمُوسَى عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، حديث رقم: ٢٦٥٢

٢ - سورة النِّسَاءِ: الآية/ ١

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾، اخْتِبَارًا وَامْتِحَانًا لِآدَمَ وَحَوَّاءَ عليهما السلام لِحِكْمَةٍ بَالِغَةٍ قَضَاهَا، يَسْتَوْجِبُ الْحَمْدَ عَلَى اقْتِضَاهَا، وَالْحِكْمَةُ فِي إِخْرَاجِ آدَمَ مِنَ الْجَنَّةِ عِمَارَةُ الدُّنْيَا، واستخلاف بني آدَمَ فيها.

وَهَذِهِ الشَّجَرَةُ التي نهى اللَّهُ تَعَالَى عن قربها وردت مبهمة، والبحث عن هذه الشجرة أي شجرة هي؟ ليس فيه فائدة تذكر.

وهنا قاعدة لا بد من الانتباه لها وهي أن ما أبهمه القرآن فلا فائدة من البحث عنه.

قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: وَالصَّوَابُ فِي ذَلِكَ أَنْ يُقَالَ: إِنَّ اللَّهَ جَلَّ ثَنَاؤُهُ نَهَى آدَمَ وَزَوْجَتَهُ عَنْ أَكْلِ شَجَرَةٍ بِعَيْنِهَا مِنْ أَشْجَارِ الْجَنَّةِ، دُونَ سَائِرِ أَشْجَارِهَا، فَأَكَلَا مِنْهَا، وَلَاعِلْمَ عِنْدِنَا بِأَيِّ شَجَرَةٍ كَانَتْ عَلَى التَّعْيِينِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَضَعْ لِعِبَادِهِ دَلِيلًا عَلَى ذَلِكَ فِي الْقُرْآنِ وَلَا مِنَ السُّنَّةِ الصَّحِيحَةِ.[1]

﴿فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾.

لأنه اعتداء ومجاوزة للحد الذي حده الله لهما، ولأن مخالفة العبد لأمر الله تعالى ظلم منه لنفسه.

١- تفسير الطبري (١/ ٥٥٦)

قَولُهُ تَعَالَى: ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾. الآية/ ٣٦

اسْتَزَلَّ الشَّيْطَانُ آدَمَ وَحَوَّاءَ أَيْ دَعَاهُمَا إِلَى الزَّلَّةِ وَهِيَ الْخَطِيئَةُ، وَأَوْقَعَهُمَا فِيهَا بتزيينه لهما الأكل من الشجرة التي نهى الله عنها؛ لعدائه وحسده لهما، واستخدم في ذلك كل وسيلة، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿قَالَ يَاآدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لا يَبْلَى﴾.[1]

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾.[2]

وَقَرَأَ حَمْزَةُ: فَأَزَالُهُمَا، أَيْ نَحَّاهُمَا وَصَرَفَهُمَا عَمَّا كَانَا فيه من النَّعِيمِ، وَالْمَنْزِلِ الرَّحْبِ، وَالرِّزْقِ الْهَنِيءِ، وَالرَّاحَةِ فِي الْجَنَّةِ، فَأَخْرَجَهُمَا منها، وَنُسِبَ ذَلِكَ إِلَى إِبْلِيسَ، لِأَنَّهُ كَانَ بِسَبَبِهِ وَإِغْوَائِهِ.

﴿وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾.

ورد أن نزول آدم وحواء كان يوم الجمعة فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «خَيْرُ يَوْمٍ طَلَعَتْ فِيهِ الشَّمْسُ يَوْمُ الْجُمُعَةِ، فِيهِ خُلِقَ آدَمُ، وَفِيهِ أُدْخِلَ الْجَنَّةَ، وَفِيهِ هَبَطَ مِنْهَا، وَفِيهِ تَقُومُ السَّاعَةُ، وَفِيهِ سَاعَةٌ، ثُمَّ قَبَضَ يَدَهُ يُقَلِّلُهَا، لا يُوَافِقُهَا مُسْلِمٌ يُصَلِّي يَسْأَلُ اللَّهَ خَيْرًا إِلا أَعْطَاهُ إِيَّاهُ».[3]

ولم يرد كيف كان نزولهما ولا أين كان نزولهما والبحث عن ذلك لا يجدي نفعا لأن العبرة هي أن نزولهما كان بسبب الذنب الذي ارتكباه.

والخطاب في الآية لآدم وحواء وإبليس ليعلموا أنهم قرناء أبداً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وأن العداوة بينهم لا تنتهي، وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ أي: موضع استقرار.

وَمَتَاعٌ أي: تمتع إِلى حِينٍ إلى أن تقضى آجالكم.

---

١ - سورة طه: الآية/ ١٢٠

٢ - سورة الأعراف: الآية/ ٢١

٣ - رَوَاهُ مُسْلِمٌ- كِتَابُ الْجُمُعَةِ، بَابُ فَضْلِ يَوْمِ الْجُمُعَةِ، حديث رقم: ٨٥٤

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

قَولُهُ تَعَالَى: ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾. الآية/ ٣٧

أَوْحَى اللَّهُ تَعَالَى إِلَى آدَمَ وَزَوْجَتِهِ أَنَّ يَأْكُلَا مِنْ كُلِّ الثِّمَارِ فِي الْجَنَّةِ، وَلَا يَقْرَبَا هَذِهِ إلا شَّجَرَةَ مُعَيَّنَةَ. فَلَمْ يَزَلْ بِهِمَا إِبْلِيسُ حَتَّى أَكَلَا مِنْهَا،فلما أَكَلا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا،وَطَفِقَا يَنْزِعَانِ مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ فَيَجْعَلَانِهِ عَلَى سَوْآتِهِمَا.

وشعرا بمرارة الذنب وأثر المعصية، فتداركه الله عز وجل برحمته، ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى، فألقي عليه كلمات تضرع بها إلى الله، فَتَابَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ بها، وَقد وردت هَذِهِ الْكَلِمَاتُ مُفَسَّرَةٌ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾.[1]

﴿فَتَابَ عَلَيْهِ﴾.

التَّوْبَةُ: هِيَ الرُّجُوعُ، يُقَالُ تَابَ الْعَبْدُ: إِذَا رَجَعَ إِلَى طَاعَةِ مَوْلَاهُ، وَعَبْدٌ تَوَّابٌ: كَثِيرُ الرُّجُوعِ، وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ: رَجَعَ عَلَيْهِ بِالرَّحْمَةِ، فَقَبِلَ تَوْبَتَهُ، أَوْ وَفَّقَهُ لِلتَّوْبَةِ. وَاقْتَصَرَ عَلَى ذِكْرِ التَّوْبَةِ عَلَى آدَمَ دُونَ حَوَّاءَ مَعَ اشْتِرَاكِهِمَا فِي الذَّنْبِ، لِأَنَّ الْكَلَامَ مِنْ أَوَّلِ الْقِصَّةِ مَعَهُ استمر عَلَى ذَلِكَ، وَاسْتَغْنَى بِالتَّوْبَةِ عَلَيْهِ عَنْ ذِكْرِ التَّوْبَةِ عَلَيْهَا لِكَوْنِهَا تَابِعَةً لَهُ، كَمَا اسْتَغْنَى بِنِسْبَةِ الذَّنْبِ إِلَيْهِ عَنْ نِسْبَتِهِ إِلَيْهَا فِي قوله: ﴿وَعَصى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوى﴾.[2]

﴿إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾.

التَّوَّابُ عَلَى وَزْنِ فَعَّالٍ مُبَالَغَةً فِي التَّوْبَةِ، فاللَّهُ عز وجل يَتُوبُ عَلَى مَنْ تَابَ إِلَيْهِ وَأَنَابَ، وإن تَكَرَرَ مِنْهُ الذَنْبُ مَرَّاتٍ وَمَرَّاتٍ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾.[3]

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾.[4]

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "أَنَّ رَجُلًا أَذْنَبَ ذَنْبًا، فَقَالَ: رَبِّ، إِنِّي أَذْنَبْتُ ذَنْبًا فَاغْفِرْهُ. فَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ: عَبْدِي عَمِلَ ذَنْبًا، فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ، قَدْ غَفَرْتُ

---

١ - سورة الْأَعْرَافِ: الآية/ ٢٣

٢ - سورة طه: الآية/ ١٢١

٣ - سورة التَّوْبَةِ: الآية/ ١٠٤

٤ - سورة النِّسَاءِ: الآية/ ١١

لِعَبْدِي. ثُمَّ أَذْنَبَ ذَنْبًا آخَرَ فَقَالَ: رَبِّ، إِنِّي عَمِلْتُ ذَنْبًا فَاغْفِرْهُ. فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: عَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ، قَدْ غَفَرْتُ لِعَبْدِي. ثُمَّ فَقَالَ: رَبِّ إِنِّي عَمِلْتُ ذَنْبًا فَاغْفِرْهُ. فَقَالَ: عَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ، قَدْ غَفَرْتُ لِعَبْدِي، ثُمَّ أَذْنَبَ ذَنْبًا آخَرَ فَقَالَ: رَبِّ إِنِّي عَمِلْتُ ذَنْبًا فَاغْفِرْهُ، قَالَ: عَبْدِي عَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ: أُشْهِدُكُمْ أَنِّي قَدْ غَفَرْتُ لِعَبْدِي، فَلْيَعْمَلْ مَا شَاءَ».[1]

قَولُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾. الآية/ ٣٨

ثم أمرَ اللَّهُ تَعَالَى آدَمَ وَزَوْجَتَهُ وَإِبْلِيسَ بأن يهبطوا إلى الأرض، وأخبر أَنَّهُ سَيُنْزِلُ إليهم الْكُتُبَ، وَيَبْعَثُ فيهم الْأَنْبِيَاءَ وَالرُّسُلَ.

﴿فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ﴾.

أَيْ: مَنْ أَقْبَلَ عَلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ الْكُتُبِ وَاستجابَ لِمَنْ أَرْسَلَهُ اللَّهُ مِنْ الرُّسُلِ وَالْمُرَادُ بذلك الذُّرِّيَّةُ، ﴿فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ الْخَوْفُ هُوَ الذُّعْرُ وَلَا يَكُونُ إِلَّا فِي الْمُسْتَقْبَلِ، أَيْ: فِيمَا يَسْتَقْبِلُونَهُ مِنْ أَمْرِ الْآخِرَةِ، ﴿وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ وَالْحَزَنُ: ضِدُّ السُّرُورِ وَلَا يَكُونُ إِلَّا عَلَى مَاضٍ، فَلا يَحْزَنُونَ عَلَى مَا فَاتَهُمْ مِنْ أُمُورِ الدُّنْيَا، ومن كان هذا حاله فَلَا يَضِلُّ فِي الدُّنْيَا وَلَا يَشْقَى فِي الْآخِرَةِ.

١ - رواه البخاري- كِتَابُ التَّوْحِيدِ، بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: {يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ} [الفتح: ١٥] ، حديث رقم: ٧٥٠٧، ومسلم- كِتَابُ التَّوْبَةِ، بَابُ قَبُولِ التَّوْبَةِ مِنَ الذُّنُوبِ وَإِنْ تَكَرَّرَتِ الذُّنُوبُ وَالتَّوْبَةُ، حديث رقم: ٢٧٥٨

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

قَولُهُ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾. الآية/ ٣٩

أَيْ: الَّذِينَ جَحَدُوا آيَاتِي وَكَذَّبُوا رُسُلِي، وَآيَاتُ اللَّهِ: حُجَجُهُ وَأَدِلَّتُهُ عَلَى وَحْدَانِيَّتِهِ وَرُبُوبِيَّتِهِ، وَمَا جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ مِنَ الْأَعْلَامِ وَالشَّوَاهِدِ عَلَى ذَلِكَ، وَعَلَى صِدْقِهَا فِيمَا أَنْبَأَتْ عَنْ رَبِّهَا.

و: ﴿خَالِدُونَ﴾، أَيْ: مُخَلَّدُونَ فِيهَا، لَا مَحِيدَ لَهُمْ عَنْهَا، وَلَا مَحِيصَ.

﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ﴾.

يَعْنِي: أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَجَحَدُوا بِهَا، وَكَذَّبُوا رُسُلَهُ، أَهْلُهَا الْمُخَلَّدُونَ فِيهَا أَبَدًا إِلَى غَيْرِ أَمَدٍ وَلَا نِهَايَةٍ.

قَولُهُ تَعَالَى: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ (٤٠) وَآمِنُوا بِمَا أَنزلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ﴾. الآية: ٤٠، ٤١

هذا هو الموضوع الرابع من مواضيع هذه السورة الكريمة، وهو قصة بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَإِسْرَائِيلُ هُوَ نَبِيُّ اللَّهِ يَعْقُوبُ، عَلَيْهِ السَّلَامُ، ومعنى إِسْرَائِيلَ: عَبْدُ اللَّهِ ونسبوا إليه لأنهم من ذريته.

يَقُولُ تَعَالَى مذكرًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ بحال أَبِيهِمْ يَعْقُوبُ، عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي مُتَابَعَته للْحَقِّ، وَآمِرًا لَهُمْ أن يذكروا نِعْمَةَ اللَّهِ الَّتِي أَنْعَمَ بِهَا عَلَيْهِمْ، حَيْثُ فَضَّلَهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ فِي زَمَانِهِمْ، وَفَرَقَ بِهِم الْبَحْرَ، وَنَجَّاهُمْ مِنْ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ، وَفَجَّرَ لَهُمُ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ، وَأَنْزَلَ عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى.

﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾.

ثم أمرهم أن يفوا بِعَهْدِ اللَّهِ الَّذِي أَخَذَه عَلَيْهِم فِي تَصْدِيقِهِم بالنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَاتِّبَاعِهِم له إِذَا جَاءَهُمْ.

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾.[1]

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: مَا بَعَثَ اللَّهُ نَبِيًّا إِلَّا أَخَذَ عَلَيْهِ الْعَهْدَ: لَئِنْ بُعِثَ مُحَمَّدٌ وَهُوَ حَيٌّ لَيَتَّبِعَنَّهُ، وَأَخَذَ عَلَيْهِ أَنْ يَأْخُذَ عَلَى أُمَّتِهِ لَئِنْ بُعِثَ مُحَمَّدٌ وَهُمْ أَحْيَاءٌ لَيَتَّبِعُنَّهُ وَيَنْصُرُنَّهُ.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾.[2]

﴿أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾.

أَيْ: أُنْجِزُ لَكُمْ مَا وَعَدْتُكُمْ عَلَيْهِ بِتَصْدِيقِهِ وَاتِّبَاعِهِ، بِوَضْعِ مَا كَانَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْإِصْرِ وَالْأَغْلَالِ الَّتِي كَانَتْ فِي أَعْنَاقِكُمْ بِذُنُوبِكُمُ الَّتِي اقْتَرَفْتُمُوهَا، والجزاء من جنس العمل، وَأُحِلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي وَأُدْخِلُكُمُ الْجَنَّةَ.

﴿وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾.

أَيْ: وَاخْشَوْنِ أَنْ أُنْزِلَ بِكُمْ مَا أُنْزِلُ بِمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ مِنَ المكذبين من العذاب، وقدم الضمير ﴿وَإِيَّايَ﴾؛ لِلِاخْتِصَاصِ وبيانِ أنَّ الخَشْيَةَ لا تجوزُ إلَا مِنَ اللهِ.

﴿وَآمِنُوا بِمَا أَنزلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ﴾.

أَيْ: بالْقُرْآنِ الَّذِي أَنْزَلْتُه عَلَى النَّبِيِّ الخَاتِمِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى:﴿وَأَنزلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾.[3]

﴿وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ﴾.

أَيْ: لا تُبَادروا بتكذيبِ الْقُرْآنِ والإعْرَاضِ عنه، فتَكُونُون أَوَّلَ مَنْ كَفَرَ بِهِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ؛ فَإِنَّ يَهُودَ الْمَدِينَةِ أَوَّلُ بَنِي إِسْرَائِيلَ خُوطِبُوا بِالْقُرْآنِ، لَا سِيَّمَا وَعِنْدَكُمْ فِيهِ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَيْسَ عِنْدَ غَيْرِكُمْ.

1- سورة آل عِمْرَانَ: الْآيَةَ/٨١

2- سورة الْمَائِدَةِ: الْآيَةَ/ ١٢

٣ - سورة الْمَائِدَةِ: الْآيَةَ/ ٤٨

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

﴿وَلا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلا﴾.

أَيْ: لَا تَعْتَاضُوا عَنِ الْإِيمَانِ بِآيَاتِي وَتَصْدِيقِ رَسُولِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالدُّنْيَا وَشَهَوَاتِهَا، لِتَسْتَمِرُّوا عَلَى رِيَاسَتِكُمْ فِيهَا فَإِنَّهَا قَلِيلَةٌ فَانِيَةٌ.

﴿وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ﴾.

أَيْ: اجْعَلُوا بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ سَخَطِ اللهِ تَعَالَى وَعَذَابِهِ وِقَايَةً بِإِيمَانِكُمْ وَطَاعَتِكُمْ، وقدم الضمير ﴿إِيَّايَ﴾؛ لِلِاخْتِصَاصِ فلا يُتَّقَى إِلَا اللهُ تَعَالَى.

تقدم الكلام عن التَّقْوَى، وقول طَلْق بْنُ حَبِيبٍ: التَّقْوَى: أَنْ تَعْمَلَ بِطَاعَةِ اللَّهِ، عَلَى نُورٍ مِنَ اللَّهِ، تَرْجُو ثَوَابَ اللَّهِ، وَأَنْ تَتْرُكَ مَعْصِيَةَ اللَّهِ، عَلَى نُورٍ مِنَ اللَّهِ، مَخَافَةَ عَذَابِ اللَّهِ.

قَولُهُ تَعَالَى: ﴿وَلا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٤٢) وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾. الآية/٤٠، ٤١

ينهى اللَّهُ تَعَالَى الْيَهُودَ عِنْ تَلْبِيسِ الْحَقِّ بِالْبَاطِلِ، وَتَمْوِيهِ الْحَقِّ، وَكِتْمَانِهِ وَمُنَاصَرَتِهِمُ لِلْبَاطِلِ، وقد كَانُوا يَتَعَمَّدُونَ ذلك، لبغضهم لدين الله تعالى، وَكَانَت قُرَيْشُ قَدْ سَأَلَتْ أَحْبَارَ اليَهُودِ: أَدِينُهُمْ خَيْرٌ أَمْ دِينُ مُحَمَّدٍ؟ فَقَالَ اليَهُودُ: بَلْ دِينُكُمْ خَيْرٌ مِنْ دِينِهِ، وَأَنْتُمْ أَهْدَى مِنْهُ وَمِمَّنِ اتَّبَعَهُ،وقد سجل القرآن ذلك عليهم قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا﴾.[1]

فنهاهم اللَّهُ تَعَالَى عن أن يَخْلِطُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَالصِّدْقَ بِالْكَذِبِ، تَلْبِيسًا على الناس لصرفهم عن دين الله الإسلام.

﴿وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

ونهاهم كذلك أن يَكْتُمُوا مَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْمَعْرِفَةِ بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَبِمَا جَاءَ بِهِ، وَهُمْ يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِيمَا بين أَيْدِيهِمْ مِنَ الْكُتُبِ.

---

١ - سورة النِّسَاءِ: الْآيَةَ/ ٥١

كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ﴾.[1]

وَالْمَعْنَى لَا تَجْمَعُوا بَيْنَ التَلْبِيسِ عَلَى النَّاسِ، وَكِتْمَانكُمُ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ الْحَقَّ، وَتَعْلَمُونَ مَا فِي ذَلِكَ مِنَ الضَّرَرِ الْعَظِيمِ عَلَى النَّاسِ مِنْ إِضْلَالِهِمْ عَنِ الْهُدَى الْمُفْضِي بِهِمْ إِلَى النَّارِ إذا تابعوكم على هذا الْبَاطِلِ.

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾.

ثم أَمَرَهُمْ اللَّهُ تَعَالَى باتباع الإسلام الذي من أظهر شعائره الصَّلاةُ وَالزَّكَاةُ وَأن يكُونُوا مَعَ الْمُؤْمِنِينَ فِي أَحْسَنِ أَعْمَالِهِمْ، وَمِنْ أَخَصِّ ذَلِكَ وَأَكْمَلِهِ الصَّلَاةُ، بِأَنْ يُصَلُّوا مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والْمُؤْمِنِينَ، وَأَمَرَهُمْ أَنْ يُؤْتُوا الزَّكَاةَ، أَيْ: يَدْفَعُونَهَا إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَمَرَهُمْ أَنْ يَرْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ مِنْ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَذِكْرُ الرُّكُوعِ بَعْدَ الصَّلاةُ مِنْ بَابِ عَطْفِ الْخَاصِّ عَلَى الْعَامِّ، وَفِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾، اشارة إلى وُجُوبِ صَلَاةِ الْجَمَاعَةِ كَمَا قَالَ كَثِيرٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ.

قَولُهُ تَعَالَى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾. الآية/ ٤٤

ذَمَّ اللَّهُ تَعَالَى اليهود عَلَى تَرْكِهِمْ لِلْخَيْرِ وَالْبِرِّ وإعراضهم عن الطاعة، حَيْثُ كَانُوا يَأْمُرُونَ الناس بِالْخَيْرِ وَلَا يَفْعَلُونَهُ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾.[2]

وَلَيْسَ الْمُرَادُ ذَمُّهُمْ عَلَى أَمْرِهِمْ بِالْبِرِّ مَعَ تَرْكِهِمْ لَهُ، بَلْ عَلَى تَرْكِهِمْ لَهُ فَقَط، فَإِنَّ الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاجِبٌ، وَلَكِنَّ الْأَوْلَى بِالْعَالِمِ أَنْ يَفْعَلَ الْمَعْرُوفَ مَعَ أَمْرِ الناس بِهِ، وأن يجتنب المنكر مَعَ نَهْيِ الناس عَنْهُ، كَمَا قَالَ شُعَيْبٌ، عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلا الإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾.[3]

---

١ – سورة الْأَعْرَافِ: الْآيَةَ/ ١٥٧

٢ – سورة الصَّفِّ: الآية/ ٢، ٣

٣ – سورة هُودٍ: الآية/ ٨٨

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وقد قِيلَ: عَمَلُ رَجُلٍ فِي أَلْفِ رَجُلٍ، أَبْلَغُ مِنْ قَوْلِ أَلْفِ رَجُلٍ فِي رَجُلٍ.

قَالَ مَالِكٌ عَنْ رَبِيعَةَ: سَمِعْتُ سَعِيدَ بْنَ جُبَيْرٍ يَقُولُ لَهُ: لَوْ كَانَ الْمَرْءُ لَا يَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ وَلَا يَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ حَتَّى لَا يَكُونَ فِيهِ شَيْءٌ مَا أَمَرَ أَحَدٌ بِمَعْرُوفٍ وَلَا نَهَى عَنْ مُنْكَرٍ. قَالَ مَالِكٌ: وَصَدَقَ مَنْ ذَا الَّذِي لَيْسَ فِيهِ شَيْءٌ؟

وَقَالَ أَبُو الْأَسْوَدِ الدُّؤَلِيُّ:

يَا أَيُّهَا الرَّجُلُ الْمُعَلِّمُ غَيْرَهُ ***** هَلَّا لِنَفْسِكَ كَانَ ذَا التَّعْلِيمُ

تَصِفُ الدَّوَاءَ لِذِي السَّقَامِ وَذِي الضَّنَا ***** كَيْمَا يَصِحُّ بِهِ وَأَنْتَ سَقِيمُ

ابْدَأْ بِنَفْسِكَ فَانْهَهَا عَنْ غَيِّهَا ***** فَإِذَا انْتَهَتْ عَنْهُ فَأَنْتَ حَكِيمُ

فَهُنَاكَ يُقْبَلُ إِنْ وَعَظْتَ وَيُقْتَدَى ***** بِالرَّأْيِ مِنْكَ وَيَنْفَعُ التَّعْلِيمُ

وَمَا أَحْسَنَ مَا قَالَ مُسْلِمُ بْنُ عَمْرٍو:

مَا أَقْبَحَ التَّزْهِيدَ مِنْ وَاعِظٍ ***** يُزَهِّدُ النَّاسَ وَلَا يَزْهَدُ

لَوْ كَانَ فِي تَزْهِيدِهِ صَادِقًا ***** أَضْحَى وَأَمْسَى بَيْتُهُ الْمَسْجِدُ

إِنْ رَفَضَ النَّاسُ فَمَا بَالُهُ ***** يَسْتَفْتِحُ النَّاسَ وَيَسْتَرْقِدُ

الرِّزْقُ مَقْسُومٌ عَلَى مَنْ تَرَى ***** يُسْقَى لَهُ الْأَبْيَضُ وَالْأَسْوَدُ

وَجَلَسَ أَبُو عُثْمَانَ الْحِيرِيُّ الزَّاهِدُ يَوْمًا عَلَى مَجْلِسِ التَّذْكِيرِ فَأَطَالَ السُّكُوتَ، ثُمَّ أَنْشَأَ يَقُولُ:

وَغَيْرُ تَقِـــيٍّ يَـــأْمُرُ النَّـــاسَ بِـــالتُّقَى ***** طَبِيبٌ يُـــدَاوِي وَالطَّبِيـــبُ مَـــرِيضُ

فَضَجَّ النَّاسُ بِالْبُكَاءِ.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

قَولُهُ تَعَالَى: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾. الآية/ ٤٥

أمر اللَّهُ تَعَالَى بالاستعانة بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ عَلَى طَلَبِ الْآخِرَةِ وَعَلَى مَرْضَاةِ اللَّهِ بِالصَّبْرِ عَلَى الْفَرَائِضِ، وَالصَّبْرِ عَنِ الْمَعَاصِي وَالصَّبْرِ عَلَى الْبَلَاءِ وَالْمِحَنِ، فَإِنَّ الصَّبْرَ وَالصَّلَاةَ مِنْ أَكْبَرِ الْعَوْنِ عَلَى الثَّبَاتِ فِي الْأَمْرِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾.[1]

الصَّبْرُ: فِي اللُّغَةِ الْحَبْسُ.

وفي الشرع: حَبْسُ النَّفْسِ عَنِ الْجَزَعِ وَالتَّسَخُّطِ، وَحَبْسُ اللِّسَانِ عَنِ الشَّكْوَى، وَحَبْسُ الْجَوَارِحِ عَنِ التَّشْوِيشِ.

وَهُوَ ثَلَاثَةُ أَنْوَاعٍ: صَبْرٌ عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ، وَصَبْرٌ عَنْ مَعْصِيَةِ اللَّهِ، وَصَبْرٌ عَلَى الْبَلَاءِ.

وَخَصَّ اللَّهُ تَعَالَى الصَّلَاةَ بِالذِّكْرِ مِنْ بَيْنِ سَائِرِ الْعِبَادَاتِ تَنْوِيهًا بِفَضْلِهَا؛ وَكَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا حَزَبَهُ أَمْرٌ فَزِعَ إِلَى الصَّلَاةِ، فَعَنْ حُذَيْفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا حَزَبَهُ أَمْرٌ، صَلَّى».[2]

وَرُوِيَ أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ ابن عَبَّاسٍ نُعِيَ لَهُ أَخُوهُ قُثَمُ- وَقِيلَ بِنْتٌ لَهُ- وَهُوَ فِي سَفَرٍ فَاسْتَرْجَعَ وَقَالَ: عَوْرَةٌ سترها الله، ومئونة كَفَاهَا اللَّهُ، وَأَجْرٌ سَاقَهُ اللَّهُ. ثُمَّ تَنَحَّى عَنِ الطَّرِيقِ وَصَلَّى ثُمَّ انْصَرَفَ إِلَى رَاحِلَتِهِ وَهُوَ يَقْرَأُ: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ﴾.[3]

﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ﴾.

أي: الصَّلَاةُ ثَقِيلَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاضِعِينَ لِطَاعَتِهِ، الْخَائِفِينَ سَطَوَاتَهُ، الْمُصَدِّقِينَ بِوَعْدِهِ وَوَعِيدِهِ.

وَرَدَّ الْكِنَايَةَ إِلَى الصَّلَاةِ مع أن الأمر في الآية بالاستعانة بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ؛ لِأَنَّهَا أَعَمُّ من الصَّبْرِ، وأعظمُ أثرًا.

---

١ - سورة الْعَنْكَبُوتِ: الْآيَةَ/ ٤٥

٢ - رَوَاهُ أحمد- حديث رقم: ٢٣٢٩٩، وَأَبُو دَاوُدَ- أَبْوَابُ قِيَامِ اللَّيْلِ، بَابُ وَقْتِ قِيَامِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ اللَّيْلِ، حديث رقم: ١٣١٩، بِسَنَدٍ حَسَنٍ

٣ - تفسير القرطبي (١/ ٣٧٢)

﴿إلا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾.

أي: الْخَائِفِينَ، الْمُتَوَاضِعِينَ لِجَلَالِهِ وَعَظَمَتِهِ.

قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: مَعْنَى الْآيَةِ: وَاسْتَعِينُوا أَيُّهَا الْأَحْبَارُ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ بِحَبْسِ أَنْفُسِكُمْ عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ، وَكَفِّهَا عَنْ مَعَاصِي اللَّهِ، وَبِإِقَامَةِ الصَّلَاةِ الْمَانِعَةِ مِنَ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ، الْمُقِرِّ بِهِ مِنْ مَرَاضِي اللَّهِ، الْعَظِيمَةِ إِقَامَتُهَا إِلَّا عَلَى الْمُتَوَاضِعِينَ لِلَّهِ الْمُسْتَكِينِينَ لِطَاعَتِهِ الْمُتَذَلِّلِينَ مِنْ مَخَافَتِهِ.[1]

وَإِنَّمَا خَصَّ الله تبارك وتعالى الصَّبْرَ وَالصَّلاةَ بِذَلِكَ لِمَا فِيهِمَا مِنَ الْمَعُونَةِ عَلَى سائرِ الْعِبَادَاتِ، أَمَّا الصَّبْرُ فَهُوَ قَهْرُ النَّفْسِ عَلَى احْتِمَالِ الْمَكَارِهِ فِي ذَاتِ اللَّهِ تَعَالَى، وَتَوْطِينِهَا عَلَى تَحَمُّلِ الْمَشَاقِّ وَتَجَنُّبِ الْجَزَعِ، وَأَمَّا الصَّلاةُ فلأنها أعظم أركان الإسلام العملية، ومن قام بحقها كان قيامه بغيرها أجدر، ومن فرط فيها كان تفريطه في غيرها أشدَّ، وتضييعه لما سواها أهون.

وَمَنْ حَمَلَ نَفْسَهُ على عَلَى احْتِمَالِ الْمَكَارِهِ بالصَّبْرِ وَعلى الحرص على أداء الصَّلاةِ سَهُلَ عَلَيْهِ فِعْلُ الطَّاعَاتِ وَتَحَمُّلُ مَشَاقِّ الْعِبَادَاتِ، وَتَجَنُّبُ الْمَحْظُورَاتِ.

---

١ - تفسير الطبري (١/ ٦٢٣)

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

قَولُهُ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾. الآية/ ٤٦

الظَّنُّ هُنَا مَعْنَاهُ الْيَقِين، كَمَا فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا﴾.[1]

أَيْ: الَّذِينَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُمْ مَحْشُورُونَ إِلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، مَعْرُوضُونَ عَلَيْهِ، وَأَنَّهُمْ مَسْئُولُونَ مُحَاسَبُونَ، وَمَجْزِيُّونَ بِأَعْمَالِهِمْ، وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ، فَلَمَّا أَيْقَنُوا بِالْمَعَادِ وَالْجَزَاءِ سَهُل عَلَيْهِمْ فعلُ الطَّاعَاتِ وَتَرْكُ الْمُنْكَرَاتِ.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ هَلْ نَرَى رَبَّنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ قَالَ: «هَلْ تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ الشَّمْسِ فِي الظَّهِيرَةِ، لَيْسَتْ فِي سَحَابَةٍ؟» قَالُوا: لَا، قَالَ: «فَهَلْ تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، لَيْسَ فِي سَحَابَةٍ؟» قَالُوا: لَا، قَالَ: «فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ رَبِّكُمْ، إِلَّا كَمَا تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ أَحَدِهِمَا، قَالَ: فَيَلْقَى الْعَبْدَ، فَيَقُولُ: أَيْ فُلْ أَلَمْ أُكْرِمْكَ، وَأُسَوِّدْكَ، وَأُزَوِّجْكَ، وَأُسَخِّرْ لَكَ الْخَيْلَ وَالْإِبِلَ، وَأَذَرْكَ تَرْأَسُ وَتَرْبَعُ؟ فَيَقُولُ: بَلَى، قَالَ: فَيَقُولُ: أَفَظَنَنْتَ أَنَّكَ مُلَاقِيَّ؟ فَيَقُولُ: لَا، فَيَقُولُ: فَإِنِّي أَنْسَاكَ كَمَا نَسِيتَنِي».[2]

ومن علم أنه ملاق ربه تعالى اجتهد في مرضاته، بفعل ما يرضيه عز وجل، وسعى سعيًا حثيثًا في الخلاص من سخطه، باجتناب ما يسخطه تعالى؛ فتلين أعضاؤه بفعل الطاعات، وتنصرف نفسه عن اقتراف المحرمات، ولا يكون هذا إلا بعد مجاهدة وصبر على الطاعات، فهي نتيجة متربة على مقدمات.

فعَنْ عَائِشَةَ، قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللهِ، أَحَبَّ اللهُ لِقَاءَهُ، وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَ اللهِ، كَرِهَ اللهُ لِقَاءَهُ» فَقُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللهِ أَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ؟ فَكُلُّنَا نَكْرَهُ الْمَوْتَ، فَقَالَ: «لَيْسَ كَذَلِكِ، وَلَكِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا بُشِّرَ بِرَحْمَةِ اللهِ وَرِضْوَانِهِ وَجَنَّتِهِ، أَحَبَّ لِقَاءَ اللهِ، فَأَحَبَّ اللهُ لِقَاءَهُ، وَإِنَّ الْكَافِرَ إِذَا بُشِّرَ بِعَذَابِ اللهِ وَسَخَطِهِ، كَرِهَ لِقَاءَ اللهِ، وَكَرِهَ اللهُ لِقَاءَهُ».[3]

---

١ - سورة الْكَهْفِ: الْآيَةَ/ ٥٣

٢ - رَوَاهُ مُسْلِمٌ- كِتَابُ الزُّهْدِ وَالرَّقَائِقِ، حديث رقم: ٢٩٦٨

٣ - رواه البخاري- كِتَابُ الرِّقَاقِ، بَابٌ: مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ أَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ، حديث رقم: ٦٥٠٧، ومسلم- كتاب الْعِلْمِ، بَابُ مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللهِ أَحَبَّ اللهُ لِقَاءَهُ وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَ اللهِ كَرِهَ اللهُ لِقَاءَهُ، حديث رقم: ٢٦٨٤

قَولُهُ تَعَالَى: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾.
الآية/ ٤٧

يُذَكِّرُ اللَّهُ تَعَالَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بنعَمِهِ عَلَيْهِمْ وَحُسْنِ بَلَائِه، وَفَضْلِ عطاءه، وَكَرَّرَ سُبْحَانَهُ النداء وَكَرَّرَ ذكر النعمة في قوله: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾، ترغيبًا لهم في الإيمان برسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وتَوْكِيدًا لِلْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ وَتَحْذِيرًا لَهُمْ مِنْ ترك اتباع الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَمِنْ فَضْلِهِ عَلَيْهِمْ إِرْسَالِ الرُّسُلِ مِنْهُمْ وَإِنْزَالِ الْكُتُبِ عَلَيْهِمْ وَأَنَّه فَضَّلَهُمْ عَلَى سَائِرِ الْأُمَمِ مِنْ أَهْلِ زَمَانِهِمْ، فقوله تَعَالَى: ﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾، عَامٌّ يُرَادُ بِهِ الْخُصُوصُكَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾.[١]

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾.[٢]

فَاللَّهُ تَعَالَى فَضَّلَهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ، وليس تفضيل بَنِي إِسْرَائِيلَ على الإطلاق، فإِنَّ هَذِهِ الْأُمَّةَ أَفْضَلُ مِنْهُمْ، بل أَفْضَلُ الأمم، ودليل ذلك قَوْلُهُ تَعَالَى خِطَابًا لِهَذِهِ الْأُمَّةِ: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾.[٣]

وَعَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ حَيْدَةَ القُشَيري أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «أَنْتُمْ تُوفُونَ سَبْعِينَ أُمَّةً. أَنْتُمْ خَيْرُهَا وَأَكْرَمُهَا عَلَى اللَّهِ».[٤]

---

١ – سورة الدُّخَانِ: الآية/ ٣٢

٢ – سورة الْمَائِدَةِ: الآية/ ٢٠

٣ – سورة آلِ عِمْرَانَ: الآية/ ١١٠

٤ – رواه أحمد- حديث رقم: ٢٠٠١٥ ، والحاكم- كِتَابُ مَعْرِفَةِ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، ذِكْرُ فَضَائِلِ هَذِهِ الْأُمَّةِ عَلَى سَائِرِ الْأُمَمِ، حديث رقم: ٦٩٨٨، بسند حسن

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

قَولُهُ تَعَالَى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾. الآية/ ٤٧

هذا أَمْرٌ مَعْنَاهُ الْوَعِيدُ حذرهم الله تعالى يَوْمًا لَا يُغْنِي فيه أَحَدٌ عَنْ أَحَدٍ شَيْئًا وَلَو كَانَ أَقْرَبَ قَرِيب، فَلَا يُغْنِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا يُغْنِي مَوْلُودٌ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا، فَهَذَا حَالُ مَنْ قَرُبَ فَكَيفَ بحَالِ مَنْ بَعُدَ، وَتتقطَعُ فِيهِ عَلَائِقُ الْأَنْسَاب، بل يَفِرُّ الْمَرْءُ فيه مِنْ أَخِيهِ، وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ، وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ، لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ،كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا﴾.[1]

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾.[2]

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ * لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾.[3]

﴿وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ﴾.

الشَّفَاعَةُ أن تضمَّ غَيْرَكَ إِلَى جَاهِكَ وَوَسِيلَتِكَ إِظْهَارًا لِمَنْزِلَةِ الشَّفِيعِ وَإِيصَالُ مَنْفَعَتِهِ لِلْمَشْفُوعِ فيه.

وَالشَّفَاعَةُ حَقٌّ ولكن لها شرطان إِذْنِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ للشَّافِعِ، وَرِضَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ عن الْمَشْفُوعِ فِيهِ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾.[4]

وَكَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ﴾، كذلك لَا تُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ، كَمَا قَالَ: ﴿فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾.[5]

---

١ - سورة لُقْمَانَ: الآية/ ٣٣

٢ - سورة الْحَجِّ: الآية/ ٢

٣ - سور عَبَسَ: الآية/ ٣٤- ٣٧

٤ - سورة النَّجْمِ: الآية/ ٢٦

٥ - سورة الْمُدَّثِّرِ: الآية/ ٤٨

وَكَمَا قَالَ تَعَالَى عَنْ أَهْلِ النَّارِ: ﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ * وَلا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾.[1]

وَكَمَا قَالَ تَعَالَى عَنْهم: ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾.[2]

﴿وَلا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾.

أَيْ: لَا يُقْبَلُ مِنْهَا فِدَاءٌ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَى بِهِ﴾.[3]

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.[4]

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾.[5]

فَأَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا باللَّهِ تَعَالَى برَسُولِهِ وَيُتَابِعُوهُ عَلَى مَا بَعَثَهُ بِهِ، فَإِنَّهُ لَا تَنْفَعُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ قَرَابَةُ قَرِيبٍ وَلَا شَفَاعَةُ شَفِيعٍ، وَلَا يُقْبَلُ مِنْهُمْ فِدَاءٌ، وَلَوْ افْتَدَى نفسه بِمِلْءِ الْأَرْضِ ذَهَبًا، وَلَوْ افْتَدَى بِمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا إِنْ كَانَ يَمْلِكُهُ.

﴿وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾.

أَيْ: وَلَا أَحَدَ يَغْضَبُ لَهُمْ فَيَنْصُرُهُمْ وَيُنْقِذُهُمْ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ، كَمَا قَالَ: ﴿فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلا نَاصِرٍ﴾.[6]

فَلَا يُجِيرُهُ مِنْ اللَّهِ أَحَدٌ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ يُجِيرُ وَلا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾.[7]

فَلَا يَنْصُرُهُمْ مِنْ اللَّهِ نَاصِرٌ، وَلَا يَشْفَعُ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ شَافِعٌ، وَلَا يُقْبَلُ مِنْهُمْ عَدْلٌ وَلَا فِدْيَةٌ، بَطَلَت الْمُحَابَاةُ، وَاضْمَحَلَّتِ الشَّفَاعَاتُ، وَارْتَفَعَ مِنَ الْقَوْمِ التَّنَاصُرُ، كَمَا قَالَ: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ﴾.[1]

---

١ – سورة الشُّعَرَاء: الْآيَة/ ١١٠، ١١١

٢ – سورة غَافِر: الْآيَة/ ١٨

٣ – سورة آل عِمْرَان: الْآيَة/٩١

٤ – سورة الْمَائِدَة: الْآيَة/ ٣٦

٥ – سورة الْحَدِيد: الْآيَة/ ١٥

٦ – سورة الطَّارِق: الْآيَة/ ١٠

٧ – سورة الْمُؤْمِنُون: الْآيَة/ ٨٨

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

قَولُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾. الآية/ ٤٩

يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى مخاطبًا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا ما أنعم الله عليكم إِذْ أَنْقَذَكُمْ وَخَلَّصَكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ أَيْ: مِنْ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ، وَالْخِطَابُ لِلْمَوْجُودِينَ وَالْمُرَادُ مَنْ سَلَفَ مِنَ آبَائِهِم، لِأَنَّ نَجَاةَ الْآبَاءِ كانت سَبَبًا فِي نَجَاةِ مَنْ بَعْدَهُم.

وَفِرْعَوْنُ: اسْمٌ لِكُلِّ مَلِكٍ مِنْ مُلُوكِ مصر، كَمَا يُسَمَّى مَنْ مَلَكَ الْفُرْسَ: كِسْرَى، وَمَنْ مَلَكَ الرُّومَ: قَيْصَرَ، وَمَنْ مَلَكَ الْحَبَشَةَ النَّجَاشِيَّ.

ثُمَّ أَخْبَرَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى بِصُنُوفِ الْعَذَابِ التي كان يتعرض لها آباءهم بقوله: ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾، أَيْ: يُذِيقُونَكُمْ أَشَدَّ صُنُوفِ الْعَذَابِ سُوءً، ثُمَّ فَسَّرَ هذا الْعَذَابَ بقوله: ﴿يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾، فَكَانَ فِرْعَوْنُ يَذْبَحُ الذكور من الْأَطْفَالِ وَيُبْقِي الْبَنَاتَ، وَعَبَّرَ عَنْهُمْ بِاسْمِ النِّسَاءِ باعتبار مَا يَؤُولُ إِلَيْهِ أَمْرُهُمْ، وَنَسَبَ اللَّهُ تَعَالَى الْفِعْلَ إِلَى آلِ فِرْعَوْنَ وَهُمْ إِنَّمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ذلك بِأَمْرِ فِرْعَوْنَ وَسُلْطَانِهِ عليهم؛ لأنهم كانوا يتوَلَّون ذَلِكَ بِأَنْفُسِهِمْ، وَفِي هذا دليلٌ على أَنَّ الْمُبَاشِرَ للفعل مَأْخُوذٌ بِفِعْلِهِ، وعليه من التبعة مثل الذي على الآمرِ بالفعل تمامًا، كما قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ﴾.[٢]

وَيَقْتَضِي هَذَا أَنَّ مَنْ أَمَرَهُ ظَالِمٌ بِقَتْلِ أَحَدٍ فَقَتَلَهُ الْمَأْمُورُ أَنَّهُمَا يُقْتَلَانِ جَمِيعًا الظَالِمُ بِأَمْرِهِ وَالْمَأْمُورُ بِمُبَاشَرَتِهِ لِلقَتْلِ.

وَفِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ﴾، بِالتَّشْدِيدِ مُبَالَغَةً مِنْ الذَّبْحِ تَدُلُ عَلَى كَثْرَةِ الْقَتْلِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ﴾، بَدَلٌ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾، وَتَفْسِيرٌ لهذا الْعَذَابِ.

وَفِي سُورَةِ إِبْرَاهِيمَ قَالَ تَعَالَى: ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾.[٣]

---

١ - سورة الْبَقَرَةِ: الْآيَةَ/ ١٦٦

٢ - سورة الْقَصَصِ: الآية/ ٨

٣ - سورة إِبْرَاهِيمَ: الآية/ ٦

﴿وَيُذَبِّحُونَ﴾، بِالْوَاوِ عَطْفًا عَلَى مَا قَبْلَهُ، والمعنى يُعَذِّبُونَكُمْ بِالذَّبْحِ وَبِغَيْرِ الذَّبْحِ فَقَوْلُهُ: ﴿وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ﴾ جِنْسٌ آخَرُ مِنَ الْعَذَابِ ولَيس تَفْسِيرًا لِمَا قَبْلَهُ.

﴿وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾.

أَيْ: وَفِي فِعْلِهِمْ ذَلِكَ بِكُمْ امْتِحَانٌ وَاخْتِبَارٌ إِشَارَةٌ إِلَى مَا كَانُوا فِيهِ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ مِنْ ذَبْحِ الْأَبْنَاءِ وَاسْتِحْيَاءِ النِّسَاءِ، وَأَصْلُ الْبَلَاءِ: الِاخْتِبَارُ، وَقَدْ يَكُونُ بِالْخَيْرِ وَالشَّرِّ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾.[1]

والمراد بالْبَلَاءِ هَا هُنَا، الْبَلَاءُ بالشَّرِّ، أما النِعْمَةُ التي يذكرهم الله تعالى بها، فهي فِي الَّذِي فَعَلَه اللَّهُ تَعَالَى بِهم، مِنْ إنقاذهم مِمَّا كانوا فِيهِ مِنْ عَذَابِ آلِ فِرْعَوْنَ.

قَولُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾. الآية/ ٥٠

من النعم التي امتن اللَّهُ تَعَالَى بها على بَنِي إِسْرَائِيلَ، أنه أَنْجَاهُمْ من الغرق، وَأَغْرَقَ آلَ فِرْعَوْنَ، وهم يرون هلاكهم.

لما خرج موسى عليه السلام بِبَنِي إِسْرَائِيلَ فارين من بطش فِرْعَوْنَ، وظلمِ آلِ فِرْعَوْنَ، كما قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبادِي إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ﴾.[2]

وَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ؛ للبطش بهم وردهم للاستعباد، والخدمة، وحملهم على ذلك البغي والظلم والعدوان، والكبر؛ كما قَالَ تَعَالَى: ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْياً وَعَدْواً﴾.[3]

وكما قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ (٥٢) فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (٥٣) إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ (٥٤) وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ (٥٥) وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ﴾.[1]

---

١ - سورة الْأَنْبِيَاءِ: الآية/ ٢٥

٢ - سورة الشُّعَرَاءِ: الآية/ ٥٢

٣ - سورة يُونُسَ: الآية/ ٩٠

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

فَأَنْجَاهُمْ اللَّهُ تَعَالَى وَأَغْرَقَ آلَ فِرْعَوْنَ وَهُمْ يَنْظُرُونَ، لِيَكُونَ ذَلِكَ أَشْفَى لِصُدُورِهِمْ، وَأَبْلَغَ فِي إِهَانَةِ عَدُوِّهِمْ، وَهَذِهِ نِعْمَةٌ أُخْرَى مِنْ نِعَمِ اللَّهِ تعالى عَلَيهم يُذَكِّرُهُمُ اللَّهُ تَعَالَى بِهَا.

قَولُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ (٥١) ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾. الآيات/ ٥١: ٥٢

يعددُ الله تعالى نعمه على بَنِي إِسْرَائِيلَ فيَقُولُ تَعَالَى مُمْتَنًّا عَلَيهم: وَاذْكُرُوا نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ إِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً بعدها آتَيْنَاهُ التَّوْرَاةَ، وَوَعْدُ الله تعالى لموسى يتضمن وَعَدَ الله تعالى لبَنِي إِسْرَائِيلَ فقد وَعَدَهُمْ الله تعالى أَنَّهُ يُسْمِعُهُمْ كَلَامَهُ فِي التَّوْرَاةِ عَلَى لِسَانِ مُوسَى، لِيَعْمَلُوا بِمَا فِيهَا فَيَسْتَحِقُّوا ثَوَابَ عَمَلِهِمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الأَيْمَنَ﴾.[٢]

أي وَعَدَهُمْ التَّوْرَاةَ، وَفِيهَا مَا يَحْتَاجُون إِلَيْهِ من تَشْرِيعَاتٍ وَأَحْكَامٍ، كَمَا قَالَ: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾.[٣]

ولا شك أن هذه النعمة من أَجَلِّ نعم الله تعالى على العباد كما سيأتي بعد آية واحدة، فما كان منهم إلا أن قابلوا نعمةَ الله تعالى بالكفرِ وعبادةِ الأوثان؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ﴾.[٤]

وهذا شأنهم بعد كل نعمةٍ، وهذا دأبهم وديدنهم بعد كل إحسانٍ ومنةٍ؛فقد رَأَوْا مِنَ الْآيَاتِ الْبَاهِرَةِ وَالْأَدِلَّةِ الْظَاهِرَةِ مِنْ إِهْلَاكِ فِرْعَوْنَ وَجُنُودِهِ فِي الْيَمِّ، ما لا يدع ريبة لمرتاب أن الله قَاهِرٌ فَوْقَ عِبَادِهِوأنه فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ، لَا مُعَقِّب لِحُكْمِهِ، وَلَا رَادَّ لِقَضَائِهِ، وأنه المستحق وحده للعبادة، ومع ذلك فَمَا جَاوَزُوهُ إِلَّا يَسِيرًا حَتَّى أَتَوْا بَعْدَ ذَلِكَ عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ، فَقَالُوا لِمُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ

---

١ - سورة الشعراء: الآية/ ٥٢- ٥٦

٢ - سورة طه: الْآيَةَ /٨٠

٣ - سورة الْأَعْرَافِ: الْآيَةَ / ١٤٥

٤ - سورة الْأَعْرَافِ: الْآيَةَ / ١٤٨

آلِهَةٌ، قَالَ تَعَالَى: ﴿قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ إِنَّ هَؤُلاءِ مُتَبَّرٌ مَا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.[1]

ولما أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى مُوسَى أَنْ يَأْتِيَهُ فِي نَاسٍ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، يَعْتَذِرُونَ إِلَيْهِ مِنْ عِبَادَةِ الْعِجْلِ، وَوَعَدَهُمْ مَوْعِدًا، فَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا عَلَى عَيْنِهِ، ثُمَّ ذَهَبَ بِهِمْ لِيَعْتَذِرُوا إِلَيْهِ، وَيَسْأَلُ مُوسَى لَهُمُ التَّوْبَةَ، فَلَمَّا أَتَوْا ذَلِكَ الْمَكَانَ قَالُوا: لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ يَا مُوسَى حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾.[2]

لذلك لما أنكر عليهم موسى عليه السلام عبادة العجل ذَكَّرَهُم بوعدِ الله تعالى لهم: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي﴾.[3]

﴿وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾.

فِي مَوْضِعِ نَصْبٍ عَلَى الْحَالِ، وَإِنَّمَا سَمَّاهُمْ ظَالِمِينَ لِأَنَّهُمْ أَشْرَكُوا بِاللَّهِ، وَخَالَفُوا مَوْعِدَ نَبِيِّهِمْ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

يَقُولُ اللهُ تَعَالَى لهم: وَاذْكُرُوا نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ إِذْ عَفَوْتُ عَنْكُمْ، وقد عَبَدْتُمُ الْعِجْلَ بَعْدَ ذَهَابِ مُوسَى لِمِيقَاتِ رَبِّهِ، أَيْ لِكَيْ تَشْكُرُوا اللَّهَ تعالى على إحسانهِ إليكم وامتنانهِ عليكم بِمَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْكُمْ مِنَ الْعَفْوِ عَنْ ذَنْبِكُمُ الْعَظِيمِ الَّذِي وَقَعْتُمْ فِيهِ.

وَالشُّكْرُ فِي اللغة: ظُهُورُ أثر الغذاء على الدَابَّةِ؛ مِنْ قَوْلِهِمْ شَكَرت الدَابَّةُ إِذَا ظَهَرَ عَلَيْهَا مِنَ السِّمَنِ فَوْقَ مَا تُعْطَى مِنَ الْعَلَفِ.

وحقيقة الشُّكْرِ هُوَ الثَّنَاءُ عَلَى الْمُحْسِنِ بِمَا أَوْلَاكَ مِنَ الْمَعْرُوفِ.

وَالشُّكْرُ فِي الشرع: ظُهُورُ أثر نعمة الله تعالى على العبد، على لسانه ثناء ومدحًا، وعلى قلبه رضًى وحمدًا، وعلى جوارحه خضوعًا وانصياعًا.

---

١ - سورة الْأَعْرَافِ: الْآيَةَ / ١٣٨، ١٣٩

٢ - سورة الْبَقَرَةِ: الْآيَةَ / ٥٥

٣ - سورة طه: الآية/ ٨٦

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

قَولُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾. الْآيَة / ٥٣

يَقُولُ تَعَالَى مُمْتَنًّا عَلَيهم كذلك بإنزال التَّوْرَاةِ وَاذْكُرُوا نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ إِذْ أَنزلْتُ التَّوْرَاةَ على نبيكم مُوسَى ولا شك أن نعمة إنزال الكتب من أجل نعم الله تعالى على العباد؛ إذ بِهَاتَحْصُلُ لَهُمْ الْهِدَايَةُ والنور، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّا أَنزلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ﴾.[١]

وفي استمساكهم بها عصمة من الضلال، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.[٢]

وهي كذلك شرف لمن اعتصم بها؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى عن القرآن: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾.[٣]

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ﴾.

مَعْنَاه: آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ الْفَرْقَانَ، وَالْوَاوُ قَدْ تُزَادُ فِي النُّعُوتِ.

كَقَوْلِ الشَّاعِرِ:

إِلَى الْمَلِكِ الْقَرْمِ وَابْنِ الْهُمَامِ ***** وَلَيْثِ الْكَتِيبَةِ فِي الْمُزْدَحَمِ

وَالْمَعْنَى: أَنَّ ذَلِكَ الْكِتَابَ الْمُنَزَّلَ على مُوسَى عليه السلام، جَامِعٌ بَيْنَ كَوْنِهِ كِتَابًا وَفَارِقًا بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، وَهُوَ كَقَوْلِهِ تعالى: ﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾.[٤]

﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾.

أي: لِكَيْ تَهْتَدُوا مِنَ الضَّلَالَةِ.

---

١ - سورة الْمَائِدَةِ: الْآيَة / ٤٤

٢ - سورة الْبَقَرَة: الْآيَة / ٦٣

٣ - سورة الزُّخْرُفِ: الْآيَة / ٤٤

٤ - سورة الانعام: الْآيَة / ١٥٤

قَولُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾. الْآيَةَ/ ٥٤

يَقُولُ تَعَالَى مُمْتَنًّا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ كذلك وَاذْكُرُوا نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ إِذْ فعلتم ما يوجب عليكم العذاب وتستحقون عليه العقاب مِنْ عِبَادَتكُمِ لِلْعِجْلِ.

فقال لهم نبيهم موسى عليه السلام بأمر من الله تعالى: ﴿يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ﴾، وإنما ظلموا أنفسهم لأنهم فعلوا ما يناقض فطرتهم، ويحل عليهم سخط الله تعالى، وهو عبادة غير الله تعالى، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى على لسان لُقْمَانَ: ﴿يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾.[1]

وَأَصْلُ الظُّلْمِ وَضْعُ الشَّيْءِ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ.

ومعنى: ﴿فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ﴾.

أَيْ إِلَى خَالِقِكُمْ، وفي لفظ: ﴿بَارِئِكُمْ﴾ تَنْبِيهٌ عَلَى عِظَمِ جُرْمِهِمْ، فهو الذي أنشأهم من العدم، وهو الذي يربيهم بالنعم، ومع ذلك يعبدون غيره، وهو المستحق العبادة وحده، فهو الخَالِقُ جل وعلا، فأني يعبد غيره؟ ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ﴾.[2]

وَالْبَارِئُ: الذي أَوْجَدَ الْخَلَائِقَ مِنَ الْعَدَمِ، والفارقُ بين الْبَارِئِ وَالْخَالِقِ أَنَّ الْبَارِئَ هُوَ الْمُبْدِعُ الْمُحْدِثُ مِنَ الْعَدَمِ. وَالْخَالِقُ هُوَ الْمُقَدِّرُ النَّاقِلُ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ، وَالْبَرِيَّةُ الْخَلِيقَةُ.

والمعنى: فَتُوبُوا إِلَى الَّذِي خَلَقَكُمْ لأنه الذي ينبغي أن يفرد بالعبادة وحده، وَقَدْ عَبَدْتُمْ من دونه عِجْلا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ، لا يَمْلِكُ ضَرًّا وَلا نَفْعًا وَلا مَوْتًا وَلا حَيَاةً وَلا نُشُورًا، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿أَفَلا يَرَوْنَ أَلا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلا وَلا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلا نَفْعًا﴾.[3]

﴿فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾.

كانت توبة اللَّهِ تَعَالَى عليهم، أن يَقْتُلَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، وَلَمْ يَقْبَلْ اللَّهُ تَعَالَى لَهُمْ تَوْبَةً إلا بذلك، فَقَامَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ بِالْخَنَاجِرِ وَالسَّكَاكِينِ فَقَتَلَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، وَلَمْ يُؤْمَرْ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْ عَبَدَةِ الْعِجْلِ أَنْ

---

١ - سورة لُقْمَانَ: الْآيَةَ / ١٣

٢- سورة النَّحْلِ: الْآيَةَ / ١٧

٣- سورة طه: الْآيَةَ / ٨٩

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

يَقْتُلَ نَفْسَهُ بِيَدِهِ، ومثل هذا قول اللَّهِ تَعَالَى: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾. قَالَ الْمُفَسِّرُونَ رَحِمَهُمُ اللَّهُ فَلْيُسَلِّمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ.

﴿ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾. الْآيَةَ/ ٥٤

إنما كان القتل خيرًا لهم لأنه كان سبب توبة اللَّهِ تَعَالَى عليهم: ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾، فكان قتلهم لأنفسهم بمثابة الحد الذي يطهرهم، ويكفر الله تعالى به عنهم الذنب العظيم الذي اقترفوه وهو عبادة العجل.

قال البخاري رحمه الله: بَابٌ: الْحُدُودُ كَفَّارَةٌ ثم روى بسنده عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: كُنَّا عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي مَجْلِسٍ، فَقَالَ: «بَايِعُونِي عَلَى أَنْ لاَ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ شَيْئًا، وَلاَ تَسْرِقُوا، وَلاَ تَزْنُوا وَقَرَأَ هَذِهِ الآيَةَ كُلَّهَا فَمَنْ وَفَى مِنْكُمْ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ، وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا فَعُوقِبَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَتُهُ، وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا فَسَتَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ، إِنْ شَاءَ غَفَرَ لَهُ، وَإِنْ شَاءَ عَذَّبَهُ».[1]

﴿إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾.

التَّوَّابُ مبالغةٌ من التوبةِ، يَتُوبُ عَلَى مَنْ تَابَ إِلَيْهِ وَأَنَابَ، ورحيم: أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ الوالدة بِوَلَدِهَا، شرع لهم قتل أنفسهم توبة عليهم، ورحمة بهم من عذاب الآخرة، عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ، أَنَّهُ قَالَ: قَدِمَ عَلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِسَبْيٍ فَإِذَا امْرَأَةٌ مِنَ السَّبْيِ، تَبْتَغِي، إِذَا وَجَدَتْ صَبِيًّا فِي السَّبْيِ، أَخَذَتْهُ فَأَلْصَقَتْهُ بِبَطْنِهَا وَأَرْضَعَتْهُ، فَقَالَ لَنَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَتَرَوْنَ هَذِهِ الْمَرْأَةَ طَارِحَةً وَلَدَهَا فِي النَّارِ؟» قُلْنَا: لَا، وَاللهِ وَهِيَ تَقْدِرُ عَلَى أَنْ لَا تَطْرَحَهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَلَّهُ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هَذِهِ بِوَلَدِهَا».[2]

---

١ - رواه البخاري- كِتَابُ الإِيمَانِ، بَابٌ: عَلاَمَةُ الإِيمَانِ حُبُّ الأَنْصَارِ، حديث رقم: ١٨، ومسلم- كِتَابُ الْحُدُودِ، بَابُ الْحُدُودُ كَفَّارَاتٌ لِأَهْلِهَا، حديث رقم: ١٧٠٩

٢ - رواه البخاري- كِتَابُ الأَدَبِ، بَابُ رَحْمَةِ الوَلَدِ وَتَقْبِيلِهِ وَمُعَانَقَتِهِ، حديث رقم: ٥٩٩٩، ومسلم- كتاب التَّوْبَةِ، بَابٌ فِي سِعَةِ رَحْمَةِ اللهِ تَعَالَى وَأَنَّهَا سَبَقَتْ غَضَبَهُ، حديث رقم: ٢٧٥٤

قَولُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (٥٥) ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾. الْآيَةَ/ ٥٥، ٥٦

يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى لهم: وَاذْكُرُوا نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ إِذْ سَأَلْتُمْ مُوسَى سؤال تعنت وتبجح، أن تروني جَهْرَةً عِيَانًا عَلَانِيَةً، وعلقتم إيمانكم على رُؤْيَتِي بغير حجاب، وهو مَا لَا يُسْتَطَاعُ لَكُمْ وَلَا لِأَمْثَالِكُمْ فِي الدنيا، فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وأصبحتم أجسادًا لا حياة فيها، ولا حراك لها، ثُمَّ بَعَثْكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لتعتبروا وتتعظوا؛ ولَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونِي.

وسبب ذلك أنه لما وقع من بَنِي إِسْرَائِيلَ ما وقع مِنْ عِبَادَةِ الْعِجْلِ، وَأَمَرَهُمْ مُوسَى عليه السلام بالتوبة، أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى مُوسَى عليه السلام أَنْ يَأْتِيَهُ فِي أُنَاسٍ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، يَعْتَذِرُونَ إِلَيْهِ مِنْ عِبَادَةِ الْعِجْلِ، فَاخْتَارَ مُوسَى مِنْ قَوْمِهِ سَبْعِينَ رَجُلًا الخَيِّرَ فَالْخَيِّرَ، اختارهم عَلَى عَينه، ثُمَّ ذَهَبَ بِهِمْ لِيَعْتَذِرُوا، وَقَالَ لهم: انْطَلِقُوا إِلَى اللَّهِ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ مِمَّا صَنَعْتُمْ وَسَلُوهُ التَّوْبَةَ عَلَيكم وعلى مَنْ تَرَكْتُمْ وَرَاءَكُمْ مِنْ قَوْمِكُمْ، وَصُومُوا وَتَطَهَّرُوا وَطَهِّرُوا ثِيَابَكُمْ، فَخَرَجَ مُوسَى عليه السلام بِهِمْ إِلَى طُورِ سَيْنَاءَ لِمِيقَاتٍ وقَّتَه لَهُ رَبُّهُ، وبدلا من أن يَعْتَذِرُوا لله تعالى ويعلنوا توبتهم لله تعالى قالوا: ﴿يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾، فَأَرْسَلَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ نَارًا فَأَحْرَقَتْهُمْ، وهم يَنْظُرُونَ إليها فرأوا أَوَائِلَ الصَّاعِقَةِ النَّازِلَةِ بِهِمُ الْوَاقِعَةِ عَلَيْهِمْ، وجعل بعضهم ينظرُ إلى بعض كيف يقع ميتًا.

وَإِنَّمَا عُوقِبُوا بِأَخْذِ الصَّاعِقَةِ لَهُمْ لِأَنَّهُمْ طَلَبُوا مَا لَمْ يَأْذَنِ اللَّهُ بِهِ مِنْ رُؤْيَتِهِ فِي الدُّنْيَا، وأنهم علقوا الإيمان على رُؤْيَتِهِم لله تعالى، وإنما كان سؤالهم سؤالَ تعنتٍ لا سؤالَ من يطلبُ البرهانَ أو من يطلبُ لقلبه الاطمئنان.

فمَاتُوا جميعًا يَنْظُرُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ عند مَوْتِهِمْ، وَكَانَ مَوْتُهُمْ عُقُوبَةً لَهُمْ، ثُمَّ بُعِثُوا مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لِيَسْتَوْفُوا آجَالَهُمْ، وليشكروا الله تعالى على حلمه عليهم، ورفقه بهم، وإحسانه إليهم.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

عقيدة أهل السنة في رُؤْيَةُ الْمُؤْمِنِينَ رَبَّهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ:

من عقيدة أهل السنة أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ سَيَرَوْنَ رَبَّهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وقد دل على ذلك صريح القرآن وصحيح السنة، وَقَدْ تَوَاتَرَتِ الْأَحَادِيثُ الصَّحِيحَةُ بِأَنَّ الْمُؤْمِنِينَ سيَرَوْنَ رَبَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ.

قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾.[1]

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾.[2]

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾.[3]

وَهَذِهِ الْآيَاتُ صَرِيحَةُ الدَّلَالَةِ عَلَى رُؤْيَةِ الْمُؤْمِنِينَ رَبَّهُمْ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَا تَقْبَلُ تَحْرِيفًا وَلَا تَأْوِيلًا وَلَا يَرُدُّهَا إِلَّا مُكَابِرٌ قَدْ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً.

وَقَالَ تَعَالَى فِي شَأْنِ الْكُفَّارِ: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾.[4]

فَإِذَا حُجِبَ أَوْلِيَاؤُهُ فَأَيُّ فَضِيلَةٍ لَهُمْ عَلَى أَعْدَائِهِ.

وَعَنْ جَرِيرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كُنَّا جُلُوسًا عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذْ نَظَرَ إِلَى القَمَرِ لَيْلَةَ البَدْرِ قَالَ: «إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ هَذَا القَمَرَ، لاَ تُضَامُونَ فِي رُؤْيَتِهِ، فَإِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ لاَ تُغْلَبُوا عَلَى صَلاَةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ، وَصَلاَةٍ قَبْلَ غُرُوبِ الشَّمْسِ، فَافْعَلُوا».[5]

إِنَّ أَعْظَمَ أَنْوَاعِ النَّعِيمِ فِي الجَنَّةِ هُوَ النَّظَرُ إِلَى وَجْهِ اللَّهِ الْكَرِيمِ.

قال الشيخ حافظ الحكمي رحمه الله:

وَإِنَّهُ يُرَى بِلَا إِنْكَارِ ***** فِي جَنَّةِ الْفِرْدَوْسِ بِالْأَبْصَارِ

كُلٌّ يَرَاهُ رُؤْيَةَ الْعِيَانِ ***** كَمَا أَتَى فِي مُحْكَمِ الْقُرْآنِ

---

١ - سورة الْقِيَامَةِ: الآية/ ٢٣، ٢٤

٢ - سورة يُونُسَ: الآية/ ٢٦

٣ - سورة ق: الآية/ ٣٥

٤ - سورة الْمُطَفِّفِينَ: الآية/ ١٥

٥ - رواه البخاري- كِتَابُ مَوَاقِيتِ الصَّلَاةِ، بَابُ فَضْلِ صَلاَةِ العَصْرِ، حديث رقم: ٥٥٤، ومسلم- كِتَابُ الْمَسَاجِدِ وَمَوَاضِعِ الصَّلَاةَ، بَابُ فَضْلِ صَلَاتَيِ الصُّبْحِ وَالْعَصْرِ، وَالْمُحَافَظَةِ عَلَيْهِمَا، حديث رقم: ٦٣٣

وَفِي حَدِيثِ سَيِّدِ الْأَنَامِ ***** مِنْ غَيْرِ مَا شَكٍّ وَلَا إِيهَامِ

رُؤْيَةَ حَقٍّ لَيْسَ يَمْتُرُونَهَا ***** كَالشَّمْسِ صَحْوًا لَا سَحَابَ دُونَهَا

وَخُصَّ بِالرُّؤْيَةِ أَوْلِيَاؤُهُ ***** فَضِيلَةً وَحُجِبُوا أَعْدَاؤُهُ

وَقَدْ ذَهَبَتِ الْمُعْتَزِلَةُ وَمَنْ تَابَعَهُمْ إِلَى إِنْكَارِ رُؤْيَةِ اللهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

اللَّهُمَّ إنا نَسْأَلُكَ لَذَّةَ النَّظَرِ إِلَى وَجْهِكَ، وَالشَّوْقَ إِلَى لِقَائِكَ، فِي غَيْرِ ضَرَّاءَ مُضِرَّةٍ، وَلَا فِتْنَةٍ مُضِلَّةٍ، اللَّهُمَّ زَيِّنَّا بِزِينَةِ الْإِيمَانِ، وَاجْعَلْنَا هُدَاةً مُهْتَدِينَ.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

قَولُهُ تَعَالَى: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾. الْآيَةَ/ ٥٧

ما زال الحديث في مَعْرِضِ ذكر نعم الله تعالى على بني إسرائيل، ومن هذه النعم أن الله تعالى ظَلَّلَ آبَاءَهُمْ الَّذِينَ كَانُوا فِي زَمَنِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ بالْغَمَامِ، وَلَمَّا كَانَ ذَلِكَ مِنَّةً عَلَى الْآبَاءِ الَّذِينَ هُمْ أصلٌ لهم صَارَ كَأَنَّهُ وَاقِعٌ عَلَى الْأَبْنَاءِ.

﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ﴾.

الْغَمَامُ جَمْعُ غَمَامَةٍ، وَهُوَ السَّحَابُ الْأَبْيَضُ، سُمِّيَ بِذَلِكَ لِأَنَّهُ يَغُمّ السَّمَاءَ، أَيْ: يَسْتُرُهَا، ومنه قول رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «صُومُوا لِرُؤْيَتِهِ وَأَفْطِرُوا لِرُؤْيَتِهِ، فَإِنْ غُمِّيَ عَلَيْكُمُ الشَّهْرُ فَعُدُّوا ثَلَاثِينَ».[1]

أي: حَالَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ غَيْمٌ، ظُلِّلوا بِهِ فِي التِّيهِ لِيَقِيَهُمْ حَرارةَ الشَّمْسِ.

﴿وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى﴾.

ومن هذه النعم أن الله تعالى أَنزلَ عَلَيْهُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى، طَعَامًا يقتاتون به يأتيهم بغير كلفة ولا عمل ولا عناء، وَكَانَ الْمَنُّ يَنْزِلُ عَلَيْهِمْ مِنْ طُلُوعِ الْفَجْرِ إِلَى طُلُوعِ الشَّمْسِ، كسُقُوطِ الثَّلْجِ، أَشَدَّ بَيَاضًا مِنَ اللَّبَنِ، وَأَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ.

وَالسَّلْوَى: طَائِرٌ كَانَ يَنْزِلُ عَلَيْهِمْ فيَذْبَحُونَهُ وَيَأْكُلُونَهُ، ومهما يأخذ الرَّجُلُ مِنَ الْمَنِّ وَالسَّلْوَى كفاه فَإِذَا أَخَذَ فَوْقَ حاجته أو زيادة على طَعَامِ يَوْمٍ واحد فَسَدَ.

﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾.

الأَمْرُ هنا لبيان جوازِ الأكلِ مِنَ الْمَنِّ وَالسَّلْوَى وَاظهارِ منةِ اللهِ وفضلِهِ عليه.

﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

---

١ - رواه البخاري- كِتَابُ الصَّوْمِ، بَابُ قَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِذَارَأَيْتُمُ الهِلَالَ فَصُومُوا، وَإِذَا رَأَيْتُمُوهُ فَأَفْطِرُوا» ، حديث رقم: ١٩٠٩، ومسلم- كِتَاب الصِّيَامِ، بَابُ وُجُوبِ صَوْمِ رَمَضَانَ لِرُؤْيَةِ الْهِلَالِ، وَالْفِطْرِ لِرُؤْيَةِ الْهِلَالِ، وَأَنَّهُ إِذَا غُمَّ فِي أَوَّلِهِ أَوْ آخِرِهِ أُكْمِلَتْ عِدَّةُ الشَّهْرِ ثَلَاثِينَ يَوْمًا، حديث رقم: ١٠٨١

هذا بيان لحال بني إسرائيل وما يقابلون به نعم الله تعالى من الجحود والنكران، وكفر النعمة والإعراض، فَظَلَمُوا بذلك أَنْفُسَهُمْ، وما ضروا الله تعالى بل أنفسهم ضروا، مَعَ مَا شَاهَدُوهُ مِنَ الْآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ والدلائل الواضحات، وَالْمُعْجِزَاتِ الْقَاطِعَاتِ، وَخَوَارِقِ الْعَادَاتِ، اعتراض منهم على أمر الله تعالى، وإعراض عن هدي نبيهم عليه السلام، مع ما يضمرونه من سوء في النية، وفساد في الطوية.

فَمَا أَحْلَمَ اللَّهَ تعالى على خلقه، وما أقبح الإنسان في إعراضه عن ربه، ﴿قُتِلَ الإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ﴾.[1]

قَولُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (٥٨) فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾. الآية/ ٥٨، ٥٩

ما زال الحديث في مَعْرِضِ ذكر نعم الله تعالى على بني إسرائيل، ومن هذه النعم أن الله تعالى أمرهم أن يَدْخُلُوا الأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ وَهِيَ بَيْتُ الْمَقْدِسِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى على لسان موسى عليه السلام: ﴿يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾.[2]

ووعدهم النصر على أعدائهم مِنَ الْعَمَالِيقِ الْكَفَرَةِ، ﴿قَالَ رَجُلانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.[3]

ووعدهم برغد العيش فيها، ﴿فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا﴾، ووعدهم بأن يغفر لهم ذنوبهم وأن يحط عنهم خَطَايَاهُمْ، ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ﴾، ووعده المزيدَ من فضله وإحسانه، ﴿وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾، فقابلوا نعمه بالكفران، وقابلوا عطاياه بالجحود، وقابلوا إحسانه بسوء أقوالهم وأفعالهم.

لَمَّا خرج بنو إسرائيل مِنْ مِصْرَ بصُحْبَةِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وقد نجاهم الله تعالى من فرعون وجنوده، أمَرهم بِدُخُولِ الْأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ، وكان يَسْكُنُهَا الْعَمَالِيقُ وَهُمْ قَوْمٌ كُفَّارٌ، وأمَرهم بقِتَالِهم

١- سورة عَبَسَ: الآية/ ١٧

٢ - سورة الْمَائِدَةِ: الآية/ ٢١

٣ - سورة الْمَائِدَةِ: الآية/ ٢٣

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

فَضَعُفُوا وخَافُوا مِنْ قِتَالِهِمْ، و﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾.[1]

فحرمها اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَمَاهُمُ فِي التِّيهِ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ عُقُوبَةً لَهُمْ، ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾.[2]

فمَكَثوا أَرْبَعِينَ سَنَةً، وَهُمْ تَائِهُونَ فِي الْبَرِّيَّةِ لَا يَهْتَدُونَ لِمَقْصِدٍ، ولا يصلون إلى غاية، حتى انقرض ذلك الجيلكله، ثم أذنالله لهم بدخولها، ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا﴾، وَتقدم معنا أن الرَّغَدَ هو الْعَيْشُ الْوَاسِعُ الْهَنِيءُ الطَّيِّبُ الَّذِي لَايصيبُ صَاحِبَهُ العَنَاءُ والتعبُ في تحصيلِهِ.

﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾.

اسجدوا لِلَّهِ تَعَالَى عند دخولكم شُكْرًا لِلَّهِ تَعَالَى عَلَى مَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْكِمْ مِنَ الْفَتْحِ وَالنَّصْرِ، وَإِنْقَاذِكِمْ مِنَ التِّيهِ.

﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾.

أَيِ احْطُطْ عَنَّا خَطَايَانَا، وَاغْفِرْ لَنَا.

﴿نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾.

فإِذَا فَعَلْتُمْ ذلك غَفَرْنَا لَكُمُ خَطَايَاكُمْ وزدنا الْمُحْسِنِينَ منكُمُ فضلا وإحسانا.

---

١ - سورة الْمَائِدَةِ: الآية/ ٢٤

٢ - سورة الْمَائِدَةِ: الآية/ ٢٦

قَولُهُ تَعَالَى: ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾. الآية/ ٥٩

أي بَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ، فكان حال الخلف كحال السلف، أو هم أشد من أسلافهم قبحًا وعنادًا واستكبارًا، وقابلوا الأمرً بالعصيان، والنعمةً بالكفران، فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا منهم القَوْلَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ ﴿حِطَّةٌ﴾ بـــ (حِنْطَةٌ) سخريةً بأمر الله واستهزاءً.

﴿فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾.

فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَذَابًا مِنَ السَّمَاءِ جزاءَ فِسْقِهِمْ، وَخُرُوجُهُمْ عَنْ طَاعَةِ اللَّهِ تَعَالَى، قال ابْنُ عَبَّاسٍ: كُلُّ شَيْءٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ (الرِّجْز) يَعْنِي بِهِ الْعَذَابَ.

وأصل الْفُسُوقِ فِي اللُّغَةِ: هُوَ الْخُرُوجُ عَنِ الطَّاعَةِ، وَتَقُولُ الْعَرَبُ: فَسَقَتِ الرُّطْبَةُ: إِذَا خَرَجَتْ مِنْ قِشْرَتِهَا، وَالْفَاسِقُ: هُوَ الْخَارِجُ عَنِ الطَّاعَةِ.

قَولُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾. الآية/ ٦٠

من النعم التي أنعم الله تعالى بها على بني إسرائيل – مع إنزاله عليهم المن والسلوى بلا كلفة وبلا تعب أو عناء – أنه فجر لهم الماء عذبًا صافيًا رقراقًا من حجر يرونه بأعينهم، قد فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا، بقدر أَسْبَاطِهِمُ لِكُلِّ سِبْطٍ مِنْ أَسْبَاطِهِمُ عَيْنٌ قَدْ عَرَفُوهَا، يذكرهم الله تعالى بنعمه تلك فيقول: وَاذْكُرُوا نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ إِذْ أَجَبْتُ نَبِيَّكُمْ مُوسَى، عَلَيْهِ السَّلَامُ، حِينَ اسْتَسْقَانِي لَكُمْ، فَقُلْتُ لهُ: ﴿اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾، آية عظيمة تروها، ومعجزة باهرة تلمسوها، فَأَخْرَجْتُ لَكُمْ الْمَاءَ مِنْ حَجَرٍ يُحمل مَعَكُمْ، لِكُلِّ سِبْطٍ مِنْ أَسْبَاطِكُمُ عَيْنٌ قَدْ عَرَفُوهَا، فَكُلُوا مِنَ الْمَنِّ وَالسَّلْوَى، وَاشْرَبُوا مِنْ هَذَا الْمَاءِ الَّذِي رزقتكم إياه بِلَا سَعْيٍ مِنْكُمْ وَلَا عَنَاءٍ وَلَا كَدٍّ، وَاشْكُرُوا الَّذِي رَزَقَكُم وَلَا تُقَابِلُوا نِعَمَهُ بِالْكُفْرِ والفسوق.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

﴿وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ﴾.

اسْتَسْقَى اسْتَفْعَلَ مِثْلُ اسْتَعْلَمَ وَاسْتَخْبَرَ وَاسْتَنْصَرَ أَيْ طَلَبَ وَسَأَلَ السَّقْيَ لِقَوْمِهِ، وَالِاسْتِسْقَاءُ إِنَّمَا يَكُونُ عِنْدَ عُدْمِ الْمَاءِ وَحَبْسِ الْقَطْرِ، وَهذا أَمْرٌ يُوجِبُ عَلَيْهِمُ أَنْ يُظْهِرُوا الْعُبُودِيَّةَ وَالْفَقْرَ وَالْمَسْكَنَةَ وَالذِّلَّةَ وَيُوجِبُ عَلَيْهِمُ مَعَ ذَلِكَ التَّوْبَةَ لله تعالى.

وَالِاسْتِسْقَاءُ إِنَّمَا كان لبني إسرائيل لِمَا أصابهم من الظمأ ولحاجتهم إلى الماء.

﴿فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ﴾.

ليحدث لهم مع السَّقْي آية يزدادوا بها إيمانًا ويقينًا، وتطمئن قلوبهم، ولا يرتاب متشكك إذا رأى الْحَجَرَ يتفجر بالماء، وَقَدْ كَانَ اللهُ تَعَالَى قَادِرًا عَلَى تَفْجِيرِ الْمَاءِ وَفَلْقِ الْحَجَرِ مِنْ غَيْرِ ضَرْبٍ، لَكِنْ أَرَادَ أَنْ يَرْبِطَ الْمُسَبِّبَاتِ بِالْأَسْبَابِ؛ حِكْمَةً مِنْهُ لِلْعِبَادِ فِي وُصُولِهِمْ إِلَى الْمُرَادِ؛ وَلِيُرَتِّبَ عَلَى ذَلِكَ ثَوَابَهُمْ وَعِقَابَهُمْ فِي الْمَعَادِ.

﴿فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًاقَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ﴾.

فِي الْكَلَامِ حَذْفٌ تَقْدِيرُهُ فَضَرَبَ فَانْفَجَرَتْ، وَالِانْفِجَارُ: خروج الْمَاءِ مندفعًا بقوةٍ شديدةٍ، فَانْفَتَحَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا، وهذه آية أخرى أن يجعلَ اللهُ تعالى الْمَاءَ على قدرِ أَسْبَاطِهِمُ، لِكُلِّ سِبْطٍ مِنْ أَسْبَاطِهِمُ عَيْنٌ خاصةٌ بهم قَدْ عَرَفُوهَا، لِكُلِّ سِبْطٍ مِنْهُمْ عَيْنًا قَدْ عَرَفَهَا لَا يَشْرَبُ مِنْ غَيْرِهَا، وَالْمَشْرَبُ مَوْضِعُ الشُّرْبِ، وَالْأَسْبَاطُ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ كَالْقَبَائِلِ فِي الْعَرَبِ وَهُمْ ذُرِّيَّةُ الِاثْنَيْ عَشَرَ من أَوْلَادِ يَعْقُوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ﴾.

إباحةً من الله تعالى لهم، وفِي الْكَلَامِ حَذْفٌ تَقْدِيرُهُ: وَقُلْنَا لَهُمْ كُلُوا الْمَنَّ وَالسَّلْوَى وَاشْرَبُوا الْمَاءَ الْمُتَفَجِّرَ مِنَ الْحَجَرِ الْمُنْفَصِلِ.

﴿وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾.

الْعَيْثُ: شِدَّةُ الْفَسَادِ وَالإِسْرَاعُ فِيهِ، نَهَاهُمْ اللهُ تعالى عَنْ الْفَسَادِ فِي الأَرْضِ لطبيعتهم التي تميلُ إلى الْفَسَادِ، والتي لا تعرفُ غيرَ الْفَسَادِ.

قَولُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾. الآية/ ٦١

يعدد الله تعالى على بني إسرائيل نعمه فيقول لهم وَاذْكُرُوا نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ إذ أَنْزَلت عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى، طَعَامًا طَيِّبًا نَافِعًا هَنِيئًا سَهْلًا بلا كلفة ولا مشقة ولا عناء، وَاذْكُرُوا كذلك أنكم ضَجَرْتُمْ مِمَّا رزَقتكم وَأنكم سألتم مُوسَى أن يدعوني أن أطعمكم مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ الْبُقُولِ وَالقِثَّاءِ وَالثُومِ وَالعَدَسِ وَالبَصَلِ وهو طعامٌ دَنِيء فَقَالَ لكم: أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ تَقْرِيعًا لَكُمْ وَتَوْبِيخًا فآثرتم الأَدْنَى بَطَرًا وَأَشَرًا وَعِنَادًا، لدنائتكم وفساد طويتكم.

وَكَنَّوْا عَنِ الْمَنِّ وَالسَّلْوَى بِطَعَامٍ وَاحِدٍ وَهُمَا اثْنَانِ لِأَنَّهُمْ لِتَكْرَارِهِمَا فِي كُلِّ يَوْمٍ فكأنهما لونٌ واحدٌ من الطَعَامِ، أو هو من البطر والأشر الذي يجعلهم يرون الكثيرَ قليلًا، ويَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ.

فقال لهم موسى عليه السلام: ﴿اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ﴾، هَذَا الَّذِي سَأَلْتُمُوه لَا يستحق أَنْ أَسْأَلَ اللَّهَ لأجله؛ فهو لدَنَاءَتِهِ كثير فِي الْأَمْصَارِ فلَيْسَ بِأَمْرٍ عَزِيزٍ، بَلْ هُوَ كَثِيرٌ فِي أَيِّ بَلَدٍ دَخَلْتُمُوهُ ستجدونه، والمقصود بقوله: ﴿اهْبِطُوا مِصْرًا﴾، أي انزلوا أي بلدٍ مِنْ هَذِهِ الْأَمْصَارِ، وليست مصر المعروفة التي خرجوا منها؛ وذلك لأنها وردت منونة ولو كانت مصر البلد المعروف الذي خرجوا منه لكانت ممنوعة من الصرف.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ﴾.

أَيْ: كتبها الله وقدرها عَلَيْهِمْ فلَا يَزَالُونَ أَذِلَّاء مهانين، مَنْ كانوا تحت سلطانه اسْتَذَلَّهُمْ وَأَهَانَهُمْ، وَضَرَبَ عَلَيْهِمُ الصَّغَارَ، وَهُمْ كذَلِكَ أَذِلَّاءُ فِي أَنْفُسِهِمْ يستشعرون الذل وَالْمَسْكَنَة، والعجب كل العجب ممن يراهم أعزةً، ويحسبهم أقوياء، ويظن أنهم لا يُقْهَرونَ، وهم كما وصف الله تعالى، ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ.

﴿وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ﴾.

أي: اسْتَحَقُّوا الْغَضَبَ مِنَ اللَّهِ، لسوء أفعالهم، وقبيح صفاتهم، ودناءة نفوسهم.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾.

فهم أكثر الناس استهانة بِآيَاتِ اللَّهِ، كما قال تعالى: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾.[1]

﴿وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾.

من أسباب سخط الله تعالى عليهم استحلالهم قتل الأنبياء، واستباحتهم لدماء المرسلين.

وهل يُقْتَلُ نَبِيٌّ بِحَقٍّ؟ والجواب: لا. إذن لماذا ذكر الله تعالى هذا القيد: ﴿بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾؟

والجواب لأنه ما كان عندهم أدنى شبهة في قتل الأنبياء، وَتَعْظِيمًا للذَّنْبِ الَّذِي ارتَكبُوْهُ، وتشنيعًا عَلَيْهِمْ.

﴿ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾.

الْعِصْيَانُ: مخالفة الأمر، وهو خِلَافُ الطَّاعَةِ، والاعتداء: تجاوز الحد في كل شي، وهذا من باب عطف العام على الخاص، فإن كفرهم بآيات الله من عصيانهم، وقتلهم النَّبِيِّينَ من اعتدائهم، وهو أيضًا سببٌ طردهم من رحمة الله تعالى؛ كما قال عز وجل: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾.[2]

---

١ - سورة البقرة: الآية/ ٧٥

٢ - سورة الْمَائِدَةِ: الآية/ ٧٨

قَولُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾. الآية/ ٦٢

ما زال الحديث متصلًا عن بني إسرائيل، وفي هذه الآية بيانٌ لحالهم بين الأمم وأنهم كغيرهم من الأمم ليس لهم فضلٌ زائدٌ، ولا ميزة لهم عن غيرهم، فليسوا كما زعموا أنهم أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ، وليست الجنةُ قاصرةً عليهم كما ادعوا ذلك بقَوْلِهِمْ: ﴿لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾.[1]

وإنما العبرة بالإيمان والعمل الصالح، حتى لا يغتر بالله تعالى مغترٌ،ثم ذكر الله تعالى أصناف الأمم،

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾.

أَيْ صَدَّقُوا بِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، واتبعوا ما أُنْزِلَ إليه، وقدمهم الله تعالى على اليهود والنصارى والصابئين لتقدمهم في الرتبة والمترلة وإن كانوا متأخرين في الزمن كما ثبت عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «نَحْنُ الْآخِرُونَ، وَنَحْنُ السَّابِقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ».[2]

فَنَحْنُ الْآخِرُونَ في الزمن، وَنَحْنُ السَّابِقُونَ إلى الجنة إن شاء الله يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

﴿وَالَّذِينَ هَادُوا﴾.

سُمُّوا بِذَلِكَ لِتَوْبَتِهِمْ عَنْ عِبَادَةِ الْعِجْلِ،من التَّهَوُّدِ وَهِيَ التَّوْبَةُ؛ لِقَوْلِ مُوسَى، عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ﴾.[3]

أَيْ: تُبْنَا إِلَيْكَ، وهو الراجح.

وقيل: سُمُّوا بِذَلِكَ مِنَ الْهَوَادَةِ وَهِيَ الْمَوَدَّةُ، أي لِمَوَدَّتِهِمْ بَعْضِهِمْ لِبَعْضٍ.

وَقِيلَ: سُمُّوا بِذَلِكَ لِنِسْبَتِهِمْ إِلَى يَهُوذَا أَكْبَرِ أَوْلَادِ يَعْقُوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وَقِيلَ: سُمُّوا بِذَلِكَ لِأَنَّهُمْ يَتَهَوَّدُونَ، أَيْ: يَتَحَرَّكُونَ عِنْدَ قِرَاءَةِ التَّوْرَاةِ.

---

١ - سورة الْبَقَرَةَ: الآية/ ١١١

٢ - رواه البخاري- كِتَابُ الْجُمُعَةِ، بَابُ فَرْضِ الْجُمُعَةِ، حديث رقم: ٨٧٦، ومسلم- كِتَابُ الْجُمُعَةِ ، بَابُ هِدَايَةِ هَذِهِ الْأُمَّةِ لِيَوْمِ الْجُمُعَةِ، حديث رقم: ٨٥٥

٣ - سورة الْأَعْرَافِ: الآية/ ١٥٦

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

﴿وَالنَّصَارَى﴾.

سُمُّوا بِذَلِكَ نسبةً إلى قَرْيَةٍ بفلسطين يُقَالُ لَهَا النَاصِرَة، كَانَ يَسْكُنُهَا عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فَنُسِبَ إِلَيْهَا فَقِيلَ: عِيسَى النَّاصِرِيُّ، فَلَمَّا نُسِبَ أَصْحَابُهُ إِلَيْهِ قِيلَ النَّصَارَى، وهو الراجح.

وَقِيلَ: سُمُّوا بِذَلِكَ لِتَنَاصُرِهِمْ فِيمَا بَيْنَهُمْ، وَقَدْ يُقَالُ لَهُمْ: أَنْصَارٌ أَيْضًا، كَمَا قَالَ عِيسَى، عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ﴾.[1]

﴿وَالصَّابِئِينَ﴾.

قِيلَ: هم قَوْمٌ بَاقُونَ عَلَى فِطْرَتِهِمْ وَلَيس لَهُمْ دِينٌ مُقَرَّرٌ يَتْبَعُونَهُ؛ وَلِهَذَا كَانَ الْمُشْرِكُونَ يَنْبِزُونَ مَنْ أَسْلَمَ بِالصَّابِئِ، أَيْ: أَنَّهُ قَدْ خَرَجَ عَنْ سَائِرِ أَدْيَانِ أَهْلِ الْأَرْضِ إِذْ ذَاكَ، وهذا هو الراجح.

وَقِيلَ: الصَّابِئُونَ الَّذِينَ لَمْ تَبْلُغْهُمْ دَعْوَةُ نَبِيٍّ.

وَقِيلَ: هم قَوْمٌ يَعْبُدُونَ الْكَوَاكِبَ؛ وهم الَّذِينَ بعث إليهِمْ إِبْرَاهِيمُ الْخَلِيلُ، عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وَقِيلَ: هم فِرْقَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ يَقْرَؤُونَ الزَّبُورَ وَيَعْبُدُونَ الْمَلَائِكَةَ، وَيُصَلُّونَ إِلَى الْيَمَنِ كُلَّ يَوْمٍ خَمْسَ صَلَوَاتٍ.

﴿مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾.

أي: مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا اسْتَحَقَّ مَا ذَكَرَهُ اللَّهُ مِنَ الْأَجْرِ، وَمَنْ فَاتَهُ ذَلِكَ فَاتَهُ الْخَيْرُ كُلُّهُ وَالْأَجْرُ الموعودُ من اللَّهِ تعالى.

وفي هذه الآية بيانٌ أن أمرَ هَذِهِ الأمةِ الْإِسْلَامِيَّةِ، وَمَنْ قَبْلَهَا مِنْ سَائِرِ الأمم يَرْجِعُ إِلَى شَيْءٍ وَاحِدٍ، وهو الإيمانُ بِاللَّهِ تعالى، وَالْيَوْمِ الآخِرِ، وَعَمَلُ الصَالِحاتِ، فليس بين الله تعالى وأحدٍ من خلقه نسبٌ، كما زعمت الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾.[2]

وَالْمُرَادُ بِالْإِيمَانِ هَاهُنَا هُوَ مَا بَيَّنَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ قَوْلِهِ لَمَّا سَأَلَهُ جِبْرِيلُ عَنِ الْإِيمَانِ فَقَالَ: «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ».[1]

---

١ - سورة آل عِمْرَانَ: الآية/ ٥٢

٢ - سورة الْمَائِدَةِ: الآية/ ١٨

﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾.

الذي وعد الله تعالى به أهل طاعته من المؤمنين في قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نزلا﴾.[٢]

﴿وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ فِيمَا يَسْتَقْبِلُونَهُ، من أمر الآخرة، وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ عَلَى مَا يَتْرُكُونَهُ وَيُخَلِّفُونَهُ، وراءهم بعد رحيلهم عن الدنيا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.[٣]

وَكَمَا تَقُولُ الْمَلَائِكَةُ لِلْمُؤْمِنِينَ عِنْدَ الِاحْتِضَارِ: ﴿أَلا تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾.[٤]

---

١ - رواه البخاري- كِتَابُ الإِيمَانِ، بَابُ سُؤَالِ جِبْرِيلَ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنِ الإِيمَانِ، وَالإِسْلاَمِ، وَالإِحْسَانِ، وَعِلْمِ السَّاعَةِ، حديث رقم: ٥٠، ومسلم- كِتَابُ الْإِيمَانَ، بَابُ معرفة الْإِيمَانِ، وَالْإِسْلَامِ، والقَدَرِ وَعَلَامَةِ السَّاعَةِ، حديث رقم: ٨

٢ - سورة الكهف: الآية/ ١٠٧

٣ - سورة يُونُسَ: الآية/ ٦٢

٤ - سورة فُصِّلَتْ: الآية/ ٣٠

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

قَولُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾. الآية/ ٦٣، ٦٤

هذه صورة أخرى من صور عناد بني إسرائيل، يتجلي فيها إعراض بني إسرائيل عن الطاعة، واستنكافهم عن الانقياد لأمر الله تعالى، وأمنهم من مكر الله، فقد أَخَذَ الله تعالى عَلَيْهِمْ الْعُهُودَ وَالْمَوَاثِيقَ أن يؤمنوا بِهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَأن يتبعوا رُسُلَهُ، وأن يقْرَؤُوا مَا فِي التَّوْرَاةِ، وَأن يعْمَلُوا بما فيها، وأن يَجِدُّوا في طاعة الله، وأن يجتهدوا في امتثال أمره، وتطبيق شرعه، فَأَعْرَضُوا عن أمرِ اللهِ تعالى، وَنَقَضُوا عَهْدَ اللهِ تعالى مِنْ بعدِ ميثَاقِهِ، وتنكبوا الطريقَ، واستمرؤوا الضلالة بعد الهدى، فرفع الله تعالى على رؤسهم جبل الطور تخويفًا لهم وترهيبًا، وأمرهم أن يأخذوا التوراة بقوة، وأن يسمعوا لأمر الله تعالى، لعلهم أن يستقيموا على الهدى، وتألف قلوبهم الطاعة، فينتظموا في سلك المتقين، وينضموا لقوافل العابدين، فلما عاينوا العذاب ورأوا الهلاك، أذعنوا للأمر خائفين، وانقادوا للطاعة مرغمين، حتى إذا أمنوا العقاب، ورفع عنهم سوط العذاب، اعترى نفوسهم ما كان يعتريها من النفور والإباء، والبغي والعناد، فاعرضوا عن أمر الله، ونقضوا عهده، وتعرضوا لسخطه، فلما حق عليهم العقاب، واستوجبوا بسوء فعلهم العذاب، تداركهم الكريم بلطفه، و لم يعاجلهم بالعذاب لحلمه، وفتح لهم باب عفوه.

وهنا يُذَكِّرُ الله تَعَالَى بَنِي إِسْرَائِيلَ ببعضِ مساوئهم، وجملة مِنْ مثالبهم، ومِنْ ذلك نقضهم لْعُهُودِهم وَمَوَاثِيقِهم مع الله تعالى، يقول عز وجل لهم: واذكروا إِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ لتؤمنوا وتستجيبوا فما زادكم ذلك إلا عنادًا واستكبارًا، وبعدا عن الحق ونفورًا، وقسوة لقلوبكم، وبلادةً في أفهامكم، وذلك لأنها نفوسٌ سيئةٌ، وقلوبٌ قاسيةٌ، وفطرٌ منتكسةٌ، لا يردعها وعظٌ، ولا يفيدها تذكيرٌ، ولا ينفعها ترغيبٌ، ولايؤثر فيها ترهيبٌ، حتى مع الوعيدِ الشديدِ، بل مع رؤيةِ العذابِ رأي العين، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.[1]

١ - سورة الْأَعْرَافِ: الآية/ ١٧١

وما كان ذلك منهم إلا لأنهم خلت قلوبهم من الإيمان، واقفرت نفوس من اليقين، وأشربت الكفر والطغيان والعصيان، كَمَا قَالَ تَعَالَى: كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ * وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ﴾.[1]

قوله تعالى: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.

أَيْ: قُلْنَا لهم خُذُوا ما أَعْطَيْنَاكُمْ من التوراة بجدٍ واجتهادٍ، بِكَثْرَةِ مدارستها، واعملوا بِمَا فِيهَا بِنِيَّةٍ صالحةٍ، ﴿وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ﴾.

أَيْ: تَدَبَّرُوهُ وَاحْفَظُوا أَوَامِرَهُ، وَوَعْدَهُ، وَوَعِيدَهُ، وَلَا تَنْسَوْهُ وَلَا تُضَيِّعُوهُ، وهَذَا هُوَ الْمَقْصُودُ مِنَ إنزال الْكُتُبِ، تدبر معانيها، والْعَمَلُ بِمُقْتَضَاهَا، لَا تِلَاوَتُهَا بِاللِّسَانِ وَتَرْتِيلُهَا فحسب.

﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.

فلا سبيل لحصول التقوى إلا بهذه الثلاثة مجتمعة، تلاوة كلام الله تعالى حق التلاوة، وتدبر معانيه وحسن الفهم عن الله تعالى، والعمل به، فعَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَشَخَصَ بِبَصَرِهِ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ قَالَ: «هَذَا أَوَانُ يُخْتَلَسُ العِلْمُ مِنَ النَّاسِ حَتَّى لَا يَقْدِرُوا مِنْهُ عَلَى شَيْءٍ»، فَقَالَ زِيَادُ بْنُ لَبِيدٍ الأَنْصَارِيُّ: كَيْفَ يُخْتَلَسُ مِنَّا وَقَدْ قَرَأْنَا القُرْآنَ فَوَاللَّهِ لَنَقْرَأَنَّهُ وَلَنُقْرِئَنَّهُ نِسَاءَنَا وَأَبْنَاءَنَا، فَقَالَ: «ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يَا زِيَادُ، إِنْ كُنْتُ لَأَعُدُّكَ مِنْ فُقَهَاءِ أَهْلِ المَدِينَةِ هَذِهِ التَّوْرَاةُ وَالإِنْجِيلُ عِنْدَ اليَهُودِ وَالنَّصَارَى فَمَاذَا تُغْنِي عَنْهُمْ».[2]

﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾.

أي: أعرضتم عن أمر الله تعالى مِنْ بَعْدِ أَخْذِ الْمِيثَاقِ منكم، وَرَفْعِ الْجَبَلِ عليكم، وجعلتم الْعُهُودَ وَالْمَوَاثِيقَ وراء ظهوركم.

---

١ – سورة يُونُسَ: الآية/ ٩٦، ٩٧

٢ – رواه الترمذي– أَبْوَابُ الْعِلْمِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بَابُ مَا جَاءَ فِي ذَهَابِ العِلْمِ، حديث رقم: ٢٦٥٣، بسند صحيح

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

﴿فَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾.

فَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ بِأَنْ أمهلكم حتى تَدَارَكَكُمْ بِلُطْفِهِ وَلولا رَحْمَتُهُ إياكم بترك العقاب في الدنيا لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ بالعقاب الدنيوي، قبل العقاب في الآخرة.

قَولُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ (٦٥) فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ﴾. الآية/ ٦٥، ٦٦

يُذَكِّرُ اللهُ تعالى بني إسرائيل بعاقبةِ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْهُمْ فِي السَّبْتِ، ويُحَذِّرُهُم مغبةَ مخالفةِ أمرِهِ، حتى لا يصيبهم ما أصابَ أسلافَهُم من العذابِ، ويحلُّ بهم ما نزلَ بسابقِيهِم من العقابِ، إشارةً منه لسابقِ إعراضِهِم، وسالفِ عصيانِهم، لما امتنعوا عن تحكيم شرعه في أنفسهم، وجعلوا كتاب ربهم ورائهم ظهريًا، وأدى بهم العناد إلى الفسوق والعصيان، وأنتم خلفٌ لهم لستم خيرًا منهم حالًا، ولا عندكم من الله عهد ألا يعذبكم، ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ﴾.[1]

﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ﴾.

يَقُولُ تَعَالَى لِلْيَهُودِ مُذَكِّرًا لهم بِمَا حَلَّ بِأَهْلِ تلك الْقَرْيَةِ الَّذين عَصَوا أَمْرَ اللَّهِ تَعَالَى وَتعدوا حدوده ونقضوا عَهْدَهُ وَمِيثَاقَهُ الذي أَخَذَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ تَعْظِيمِ السَّبْتِ وترك العمل فيه: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾، وذلك أن أَهْلَ تلك الْقَرْيَةِ كانوا يعملون بالصيد وكان الله عز وجل قد حرم عليهم الصيد يوم السَّبْتِ، ثم اختبرهم الله تعالى بأن جعل الحيتان تَأْتِيهِمْ يَوْمَ السَّبْتِ ظاهرةً على وجهِ الماءِ، وَفِي غير يَوْمِ السَّبْتِ لَا تَأْتِيهِمْ، فاعتدوا يَوْمِ السَّبْتِ فاصطادوا تلك الحيتان، منتهكين لحرمة سَبْتِهِمْ، ومخالفين لأمر ربهم، يَقُولُ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾.[2]

---

١ - سورة القمر: الآية/ ٤٣

٢ - سورة الأعراف: الآية/ ١٦٣

﴿فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾.

فَمَسَخَهُمُ اللَّهُ قِرَدَةً وَخَنَازِيرَ بِمَعْصِيَتِهِمْ، وَإِنَّما كَانَ مَسْخَهُمْ مَعْنَوِيًّا وَصُورِيًّا، أَشْكَالُهم أشْكَالُ القِرَدَةِ وَالخَنَازِير، ونُفُوسُهم نفُوسُ القِرَدَةِ وَالخَنَازِير، فَصَارَوا قُرُودًا وَخَنَازِيرَ أَذِلَّةً صَاغِرِينَ تَعْوي، وَلَهَا أَذْنَابٌ بَعْدَ مَا كَانُوا رِجَالًا وَنِسَاءً.

كما قال الله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾.[1]

﴿فَجَعَلْنَاهَا نَكَالا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ﴾.

اختلف العلماء في المراد بقوله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَاهَا﴾، على أقوال:

الأول: أن المراد بقوله: ﴿فَجَعَلْنَاهَا﴾، الْعُقُوبَةُ التي عاقبهم الله تعالى بها، وهي الْمَسْخُ قِرَدَةً خَاسِئِينَ.

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: "﴿فَجَعَلْنَاهَا﴾، فَجَعَلْنَا تِلْكَ الْعُقُوبَةَ وَهِيَ الْمَسْخَةَ نَكَالًا" فَالْهَاءُ وَالْأَلِفُ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿فَجَعَلْنَاهَا﴾، عَلَى قَوْلِ ابْنِ عَبَّاسٍ هَذَا كِنَايَةٌ عَنِ الْمَسْخَةِ، وَهِيَ فَعْلَةٌ مِنْ مَسَخَهُمُ اللَّهُ مَسْخَةً. فَمَعْنَى الْكَلَامِ عَلَى هَذَا التَّأْوِيلِ: ﴿فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾، فَصَارُوا قِرَدَةً مَمْسُوخِينَ ﴿فَجَعَلْنَاهَا﴾، فَجَعَلْنَا عُقُوبَتَنَا وَمَسْخَنَا إِيَّاهُمْ ﴿نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَاخَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ﴾.[2]

الثاني: أن المراد بقوله: ﴿فَجَعَلْنَاهَا﴾، أي الْقَرْيَة الَّتِي اعْتَدَى أَهْلُهَا فِي السَّبْتِ، والمعنى: فَجَعَلْنَا الْقَرْيَةَ الَّتِي اعْتَدَى أَهْلُهَا فِي السَّبْتِ نَكَالًا، أي فَجَعَلَ اللَّهُ تعالى أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةَ عِبْرَةً لمن كان في زمانهم ولمن أتى بعدهم، وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ الذين يخشون ربهم بالغيب، بِسَبَبِ جرأتهم على ربهم، واعْتِدَائِهِمْ فِي سَبْتِهِمْ.

والثالث: أن المراد بالضمير في: ﴿فَجَعَلْنَاهَا﴾ تلك الْأُمَّة الَّتِي اعْتَدَتْ فِي السَّبْتِ جَعَلَها اللَّهُ تعالى نَكَالًا للأمم السابقة واللاحقة، بعقوبة لم يُسْمَعْ بمثلها في تاريخ الأمم.

---

١ - سورة الْمَائِدَةِ: الآية/ ٦٠

٢ - تفسير الطبري (٢/ ٦٨)

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الرابع: أن المراد بالضمير في: ﴿فَجَعَلْنَاهَا﴾ الْحِيتَان، وفي هذا القول ضعيف؛ لأن الْحِيتَانَ لَمْ يَجْرِ لَهَا ذِكْرٌ في الكلام.

الخامس: أن المراد بالضمير في: ﴿فَجَعَلْنَاهَا﴾، الْقِرَدَةُ فهي كِنَايَةٌ عَنِ الْقِرَدَةِ، والمعنى: فَجَعَلْنَا الْقِرَدَةَ الَّذِينَ مُسِخُوا نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا.

وَالنَّكَالُ مَصْدَرٌ مِنْ قَوْلِ الْقَائِلِ: نَكَّلَ فُلَانٌ بِفُلَانٍ تَنْكِيلًا وَنَكَالًا. وَأَصْلُ النَّكَالِ: الْعُقُوبَةُ الشديدة.

والله تبارك وتعالى إنما حرم عليهم العمل يوم السبت، لعصيانهم وعنادهم فإن الله تبارك وتعالى إنما فرض عليهم يوم الجمعة، فأبوا إلا المخالفة والإعراض، واختاروا لأنفسهم يوم السبت، كما قال تعالى: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ﴾.[1]

فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «نَحْنُ الآخِرُونَ السَّابِقُونَ يَوْمَ القِيَامَةِ، بَيْدَ أَنَّهُمْ أُوتُوا الكِتَابَ مِنْ قَبْلِنَا، ثُمَّ هَذَا يَوْمُهُمُ الَّذِي فُرِضَ عَلَيْهِمْ، فَاخْتَلَفُوا فِيهِ، فَهَدَانَا اللَّهُ، فَالنَّاسُ لَنَا فِيهِ تَبَعٌ اليَهُودُ غَدًا، وَالنَّصَارَى بَعْدَ غَدٍ».[2]

---

١ - سورة الحديد: الآية/ ٢٧

٢ - تقدم تخريجه

قَولُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾. الآية/ ٦٧

يُذَكِّرُ اللهُ تَعَالَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بنعمة من نعمه عليهم فيَقُولُ تَعَالَى: وَاذْكُرُوا - يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ- نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ فِي خَرْقِ الْعَادَةِ لَكُمْ فِي شَأْنِ الْبَقَرَةِ، وَإِحْيَاءِ اللَّهِ الْمَقْتُولَ، وَبَيَانِ الْقَاتِلِ مَنْ هُوَ؟ بكلام الْمَقْتُولَ واخباره عَمَنْ قَتَلَهُ، وهي معجزة يوقن بها المرتاب، ويصدق بها المكذب، ويؤمن بها الكافر، وسبب ذلك ما رَوَاهُ آدَمُ بْنُ أَبِي إِيَاسٍ فِي تَفْسِيرِهِ عَنْ أَبِي الْعَالِيَةِ، فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾، قَالَ: كَانَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَكَانَ غَنِيًّا، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ، وَكَانَ لَهُ قَرِيبٌ وَكَانَ وَارِثَهُ، فَقَتَلَهُ لِيَرِثَهُ، ثُمَّ أَلْقَاهُ عَلَى مَجْمَعِ الطَّرِيقِ، وَأَتَى مُوسَى، عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَقَالَ لَهُ: إِنَّ قَرِيبِي قُتِلَ وَإِنِّي إِلَى أَمْرٍ عَظِيمٍ، وَإِنِّي لَا أَجِدُ أَحَدًا يُبَيِّنُ لِي مَنْ قَتَلَهُ غَيْرَكَ يَا نَبِيَّ اللَّهِ. قَالَ: فَنَادَى مُوسَى فِي النَّاسِ، فَقَالَ: أَنْشُدُ اللَّهَ مَنْ كَانَ عِنْدَهُ مِنْ هَذَا عِلْمٌ إِلَّا بَيَّنَهُ لَنَا، قَالَ: فَلَمْ يَكُنْ عِنْدَهُمْ عِلْمٌ، فَأَقْبَلَ الْقَاتِلُ عَلَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَقَالَ لَهُ: أَنْتَ نَبِيُّ اللَّهِ فَاسْأَلْ لَنَا رَبَّكَ أَنْ يُبَيِّنَ لَنَا، فَسَأَلَ رَبَّهُ فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾، فعجبوا من ذَلِكَ، فَقَالُوا: ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ* قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ﴾ يَعْنِي: لَا هَرِمَةٌ ﴿وَلا بِكْرٌ﴾ يَعْنِي: وَلَا صَغِيرَةٌ ﴿عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ﴾ أَيْ: نصفٌ بَيْنَ الْبِكْرِ وَالْهَرِمَةِ ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا﴾ أَيْ: صَافٍ لَوْنُهَا ﴿تَسُرُّ النَّاظِرِينَ﴾ أَيْ: تُعْجِبُ النَّاظِرِينَ ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ * قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ﴾ أَيْ: لَمْ يُذَلِّلْهَا الْعَمَلُ ﴿تُثِيرُ الأَرْضَ﴾ يَعْنِي: وَلَيْسَتْ بِذَلُولٍ تُثِيرُ الْأَرْضَ ﴿وَلا تَسْقِي الْحَرْثَ﴾ يَقُولُ: وَلَا تَعْمَلُ فِي الْحَرْثِ ﴿مُسَلَّمَةٌ﴾ يَعْنِي: مُسَلَّمَةٌ مِنَ الْعُيُوبِ ﴿لَا شِيَةَ فِيهَا﴾ يَقُولُ: لَا بَيَاضَ فِيهَا ﴿قَالُوا الآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ قَالَ: وَلَوْ أَنَّ الْقَوْمَ حِينَ أُمِرُوا أَنْ يَذْبَحُوا بَقَرَةً، اسْتَعْرَضُوا بَقَرَةً مِنَ الْبَقَرِ فَذَبَحُوهَا، لَكَانَتْ إِيَّاهَا، وَلَكِنَّهُمْ شَدَّدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ فَشُدِّدَ عَلَيْهِمْ، وَلَوْلَا أَنَّ الْقَوْمَ اسْتَثْنَوْا فَقَالُوا: ﴿وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾، لَمَا هُدُوا إِلَيْهَا أَبَدًا. فَبَلَغَنَا أَنَّهُمْ لَمْ يَجِدُوا الْبَقَرَةَ الَّتِي نُعِتَتْ لَهُمْ إِلَّا عِنْدَ عَجُوزٍ عِنْدَهَا يَتَامَى، وَهِيَ الْقَيِّمَةُ عَلَيْهِمْ، فَلَمَّا عَلِمَتْ أَنَّهُ لَا يَزْكُو لَهُمْ غَيْرُهَا، أَضْعَفَتْ عَلَيْهِمُ الثَّمَنَ. فَأَتَوْا مُوسَى فَأَخْبَرُوهُ أَنَّهُمْ لَمْ يَجِدُوا هَذَا النَّعْتَ إِلَّا عِنْدَ فُلَانَةٍ، وَأَنَّهَا سَأَلَتْهُمْ أَضْعَافَ ثَمَنِهَا. فَقَالَ لَهُمْ مُوسَى: إِنَّ اللَّهَ قَدْ كَانَ خَفَّفَ عَلَيْكُمْ فَشَدَّدْتُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ فَأَعْطُوهَا رِضَاهَا وَحُكْمَهَا. فَفَعَلُوا، وَاشْتَرَوْهَا فَذَبَحُوهَا، فَأَمَرَهُمْ مُوسَى، عَلَيْهِ

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

السَّلَامُ، أَنْ يَأْخُذُوا عَظْمًا مِنْهَا فَيَضْرِبُوا بِهِ الْقَتِيلَ، فَفَعَلُوا، فَرَجَعَ إِلَيْهِ رُوحُهُ، فَسَمَّى لَهُمْ قَاتِلَهُ، ثُمَّ عَادَ مَيِّتًا كَمَا كَانَ، فَأَخَذَ قَاتِلَهُ وَهُوَ الَّذِي كَانَ أَتَى مُوسَى فَشَكَا إِلَيْهِ مَقْتَلَهُ فَقَتَلَهُ اللَّهُ عَلَى أَسْوَإِ عَمَلِهِ.[1]

وَهذه الرواية وأمثالها مما روي في هذه القصة الذي يظهَرُ أَنَّهَا مَأْخُوذَةٌ مِنْ كُتُبِ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَهِيَ مِمَّا يَجُوزُ نَقْلُهَا؛ لما ثبت عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً، وَحَدِّثُوا عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلاَ حَرَجَ، وَمَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا، فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ».[2]

وَلَكِنْ لَا نُصَدِّقُ مثل هذا وَلَا نُكَذِّبُه، لاحتمال أن يكون صدقًا، واحتمال أن يكون كذبًا، فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: كَانَ أَهْلُ الكِتَابِ يَقْرَءُونَ التَّوْرَاةَ بِالعِبْرَانِيَّةِ، وَيُفَسِّرُونَهَا بِالعَرَبِيَّةِ لِأَهْلِ الإِسْلاَمِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لا تُصَدِّقُوا أَهْلَ الكِتَابِ وَلا تُكَذِّبُوهُمْ» وَقُولُوا: ﴿آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ﴾. الآيَةَ [البقرة: ١٣٦].[3]

وَعَنْ أَبِي نَمْلَةَ الْأَنْصَارِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا حَدَّثَكُمْ أَهْلُ الْكِتَابِ فَلَا تُصَدِّقُوهُمْ، وَلَا تُكَذِّبُوهُمْ، وَقُولُوا: آمَنَّا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ، فَإِنْ كَانَ بَاطِلًا لَمْ تُصَدِّقُوهُ، وَإِنْ كَانَ حَقًّا لَمْ تُكَذِّبُوهُ».[4]

فَلِهَذَا لَا نَعْتَمِدُ فِي ذلك إِلَّا عَلَى مَا يُوَافِقُ الْحَقَّ عِنْدَنَا.

---

١ - تفسير الطبري (٢/ ٧٨)، وتفسير ابن كثير (١/ ٢٩٤، ٢٩٥)

٢ - رواه البخاري- كِتَابُ أَحَادِيثِ الأَنْبِيَاءِ، بَابُ مَا ذُكِرَ عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، حديث رقم: ٣٤٦١

٣ - رواه البخاري- كِتَابُ الِاعْتِصَامِ بِالكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، بَابُ قَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لاَ تَسْأَلُوا أَهْلَ الكِتَابِ عَنْ شَيْءٍ»، حديث رقم: ٧٣٦٢

٤ - رواه أحمد- حديث رقم: ١٧٢٢٥، وأبو داود- كِتَابُ الْعِلْمِ، بَابُ رِوَايَةِ حَدِيثِ أَهْلِ الْكِتَابِ، حديث رقم: ٣٦٤٤، بسند حسن

قَولُهُ تَعَالَى: ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ * قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ * قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾. الآية/ ٦٨- ٧٠

هذه صورة من صور عناد بَنِي إِسْرَائِيلَ وَتَعَنُّتِهم وَكَثْرَةِ سُؤَالِهِمْ وَاخْتِلَافِهِمْ عَلَى رَسُولِهِمْ موسى عليه السلام،وهذه كانت سمتهم ووصفهم الملازم لهم كما أخبر النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: خَطَبَنَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: «أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ فَرَضَ اللهُ عَلَيْكُمُ الْحَجَّ، فَحُجُّوا»، فَقَالَ رَجُلٌ: أَكُلَّ عَامٍ يَا رَسُولَ اللهِ؟ فَسَكَتَ حَتَّى قَالَهَا ثَلَاثًا، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "لَوْ قُلْتُ: نَعَمْ لَوَجَبَتْ، وَلَمَا اسْتَطَعْتُمْ"، ثُمَّ قَالَ: «ذَرُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ، فَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِكَثْرَةِ سُؤَالِهِمْ وَاخْتِلَافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ، فَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ، وَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَدَعُوهُ».[1]

ولفظ: ﴿بَقَرَةً﴾، من قول اللَّهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾، نكرة في سياق الإثبات، والنكرة في سياق الإثبات تفيد الإطلاق، فَلَوْ أَنَّهُمْ ذَبَحُوا أَيَّ بَقَرَةٍ لَأَجْزَأَتْ عَنْهُمْ أَدْنَى بَقَرَةٍ، ولكنه التنطع، فَلَمَّا ضَيَّقُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ ضَيَّقَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِمْ، وَلَمَّا شَدَّدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ شَدَّدَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِمْ.

﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ﴾.

أي: ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يوضح لَنَا مَا هِيَ هَذِهِ الْبَقَرَةُ؟ وَمَا هِيَ صِفَتُهَا؟

﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ﴾.

أَيْ: لَا كَبِيرَةٌ وَلَا صَغِيرَةٌ، وَالْفَارِضُ الكَبِيرَةُ الْمُسِنَّةُ الَّتِي لَا تَلِدُ، وَالْبِكْرُ الصَّغِيرَةُ الَّتِي لَمْ تَلِدْ قَطُّ، وَحُذِفَتِ (الْهَاءُ) مِنْهُمَا لِلِاخْتِصَاصِ بِالْإِنَاثِ كَالْحَائِضِ، والحَامِلِ، والْمُرْضِعِ.

﴿عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ﴾.

أَيْ: وَسَطٌ بَيْنَ الْبِكْرِ وَالْهَرِمَةِ، لَا كَبِيرَةٌ وَلَا صَغِيرَةٌ.

---

١ - رواه مسلم- كِتَابُ الْحَجِّ، بَابُ فَرْضِ الْحَجِّ مَرَّةً فِي الْعُمُرِ، حديث رقم: ١٣٣٧

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

﴿فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ﴾.

هذا تَجْدِيدٌ لِلْأَمْرِ لهم بالطاعة، وَتَأْكِيدٌ لَهُ، وَزَجْرٌ لَهُمْ عَنِ التَّعَنُّتِ، فَلَمْ يَنْفَعْهُمْ ذَلِكَ، وَلَمْ يتَرَكُوهُ بَلْ رَجَعُوا إِلَى طَبِيعَتِهِمْ، وَعَادُوا إِلَى مَكْرِهِمْ، وَاسْتَمَرُّوا عَلَى عادتهم التي ألفوها.

﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ﴾.

ولو أنهم امتثلوا الأمر واستجابوا لربهم لما قال لهم: ﴿فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ﴾، لوجدوا كثيرًا من البقر بهذه الصفة المذكورة لهم، ولكنهم عادوا إلى تعنتهم فسألوا عن اللون، فأخبرهم الله تعالى عن لونها بقوله: ﴿إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ﴾، أي شَدِيدَةُ الصُّفْرَةِ، لَوْنُهَا صَافٍ، تَسُرُّ النَّاظِرِينَ تُدْخِلُ عَلَيْهِمُ السُّرُورَ إِذَا نَظَرُوا إِلَيْهَا إِعْجَابًا بِهَا، وَاسْتِحْسَانًا لِلَوْنِهَا.

﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا﴾.

فما فعلوا ما أمروا به، بل عَادُوا إِلَى تَعَنُّتِهِمْ فقالوا: ادْعُ لَنا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنا ما هِيَ، فَإِنَّ الْبَقَرَ جِنْس الْبَقَرِ يَتَشَابَهُ وَيلْتَبسُ عَلَيْنَا لِكَثْرَةِ مَا يَتَّصِفُ مِنْهَا بِهذه الأوصاف المذكورة.

﴿وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾.

وقولهم هذا: ﴿وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾، اسْتِثْنَاءٌ مِنْهُمْ، وَفِيهِ إِنَابَةٌ مَا وَانْقِيَادٌ، وَدَلِيلُ نَدَمٍ منهم عَلَى عَدَمِ الاستجابة، وامتثالِ الْأَمْرِ من البدايةِ.

وَلَوْلَا أَنَّهم قَالُوا: ﴿وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾ لَمَا اهْتَدُوا إليها أبدًا.

قَولُهُ تَعَالَى: ﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ * وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ * فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِ اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾. الآية/ ٧١: ٧٣

لما سألوا صفة تمييزها عن سائر البقر، بحيث لا يشتبه عليهم أمرها أخبرهم الله تعالى بصفة لا يشاركها فيها غيرها مما هو من جنسها من البقر بقوله: ﴿إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا﴾.

أَيْ: إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَمْ يُذَلِّلْهَا الْعَمَلُ فَلَيْسَتْ مُذَلَّلَةً بِالْحِرَاثَةِ، وَلَا مُعَدَّةً لسَّقْيِ الْأَرْضِ بالسَّاقِيَةِ، بَلْ هِيَ مُكَرَّمَةٌ حَسَنَةٌ صَبِيحَةٌ.

﴿مُسَلَّمَةٌ﴾.

أَيْ: صَحِيحَةٌ سَالِمَةٌ مِنَ الْعَرَجِ وَمِنْ سَائِرِ الْعُيُوبِ.

﴿لَا شِيَةَ فِيهَا﴾.

أَيْ: لَيْسَ فِيهَا لَوْنٌ يُخَالِفُ لَوْنَهَا، فهِيَ صَفْرَاءُ كُلُّهَا لَا بَيَاضَ فِيهَا، وَلَا حُمْرَةَ، وَلَاسَوَادَ.

﴿قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ﴾.

وهذا أيضًا من تَعَنُّتهم وإفكهم، وسوء أدبهم من نبيهم موسى عليه السلام، قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ: وَقَبْلَ ذَلِكَ وَاللَّهِ قَدْ جَاءَهُمُ الْحَقُّ.

﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾.

يقول النَّحْاةُ: «كَادَ» نَفْيُهَا إِثْبَاتٌ وَإِثْبَاتُهَا نَفْيٌ، فَقَوْلُهُم: كَادَ يَفْعَلُ كَذَا، مَعْنَاهُ قَرُبَ مِنْ أَنْ يَفْعَلَ لَكِنَّهُ مَا فَعَلَهُ، وَقَوْلُهُم: مَا كَادَ يَفْعَلُ كَذَا، مَعْنَاهُ قَرُبَ مِنْ ألا يَفْعَل لَكِنَّهُ فَعَلَهُ.

فَذَبَحُوا الْبَقَرَةَ وَمَا كَادُوا يَذْبَحُونَهَا، قال ابْنُ عَبَّاسٍ: كَادُوا أَلَّا يَفْعَلُوا، وَلَمْ يَكُنْ ذَلِكَ الذِي أَرَادُوا، لِأَنَّهُمْ أَرَادُوا أَلَّا يَذْبَحُوهَا.

لأَنَّهُم لَمْ يَكُنْ غَرَضُهُمْ من هذه المراجعةِ والاستيضاحِ، والسؤالِ بعد السؤالِ، إِلَّا التَّعَنُّتَ فمَا ذَبَحُوهَا إِلَّا بَعْدَ جهْدٍ جهيدٍ، وَفِي هَذَا ذَمٌّ لَهُمْ.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا.....﴾. عامٌ يُراد به الخصوصُ، لأن الذي قتل وكتم أمر القتل واحدٌ منهم، وليس جميعُ بني إسرائيل.

﴿فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا﴾.

أَيْ: اخْتَلَفْتُمْ وَاخْتَصَمْتُمْ فِي شَأْنِهَا؛ لِأَنَّ الْمُتَخَاصِمِينَ يَدْرَأُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا أَيْ يُدَافِعُهُ.

وَأَصْلُ ادَّارَأْتُمْ تَدَارَأْتُمْ، أُدْغِمَتِ التَّاءُ فِي الدَّالِ، وَزَادُوا أَلِفَ الْوَصْلِ لأن الِابْتِدَاءَ بِالسَّاكِنِ لَا يَجُوزُ.

﴿وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾.

أَيْ: وسَيُظْهِرُ اللَّهُ لَا مَحَالَةَ مَا كَتَمْتُمْ مِنْ أَمْرِ الْقَتْلِ، ويبين القاتل للناس.

وَجُمْلَةُ: ﴿وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾، فيها اعْتِرَاضٌ بَيْنَ الْمَعْطُوفِ، وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا﴾، وَالْمَعْطُوفِ عَلَيْهِ، وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا﴾.

وَفَائِدَتُهُ: أَنْ يُقَرِّرَ فِي أَنْفُسِ الْمُخَاطَبِينَ أَنَّ تَدَارُؤَ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي قَتْلِ تِلْكَ النَفْسِ لَمْ يَكُنْ نَافِعًا لَهُمْ فِي إِخْفَائِهِ وَكِتْمَانِهِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى مُظْهِرٌ لِذَلِكَ وَمُخْرِجُهُ، وَلَوْ جَاءَ الْكَلَامُ خَالِيًا مِنْ هَذَا الِاعْتِرَاضِ لَكَانَ تقديره: (وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا * فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا .....).

﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا﴾.

قَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ: أَمَرَهُمْ مُوسَى، عَلَيْهِ السَّلَامُ، أَنْ يَأْخُذُوا عَظْمًا مِنْ عِظَامِهَا، فَيَضْرِبُوا بِهِ الْقَتِيلَ، فَفَعَلُوا، فَرَجَعَ إِلَيْهِ رُوحُهُ، فَسَمَّى لَهُمْ قَاتِلَهُ ثُمَّ عَادَ مَيِّتًا كَمَا كَانَ.

وَلَا حَاجَةَ فِي تَعْيِينِ المبهم من الْبَعْضِ الَّذِي أُمِرُوا بِأَنْ يَضْرِبُوا الْقَتِيلَ بِهِ، لِمَا فِيهِ مِنَ الْقَوْلِ بِغَيْرِ عِلْمٍ، وَيَكْفِينَا أَنْ نَقُولَ: أَمَرَهُمُ اللَّهُ بِأَنْ يَضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا.

وَفِي الْكَلَامِ حَذْفُ اختصار وَالتَّقْدِيرُ: فَقُلْنا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ففعلوا فأحياه الله.

﴿كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

أَيْ: مِثْلِ هَذَا الْإِحْيَاءِ الذي عاينتموه يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى، وَيُرِيكُمْ الدَلَائِلَ الدَّالَّةَ عَلَى كَمَالِ قُدْرَتِهِ، كَيْ تَعْقِلُوا فتمْتَنِعُوا مِنْ عِصْيَانِهِ.

قَولُهُ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾. الآية/ ٧٤

هذا تَوْبِيخٌ عَنِيفٌ، وَتَقْرِيعٌ مرِيعٌ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ، يدلل على مدى الانحطاط الذي وصلوا إليه، وعلى أن داء قلوبهم ليس له دواء، وعلى أن مرضهم ليس لَهُمْ منه شفاءٌ، فهم عَلَى مَا شَاهَدُوهُ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ تَعَالَى البيناتمن إِحْيَاءِ الْمَوْتَى، وقبل ذلك رأوا الحجر وقد انْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا، ورأوا البحر قد انفلق فصار كل فرق كالجبل العظيم، فما زادهم الآيات إلا نفورًا، وما ازدادوا بالمعجزات إلا قسوةً وعنادًا، فهي كالحجارة قسوة بل هي أشدُ قسوةً من الحجارة.

فقد رأوا آية يُسْلِمُ من عجيبِ شَأنِهَا أشدُ الناسِ كفرًا، ويُؤمنُ من هولها أكثرُ الناسِ عنادًا، رأوا إحياء الله للميت بعد أن فارقته الروح، فقام وتكلم وهم ينظرون ويسمعون، ولكن صدق اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾.[1]

وليست بأول الآيات فكم من آية مرت عليهم فما لانت لها قلوبهم، ولا خشعت لها نفوسهم، بل كانوا يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ، ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾.[2]

﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾.

وَالْقَسْوَةُ: هي الصَّلَابَةُ وَالْيُبْسُ، وَهِيَ دليل على خُلُوِّ قُلُوبِهِم مِنَ الْإِنَابَةِ وَالْإِذْعَانِ لِآيَاتِ اللَّهِ تعالى، مَعَ وُجُودِ الْآيَاتِ الْمُوجِبَةِ لِلِينِ الْقُلُوبِ وَرِقَّتِهَا، مِنْ إِحْيَاءِ الْقَتِيلِ وَتَكَلُّمِهِ وَتَعْيِينِهِ لِقَاتِلِهِ، وهذه صفة لازمة لِبَنِي إِسْرَائِيلَ لا تنفك عنهم أبدًا، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى عنهم: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾.[3]

ومن كان هذا شأنه، كان أبعدَ الناسِ عن الخيرِ، وأقربَ الناسِ للبوارِ والهلاكِ.

﴿مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾.

أي: مِنْ بَعْدِ إِحْيَاءِ الْقَتِيلِ وَتَكَلُّمِهِ وَتَعْيِينِهِ لِقَاتِلِهِ.

---

١ - سورة الْحَجِّ: الآية/ ٤٦

٢ - سورة يُوسُفَ: الآية/ ١٠٥

٣ - سورة الْمَائِدَةِ: الآية/ ١٣

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

﴿فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾.

كَالْحِجَارَةِ في صلابتها وقسوتها، بل هي أَشَدُّ قَسْوَةً من الْحِجَارَةِ.

﴿وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾.

فالْحِجَارَةُ على قسوتها يُرجى منها الخيرُ، فتَتَفَجَّرُ مِنْهَا الأَنْهَارُ، وتَتَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهَا الْمَاءُ، وبنو إسرائيل لا يُرتجى منهم خيرٌ، ولا يُنْتَظَرُ منهم برٌ، وَمِنَ الْحِجَارَةِ مَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ، وبنو إسرائيل لا تعرفُ الخَشْيَةُ مِنْ اللَّهِ إلى قلوبهم سبيلًا.

وهذا الكلامُ حقيقةٌ لا مجازَ فيه، فإِسْنَادُ الْخُشُوعِ إِلَى الْحِجَارَةِ ليس مِنْ بَابِ الْمَجَازِ كما يظن بعض الناس؛ قَالَ الله تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾.[1]

﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

وَعِيدٌ شَدِيدٌ، وَتَهْدِيدٌ مُخِيفٌ، وَإِعْلَامٌ لهم بِأَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ لَا يَتْرُكُ عُقُوبَتَهُمْ عَلَى ظُلْمِهِم وَسوءِ أعمالهم، يعلم تكنه الضمائرُ، وما تخفيه السرائرُ، ولا يعذب عنه شيء في الأرض ولا في السماء.

---

١ - سورة الْإِسْرَاءِ: الآية/ ٤٤

قَولُهُ تَعَالَى: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾. الآية/ ٧٥

لا شك أن المؤمنَ يفرح غاية الفرح ويسعد قلبه سعادة لا حد لها إذا هدى الله عز وجل على يديه إنسانًا فأسلم بعد كفر وأطاع بعد عصيان، و لم لا؟ وقد أخبرنا النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أن هداية هذا الكافر خير للمسلم من أغلى الأموال بل مما طلعت عليه الشمس، فعَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «فَوَاللَّهِ لَأَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بِكَ رَجُلًا وَاحِدًا، خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَمِ».[1]

وَحُمْرُ النَّعَمِ هي أنفس الأبل وأغلاها.

وقد سعى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُم سعيًا حثيثًا في إيصال نور الإسلام إلى الناس جميعًا، وإلى اليهود خصوصًا فهم أهل كتاب، وهم أقرب إلى الله تعالى من الوثنيين، وعندهم الكتاب الأول، وهم يعرفون النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كما يعرفون أبناءهم، ولكن شأنهم مع الإسلام كان عجيبًا، وحالهم مع نبي الإسلام صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان غريبًا، فلم ينفعهم مع عندهم من العلم، وما ازدادوا ببعثة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلا عمىً وضلالًا، فتعجب المؤمنون منهم غاية العجب، فكشف الله تعالى لهم عن طبيعة هَؤُلَاءِ البشر، وعن حقيقة هذه الْفِرْقَةِ الضَّالَّةِ الْيَهُودِ، الَّذِينَ شَاهَدَ آبَاؤُهُمْ مِنَ الْآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ، والمعجزات الباهرات مَا شَاهَدُوهُ، ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ، وكأن الله عز وجل يقول للمؤمنينلا مطمع لكم ولا رجاء في أن يؤمن أمثال هؤلاء الناس، فللإيمان طبيعة أخرى، واستعداد آخر،لا يوجد عند هؤلاء، إن الطبيعة المؤمنة سمحة هينة لينة، مفتحة المنافذ لنور الإيمان، مستعدة للإتصال بالنبع الأزلي الخالد بما فيها من نداوة ولين وصفاء.

﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ﴾.

أَيْ أَتَطْمَعُونَ أيها المؤمنون أَنْ يَسْتَجِيبَ لَكُمْ هؤلاء اليهود، وهنا لطيفة وهي أن الفعل يُؤْمِنُ يتعدي بالباء، وهنا تعدى باللام فضُمِّنَ الفعلُ يُؤْمِنُ مَعْنَى اسْتَجَابَ، فيكون المعنى: أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا مستجيبين لَكُمْ؟

---

١ – رواه البخاري– كِتَابُ الجِهَادِ وَالسِّيَرِ، بَابُ دُعَاءِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ النَّاسَ إِلَى الإِسْلاَمِ وَالنُّبُوَّةِ، وَأَنْ لاَ يَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ، حديث رقم: ٢٩٤٢، ومسلم– كتاب فَضَائِلِ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُمْ ، بَابُ مِنْ فَضَائِلِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، حديث رقم: ٢٤٠٦

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ﴾.

أَيْ: يبدلونه عن عمدٍ وقصدٍ، ومن العجيب أن كل أنواع التحريف لكلام الله تعالى بداية من لَيِّ ألسنتهم بالكلام تمويهًا وتلبيسًا على الناس، ومرورًا بجعلهم التوراة صحفًا مفرقةً لا جامع يجمعها، يظهرون ما شاءوا منها ويخفون كثيرًا منها، وانتهاءً بالكذب الصريح على الله تعالى.

﴿مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ﴾.

أَيْ: مِنْ بَعْدِ مَا فَهِمُوهُ عَلَى الْجَلِيَّةِ، وعرفوا مراد الله تعالى منه، وَمَعَ هَذَا يُخَالِفُونَهُ عن قصد.

﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾.

أَنَّهُمْ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ، وأَنَّهُمْ مُخْطِئُونَ فِيمَا ذَهَبُوا إِلَيْهِ مِنْ تَحْرِيفِهِ، ومن كان هذا حاله فهو أبعد الناس عن الهدى، وأقرب الناس للضلال، لذلك استحقوا غضبَ الله تعالى ولعنته؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾.[1]

قَولُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلا تَعْقِلُونَ * أَوَلا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾. الآية/ ٧٦، ٧٧

يخبرنا الله تعالى عن حال هؤلاء اليهود الذين ليس لهم مبدأ، وليس عندهم عقيدة صحيحة، وما عندهم من الإيمان شيء، أنهم كانوا إذا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا من أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قالُوا: آمَنَّا، ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا﴾، أَيْ: بِصَاحِبِكُمْ محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه رَسُولُ من عند اللَّهِ تعالى وَلَكِنَّهُ رَسُولُ إِلَيْكُمْ خَاصَّةً، ابقاءً للروابط التي كانت بينهم، وحفظًا لما كان بينهم في الجاهلية من صلات، ﴿وَإِذا خَلا بَعْضُهُمْ إِلى بَعْضٍ﴾، وكانوا بمنأى عن أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أخذوا يتلاومون فيما بينهم، ﴿قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾، يقول بعضهم لبعض: لَا تُحَدِّثُوا الْعَرَبَ بأنكم تجدون صفة نبيهم في كتابكم؛ لأنكم كُنْتُمْ تَسْتَفْتِحُونَ بِهِ عَلَيْهِمْ وَهو مِنْهُمْ، ﴿لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ﴾، فإنكم إن فعلتم ذلك سيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَنكم تُقِرُّونَ أَنَّهُ نَبِيٌّ، وَأَنَّهُ قَدْ أُخِذَ عَلَيْكُمُ الْمِيثَاقُ بِاتِّبَاعِهِ، وَهُوَ يُخْبِرُهُمْ أَنَّهُ النَّبِيُّ الَّذِي كَانَ يُنْتَظَرُ،فاجْحَدُوا نبوته وَلَا تُقِرُّوا بِهِ، حتى لا

---

١ - سورة الْمَائِدَةِ: الآية/ ١٣

يكون ذلك سببًا في عقاب الله تعالى لكم، ﴿أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾، يظنون أن حصافة الرأي ورجاحة العقل، في كتمانهم للعلم الذي في كتابهم من صفة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾.

هذا من سوء اعتقادهم في الله تعالى، ومن فساد إيمانهم بالله تعالى أنهم يعتقدون أن الله تعالى لا يعلم بمكنون نفوسهم، من الكفر حتى يخبره بذلك المؤمنون، وهم في هذا أقبح حالا من الوثنين الذين يعبدون الأصنام، فقد كانوا يعتقدون أن الله تعالى يعلم الجهر ولكنه لا يعلم السر،فعَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ، قَالَ: "اخْتَصَمَ عِنْدَ البَيْتِ ثَلَاثَةُ نَفَرٍ قُرَشِيَّانِ وَثَقَفِيٌّ، أَوْ ثَقَفِيَّانِ وَقُرَشِيٌّ، قَلِيلٌ فِقْهُ قُلُوبِهِمْ كَثِيرٌ شَحْمُ بُطُونِهِمْ، فَقَالَ أَحَدُهُمْ: أَتَرَوْنَ أَنَّ اللَّهَ يَسْمَعُ مَا نَقُولُ؟ فَقَالَ الآخَرُ: يَسْمَعُ إِنْ جَهَرْنَا وَلَا يَسْمَعُ إِنْ أَخْفَيْنَا، وَقَالَ الآخَرُ: إِنْ كَانَ يَسْمَعُ إِذَا جَهَرْنَا فَهُوَ يَسْمَعُ إِذَا أَخْفَيْنَا".[1]

واليهود يظنون أَنَّ اللَّهَ لا يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ، تعالى الله عما يقولون، وعما يظنون.

قَولُهُ تَعَالَى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَايَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْهُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾. الآية/ ٧٨

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ﴾، الْأُمِّيُّونَ جَمْعُ أُمِّيٍّ، وَهُوَ: الرَّجُلُ الذِي لَا يُحْسِنُ الْكِتَابَةَ، أَيْ: وَمِنْ الْيهود أُمِّيُّونَ لا يُحْسِنُ الواحد منهم القراءةَ ولا الْكِتَابَةَ، وقد فسر ذلك في قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَايَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلاأَمَانِيَّ﴾أَيْ: لَا يَدْرُونَ مَا فِيهِ.

وإنما قيل لمن لَا يَكْتُبُ وَلَا يقرأ مِنَ الرِّجَالِ أُمِّيٌّ نسبة إِلَى أمِّه فِي جَهْلِهِ لأن الغالب على النساء الجهل وعدم العلم.

قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ رحمه الله: وَأَرَى أَنَّهُ قِيلَ لِلْأُمِّيِّ أُمِّيٌّ نِسْبَةً لَهُ بِأَنَّهُ لَا يَكْتُبُ إِلَى أُمِّهِ، لِأَنَّ الْكِتَابَ كَانَ فِي الرِّجَالِ دُونَ النِّسَاءِ، فَنُسِبَ مَنْ لَا يَكْتُبُ وَلَايَخُطُّ مِنَ الرِّجَالِ إِلَى أُمِّهِ فِي جَهْلِهِ بِالْكِتَابَةِ دُونَ أَبِيهِ.[2]

وَمن صِفَاتِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ أُمِّيٌّ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ يُحْسِنُ الْكِتَابَةَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَاكُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾.[3]

---

١ - رواه البخاري- كِتَابُ تَفْسِيرِ القُرْآنِ، بَابُ {وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الخَاسِرِينَ} [فصلت: ٢٣] ، حديث رقم: ٤٨١٧، ومسلم- كتابُ التَّوْبَةِ، كِتَابُ صِفَاتِ الْمُنَافِقِينَ وَأَحْكَامِهِمْ، حديث رقم: ٢٧٧٥

٢- تفسير الطبري (٢/ ١٥٤)

٣ - سورة الْعَنْكَبُوتِ: الآية/ ٤٨

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وهذه صفة كمال في النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لأنها دليل صدقه، وعلامة نبوته، كما كان من كماله عدم علمه بالشعر وعدم نظمه له، قال الله تعالى: ﴿وَمَاعَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ﴾.[1]

وعن عبد الله بْنَ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّا أُمَّةٌ أُمِّيَّةٌ، لاَ نَكْتُبُ وَلاَ نَحْسُبُ، الشَّهْرُ هَكَذَا وَهَكَذَا». يَعْنِي مَرَّةً تِسْعَةً وَعِشْرِينَ، وَمَرَّةً ثَلاَثِينَ.[2]

ومعناه: أننا لا نَفْتَقِرُ فِي عِبَادَاتِنَا وَمَوَاقِيتِهَا إِلَى كِتَابةٍ وَلَا إِلَى حِسَابٍ، قَالَ تَعَالَى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولا مِنْهُمْ﴾.[3]

وقيل هذا باعتبار ما كان، ولا يفهم منه أنه يجب أن تظل الأمةُ أميةً، بدليل أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمرنا بتعلم الكتابةِ، وجعلَ فداءَ الأسرى يومَ بدرٍ تعليمَ عشرةٍ من صبيان المسلمين الكتابة.

﴿لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّاأَمَانِيَّ﴾.

هذه حقيقتهم أنهم لَمْ يَكُونُوا يَعْلَمُونَ مِنَ الْتَوراَةِ شَيْئًا، وإنما هي أَمَانِيُّ يَتَمَنَّوْنَهَا، وكَانُوا يَتَكَلَّمُونَ فِي كِتَابِ اللَّهِ بِالظَّنِّ، وينسبون لله تعالى ما لم يقله، وَيَقُولُونَ: هُوَ مِنَ الْكِتَابِ، وما هُوَ مِنَ الْكِتَابِ.

﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾.

فليس عندهم من العلم إلا اسمه ولا من الكتاب إلا رسمه، وليتهم وقفوا عند حدود الجهل، وحجزهم دينهم عن الخوض فيما ليس لهم به علم، فيعذرون بجهلهم، ولا تُسْتَقبَحُ فِعَالُهُم، لكنهم نسبوا لله مَا لَمْ يقله، واشتروا بآياتِ اللهِ ثمنًا قليلًا، وعرضًا زائلًا، فبئست التجارةُ تجارتهم، وبئس البيعُ بيعهم، وبئس ما يشترون.

---

١ - سورة يس: الآية/ ٦٩

٢ - رواه البخاري- كِتَابُ الصَّوْمِ، بَابُ قَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لاَ نَكْتُبُ وَلاَ نَحْسُبُ» ، حديث رقم: ١٩١٣، ومسلم- كِتَاب الصِّيَامِ، بَابُ وُجُوبِ صَوْمِ رَمَضَانَ لِرُؤْيَةِ الْهِلَالِ، وَالْفِطْرِ لِرُؤْيَةِ الْهِلَالِ، وَأَنَّهُ إِذَا غُمَّ فِي أَوَّلِهِ أَوْ آخِرِهِ أُكْمِلَتْ عِدَّةُ الشَّهْرِ ثَلَاثِينَ يَوْمًا، حديث رقم: ١٠٨٠

٣ - سورة الْجُمُعَةِ: الآية/ ٢

قَولُهُ تَعَالَى: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾. الآية/ ٧٩

لما كان اليهود – عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة – لا يتورعون عن ذنب ولا يمتنعون عن محرم، لما كان هذا شأنهم؛ حملهم ذلك على الكذب على الله تعالى، فكان عند اليهود من صور تحريف كلام الله تعالى ما لا يخطر على البال، ولا يدور بالخيال، كان لتحريف كلام الله تعالى عندهم عدة صور لم تجتمع لأحد من الناس غيرهم.

من ذلك أنهم كانوا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بالكلام تمويهًا وتلبيسًا على الناس، لِيَحْسَبَ الناس أن ما يتكلمون به مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ، قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾.[1]

ومن صور تحريفهم لكلام الله تعالى أنهم جعلوا التوراةَ صحفًا مفرقةً لا جامع يجمعها، يظهرون ما شاءوا منها ويخفون كثيرًا منها، قال الله تعالى:﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنزلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾.[2]

ومن صور تحريفهم لكلام الله تعالى الزيادة فيه والنقصان منه، قال الله تَعَالَى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾.[3]

قال مُقَاتِلُ بْنُ حَيَّانَ، قَوْلَهُ: ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ﴾، يَزِيدُونَ فِيهِ وَيَنْقُصُونَهُ.

ومن صور تحريفهم لكلام الله تعالى ما ذكره الله تعالى عنهم في هذه الآية أن يكتب أحدهم كلامًا بيده ثم ينسبه لله تعالى، ﴿يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾، ولا شك أن هذا أعظم ذنب يمكن أن يلقى العبد به ربه تعالى، وما فعلوا ذلك إلا لأن الكفر متجذر في قلوبهم، والعصيان متأصل في نفوسهم، ولا يصل أحد إلى مثل هذا الحال إلا وقد طبع الله تعالى على قلبه، وختم على سمعه وجعل على بصره غشاوة، فأنى له الهدى وأنى له النجاة.

---

١ – سورة آل عمران: الآية/ ٧٨

٢ – سورة الْأَنْعَامِ: الْآيَةَ/ ٩١

٣ – سورة الْمَائِدَةِ: الآية/ ١٣

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ﴾.

الْوَيْلُ: كَلِمَةٌ مَشْهُورَةٌ فِي اللُّغَةِ، ومعناها الْهَلَاكُ وَالدَّمَارُ، وقيل معناها شِدَّةُ الْعَذَابِ، وقيل: وَيْلٌ وَادٍ فِي جَهَنَّمَ لَوْ سُيِّرَتْ فِيهِ جِبَالُ الدُّنْيَا لَانْمَاعَتْ مِنْ شِدَّةِ حَرِّهِ.

فَوَيْلٌ لهؤلاء الذين لا يقدرون الله حق قدره، فيتعمدون الكذب عليه، يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثم ينسبون ذلك لله تعالى، وإنما قال الله تعالى: ﴿بِأَيْدِيهِمْ﴾ والكتابة لا تكون إلا بالأيدي، تَأْكِيدًا مَا يَقْتَضِيهِ ظَاهِرُ اللَّفْظِ، وَرَفْعًا لما يتوهم أنه من قبيل الْمَجَازِ.

ونظير ذلك قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾.[1]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾.[2]

﴿ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾.

أي هذا مما أنزله الله تعالى من التوراة، يَقُولُونَ ذلك للناس تلبيسًا عليهم، وسلبًا لأموالهم، وتحليلًا لما حرمه الله تعالى، وتحريمًا لما أحله الله تعالى.

﴿لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾.

وإنما وصف الله تعالى ما أخذوه بسبب تحريفهم لكتاب الله بكونه ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾؛ لِأَنَّ الْعَاقِلَ يَجِبُ أَنْ لَا يبيع آخرته بثمن مهما كان كثيرًا، وكل ثمن في مقابل الآخرة فهو قليل وحقير، فكيف إذا كان ما أخذوه قليل النَّفْعِ حَقِيرٌ لا قيمة له،وأخذهم على ذلك التحريف ثَمَنًا قَلِيلًا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُمْ مَا فَعَلُوا ذَلِكَ التَّحْرِيفَ دِيَانَةً، بَلْ إِنَّمَا فَعَلُوهُ طَلَبًا لِلْمَالِ وَالْجَاهِ.

وفي التعبير بقوله تعالى: ﴿لِيَشْتَرُوا﴾، بيان أنهم باعوا دينهم و لم يبق لهم منه شيء، فهم لا دين لهم ولا أمانة عندهم.

﴿فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾.

وتكرر الْوَعِيدُ بالويل لبيان أَنَّ الْكِتَابَةَ وَالتَّحْرِيفَ ذَنْبٌ عَظِيمٌ بِانْفِرَادِهِ، وأن أَخْذَهُمُ الْمَالَ عَلَيْهِ بعد ذلك، ذَنْبٌ عَظِيمٌ بِانْفِرَادِهِ كَذَلِكَ.

---

١ - سورة الْأَنْعَامِ: الْآيَةَ/ ٣٨

٢ - سورة آل عمران: الآية/ ١٦٧

وقوله تعالى: ﴿يَكْسِبُونَ﴾، فيه تهكم بهم فإن ما أخذوه على تحريفهم لكتاب الله تعالى من أعظم أسباب الخسران.

قَولُهُ تَعَالَى: ﴿وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾. الآية/ ٨٠

ومما افتراه الْيَهُودُ أيضًا على اللَّهِ تَعَالَى وَادَّعَوْهُ لِأَنْفُسِهِمْ، أَنَّهُمْ لَنْ تَمَسَّهُمُ النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً، ثُمَّ يَنْجُونَ مِنْهَا، وذلك لزعمهم الباطل أَنَّهُمْ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾.[1]

وقد لف النصارى لفهم وزعموا زعمهم، بل ذهبوا في افترائهم على الله تعالى أبعد من ذلك فزَعَمُوا أَنَّ الْجَنَّةَ قاصرةٌ عليهم وأنه لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ من اليهُودِ أَوْ النَصَارَى، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾.[2]

سَبَبُ نُزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ:

سَبَبُ نُزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ ما ورد عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: أَنَّ الْيَهُودَ كَانُوا يَقُولُونَ: هَذِهِ الدُّنْيَا سَبْعَةُ آلَافِ سَنَةٍ، وَإِنَّمَا نُعَذَّب بِكُلِّ أَلْفِ سَنَةٍ يَوْمًا فِي النَّارِ، وَإِنَّمَا هِيَ سَبْعَةُ أَيَّامٍ مَعْدُودَةٍ.

وقيل: أَنَّ الْيَهُودَ كَانُوا يَقُولُونَ: لَنْ يُعَذِّبَنَا اللَّهُ، وَإِنْ عَذَّبَنَا فَأَرْبَعِينَ يَوْمًا مِقْدَارَ أَيَّامِ الْعِجْلِ.

والعجيب أنهم يقرون مع ذلك بأن اللعنة تشملهم، وأن غضب الله تعالى يحيط بهم، فعَنْ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما أَنَّ زَيْدَ بْنَ عَمْرِو بْنِ نُفَيْلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ خَرَجَ إِلَى الشَّأْمِ يَسْأَلُ عَنِ الدِّينِ، وَيَتْبَعُهُ، فَلَقِيَ عَالِمًا مِنَ اليَهُودِ فَسَأَلَهُ عَنْ دِينِهِمْ، فَقَالَ: إِنِّي لَعَلِّي أَنْ أَدِينَ دِينَكُمْ، فَأَخْبِرْنِي، فَقَالَ: لاَ تَكُونُ عَلَى دِينِنَا حَتَّى تَأْخُذَ بِنَصِيبِكَ مِنْ غَضَبِ اللَّهِ، قَالَ زَيْدٌ مَا أَفِرُّ إِلَّا مِنْ غَضَبِ اللَّهِ، وَلاَ أَحْمِلُ مِنْ غَضَبِ اللَّهِ شَيْئًا أَبَدًا، وَأَنَّى أَسْتَطِيعُهُ فَهَلْ تَدُلُّنِي عَلَى غَيْرِهِ، قَالَ: مَا أَعْلَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ حَنِيفًا، قَالَ زَيْدٌ: وَمَا الحَنِيفُ؟ قَالَ: دِينُ إِبْرَاهِيمَ لَمْ يَكُنْ يَهُودِيًّا، وَلاَ نَصْرَانِيًّا، وَلاَ يَعْبُدُ إِلَّا اللَّهَ، فَخَرَجَ زَيْدٌ فَلَقِيَ عَالِمًا مِنَ النَّصَارَى فَذَكَرَ مِثْلَهُ، فَقَالَ: لَنْ تَكُونَ عَلَى دِينِنَا حَتَّى تَأْخُذَ بِنَصِيبِكَ مِنْ لَعْنَةِ اللَّهِ، قَالَ: مَا أَفِرُّ إِلَّا مِنْ لَعْنَةِ اللَّهِ، وَلاَ أَحْمِلُ مِنْ لَعْنَةِ اللَّهِ، وَلاَ مِنْ غَضَبِهِ شَيْئًا أَبَدًا، وَأَنَّى أَسْتَطِيعُ فَهَلْ تَدُلُّنِي عَلَى غَيْرِهِ، قَالَ: مَا أَعْلَمُهُ إِلَّا

---

١ - سورة الْمَائِدَةِ: الآية/ ١٨

٢ - سورة الْبَقَرَةَ: الآية/ ١١١

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

أَنْ يَكُونَ حَنِيفًا، قَالَ: وَمَا الحَنِيفُ؟ قَالَ: دِينُ إِبْرَاهِيمَ لَمْ يَكُنْ يَهُودِيًّا وَلاَ نَصْرَانِيًّا، وَلاَ يَعْبُدُ إِلَّا اللَّهَ، فَلَمَّا رَأَى زَيْدٌ قَوْلَهُمْ فِي إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ خَرَجَ، فَلَمَّا بَرَزَ رَفَعَ يَدَيْهِ فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَشْهَدُ أَنِّي عَلَى دِينِ إِبْرَاهِيمَ ".[1]

ولما كان ادعائهم أنهم أهل الجنة لأَنَّهُمْ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ، مع اقرارهم بأنهم ملعونون مغضوبٌ عليهم، لما كان ادعائهم أمرًا عجيبًا، كذَّبهم الله تعالى فِي افْتِرَائِهِمْ ذَلِكَ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ﴾.[2]

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: لَمَّا فُتِحَتْ خَيْبَرُ أُهْدِيَتْ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شَاةٌ فِيهَا سُمٌّ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اجْمَعُوا إِلَيَّ مَنْ كَانَ هَا هُنَا مِنْ يَهُودَ» فَجُمِعُوا لَهُ، فَقَالَ: «إِنِّي سَائِلُكُمْ عَنْ شَيْءٍ، فَهَلْ أَنْتُمْ صَادِقِيَّ عَنْهُ؟»، فَقَالُوا: نَعَمْ، قَالَ لَهُمُ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ أَبُوكُمْ؟»، قَالُوا: فُلاَنٌ، فَقَالَ: «كَذَبْتُمْ، بَلْ أَبُوكُمْ فُلاَنٌ»، قَالُوا: صَدَقْتَ، قَالَ: «فَهَلْ أَنْتُمْ صَادِقِيَّ عَنْ شَيْءٍ إِنْ سَأَلْتُ عَنْهُ؟»، فَقَالُوا: نَعَمْ يَا أَبَا القَاسِمِ، وَإِنْ كَذَبْنَا عَرَفْتَ كَذِبَنَا كَمَا عَرَفْتَهُ فِي أَبِينَا، فَقَالَ لَهُمْ: «مَنْ أَهْلُ النَّارِ؟»، قَالُوا: نَكُونُ فِيهَا يَسِيرًا، ثُمَّ تَخْلُفُونَا فِيهَا، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اخْسَئُوا فِيهَا، وَاللَّهِ لاَ نَخْلُفُكُمْ فِيهَا أَبَدًا»، ثُمَّ قَالَ: «هَلْ أَنْتُمْ صَادِقِيَّ عَنْ شَيْءٍ إِنْ سَأَلْتُكُمْ عَنْهُ؟»، فَقَالُوا: نَعَمْ يَا أَبَا القَاسِمِ، قَالَ: «هَلْ جَعَلْتُمْ فِي هَذِهِ الشَّاةِ سُمًّا؟»، قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: «مَا حَمَلَكُمْ عَلَى ذَلِكَ؟»، قَالُوا: أَرَدْنَا إِنْ كُنْتَ كَاذِبًا نَسْتَرِيحُ، وَإِنْ كُنْتَ نَبِيًّا لَمْ يَضُرَّكَ.[3]

﴿قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ﴾.

المقصود بالعَهْد هنا الأَمانُ، وَالتَّقْدِيرُ قُلْ لهم يا محمد: أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ أمانًا؟ فَإِنْ كَانَ الله قد أمنكم من العذاب، فَلَكُمُ الْعُذْرُ فِي قَوْلِكُمْ لِأَنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ عَهْدَهُ.

﴿أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

﴿أَمْ﴾، تأتي بمعنى بَلْ وتفيد الإضراب أَيْ: ليس كذلك بَلْ أنتم تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ كَذِبًا عَلَيْهِ وَافْتِرَاءً.

---

١ - رواه البخاري- كِتَابُ مَنَاقِبِ الأَنْصَارِ، بَابُ حَدِيثِ زَيْدِ بْنِ عَمْرِو بْنِ نُفَيْلٍ ، حديث رقم: ٣٨٢٧

٢ - سورة الْمَائِدَةِ: الآية/ ١٨

٣ - رواه البخاري- كِتَابُ الجِزْيَةِ، بَابُ إِذَا غَدَرَ المُشْرِكُونَ بِالْمُسْلِمِينَ، هَلْ يُعْفَى عَنْهُمْ، حديث رقم: ٣١٦٩

وقيل أَمْ على بابها للتخيير ويكون المعنى أَيُّ هَذَيْنِ وَاقِعٌ؟ أاتخاذكم الْعَهْدَ عِنْدَ اللَّهِ؟ أَمْ قَوْلُكُمْ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ؟ عَلَى سَبِيلِ التَّقْرِيرِ، وَإِنْ كَانَ قَدْ عُلِمَ وُقُوعَ أَحَدِهِمَا، وَهُوَ قَوْلُهُمْ: عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾.[1]

وَقَدْ عُلِمَ أَيُّهُمَا عَلَى هُدًى وَأَيُّهُمَا هُوَ فِي ضَلَالٍ.

قَولُهُ تَعَالَى: ﴿بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٨١) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾. الآية/ ٨١، ٨٢

﴿بَلَى﴾، حَرْفُ اسْتِدْرَاكٍ، وَمَعْنَاهُ نَفْيُ الْخَبَرِ الْمَاضِي وَإِثْبَاتُ الْخَبَرِ الْمُسْتَقْبَلِ.

لما قال اليهود: ﴿لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً﴾، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى لهم لَيْسَ الْأَمْر كَمَا تَمَنَّيْتُمْ وَلَا كَمَا تَشْتَهُونَ، بَلْ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَته، وَاتى يَوْم الْقِيَامَة وَلَيْسَ لَهُ حَسَنَةٌ بَلْ جَمِيع أَعْمَاله سَيِّئَات فَهُو مِنْ أَصْحَاب النَّار.

وقال ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: ﴿بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً﴾، «أَيْ مَنْ عَمِلَ بِمِثْلِ أَعْمَالِكُمْ، وَكَفَرَ بِمِثْلِ مَا كَفَرْتُمْ بِهِ».[2]

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾.

أَيْ: وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ ربًّا وَبمحمدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَسُولًا، وَعَمِلُوا مِنْ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ الْمُوَافِقَةِ لِلشَّرِيعَةِ، فهؤلاء هُمْ أَهْل الْجَنَّة المنعمون فيها المخلدون.

والكلام وإن كان في سياق الرد على مزاعم اليهود، إلا أنه يشمل اليهود وغيرهم، فإِنَّ الْعِبْرَةَ بِعُمُومِ اللَّفْظِ لَا بِخُصُوصِ السَّبَبِ.

كمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا * وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾.[3]

---

١ - سورة سَبَإٍ: الآية/ ٢٤

٢ - رواه ابن أبي حاتم (١/ ١٥٧)

٣ - سورة النِّسَاءِ: الآية/ ١٢٣، ١٢٤

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

فمن لقي الله تعالى مشركًا، فالجنة عليه حرام، مهما عمل من الطاعات، فَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ مَاتَ يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا دَخَلَ النَّارَ» وَقُلْتُ أَنَا: «مَنْ مَاتَ لاَ يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا دَخَلَ الجَنَّةَ».[1]

ومن رجحت سيئآته على حسناته كان من أهل النار كذلك، قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلا يَتَسَاءَلُونَ * فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ * تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ﴾.[2]

وإن كنا نعتقد أن المؤمن الموحد لا يخلد في النار، مهما عمل من الذنوب والمعاصي.

وبهذا يُفَسَّرُ حديثُ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أنه مهما ارتكب المؤمن من الذنوب والمعاصي إذا مات موحدًا لم يشرك بالله شيئًا، فلا يخلد في النار إن دخله، ومصيره بعد ذلك إلى الجنة، وقد يعفو الله تعالى عنه ابتداءً فلا يدخل النار فعَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَتَانِي آتٍ مِنْ رَبِّي، فَأَخْبَرَنِي – أَوْ قَالَ: بَشَّرَنِي – أَنَّهُ: مَنْ مَاتَ مِنْ أُمَّتِي لاَ يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا دَخَلَ الجَنَّةَ» قُلْتُ: وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ؟ قَالَ: «وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ».[3]

وبهذا يتبين لنا أن مذهب أهل السنة والجماعة في ذلك وسطٌ بين الخوارج الذين يحكمون على مرتكب الكبيرة بالكفر، ويوجبون له الخلود في النار، والمرجئة الذين يزعمون أن المعصية لا أثر لها في الإيمان، فلا يزيد الإيمان عندهم بالطاعة، ولا ينقص بالمعصية.

والإيمانُ عند أهل السنة يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية ويتفاضل أهله فيه.

---

١ – رواه البخاري– كِتَابُ الجَنَائِزِ، بَابُ مَا جَاءَ فِي الجَنَائِزِ، وَمَنْ كَانَ آخِرُ كَلاَمِهِ: لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، حديث رقم: ١٢٣٨، ومسلم– كِتَابُ الْإِيمَانَ، بَابُ مَنْ مَاتَ لَا يُشْرِكُ بِاللهِ شَيْئًا دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ مَاتَ مُشْرِكًا دَخَلَ النَّارَ، حديث رقم: ٩٢

٢ – سورة الْمُؤْمِنُونَ: الآية/ ١٠١: ١٠٤

٣ – رواه البخاري– كِتَابُ الجَنَائِزِ، بَابُ مَا جَاءَ فِي الجَنَائِزِ، وَمَنْ كَانَ آخِرُ كَلاَمِهِ: لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، حديث رقم: ١٢٣٧، ومسلم– كِتَابُ الْإِيمَانَ، بَابُ مَنْ مَاتَ لَا يُشْرِكُ بِاللهِ شَيْئًا دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ مَاتَ مُشْرِكًا دَخَلَ النَّارَ، حديث رقم: ٩٤

قال صاحب سلم الوصول رحمه الله:[1]

إِيمَانُنَـــــا يَزِيـــــدُ بِالطَّاعَـــــاتِ ***** وَنَقْصُـــــهُ يَكُـــــونُ بِالزَّلَّـــــاتِ

وَأَهْلُـــــهُ فِيـــــهِ عَلَـــــى تَفَاضُـــــلِ ***** هَلْ أَنْـــتَ كَالْأَمْلَـــاكِ أَوْ كَالرُّسُـــلِ

وَالْفَاسِـــقُ الْمِلِّـــيُّ ذُو الْعِصْـــيَانِ ***** لَـــمْ يُنْـــفَ عَنْـــهُ مُطْلَـــقُ الْإِيمَـــانِ

لَكِـــنْ بِقَـــدْرِ الْفِسْـــقِ وَالْمَعَاصِـــي ***** إِيمَانُـــهُ مَـــا زَالَ فِـــي انْتِقَـــاصِ

وَلَـــا نَقُـــولُ إِنَّـــهُ فِـــي النَّـــارِ ***** مُخَلَّـــدٌ، بَـــلْ أَمْـــرُهُ للبـــاري

تحـــت مشـــيئة الْإِلَـــهِ النَّافِـــذَهْ ***** إِنْ شَا عَفَا عَنْـــهُ وَإِنْ شَـــا آخَـــذَهْ

بِقَـــدْرِ ذَنْبِـــهِ، وَإِلَـــى الْجِنَـــانِ ***** يُخْـــرَجُ إِنْ مَـــاتَ عَلَـــى الْإِيمَـــانِ

---

١ - معارج القبول بشرح سلم الوصول (١/ ٤١)

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

قَولُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ﴾. الآية/ ٨٣

في هذه الآيات عودة إلى ذكر النعم التي أنعم الله تعالى بها على بني إسرائيل وكيف قابل بَنو إِسْرَائِيلَ نعم الله تعالى عليهم، يقول تعالى مذكرًا لبَنِي إِسْرَائِيلَ اذكروا إِذْ أَخَذْنَا عليكم الْعَهْدَ الشَّدِيدَ المؤكدَ فِي التَّوْرَاةِ بجوب إفراد الله تعالى بالعبادة وإخلاص العمل له سبحانه، وليس هذا هو الْمِيثَاقُ الَّذِي أُخِذَ عَلَى بَنِي آدَمَ حِينَ أُخْرِجُوا مِنْ صُلْبِ آدَمَ كَالذَّرِّ لأنه لا يكون لتخصيص بَنِي إِسْرَائِيلَ بالذكر فائدة، ولكنه كالميثاق الذي أخذه الله تعالى عليه لما رفع الطور عليهم كما قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.[1]

﴿لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ﴾.

إخبارٌ في معنى النهى، والتعبير عن الأمر بصيغة الخبر كثير في القرآن ومنه قول اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾.[2]

وقوله تعالى: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾.[3]

وقوله تعالى: ﴿لا تُضَارَّ والِدَةٌ بِوَلَدِها وَلا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ﴾.[4]

وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾.[5]

والتعبير عن الأمر بصيغة الخبر أبلغ من صريح الأمر والنهى؛ وفي هذه الآية ورد الأمر بصيغة الخبر إشارة إلى أن الاستجابة لعبادة الله تعالى أمر فطري طبيعي.

وَأَمَرُ اللَّهِ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا هُوَ حَقُّ اللَّهِ تَعَالَى على جَمِيعِ خَلْقِهِ، قَالَ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولا أَنِ اُعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾.[1]

---

١ - سورة البقرة: الآية/ ٦٣

٢ - سورة البقرة: الآية/ ٢٢٨

٣ - سورة البقرة: الآية/ ٢٣٣

٤ - سورة البقرة: الآية/ ٢٣٣

٥ - سورة الأنفال: الآية/ ٦٦

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾.[٢]

وَهُوَ أَعْلَى الْحُقُوقِ وَأَعْظَمُهَا، ثُمَّ ذكر الله تعالى بَعْدَ الأمر بعبادته حُقُوقَ الْمَخْلُوقِينَ، وَآكَدُحقوق الْمَخْلُوقِينَ بعد حَقِّ الله تعالى حَقُّ الْوَالِدَيْنِ.

عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: كُنْتُ رِدْفَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَيْسَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ إِلَّا مُؤْخِرَةُ الرَّحْلِ، فَقَالَ: «يَا مُعَاذُ بْنَ جَبَلٍ»، قُلْتُ: لَبَّيْكَ رَسُولَ اللهِ، وَسَعْدَيْكَ، ثُمَّ سَارَ سَاعَةً، ثُمَّ قَالَ: «يَا مُعَاذُ بْنَ جَبَلٍ» قُلْتُ: لَبَّيْكَ رَسُولَ اللهِ وَسَعْدَيْكَ، ثُمَّ سَارَ سَاعَةً، ثُمَّ قَالَ: «يَا مُعَاذُ بْنَ جَبَلٍ» قُلْتُ: لَبَّيْكَ رَسُولَ اللهِ وَسَعْدَيْكَ، قَالَ: «هَلْ تَدْرِي مَا حَقُّ اللهِ عَلَى الْعِبَادِ؟» قَالَ: قُلْتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «فَإِنَّ حَقَّ اللهِ عَلَى الْعِبَادِ أَنْ يَعْبُدُوهُ، وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا»، ثُمَّ سَارَ سَاعَةً، ثُمَّ قَالَ: «يَا مُعَاذَ بْنَ جَبَلٍ» قُلْتُ: لَبَّيْكَ رَسُولَ اللهِ، وَسَعْدَيْكَ، قَالَ: «هَلْ تَدْرِي مَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللهِ إِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ؟» قَالَ: قُلْتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «أَنْ لَا يُعَذِّبَهُمْ».[٣]

﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾.

وَوَصَّيْنَاكُمْ بِالْوَالِدَيْنِ، أن تحسنوا إليهم غاية الإحْسانِ، وأن تبروهما غاية البِرِّ، رحمة بِهِمَا وَعَطْفًا عَلَيْهِمَا، وَنُزُولًا عِنْدَ أَمْرِهِمَا فِيمَا لَا يُخَالِفُ أَمْرَ اللَّهِ تَعَالَى.

وقدم الجارُ وَالْمَجْرُورَ وهو: ﴿بِالْوَالِدَيْنِ﴾، عَلَى الْمَصْدَرِ وهو: ﴿إِحْسَانًا﴾. لتَّأْكِيدِ الإحْسانِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿إِحْسَاناً﴾. مَصْدَرٌ لِفِعْلٍ مَحْذُوفٍ، تقديره: أَحْسِنُوا، أَيْ: أَحْسِنُوا بِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا.

وعُدِّي الفعلُ (أَحْسِنْ) بـــ (بالباء) لتضمنه معنى الرفق، واللطف.

وَقَدْ دَلَّ ذِكْرُ الْإِحْسَانِ إِلَى الْوَالِدَيْنِ بَعْدَ الْأَمْرِ بِعِبَادَةِ اللَّهِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْإِشْرَاكِ بِهِ عَلَى عِظَمِ حَقِّهِمَا، وَقرن الله تعالى بين الأمر بعبادته وبِرِّ الْوَالِدَيْنِ، في غير ما آية كما قَالَ تَعَالَى: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾.[٤]

وَكَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلا تَعْبُدُوا إِلا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾.[١]

---

١ - سورة النَّحْلِ: الآية/ ٣٦

٢ - سورة الْأَنْبِيَاءِ: الآية/ ٢٥

٣ - رواه البخاري- كِتَابُ الجِهَادِ وَالسِّيَرِ، بَابُ اسْمِ الفَرَسِ وَالحِمَارِ، حديث رقم: ٢٨٥٦، ومسلم- كِتَابُ الْإِيمَانِ، بَابُ مَنْ لَقِيَ اللهَ بِالْإِيمَانِ وَهُوَ غَيْرُ شَاكٍّ فِيهِ دَخَلَ الْجَنَّةَ وَحُرِّمَ عَلَى النَّارِ، وَمَنْ مَاتَ مُشْرِكًا دَخَلَ النَّارَ، حديث رقم: ٣٠

٤ - سورة النِّسَاءِ: الآية/ ٣٦

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وَكَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾.[٢]

وَالْإِحْسَانُ إِلَى الْوَالِدَيْنِ: مُعَاشَرَتُهُمَا بِالْمَعْرُوفِ، وَالتَّوَاضُعُ لَهُمَا، وَامْتِثَالُ أَمْرِهِمَا، وَالدُّعَاءُ بِالْمَغْفِرَةِ بَعْدَ مَمَاتِهِمَا، وَصِلَةُ الرحمِ التي لا توصل إلا من طريقهما، وَصِلَةُ أَهْلِ وُدِّهِمَا.

﴿وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ﴾.

وَوَصَّيْنَاكُمْ أن تحسنوا إلى ذوي الْقُرْبى، أَيْ: أصحاب الْقَرَابَةِ، وإلى الْيَتامى، وَالْيَتامى جَمْعُ يَتِيمٍ وَهُوَ الطِّفْلُ الَّذِي لَا أَبَ لَهُ، وإلى الْمَساكِينِ، وَالْمَساكِينِ جَمْعُ مِسْكِينٍ، وهُوَ الَّذِي لَا يَفِي دَخْلُهُ بحاجته، وقيل له مِسْكِينٌ؛ لأن الفقرَ أَسْكَنه أَي قَلَّلَ حركته.

﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾.

أي: قُولُوا لِلنَّاسِ كلامًا طيبًا لينًا، لا فحش فيه ولا جفاء، ومنه الْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِوعَنِ الْحَسَنِ أنه قال: «فَالْحُسْنُ مِنَ الْقَوْلِ تَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ، وَتَحْلُمُ وَتَعْفُو وَتَصْفَحُ، وَتَقُولُ لِلنَّاسِ حُسْنًا كَمَا قَالَ اللَّهُ، وَهُوَ كُلُّ خُلُقٍ حَسَنٍ رَضِيَهُ اللَّهُ».[٣]

وَلَمَّا كَانَ الْقَوْلُ سَهْلًا لأنه بذلٌ للَفْظِ، لَا للمَالِ، وهو لَا ضَرَرَ عَلَى الْإِنْسَانِ فِيه جعله الله للنَّاسِ عامة إِذْ لَا ضَرَرَ عَلَى الْإِنْسَانِ فِي الْإِحْسَانِ إِلَى النَّاسِ بِالْقَوْلِ الطَّيِّبِ.

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾.

هذا من باب عطف الخاص على العام، فإن الأمر بعبادة الله تعالى عام يدخل فيه الأمر بالصلاة والزكاة، وما مضى ذكره من العبادات، وذكرُ الصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ تنبيهًا على عظم شأنهما.

﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ﴾.

ثم تَوَلَّى أكثركم عَمَّا أُخِذَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْمِيثَاقِ، و لم يُوَفَّ به إلا الْقَلِيلُ منكم، وأن سبب التولي ليس العجز عن امتثال الأمر، ولا الضعف عن تنفيذه، وإنما الإعراض والكبر عن طاعة الله تعالى.

---

١ - سورة الْإِسْرَاءِ: الآية/ ٢٣

٢ - سورة لُقْمَانَ: الآية/ ١٤

٣ - رواه ابن أبي حاتم في تفسيره (١/ ١٦٢)

وفي الآية من الأساليب البلاغية التضمين في قوله تعالى: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾. فإن الأصل أن يتعدي الفعل: (أَحْسِنْ)، بإلى كما في قوله تعالى: ﴿وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾.[1]

وإنما عدي الفعل: (أَحْسِنْ) من اللفظ المقدر (وَأَحْسِنُوا) بـــ (بالباء)؛ لتضمنه معنى الرفق، واللطف، فيكون المعنى: وَأَحْسِنُوا لِلْوَالِدَيْنِ وارْفِقُوا وتلطفوا بِهِمَا.

١ - سورة القصص: الآية/ ٧٧

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

قَولُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ (٨٤) ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾. الآية/ ٨٤، ٨٥

يخبر الله تعالى أنه أَخَذَ المِيثَاقَ على بَنِي إِسْرَائِيلَ أَلَا يَقْتُل بَعْضُهُمْ بَعْضًا، وَلَا يُخْرِجُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا مِنْ دِيَارِهِمْ، ومع إقرارهم بهذا الميثاق، وشهادتهم بصحته نقضوا عهدَ الله تعالى إليهم، ونبذوه ورائهم ظهريًا، وسفكوا الدماء وأخرجوا فَرِيقًا مِنْهُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ، ووالى بعضهم الوثنيين وناصروهم على أهل ملتهم، حيث كان الْيَهُودُ يعيشون فِي الْمَدِينَةِ فِي زَمَانِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَكَانُوا ثلاث قَبَائِلَ: بَنُو قَيْنُقَاعَ، وَبَنُو النَّضِيرِ، وَبَنُو قُرَيْظَةَ، وَكَانَ بَنُو قَيْنُقَاعَ، وَبَنُو النَّضِيرِ حُلَفَاءَ لِلْخَزْرَجِ، وَكَانَ بَنُو قُرَيْظَةَ حُلَفَاءَ لِلْأَوْسِ، وَكَانَتْ بَيْنَ الْأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ حُرُوبٌ كَثِيرَةٌ، وَكَانَتِ الْحَرْبُ إِذَا نَشِبَتْ بَيْنَ الْأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ قَاتَلَ كُلُّ فَرِيقٍ من الْيَهُودِ مَعَ حُلَفَائِهِ، وَكَانَ الْأَوْسُ وَالْخَزْرَجُ، وَهُمُ الذين صهرهم الإسلامُ بعد ذلك في بوتقةِ واحدةٍ وسموا الْأَنْصَار، كَانُوا فِي الْجَاهِلِيَّةِ عُبَّاد أَصْنَامٍ، وَكَانَتْ بَيْنَهُمْ حُرُوبٌ كَثِيرَةٌ فَكَانَ الْيَهُودِيُّ يَقْتُلُ الْيَهُودِيَّ مَعَ مَنْ يَقْتُلُ مِنْ أَعْدَاءِهِ.

﴿وَلا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ﴾.

كَانُوا يُخْرِجُونَ إخوانهم الذين تحالفوا مع أحد الفريقين ضدهم مِنْ بُيُوتِهِمْ وَيَنْهَبُونَ مَا فِيهَا مِنَ الْأَثَاثِ وَالْأَمْتِعَةِ وَالْأَمْوَالِ، ثُمَّ إِذَا وَضَعَتِ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا قاموا بفداءِ الْأَسَارَى مِنَ الْفَرِيقِ الْمَغْلُوبِ، عَمَلًا بِحُكْمِ التَّوْرَاةِ.

﴿ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾.

أَيْ: ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ بِمَعْرِفَةِ هَذَا الْمِيثَاقِ وَصِحَّتِهِ وَتَشْهَدُونَ بِهِ، وتعلمون حكمَ اللهِ تعالى في جزاءِ نقضِ هَذَا الْمِيثَاقِ.

﴿ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ﴾.

ثُمَّ أَنْتُمْ هؤُلاءِ، الذين نقضوا الْمِيثَاقَ وخانوا العهد، وَلَيْسُوا قَوْمًا آخَرِينَ، وَقَدْ علمتم أن الله تعالى حَرَّمَ عَلَيْكِمْ فِي التَّوْرَاةِ سَفْكَ دِمَاء إخوانكم، فمَعْنَاهُ لَا يَسْفِكُ بَعْضُكُمْ دِمَاءَ بَعْضٍ، وقد فعلتم ذلك عندما صار كُلُّ وَاحِدٍ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ يُظَاهِرُ حُلَفَاءَهُ عَلَى إِخْوَانِهِ.

﴿وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ﴾.

ومن غريب أمرهم وعجيب شأنهم، أنهم كَانُوا يَقْتَتِلُونَ فَكَانَ كُلُّ فَرِيقٍ يُقَاتِلُ مَعَ حُلَفَائِهِ، وَإِذَا غَلَبُوا خَرَّبُوا دِيَارَهُمْ وَأَخْرَجُوهُمْ، وَإِذَا أُسِرَ رَجُلٌ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ، جَمَعُوا لَهُ حَتَّى يَفْدُوهُ، فَعَيَّرَتْهُمُ الْعَرَبُ وَقَالَتْ:كَيْفَ تُقَاتِلُونَهُمْ ثُمَّ تَفْدُونَهُمْ؟ فَيَقُولُونَ: أُمِرْنَا أَنْ نَفْدِيَهُمْ، وَحُرِّمَ عَلَيْنَا قِتَالُهُمْ، وَلَكِنَّا نَسْتَحِي أَنْ نُذِلَّ حُلَفَاءَنَا، ولا شك أن هذا تناقض عجيب، وتنافر غريب.

﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾.

هَذَا سُؤالٌ مَعْنَاهُ التَّوْبِيخُ وَالْإِنْكَارُ، والله تعالى لَمْ يَذُمَّهُمْ عَلَى الْفِدَاءِ، بَلْ عَلَى الْتَنَاقَضِ، الذي وقعوا فيه حين أَتَوْا بِبَعْضِ الْوَاجِبِ، وَتَرَكُوا بَعْضًا، لذلك قال الله تعالى لنا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِيالسِّلْمِ كَافَّةً﴾.[1]

قَالَ مُجَاهِدٌ: أَيِ اعْمَلُوا بِجَمِيعِ الْأَعْمَالِ وَوُجُوهِ الْبِرِّ.

فلا يجوز للمسلم أن ينتقي من دين الله ما يوافق هواه فيعمل به، ومالا يوافقه فيتركه.

﴿فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

ما جَزاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذلِكَ الفعل مِنْكُمْ إِلَّا الْخِزْيُ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَالْخِزْيُ هُنَا الْفَضِيحَةُ، والذلُ، وَالْعُقُوبَةُ، وقد حدث ذلك فضُرْبَت عليهم الْجِزْيَةُ، وَقُتِلُ بنو قُرَيْظَةَ، وَأُجْلِى بنو النَّضِيرِ مِنْ مَنَازِلِهِمْ، وشردوا في الأرض، ومزقوا كل ممزق، ثم جمعهم الله تعالى في زماننا ليقضي الله أمرًا كان مفعولًا.

---

١ - سورة البقرة: الآية/ ٢٠٨

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

مع ما ينتظرهم يَوْمَ الْقِيَامَةِ من أَشَدِّ الْعَذَابِ وهو الْخُلُودُ فِي النَّارِ، فإن الله تعالى لا يُخَادَعُ، ولا تخفى عليه خافية، ويمهل ولكنه لا يهمل.

وفي الآية من الأساليب البلاغية: الالتِفَاتُ مِنْ ضَمِيرِ الْخِطَابِ إِلَى ضَمِيرِ الْغَيْبَةِ في قوله: ﴿مِنْكُمْ﴾، وقوله: ﴿يُرَدُّونَ﴾.

وَالتِفَاتُ آخرُ مِنْ الْغَيْبَةِ إِلَى الْخِطَابِ في قوله: ﴿يُرَدُّونَ﴾، وقوله: ﴿تَعْمَلُونَ﴾.

قَولُهُ تَعَالَى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ فَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾. الآية/ ٨٦

يبين اللَّهُ تَعَالَى حَالَ أُولَئِكَ الَّذِينَ أَخْبَرَ عَنْهُمْ من اليهود أَنَّهُمْ يُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ فَيُفَادُونَ أَسْرَاهُمْ مِنَ الْيَهُودِ، وَيَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ، فَيَقْتُلُونَ مَنْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَتْلَهُ مِنْ أَهْلِ مِلَّتِهِمْ، وَيُخْرِجُونَ مَنْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ إِخْرَاجَهُ مِنْ دَارِهِ، فنَقْضوا بذلك عَهْدَ اللَّهِ وَمِيثَاقَهُ الذي أخذه عَلَيْهِمْ فِي التَّوْرَاةِ.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ﴾.

وَأَنَّ هَؤُلَاءِ ما فعلوا ذلك إلا لأنه آثروا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا على الْآخِرَةِ، وارتضوا منها بعرض زائل، باعوا لأجله آخرتهم.

وَإِنَّمَا وَصَفَهُمُ اللَّهُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ بِأَنَّهُمُ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ لِأَنَّهُمْ رَضُوا بِالدُّنْيَا بِكُفْرِهِمْ بِاللَّهِ فِيهَا عِوَضًا مِنْ نَعِيمِ الْآخِرَةِ الَّذِي أَعَدَّهُ اللَّهُ لِلْمُؤْمِنِينَ، فَجَعَلَ حُظُوظَهُمْ مِنْ نَعِيمِ الْآخِرَةِ بِكُفْرِهِمْ بِاللَّهِ ثَمَنًا لِمَا ابْتَاعُوهُ بِهِ مِنْ خَسِيسِ الدُّنْيَا.

ولا ينفك حال الناس في الدنيا من أحد صنفين، إما أن يؤثر رضى الله تعالى، ويترك الدنيا بأسرها لو تعارضت مع رضى الله تعالى، أو يرضى بالدنيا ويسعى لتحصيلها معرضًا عن كل ما يحول بينه وبينها، وقد أشارَ إلى هَذَا النَبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فعَنْ أَبِي مَالِكٍ الْأَشْعَرِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الطُّهُورُ شَطْرُ الْإِيمَانِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَأُ الْمِيزَانَ، وَسُبْحَانَ اللهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَآنِ – أَوْ تَمْلَأُ

– مَا بَيْنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَالصَّلَاةُ نُورٌ، وَالصَّدَقَةُ بُرْهَانٌ وَالصَّبْرُ ضِيَاءٌ، وَالْقُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ، كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو فَبَايِعٌ نَفْسَهُ فَمُعْتِقُهَا أَوْ مُوبِقُهَا».[1]

فالعبد إما أن يبيع نفسه لله تعالى، فيمتثل أمره ويجتنب نهيه، وهذا الذي يعتق نفسه من سخط الله تعالى، ومن عذابه، وإما أن يكون عبدا للدنيا، وللشيطان، وللهوى، وهذا أوبق نفسه وأهلكها، ومع ذلك فإنه لا يأتيه من الدنيا إلا ما كتبه الله تعالى له وقدره من الرزق.

﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾.

وَأُولَئِكَ الَّذِينَ بَاعُوا حُظُوظَهُمْ مِنْ نَعِيمِ الْآخِرَةِ بِتَرْكِهِمْ طَاعَةَ الله تعالى، وَإِيثَارِهِمُ الْكُفْرَ بِهِ تعالى وتفضيلهم العرضَ الزائلَ مِنَ الدُّنْيَا عَلَي النعيم الباقي في الْآخِرَةِ، وَأُولَئِكَ لَا حَظَّ لَهُمْ فِي نَعِيمِ الْآخِرَةِ، وَإِنَّما الَّذِي لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هو الْعَذَابُ الدائمُ الذي لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ولا ينقطعُ؛ لِأَنَّ الَّذِي يُخَفَّفُ عَنْهُ فِيهَا مِنَ الْعَذَابِ هُوَ الَّذِي لَهُ حَظٌّ فِي نَعِيمِهَا، وَهَؤُلَاءِ لَا حَظَّ لَهُمْ فِي نَعِيمِ الْآخِرَةِ لأنهم باعوا آخِرَتَهُمْ بِدُنْيَاهم، ومن كان كذلك فلا يُجِيرُهُ مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ يَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا، وَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ يمتنع بها من عذاب الله وَلاَ نَاصِرٍ يعصمه من سخط الله.

١ – رواه مسلم– كِتَابِ الطَّهَارَةِ، بَابُ فَضْلِ الْوُضُوءِ، حديث رقم: ٢٢٣

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

قَولُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾. الآية/ ٨٧

مازال الحديث عن عِنَادِ بَنِي إِسْرَائِيلَ الذي جاوز كل حد، وعن كفرهم الذي ليس له حدٌ، فلم يوقروا لله تعالى كلاما، و لم يراعوا لرسول من الرسل حرمة، و لم يعتبروا من البينات على كثرتها ووضوحها بآية، فلم يسلم منهم رسول بل كذبوا رسل الله تعالى وقتلوا فريقا منهم.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾.

أخبرَ اللهُ تَعَالَى أَنَّهُ آتَى مُوسَى الْكِتَابَ وَهُوَ التَّوْرَاةُ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ فَحَرَّفُوهَا، وَخَالَفُوا أَوَامِرَهَا وجعلوها صحفًا مفرقة يخفون كثيرًا منها،فا انتفعوا بما فيها من موعظة، ولا ارتدعوا بما فيها من زجر.

﴿وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ﴾.

وَأَرْسَلَ اللهُ عز وجل مِنْ بَعْدِ مُوسَى عليه السلام، رسلًا وأنبياءهم من بني إسرائيل، وَيَحْكُمُونَ بِشَرِيعَةِ التَّوْرَاةِ.

﴿وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾.

وآخر من أرسله الله تعالى من الرسل من بنى إسرائيل عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ، وَآتاه الله تعالى من الآيات الْبَيِّنَاتِما جعله الله تعالى دليلًا على صدق دعوته، مما يعجز عن مثلها البشر، فكان يَخْلُقُ لَهُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَيَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ وَيُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا يَأْكُلُونَ وَمَا يَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِهُمْ.

﴿وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾.

وَأَيَّدَهُ اللهُ تعالى بِرُوحِ الْقُدُسِ، وَهُوَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ ليكون دليلًا يَدُلُّهُمْ عَلَى صِدْقِهِ فِيمَا جَاءَهُمْ بِهِ.

كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾.[1]

١ - سورة الْمَائِدَةِ: الْآيَةَ/ ١١٠

وَجبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ هو أمين الله تعالى على وحيه إلى الأنبياء والرسل جميعًا عليهم السلام، كَمَا قَالَ تَعَالَى:﴿نزلَ بِهِ الرُّوحُ الأمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ﴾.[1]

﴿أَفَكُلَّمَا جاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾.

ولما كان بَنُو إِسْرَائِيلَ قد جبلوا على العنادِ والكبرِ والحسدِ والمخالفةِ، حملهم ذلك على تكذيب أنبيائهم، وعاملوهم أَسْوَأَ مُعَامَلَةٍ، فَفَرِيقًا يُكَذِّبُونَهُ مِنْهُم، وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَهُ، وَمَا ذَاكَ إِلَّا كبرًا عن الإنقياد لأمر الله تعالى، واستنكافًا عن طاعة الرسل عليهم السلام، وحَسَدًا لهم كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾.[2]

فلم يسلم نبيٌّ من الأنبياءِ ولا رسولٌ من الرسلِ من أذاهم.

ومن فساد اعتقادهم، وضلال عقولهم أنهم كانوا يعلنون ذلك بلا استحياء ولا مواربة، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا * وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ﴾.[3]

وَكَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾.[4]

---

١ – سورة الشُّعَرَاءِ: الآية/ ١٩٣، ١٩٤

٢ – سورة النِّسَاءِ: الآية/ ٥٤

٣ – سورة النِّسَاءِ: الآية/ ١٥٦، ١٥٧

٤ – سورة البقرة: الآية/ ٦١

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

قَولُهُ تَعَالَى: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَا يُؤْمِنُونَ﴾. الآية/ ٨٨

الضَّمِيرُ فِي: ﴿قَالُوا﴾ عَائِدٌ عَلَى الْيَهُودِ، الَّذِينَ كَانُوا بِحَضْرَةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالُوا ذَلِكَ صلفًا وعنادًا، وَدَفْعًا للحَقِّ لَمَّا قَامَتْ عَلَيْهِمُ الْحُجَجُ، وَظَهَرَتْ لَهُمُ الْبَيِّنَاتُ، وَأَعْجَزَتْهُمْ الْمُعْجِزَاتُ. نَزَلُوا عَنْ رُتْبَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ إِلَى رُتْبَةِ الْبَهِيمِيَّةِ، بقولهم: ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾، وبقولهم هذا تتجلى لنا صورة أخرى من صور عناد اليهود وصلفهم، وفساد عقولهم، وسوء تدبيرهم.

﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾.

غُلْفُ جَمْعُ أَغْلَفَ، وَالْأَغْلَفُ هُوَ مَا كان فِي غِلَافٍ يحيط به، ومعنى كونها غُلْفٌ أَيْ مُغَشَّاةٌ بِأَغْطِيَةٍ مَانِعَةٍ مِنْ وُصُولِ الحق والموعظة إِلَيْهَا وهذا من أعظم أسباب سخط الله تعالى عليهم كما قال الله تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلا يُؤْمِنُونَ إِلا قَلِيلا﴾.[1]

وإنما قال اليهود ذلك قطعًا لرجاء المؤمنين في إيمانهم، وحكمًا منهم على أنفسهم بأنهم أبعد الناس عن الهدى، وألزم الناس للضلال والغي، وقد تشبهوا في ذلك بالوثنيين الْمُشْرِكِينَ الذين حكى الله تعالى عنادهم وإعراضهم بقوله: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ﴾.[2]

وإنما قصدوا أن قلوبهم لَا تَصِلُ إِلَيْهَا الْمَوْعِظَةُ، وإن كان في قولهم هذا ذمًا منهم لأنفسهم، كما يقول المعاند الذي لا يريد السماع لمن يخاطبه أنا لا أسمع، قطعًا لطمعه في أن يجيبه.

﴿بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ﴾.

بَلْ: تفيد الإِضْرَاب، فإِنَّ قُلُوبَهُمْ لَمْ تُخْلَقْ مُغَلَفةً،بَلْ خُلِقَتْ مُتَمَكِّنَةً مِنْ قَبُولِ الْحَقِّ، مَفْطُورَةً لِإِدْرَاكِ الصَّوَابِ، فلما أعرضوا عن أمر الله، و لم يقبلوا هدى الله الذي جاء به رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ، فصاروا كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ، وطردهم الله تعالى من رحمته جزاء كفرهم، فإن اللعن هو الطرد من رحمة الله.

---

١ - سورة النِّسَاء: الآية/ ١٥٥

٢ - سورة فُصِّلَتْ: الآية/ ٥

﴿فَقَلِيلًا مَا يُؤْمِنُونَ﴾.

أي قَلِيلٌ مِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ، وقيل لَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا بِقَلِيلٍ مِمَّا كُلِّفُوا بِهِ، كما قال تعالى: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾.[1]

وقيل: مَعْنَاهُ لَا يُؤْمِنُونَ أَصْلًا لَا قَلِيلًا وَلَا كَثِيرًا.

قَولُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾. الآية/ ٨٩

يخبر اللَّهُ تَعَالَى أنه لما بَعَثَ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأنزل عليه القرآن فيه نبأ السابقين، وخبر الغابرين، مما يصدق ما هو موجود عند أهل الكتاب من اليهود والنصاري، وفيه التوحيد الخالص لله تعالى، والإيمان بالرسل السابقين والملائكة المقربين، والجنة والنار والبعث والجزاء، مما لا ينكره أهل الكتاب ويعرفه، كل من مت للإيمان بصلة، بادر اليهود بالتكذيب، ونفروا من الإيمان به نفورَ حُمُرِ الوحشِ، فكانوا أولَ كافرٍ به، وأشدَ معارضٍ له، وهذا من أمارات الخذلان للْيَهُودِ، ومن فضائحهم التي هتك الله تعالى بها سترهم، وكشف عوارهم، وأنهم ليسوا على شيء من الدين، ولا حَظَّ لهم من الإيمان، فقد كَانَ الْيَهُودُ يَسْتَنْصِرُونَ بِخُرُوجِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى مُشْرِكِي الْعَرَبِ فَلَمَّا بُعِثَ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَرَأَوْهُ مِنْ غَيْرِهِمْ كَفَرُوا بِهِ وَحَسَدُوهُ.

﴿وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾.

وَكانوا يدعون الله تعالى بذلك، قَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ: كَانَتِ الْيَهُودُ تَسْتَنْصِرُ بِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى مُشْرِكِي الْعَرَبِ، يَقُولُونَ: اللَّهُمَّ ابْعَثْ هَذَا النَّبِيَّ الذِي نَجِدُهُ مَكْتُوبًا عِنْدَنَا حَتَّى نُعَذِّبَ الْمُشْرِكِينَ وَنَقْتُلُهُمْ. فَلَمَّا بَعَثَ اللَّهُ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَرَأَوْا أَنَّهُ مِنْ غَيْرِهِمْ، كَفَرُوا بِهِ حَسَدًا لِلْعَرَبِ.

---

١ - سورة الْبَقَرَةِ: الآية/ ٨٥

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

﴿مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ﴾.

وهذا شأن كتب الله تعالى المترلة على أنبيائه ورسله عليهم الصلاة والسلام، يصدق بعضها بعضًا، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى بَعْدَ ذِكْرِ التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ: ﴿وَأَنزلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾.[1]

وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾.[2]

وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ * قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ﴾.[3]

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ﴾.

عَرَفُوا القرآن أنه كلام الله تعالى، وعَرَفُوا محمدا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه رسول الله، بل كانوا يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ، قَالَ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾.[4]

فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ، وصدوا عنه، وبارزوه بالعداء، وحاولوا جهدهم أن يطفئوا نورا الله، فخيب الله سعيهم، ورد كيدهم في نحورهم.

عَنْ سَلَمَةَ بْنِ سَلَامَةَ بْنِ وَقْشٍ، وَكَانَ، مِنْ أَصْحَابِ بَدْرٍ، قَالَ: كَانَ لَنَا جَارٌ مِنْ يَهُودَ فِي بَنِي عَبْدِ الْأَشْهَلِ، قَالَ: فَخَرَجَ عَلَيْنَا يَوْمًا مِنْ بَيْتِهِ قَبْلَ مَبْعَثِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِيَسِيرٍ، فَوَقَفَ عَلَى مَجْلِسِ بَنِي عَبْدِ الْأَشْهَلِ، قَالَ سَلَمَةُ: وَأَنَا يَوْمَئِذٍ أَحْدَثُ مَنْ فِيهِ سِنًّا، عَلَيَّ بُرْدَةٌ، مُضْطَجِعًا فِيهَا بِفِنَاءِ أَهْلِي، فَذَكَرَ الْبَعْثَ وَالْقِيَامَةَ وَالْحِسَابَ، وَالْمِيزَانَ، وَالْجَنَّةَ، وَالنَّارَ فَقَالَ: ذَلِكَ لِقَوْمٍ أَهْلِ شِرْكٍ، أَصْحَابِ أَوْثَانٍ، لَا يَرَوْنَ أَنَّ بَعْثًا كَائِنٌ بَعْدَ الْمَوْتِ، فَقَالُوا لَهُ: وَيْحَكَ يَا فُلَانُ تَرَى هَذَا كَائِنًا؟ إِنَّ النَّاسَ يُبْعَثُونَ بَعْدَ مَوْتِهِمْ إِلَى دَارٍ فِيهَا جَنَّةٌ، وَنَارٌ يُجْزَوْنَ فِيهَا بِأَعْمَالِهِمْ، قَالَ: نَعَمْ، وَالَّذِي يُحْلَفُ بِهِ لَوَدَّ أَنَّ لَهُ بِحَظِّهِ مِنْ تِلْكَ النَّارِ أَعْظَمَ تَنُّورٍ فِيالدُّنْيَا، يُحَمُّونَهُ ثُمَّ يُدْخِلُونَهُ إِيَّاهُ فَيُطْبَقُ بِهِ عَلَيْهِ، وَأَنْ يَنْجُوَ مِنْ تِلْكَ النَّارِ غَدًا،

---

١ - سورة الْمَائِدَةِ: الآية/ ٤٨

٢ - سورة فاطر: الآية/ ٣١

٣ - سورة الجن: الآية/ ٢٩، ٣٠

٤ - سورة الْبَقَرَةِ: الآية/ ١٤٦

قَالُوا لَهُ: وَيْحَكَ وَمَا آيَةُ ذَلِكَ؟ قَالَ: نَبِيٌّ يُبْعَثُ مِنْ نَحْوِ هَذِهِ الْبِلَادِ، وَأَشَارَ بِيَدِهِ نَحْوَ مَكَّةَ، وَالْيَمَنِ، قَالُوا: وَمَتَى تَرَاهُ؟ قَالَ: فَنَظَرَ إِلَيَّ وَأَنَا مِنْ أَحْدَثِهِمْ سِنًّا، فَقَالَ: إِنْ يَسْتَنْفِدْ هَذَا الْغُلَامُ عُمُرَهُ يُدْرِكْهُ، قَالَ سَلَمَةُ: فَوَاللهِ مَا ذَهَبَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ حَتَّى " بَعَثَ اللهُ تَعَالَى رَسُولَهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَهُوَ حَيٌّ بَيْنَ أَظْهُرِنَا "، فَآمَنَّا بِهِ وَكَفَرَ بِهِ بَغْيًا وَحَسَدًا، فَقُلْنَا: وَيْلَكَ يَا فُلَانُ أَلَسْتَ بِالَّذِي قُلْتَ: لَنَا فِيهِ مَا قُلْتَ؟ قَالَ: بَلَى. وَلَيْسَ بِهِ.[1]

﴿فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾.

وإنما لعنهم الله تعالى لأنهم عرفوا الحق فأعرضوا عنه، واللعن هو الطرد من رحمة الله تعالى.

١ - رواه أَحْمَدُ- حديث رقم: ١٥٨٤١، بسند حسن

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

قَولُهُ تَعَالَى: ﴿بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنزلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يُنزلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾. الآية/ ٩٠

تقدم الكلام معنا أن اليهود عَرَفُوا القرآن أنه حقًا كلام الله تعالى، وعَرَفُوا محمدًا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه حقًا رسول الله، بل كانوا يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ، كما أخبرنا الله تعالى بذلك، وكأن اليهود ظنوا أن الإيمان بدين الإسلام، والتصديق بنبي الإسلام محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيه هلكة لنفوسهم، ربما لأنه يلزمهم الجهاد معه، وفيه تعريض حياتهم للهلاك، وإما لأن مفارقتهم لليهودية، تعني مفارقة ما ألفوهم من أكل السحت، وأكل الربا، وأكل أموال الناس بالباطل، وفعل المحرمات، فظنوا أنهم بإعراضهم عن دين الله تعالى، وكفرهم برسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ أَبْقَوْا عَلَى أَنْفُسِهِمْ فِي الدُّنْيَا، و لم يعرضوها للهلاك بالجهاد، لِأَنَّهُمْ نَجَّوْهَا مِنَ القتل ولو كان في سبيل الله تعالى، وبقاءهم على اليهودية المحرفة مُسَوَّغٌ لهم في نظرهم لفعل المحرم، وأكل الربا، بزعم أنهم شعب الله المختار وأنهم أبناء الله وأحباؤه.

﴿بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنزلَ اللَّهُ﴾.

فهم آثَرُوا الكفر على الإيمان، واشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالْهُدى، ظنوا أن في ذلك إبقاءً على أنفسهم، وإطالة لأمد حياتهم في الدنيا، وما كَانُوا يَعْتَقِدُونَ أبدا أَنَّهُمْ مُحِقُّونَ فِي إِعْرَاضِهِمْ عَنْ دَعْوَةِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ،وَأَنَّهُمْ أرادوا بذلك أن يَنَجَّوْا أَنْفُسَهُمْ مِنَ عَذَابِ يوم القيامة؛ لأن الله تبارك وتعالى قال عنهم: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ﴾.[1]

﴿بَغْيًا أَنْ يُنزلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾.

وَالْبَغْيُ: هُوَ الظَلَمُ، وَالمراد بالْبَغْيِ هنا الْحَسَدُ، وَإِنَّمَا كان الْحَسَدُ ظُلْمًا لِأَنَّ الظُّلْمَ هُوَ وضع الشيء في غير موضعه، وتصرف الغير في غير حقه، وَالْحَسَدُ كذلك لِأَنَّهُ تَمَنِّي زَوَالَ النِّعْمَةِ عَنِ الْمَحْسُودِ، وَلَا حَقَّ لِلْحَاسِدِ فِي ذَلِكَ لِأَنَّهُ لَا يَنَالُهُ مِنْ زَوَالِهَا نَفْعٌ، ومما يدل على أن الحسد ظلمٌ قول الشاعر:

وَأَظْلَمُ خَلْقِ اللَّهِ مَنْ بَاتَ حَاسِدًا ***** لِمَنْ بَاتَ فِي نَعْمَائِهِ يَتَقَلَّبُ

١- سُورَةُ الْبَقَرَةِ: الآية/ ٨٩

وإنما حملهم على الكفر الْحَسَدُ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن تكون النبوة في غيرهم، وَلَا حَسَدَ أَعْظَمَ مِنْ هَذَا، وهذا من خطر الحسد على صاحبه، ففيه قدح في حكمة الله تعالى، واستكثارا لفضل الله تعالى على عباده.

﴿فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ﴾.

فَبَاءُوا أي: اسْتَحَقُّوا واسْتَوْجَبُوا، غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ فَرَجَعُوا مِنْ تِلْكَ الصَّفْقَةِ وَهِيَ اشْتِرَاءُ أَنْفُسِهِمْ بِالْخُسْرَانِ الْمُبِينِ، كحَالِ الْخَارِجِ لِلتِجَارَةٍ فَأَصَابَتْهُ خَسَارَةٌ فَرَجَعَ، ولا خُسْرَانَ أعظم من يخسرَ العبد رضى الله تعالى.

وأما الغضب المضاعف فقد غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ بِكَفْرِهِمْ بِالتَّوْرَاةِ والْإِنْجِيلِ وَعِيسَى عليه السلام، ثُمَّ غَضِبَ عَلَيْهِمْ بِكُفْرِهِمْ بِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَبِالْقُرْآنِ.

﴿وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾.

ولما كفروا بكتب الله المترلة، وأنبياء الله المرسلين، بين الله تعالى جزاء من يفعل ذلك بقوله: ﴿وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾. وَالْمَهِينُ الْمُذِلُّ فليس لهم عند الله تعالى كرامة كما يدعون، وقدم الجار والمجرور للإختصاص، فهم أذل الناس يوم القيامة وأهون الناس على الله تعالى يوم القيامة، فليسوا ابناءً لله ولا أحباء له، وهم يكفرون بدينه، ويكذبون رسله.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

قَولُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٩١) وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾. الآية/ ٩١، ٩٢

أعظم صارف لأَهْلِ الْكِتَابِ من الْيَهُودِ والنصارى أنهم إِذَا قِيلَ لَهُمْ: ﴿آمِنُوا بِمَا أَنزلَ اللَّهُ﴾ أَيْ: عَلَى مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَاتَّبعُوهُ، ﴿قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنزلَ عَلَيْنَا﴾، أَيْ: يَكْفِينَا الْإِيمَانُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا مِنَ التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ، ولا نحتاج لغيره كما قال عَدِيُّ بْنَ حَاتِمٍ لرَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لما قَالَ له رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "يَا عَدِيُّ بْنَ حَاتِمٍ، أَسْلِمْ تَسْلَمْ" ثَلَاثًا، قَالَ: إِنِّي عَلَى دِينٍ، فعَنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ قَالَ: لَمَّا بَلَغَنِي خُرُوجُ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَكَرِهْتُ خُرُوجَهُ كَرَاهَةً شَدِيدَةً، خَرَجْتُ حَتَّى وَقَعْتُ نَاحِيَةَ الرُّومِ، حَتَّى قَدِمْتُ عَلَى قَيْصَرَ، قَالَ: فَكَرِهْتُ مَكَانِي ذَلِكَ أَشَدَّ مِنْ كَرَاهِيَتِي لِخُرُوجِهِ، قَالَ: فَقُلْتُ: وَاللهِ، لَوْلَا أَتَيْتُ هَذَا الرَّجُلَ، فَإِنْ كَانَ كَاذِبًا لَمْ يَضُرَّنِي، وَإِنْ كَانَ صَادِقًا عَلِمْتُ، قَالَ: فَقَدِمْتُ فَأَتَيْتُهُ، فَلَمَّا قَدِمْتُ قَالَ النَّاسُ: عَدِيُّ بْنُ حَاتِمٍ، عَدِيُّ بْنُ حَاتِمٍ. قَالَ: فَدَخَلْتُ عَلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ لِي: "يَا عَدِيُّ بْنَ حَاتِمٍ، أَسْلِمْ تَسْلَمْ " ثَلَاثًا، قَالَ: قُلْتُ: إِنِّي عَلَى دِينٍ، قَالَ: " أَنَا أَعْلَمُ بِدِينِكَ مِنْكَ" فَقُلْتُ: أَنْتَ أَعْلَمُ بِدِينِي مِنِّي؟ قَالَ: "نَعَمْ، أَلَسْتَ مِنَ الرَّكُوسِيَّةِ، وَأَنْتَ تَأْكُلُ مِرْبَاعَ قَوْمِكَ؟" قُلْتُ: بَلَى، قَالَ: "فَإِنَّ هَذَا لَا يَحِلُّ لَكَ فِي دِينِكَ"، قَالَ: فَلَمْ يَعْدُ أَنْ قَالَهَا، فَتَوَاضَعْتُ لَهَا، فَقَالَ: " أَمَا إِنِّي أَعْلَمُ مَا الَّذِي يَمْنَعُكَ مِنَ الْإِسْلَامِ، تَقُولُ: إِنَّمَا اتَّبَعَهُ ضَعَفَةُ النَّاسِ، وَمَنْ لَا قُوَّةَ لَهُ، وَقَدْ رَمَتْهُمُ الْعَرَبُ. أَتَعْرِفُ الْحِيرَةَ؟ " قُلْتُ: لَمْ أَرَهَا، وَقَدْ سَمِعْتُ بِهَا. قَالَ: "فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَيُتِمَّنَّ اللهُ هَذَا الْأَمْرَ، حَتَّى تَخْرُجَ الظَّعِينَةُ مِنَ الْحِيرَةِ، حَتَّى تَطُوفَ بِالْبَيْتِ فِي غَيْرِ جِوَارِ أَحَدٍ، وَلَيَفْتَحَنَّ كُنُوزَ كِسْرَى بْنِ هُرْمُزَ" قَالَ: قُلْتُ: كِسْرَى بْنُ هُرْمُزَ؟ قَالَ: "نَعَمْ، كِسْرَى بْنُ هُرْمُزَ، وَلَيُبْذَلَنَّ الْمَالُ حَتَّى لَا يَقْبَلَهُ أَحَدٌ" قَالَ عَدِيُّ بْنُ حَاتِمٍ: "فَهَذِهِ الظَّعِينَةُ تَخْرُجُ مِنَ الْحِيرَةِ، فَتَطُوفُ بِالْبَيْتِ فِي غَيْرِ جِوَارٍ، وَلَقَدْ كُنْتُ فِيمَنْ فَتَحَ كُنُوزَ كِسْرَى بْنِ هُرْمُزَ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَكُونَنَّ الثَّالِثَةُ، لِأَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ قَالَهَا ".[1]

وكان عَدِيُّ بْنُ حَاتِمٍ نصرانيًا، ويظن أَهْلُ الْكِتَابِ أن ما عندهم يغني عنهم لو أنهم كفروا بِمَا أَنزلَ اللَّهُ عَلَى مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والعجيب أن الْيَهُودَ والنصارى فعلوا مع رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ما فعله الوثنيون من رسلهم من التكذيب والاستهزاء والاستغناء بما عندهم مما يسمونه علما عما

١ - رواه أحمد- حديث رقم: ١٨٢٦٠، وإسناده حسن

جاءت به الرسل عليهم السلام كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾.[1]

﴿وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ﴾.

وَيَكْفُرُونَ بِمَا بَعْدَهُ، وَيَكْفُرُونَ بِمَا عداه، وَهُمْ يَعْلَمُونَ يقينًا أَنَّ مَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هُوَ الْحَقُّ ولا يصادم مَا أُنْزِلَ عَلَى من قبله من الرسل، بل إن البِشَارَاتِ بِنَبِيِّ اللهِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مازالت في كتبهم إلى الآن على ما نال هذه الكتب من التحريف.

﴿قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

فإِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ فِي دَعْوَاكُمُ الْإِيمَانَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ، فقد جاءكم أَنْبِيَاءُ يتبعون شريعة التوراة ويصدقون ما فيها وهم منكم من بني إسرائيل فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ فِي دَعْوَاكُمُ، فالحق أنكم أبعد الناس عن الإيمان، وأقرب الناس للضلال، قد امتلئت قلوبكم حَسَدًا وَجبلت نفوسكم على العِنَادِ وَالاسْتِكْبَارِ فَلِمَ تَتَّبِعُوا الحق يومًا وما كان لكم هدفًا ومقصدًا إنما تَتَّبِعُونَ أَهْوَاءكم وعقولكم.

﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ﴾.

وأدل دليل على ذلك أنكم قد جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ الوضحات، والدلائل القاطعات، وَهِيَ: الطُّوفَانُ، وَالْجَرَادُ، وَالْقُمَّلُ، وَالضَّفَادِعُ، وَالدَّمُ، وَالْعَصَا، وَالْيَدُ، وفَلْق الْبَحْرِ، وَتَظْلِيلُهُمْ بِالْغَمَامِ، وَالْمَنُّ وَالسَّلْوَى، وَالْحَجَرُ،عَلَى أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنْ لَا تَعْبُدُوا إلا اللَّهَ، وَأَنَّ مُوسَى رَسُولُ اللَّهِ. ﴿ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ﴾، ومع ذلك اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مَعْبُودًا مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مُوسَى لما وَاعَدَهُ رَبُّهُ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً، فلم تتأثر نفوسكم بالآيات، و لم تستجب قلوبكم للزجر عن الشرك والموبقات.

﴿وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾.

وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ لأنفسكم أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنزِلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا لما عبدتم الْعِجْلَ مِنْ دُونِ اللَّهِ، وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَلَا مَعْبُودَ بِحَقٍّ سِوَاهُ.

---

١ - سورة غَافِرٍ: الآية/ ٨٣

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

قَولُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٩٣) قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٩٤) وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾. الآية/ ٩٣، ٩٥

مازال الحديث في معرض بيان مُخَالَفَاتِ بني إسرائيل لشريعة الله تعالى وَإِعْرَاضَهُمْ عَنْ أوامره وعنادهم لأنبيائهم حَتَّى رَفَعَ الله تعالى الطُّورَ عَلَيْهِمْ لِيَقْبَلُوا ميثاقه ويأخذوا بعهده ومع ذلك تعمدوا المخالفة، ووصل بهم العناد إلى حد قالوا معه: ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾، فهم أولى الناس بقَولِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.[1]

وعليهم ينطبق قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ * وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ﴾.[2]

وَفِي حَقِّهم قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ﴾.[3]

وَتَقَدَّمَ تَفْسِيرُ ذَلِكَ عند الكلام على قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ﴾.[4]

﴿وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾.

أي: تَغَلْغَلَ حُبُّ عِبَادَةِ الْعِجْلِ فِي نفوسهم حَتَّى خَلُصَ ذَلِكَ إِلَى قُلُوبِهِمْ، فهل عند هؤلاء دين؟ وهل تشتمل قلوبهم على شيء من الإيمان؟ وأي إيمانٍ لمن تَشَرَّبَ قلبُهُ الكفرَ؟

وفي الآية إلتفات من الخطاب إلى الغيبة، احتقارًا لشأنهم، وكشفًا لزيفهم، وتشهيرًا بكفرهم.

---

١ - سُورَةُ الْبَقَرَةِ: الْآيَةُ/ ٦

٢ - سُورَةُ يُونُسَ: الْآيَةُ/ ٩٦، ٩٧

٣ - سُورَةُ الْبَقَرَةِ: الْآيَةُ/ ١٤٥

٤ - سُورَةُ الْبَقَرَةِ: الْآيَةُ/ ٦٣

﴿قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

فإن كنتم تزعمون بعد ذلك أنكم على الإيمان فبِئْسَ هذا الإيمان الذي يَأْمُرُكُمْ بالكفر باللَّهِ تعالى، وَالذي يحملكم على مُخَالَفَةِ الْأَنْبِيَاءِ، والإعراض عن أمر الله تعالى وشرعه، ومن ذلك كُفْرُكُمْ بِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وصدكم الناس عند دينه، فليس عندكم من الإيمان شيء وإنما ذلكم ادعاءٌ وليس إيمانًا، وَإِضَافَةُ الْإِيمَانِ إِلَيْهِمْ تَهَكُّمٌ بهم، وَإِضَافَةُ الْأَمْرِ إِلَى إِيمَانِهِمْ تَهَكُّمٌ بهم كَذَلِكَ كَمَا قَالَ تعالى فِي قِصَّةِ شُعَيْبٍ على لسان قومه: ﴿أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ﴾.[1]

﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾.

هَذَا نَوْعٌ آخَرُ مِنْ قَبَائِحِهِمْ وَهُوَ ادِّعَاؤُهُمْ أن الدَّارَ الآخِرَةَ خَالِصَةٌ لهم مِنْ دُونِ النَّاسِ، فهم على كفرهم وعنادهم كانوا يزعمون أن النعيمَ في الدَّارِ الآخِرَةِ قاصرٌ عليهم، فقد كانوا يقولون: ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾.[2]

وَكما قال الله تعالى عنهم: ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾.[3]

والمعنى أن كُلَّ طَائِفَةٍ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى ادَّعَتْ أَنَّهُ لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ عَلَى مِلَّتِهَا، ولما كانت هَذِهِ الدَّعْوَى التِي ادعوها لا دليل عليها ولا حجة فيها أَكْذَبَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى بِقوله: ﴿فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾.

وَلِأَنَّهُمْ يعَلَمُونَ فسادَ إيمانهم، وَسُوءَ معتقدهم، وَكَثْرَةَ ذُنُوبِهِمْ، لم يَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ، فدل ذلك على كذبهم.

﴿وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾.

أخبر الله تعالى أنهم لَنْ يَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ بسبب كفرهم بالله تعالى، وتركهم لشرعه ودينه، وتحريهم لكتاب ربهم، وقتلهم الأنبياء، وقولهم على مريم بهتانًا عظيمًا، وصدهم عن سبيل الله كثيرًا.

---

١ - سُورَةُ هُودٍ: الْآيَةُ/ ٨٧

٢ - سُورَةُ الْمَائِدَةِ: الْآيَةُ/ ١٨

٣ - سُورَةُ الْبَقَرَةِ: الْآيَةُ/ ١١١

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وأين حالُ هؤلاءِ في كفرهم وضلالهم من حالِ أصحابِ النَّبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فهذا حُذَيْفَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، لَمَّا احْتُضِرَ قَالَ عن الموت: (حَبِيبٌ جَاءَ عَلَى فَاقَةٍ).[1]

وهذا بِلَالٌ رضي الله عنه يحكي عنه سَعِيْدُ بنُ عَبْدِ العَزِيْزِ قَالَ: لَمَّا احْتُضِرَ بِلَالٌ قَالَ:

غَـــــداً نَلْقَـــــى الأَحِبَّـــــهْ ***** مُحَمَّـــــــــداً وَحِزْبَـــــــــهْ

قَالَ: تَقُوْلُ امْرَأَتُهُ: وَاوَيْلاَهُ، فَقَالَ: وَافَرَحَاهُ.[2]

وَقَالَ عَمَّارٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يوم صِفِّينَ: (غَدًا نَلْقَى الْأَحِبَّةَ، مُحَمَّدًا وَصَحْبَهُ).

وَهذا عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، يَطُوفُ بَيْنَ الصَّفَّيْنِ بثوب رقيق ليس عليه درع، فَقَالَ لَهُ ابْنُهُ الْحَسَنُ: مَا هَذَا بِزِيِّ الْمُحَارِبِينَ، فَقَالَ: يَابُنَيَّ لَايُبَالِي أَبُوكَ، أَعَلَى الْمَوْتِ سَقَطَ، أَمْ عَلَيْهِ سَقَطَ الْمَوْتُ.

﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾.

اقْتِصَارُ اللَّهِ تعالى عَلَى ذِكْرِ الظَّالِمِ مع عِلْمِهِ بِالظَّالِمِ وَغَيْرِ الظَّالِمِ فيه تَّهْدِيدٌ وَوَعِيدٌ للظَّالِمِينَ، ومن جملتهم هؤلاء اليهود لاعتقاداتهم القبيحة، وأفعالهم الشنيعة.

قَولُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾. الآية/ ٩٦

يخبر الله تعالى أن اليهود أكثر الناس تمسكًا بالحياة وأشد الناس حرصا على البقاء فيها مهما كانت ذليلة ومهما كانت مهينة وأتى لفظ الحياة نكرة في سياق الإثبات لنفيد الإطلاق والمعنى أنهم أَحْرَصُ الْخَلْقِ عَلَى أَيْ حَيَاةٍ ولو كانت مهينة وأَحْرَصُ أعلَى طُولِ عُمْرٍ في هذه الدنيا، لِمَا يَعْلَمُونَ مِنْ سوء عَاقِبَتِهِمْ،

---

١ - رواه الحاكم في مستدركه- حديث رقم: ٨٥٣٣

٢ - انظر سير أعلام النبلاء ط الرسالة (١/ ٣٥٩)، والوافي بالوفيات (١٠/ ١٧٤)

وقبيح مَآلِهِمُ وما ينتظرهم من العذاب والخسران، حَتَّى أنهم أشدُ حرصًا مِنَ الْمُشْرِكِينَ عباد الأوثان الَّذِينَ لَيسلَهُمْ كِتَابٌ، و لم يؤمنوا برسول، وَذِكْرُ المشركين بعد ذِكْرِ النَّاسِ مِنْ بَابِ عَطْفِ الْخَاصِّ عَلَى الْعَامِّ.

﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾.

يَوَدُّ الواحدُ من الْيَهُودِ لَوْ يمتد به العمرُ أَلْفَ سَنَةٍ من شِدَّةِ تَعَلُّقِ قَلْبِهِ بِطُولِ الْحَيَاةِ، وَأَحَدُهُمْ هُنَا عَامٌّ عُمُومَ الْبَدَلِ، أَيْ يَوَدُّ كُلُّ وَاحِدٍ منهُمْ أَنْ يُعَمَّرَ أَلْفَ سَنَةٍ، فهُوَ يَتَنَاوَلُ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ عَلَى طَرِيقَةِ الْبَدَلِ. فإذَا نَظَرْتَ إِلَى حِرْصِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ، وَشِدَّةِ تَعَلُّقِ قَلْبِهِ بِطُولِ الْحَيَاةِ، وتمسكه بها على ما فيها من نكدٍ وكدرٍ، ومنغاصاتٍ وغمومٍ، لقال لك لسانُ حالهِ أنه يودُ الخلودَ فيها، وطولَ البقاء.

﴿وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ﴾.

وإنما يُحِبُّ الوَاحِدُ مِنْهُمْ طُولَ الْحَيَاةِ لما ارتكبوا من الخطايا، واقترفوا من الآثام، فإذا توهم أن طول العمر سينْجيهِ مِنَ الْخِزْيِ وَالْعَذَابِ فِي الْآخِرَةِ، فقد أخطأ الصواب، وضل السبيل، فليس من الله تعالى ملجأ ولا من عذابه تعالى مفر، ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأرْضِ إِلا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا * لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا* وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا﴾.[1]

فلَوْ أَخَّرَهُمْ الله تعالى وَأَنْظَرَهُمْ حِينًا مِنَ الدَّهْرِ، ومدة مِنَ الزَّمَانِ لكان مآلهم إلى الله تعالى، لأفناهم الموت، ولتجرعوا كأسه، كما قَالَ تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ * ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ * مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ﴾.[2]

فلا عاصم لهم من الله، ولا ناصر لهم من دونه.

وَالسبب في تخصيص اليهود والمشركين بذَلِكَ أَنَّ الْمُشْرِكَ لَا يَرْجُو بَعْثًا بَعْدَ الْمَوْتِ، فَهُوَ يُحِبُّ طُولَ الْحَيَاةِ؛ لذا يسرفُ على نفسهِ في الشهواتِ، وَالْيَهُودِيُّ قَدْ عَرَفَ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخِزْيِ والعذاب، بإعراضه عن أمر الله وبِمَا ارتكبَ مِنَ الذنوبِ العظام.

---

١ - سورة مَرْيَمَ: الآيات/ ٩٣: ٩٥

٢ - سورة الشُّعَرَاءِ: الآيات/ ٢٠٥ -٢٠٧

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾.

اللَّهُ عَلِيمٌ بِخَفِيَّاتِ الْأُمُورِ، لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ، خَبِيرٌ بِكل شَيْءٍ، ومن ذلك مَا يَعْمَلُه العِبَادُ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ، ثم يُجَازِي كُلَّ عَامِلٍ بِعَمَلِهِ.

وَقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾، بعدما حكاه الله تعالى من جرائم اليهود وقبائحهم، فِيه تَهْدِيدٌ لهم، فهُوَ خَبَرٌ المراد به التَّوْبِيخُ وَالتَّهْدِيدُ؛ لِأَنَّ الْقَادِرَ إِذَا عَلِمَ بِمَا يفعله العاصي له، ثم أَعْلَمَهُ بِأَنَّهُ يعَلِمُ ذَلِكَ مِنْهُ، عَلِمَ أَنَّ الْعِقَابَ نَازِلٌ بِهِ لَا محَالة.

قَولُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نزلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (٩٧) مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ﴾. سُورَةُ الْبَقَرَةِ: الآية/ ٩٧، ٩٨

من قبائح اليهود التي يقف أمامها المسلمُ متحيرًا أن عدَاوَتَهُم لم يسلم منها أحدٌ حتى الملائكة الكرام، فقد كانوا يعادون أنبياءَ اللهِ والصالحين من أولياء الله وبلغت عداوتهم حتى القتل في بعض الأحيان ، ونسبة الفاحشة إليهم في بعض الأحيان، حسدًا لهم وبغضا منهم، وحقدًا عليهم، وهذا يتصور من نفوس جبلت على الشر، وقلوب ملئت بالحقد، وأناس لا يعرفون إلا العناد والكفر، لكن ما لا يتصور أن يعادي بشرٌ ملكًا من ملائكة الله تعالى، مما يدل على سفاهة أحلامهم، وضعف عقولهم، وفقدهم للإيمان، فنفوسهم خربة، وقلوبهم من الإيمان مقفرة، وأرواحهم بالضلال متدنسة.

فعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّهُ قَالَ: حَضَرَتْ عِصَابَةٌ مِنَ الْيَهُودِ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالُوا: يَا أَبَا الْقَاسِمِ، حَدِّثْنَا عَنْ خِلَالٍ نَسْأَلُكَ عَنْهُنَّ، لَا يَعْلَمُهُنَّ إِلَّا نَبِيٌّ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "سَلُوا عَمَّا شِئْتُمْ، وَلَكِنِ اجعلوا لِي ذِمَّةً وَمَا أَخَذَ يَعْقُوبُ عَلَى بَنِيهِ، لَئِنْ أَنَا حَدَّثْتُكُمْ شَيْئًا فَعَرَفْتُمُوهُ لتتابعُنِّي عَلَى الْإِسْلَامِ". فَقَالُوا: ذَلِكَ لَكَ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "سَلُونِي عَمَّا شِئْتُمْ". فَقَالُوا: أَخْبِرْنَا عَنْ أَرْبَعِ خِلَالٍ نَسْأَلُكَ عَنْهُنَّ: أَخْبِرْنَا أَيُّ الطَّعَامِ حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ؟ وَأَخْبِرْنَا كَيْفَ مَاءُ الْمَرْأَةِ وَمَاءُ الرَّجُلِ؟ وَكَيْفَ يَكُونُ الذَّكَرُ مِنْهُ وَالْأُنْثَى؟ وَأَخْبِرْنَا بِهَذَا النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ فِي النَّوْمِ وَوَلِيِّهِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "عَلَيْكُمْ عَهْدَ اللَّهِ لَئِنْ أَنَا أَنْبَأْتُكُمْ لتتابعُنِّي؟ " فَأَعْطَوْهُ مَا شَاءَ اللَّهُ مِنْ عَهْدٍ وَمِيثَاقٍ. فَقَالَ: "نَشَدْتُكُمْ بِالذِي أَنْزَلَ التَّوْرَاةَ عَلَى مُوسَى، هَلْ تَعْلَمُونَ أَنَّ إِسْرَائِيلَ يَعْقُوبَ مَرِضَ مَرَضًا شَدِيدًا فَطَالَ سَقَمُهُ مِنْهُ، فَنَذَرَ لِلَّهِ نَذْرًا لَئِنْ عَافَاهُ اللَّهُ مِنْ سَقَمِهِ لَيُحَرِّمَنَّ أَحَبَّ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ إِلَيْهِ، وَكَانَ أَحَبُّ الطَّعَامِ إِلَيْهِ لُحُومَ الْإِبِلِ وَأَحَبُّ الشَّرَابِ إِلَيْهِ أَلْبَانَهَا؟ ". فَقَالُوا: اللَّهُمَّ نَعَمْ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "اللَّهُمَّ اشْهَدْ عَلَيْهِمْ. وَأَنْشُدُكُمْ بِاللَّهِ الذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هو، الذي أنزل التوراة على موسى، هل تَعْلَمُونَ أَنَّ مَاءَ الرَّجُلِ أَبْيَضُ غَلِيظٌ، وَأَنَّ مَاءَ الْمَرْأَةِ أَصْفَرُ رَقِيقٌ، فَأَيُّهُمَا عَلَا كَانَ لَهُ الْوَلَدُ وَالشَّبَهُ بِإِذْنِ اللَّهِ، وَإِذَا عَلَا مَاءُ الرَّجُلِ مَاءَ الْمَرْأَةِ كَانَ الْوَلَدُ ذَكَرًا بِإِذْنِ اللَّهِ، وَإِذَا عَلَا مَاءُ الْمَرْأَةِ مَاءَ الرَّجُلِ كَانَ الْوَلَدُ أُنْثَى بِإِذْنِ اللَّهِ؟". قَالُوا: اللَّهُمَّ نَعَمْ. قَالَ: "اللَّهُمَّ اشْهَدْ". قَالَ: "وَأَنْشُدُكُمْ بِاللَّهِ الذِي أَنْزَلَ التَّوْرَاةَ عَلَى مُوسَى، هَلْ تَعْلَمُونَ أَنَّ هَذَا النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ تَنَامُ عَيْنَاهُ وَلَا يَنَامُ قَلْبُهُ؟ ". قَالُوا: اللَّهُمَّ نَعَمْ. قَالَ: "اللَّهُمَّ اشْهَدْ". قَالُوا: أَنْتَ الْآنَ، فَحَدِّثْنَا مَنْ وَلِيُّكَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، فَعِنْدَهَا نُجَامِعُكَ أَوْ نُفَارِقُكَ. قَالَ: "فَإِنَّ وَلِيِّي جِبْرِيلُ، وَلَمْ يَبْعَثِ اللَّهُ نَبِيًّا قَطُّ إِلَّا وَهُوَ وليُّه". قَالُوا: فَعِنْدَهَا نُفَارِقُكَ، لَوْ كَانَ وَلِيُّكَ سِوَاهُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ تَابَعْنَاكَ وَصَدَّقْنَاكَ. قَالَ: "فَمَا مَنَعكم أَنْ

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

تُصَدِّقُوهُ؟ " قَالُوا: إِنَّهُ عَدُوُّنَا. فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ فَعِنْدَهَا بَاؤُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ.[1]

﴿فَإِنَّهُ نزلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾.

ثم أخبر الله تعالى أن الرُّوحَ الْأَمِينَ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ رَسُولٌ مِنْ رُسُلِ اللَّهِ هو الذِي نَزَلَ بِالذِّكْرِ الْحَكِيمِ على رسول الله محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهو الذي نزل بالوحي على جميع رسل الله عليهم السلام؛ كما قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * نزلَ بِهِ الرُّوحُ الأمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ﴾.[2]

وجبريل عليه السلام شأنه شأن جميع الملائكة عليهم السلام، لا يترل إلا بِإِذْنِ اللَّهِ تَعَالَى؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا نَتَنزلُ إِلا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾.[3]

﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾.

وما نزل به جبريل عليه السلام من الوحي على رسول الله محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو ما نزل به على الرسل السابقين في العقائد فليس في ذلك اختلاف، فهو يُصَدِّقُ مَا بَيْنَ يَدَيْهِ من الكتب السابقة ولا يعارضها، وهذا معنى ما ثبت عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَنَا أَوْلَى النَّاسِ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَالْأَنْبِيَاءُ إِخْوَةٌ لِعَلَّاتٍ، أُمَّهَاتُهُمْ شَتَّى وَدِينُهُمْ وَاحِدٌ».[4]

وإنما الإختلاف في الشرائع والأحكام كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾.[5]

---

١ - رَوَاهُ أَحْمَدُ- حديث رقم: ٢٤٧١

٢ - سورة الشُّعَرَاءِ: الآيات/ ١٩٢-١٩٤

٣ - سورة مَرْيَمَ: الآية/ ٦٤

٤ - رواه البخاري- كِتَابُ أَحَادِيثِ الأَنْبِيَاءِ،بَابُ قَوْلِ اللَّهِ {وَاذْكُرْ فِي الكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا} [مريم: ١٦]، حديث رقم: ٣٤٤٣

٥ - سورة الْمَائِدَةِ: الآية/ ٤٨

﴿وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾.

من خصائص الْقُرْآنِ الكريم أنه هُدًى لِقُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ، وَبُشْرَى لَهُمْ بِالْجَنَّةِ والرضوان والنعيم، وَلَيْسَ ذَلِكَ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِينَ. كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾.[1]

وَكَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلا خَسَارًا﴾.[2]

﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ﴾.

فَمَنْ عَادَى جِبْرِيلَ عليه السلام فقد عَادَى الله وملائكته ورسله؛ فالإيمانُ لا يتحقق إلا بهذه الأركان مجتمعة، فمَنْ آمَنَ بِرَسُولٍ فَإِنَّهُ يَلْزَمُهُ الْإِيمَانُ بِجَمِيعِ الرُّسُلِ، وَمَنْ كَفَرَ بِرَسُولٍ فَإِنَّهُ يَلْزَمُهُ الْكُفْرُ بِجَمِيعِ الرُّسُلِ، وكذلك الْمَلائِكَةُ، ولا يصح له إِيمَانٌ ولا يقبل منه عملٌ مهما اجتهد في الطاعة، وتقرب إلى الله تعالى بأنواع القُرَبِ.

وفي الآية بيانٌ لمنزلةِ جِبْرِيلَ وَمِيكَالَ عليهما السلام؛ لذا خصهما الله تعالى بالذكر بعد ذكر الملائكة.

وَقَولُهُ تَعَالَى: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ﴾، بيان أن من عَادَى أحدًا من الملائكة فهو كافر بالله تعالى، يستحق سخطَ الله تعالى وعقابَهَ.

ومن الأساليب البلاغية في الآية: ذكر جِبْرِيلَ مِيكَائِيلَ بعد ذكر الْمَلائِكَةِ من باب عطف الخاص على العام، تنبيهًا على فضلهما، وتنويهًا بشرفهما.

---

١ - سورة فُصِّلَتْ: الآية/ ٤٤

٢ - سورة الْإِسْرَاءِ: الآية/ ٨٢

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

قَولُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ أَنزلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلا الْفَاسِقُونَ (٩٩) أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (١٠٠) وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾. الآية/ ٩٩، ١٠١

ما أرسل الله تعالى من رسول إلا وأيده بآيات بَيِّنَاتٍ، ومعجزات باهرات هي دلائل صدقه وعلامات على نبوته، وأعظم دليل من دلائل نبوة رسول الله محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ القرآن العظيم فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «مَا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا قَدِ اُعْطِيَ مِنَ الْآيَاتِ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيتُ وَحْيًا أَوْحَى اللهُ إِلَيَّ، فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ».[1]

وله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الدلائل على صدق نبوته الكثير من المعجزات منها انشقاق القمر وإخباره ببعض الغيبيات وغيرها كثير ولكن من أراد الله فتنته لا تنفعه الآيات ولو سيقت إليه سوقًا، ولو جاءته الآيات مجتمعة، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ * وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ﴾.[2]

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ﴾.[3]

مَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِ الشَّقَاوَةَ فَلَا مُسْعِدَ لَهُ، وَمَنْ أضلَّه فَلَا هَادِيَ لَهُ، وهذا ما حدث من اليهود حيث أنكروا نبوة محمدِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وزعموا أنه لم يأت بآية تكون دليلًا على صدقه، فقد ورد في سبب نزول هذه الآية عن ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: قَالَ قَالَ ابْنُ صُورِيَّا لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يَا مُحَمَّدُ مَا جِئْتَنَا بِشَيْءٍ نَعْرِفُهُ، وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْكَ مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ فَنَتَّبِعَكَ بِهَا؟ فأنزل الله هذه الآية.[4]

﴿أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

وفي إنكار اليهود للآيات الواضحات، والدلائل القاطعات على صدق رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نقضا منهم للعهد الذي أخذه الله تعالى عليهم بقوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ

---

١ - رواه البخاري- كِتَابُ فَضَائِلِ القُرْآنِ، بَابٌ: كَيْفَ نَزَلَ الوَحْيُ، وَأَوَّلُ مَا نَزَلَ، حديث رقم: ٤٩٨١، ومسلم- كِتَابُ الْإِيمَانِ، بَابُ وُجُوبِ الْإِيمَانِ بِرِسَالَةِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى جَمِيعِ النَّاسِ، وَنَسْخِ الْمِلَلِ بِمِلَّتِهِ، حديث رقم: ١٥٢

٢ - سُورَةُ يُونُسَ: الآية/ ٩٦، ٩٧

٣ - سورة الْبَقَرَةِ: الآية/ ١٤٥

٤ - رواه الطبري انظر جامع البيان (٢/ ٣٠٥)

كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾.[1]

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: مَا بَعَثَ اللَّهُ نَبِيًّا إِلَّا أَخَذَ عَلَيْهِ الْعَهْدَ: لَئِنْ بُعِثَ مُحَمَّدٌ وَهُوَ حَيٌّ لَيَتَّبِعَنَّهُ، وَأَخَذَ عَلَيْهِ أَنْ يَأْخُذَ عَلَى أُمَّتِهِ لَئِنْ بُعِثَ مُحَمَّدٌ وَهُمْ أَحْيَاءٌ لَيَتَّبِعُنَّهُ وَيَنْصُرُنَّهُ.

وإنما قال الله تعالى: ﴿نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ﴾، و لم يقل نَبَذُوهُ مراعاة لمن آمن منهم كعبد الله بن سلام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

فالأمر ليس كما يزعمون أنهم لم يروا آية على صدق نبوته، وإنما هم قوم لا إيمان عندهم، ولا دين لهم فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا إِيمَانَ لِمَنْ لَا أَمَانَةَ لَهُ، وَلَا دِينَ لِمَنْ لَا عَهْدَ لَهُ».[2]

﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾.

يخبر الله تعال عن حال اليهود بعد بعثة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأنهم: ﴿لَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ لأنه أرسل إلى الناس جميعًا وليس إلى العرب فحسب، كما تزعم ذلك طائفة الإسماعلية من اليهود، بل أرسله الله تعالى إلى جميع الناس؛ كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾.[3]

وهذا من خصائصه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقد كَانَ كُلُّ نَبِيٍّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً، وَبُعِثَ رَسُولُ اللهِ محمدٌ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى النَّاسِ كافةً؛ فعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ الْأَنْصَارِيِّ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي، كَانَ كُلُّ نَبِيٍّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً، وَبُعِثْتُ إِلَى كُلِّ أَحْمَرَ وَأَسْوَدَ، وَأُحِلَّتْ لِيَ الْغَنَائِمُ، وَلَمْ تُحَلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي، وَجُعِلَتْ لِيَ الْأَرْضُ طَيِّبَةً طَهُورًا

---

١ – سورة آل عِمْرَانَ: الآية/ ٨١

٢ – رواه أحمد– حديث رقم: ١٣٦٣٧، وابن حبان–بَابُ فَرْضِ الْإِيمَانِ، ذِكْرُ خَبَرٍ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِهَذِهِ الْأَخْبَارِ نَفْيُ الْأَمْرِ عَنِ الشَّيْءِ لِلنَّقْصِ عَنِ الْكَمَالِ، حديث رقم: ١٩٤، بسند صحيح

٣ – سورة الأعراف: الآية/ ١٥٨

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وَمَسْجِدًا، فَأَيُّمَا رَجُلٍ أَدْرَكَتْهُ الصَّلَاةُ صَلَّى حَيْثُ كَانَ، وَنُصِرْتُ بِالرُّعْبِ بَيْنَ يَدَيْ مَسِيرَةِ شَهْرٍ، وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ».[1]

﴿مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ﴾.

وأرسل الله رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ، وذلك أدعى لقبولهم دعوته وللإيمان به.

﴿نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

اعْرَضَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ عَلى التَّوْرَاةِ التي فيها الأمر باتباع نبي الله محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا بعث، ورموا بِهَا وَرَاءَ ظهورهم اسْتِغْنَاءً عَنْهَا.

﴿كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾. فيه دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّهُمْ نَبَذُوهُ عَنْ عِلْمٍ وَمَعْرِفَةٍ؛ لِأَنَّهُ لَا يُقَالُ ذَلِكَ إِلَّا فِيمَنْ يَعْلَمُ، فقد كَانُوا يَعْلَمُونَ صِحَّةَ نُبُوَّتِهِ إِلَّا أَنَّهُمْ جَحَدُوا مَا يَعْلَمُونَ.

---

١ - رواه البخاري- كِتَابُ التَّيَمُّمِ، وَقَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: {فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا، فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ} [المائدة: ٦]، حديث رقم: ٣٣٥، ومسلم- كِتَابُ الْمَسَاجِدِ وَمَوَاضِعِ الصَّلَاةِ، باب جُعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا، حديث رقم: ٥٢١

قَولُهُ تَعَالَى: ﴿وَاتَّبَعُوا ما تَتْلُوا الشَّياطِينُ عَلى مُلْكِ سُلَيْمانَ وَما كَفَرَ سُلَيْمانُ وَلكِنَّ الشَّياطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَما أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبابِلَ هارُوتَ وَمارُوتَ وَما يُعَلِّمانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولا إِنَّما نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُما مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَما هُمْ بِضارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَراهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ﴾. الآية/ ١٠٢

هذه صورة أخرى من صور الخزي التي لا تكاد تنتهي عند اليهود، وذلك أن الله تعالى لما أرسل إليهم رسولا من عنده يعرفونه كما يعرفون أبناءهم، ولا يشكون في صدقه، لما يعلمونه من صفاته المذكورة في التوراة، أعرضوا عن التوراة التي بين أيديهم، التي فيها صفاته، وفيها الأمر باتباعه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شيئًا من ذلك، وكتموا ما عندهم من علم بذلك، كما قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.[1]

وسعوا لطمس نور الإسلام بكل سبيل، وحاولوا أن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بكل وسيلة مهما كانت وضيعة، ومن تلك الوسائل التي استعملها اليهود في حربهم لدين الله السحرُ.

﴿وَاتَّبَعُوا ما تَتْلُوا الشَّياطِينُ عَلى مُلْكِ سُلَيْمانَ﴾.

ومما استعملوه من السحر في حربهم على الإسلام والمسلمين، سِحْرُهُم رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فعَنْ عَائِشَةَ، قَالَتْ: سَحَرَ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَهُودِيٌّ مِنْ يَهُودِ بَنِي زُرَيْقٍ، يُقَالُ لَهُ: لَبِيدُ بْنُ الْأَعْصَمِ: قَالَتْ حَتَّى كَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ أَنَّهُ يَفْعَلُ الشَّيْءَ، وَمَا يَفْعَلُهُ، حَتَّى إِذَا كَانَ ذَاتَ يَوْمٍ، أَوْ ذَاتَ لَيْلَةٍ، دَعَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثُمَّ دَعَا، ثُمَّ دَعَا، ثُمَّ قَالَ: " يَا عَائِشَةُ أَشَعَرْتِ أَنَّ اللهَ أَفْتَانِي فِيمَا اسْتَفْتَيْتُهُ فِيهِ؟ جَاءَنِي رَجُلَانِ فَقَعَدَ أَحَدُهُمَا عِنْدَ رَأْسِي وَالْآخَرُ عِنْدَ رِجْلَيَّ، فَقَالَ الَّذِي عِنْدَ رَأْسِي لِلَّذِي عِنْدَ رِجْلَيَّ، أَوِ الَّذِي عِنْدَ رِجْلَيَّ لِلَّذِي عِنْدَ رَأْسِي: مَا وَجَعُ الرَّجُلِ؟ قَالَ: مَطْبُوبٌ، قَالَ: مَنْ طَبَّهُ؟ قَالَ: لَبِيدُ بْنُ الْأَعْصَمِ، قَالَ: فِي أَيِّ شَيْءٍ؟ قَالَ: فِي مُشْطٍ وَمُشَاطَةٍ، قَالَ: وَجُفِّ طَلْعَةِ ذَكَرٍ، قَالَ: فَأَيْنَ هُوَ؟ قَالَ: فِي بِئْرِ ذِي أَرْوَانَ " قَالَتْ: فَأَتَاهَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي أُنَاسٍ مِنْ أَصْحَابِهِ، ثُمَّ قَالَ: «يَا عَائِشَةُ وَاللهِ لَكَأَنَّ مَاءَهَا نُقَاعَةُ الْحِنَّاءِ، وَلَكَأَنَّ

---

١ - سُورَةُ الْبَقَرَةِ: الآية/ ١٠١

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

نَخْلَهَا رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ» قَالَتْ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ أَفَلَا أَحْرَقْتَهُ؟ قَالَ: «لَا أَمَّا أَنَا فَقَدْ عَافَانِي اللهُ، وَكَرِهْتُ أَنْ أُثِيرَ عَلَى النَّاسِ شَرًّا، فَأَمَرْتُ بِهَا فَدُفِنَتْ».[1]

ولقد اشتهر الْيَهُودُ بالسِّحْرِ، وَهُمْ - لَعَنَهُمُ اللَّهُ - أكثرُ الناسِ استعمالًا للسحرِ، ومن قبائحهم وسوء معتقدهم في الأنبياء عليهم السلام أنهم نسبوا السحرَ لنبي الله سليمان عليه السلام، فهم لا يعتقدون أنه نبي، ويعتقدون أنه إنما كان يسخر الجن والريح بالسحر.

روى ابنُ جريرٍ عن مُحَمَّدِ بْنِ إِسْحَاقَ قَالَ: عَمَدَتِ الشَّيَاطِينُ حِينَ عَرَفَتْ مَوْتَ سُلَيْمَانَ بْنِ دَاوُدَ، عَلَيْهِ السَّلَامُ فَكَتَبُوا أَصْنَافَ السِّحْرِ: "مَنْ كَانَ يُحِبُّ أَنْ يَبْلُغَ كَذَا وَكَذَا فَلْيَقُلْ كَذَا وَكَذَا"، حَتَّى إِذَا صَنَّفُوا أَصْنَافَ السِّحْرِ جَعَلُوهُ فِي كِتَابٍ، ثُمَّ خَتَمُوا بِخَاتَمٍ عَلَى نَقْشِ خَاتَمِ سُلَيْمَانَ، وَكَتَبُوا فِي عُنْوَانِهِ: "هذا ما كتب آصف بن برخيا الصِّدِّيقُ لِلْمَلِكِ سُلَيْمَانَ بْنِ دَاوُدَ، عَلَيْهِمَا السَّلَامُ مِنْ ذَخَائِرِ كُنُوزِ الْعِلْمِ". ثُمَّ دَفَنُوهُ تَحْتَ كُرْسِيِّهِ وَاسْتَخْرَجَتْهُ بَعْدَ ذَلِكَ بَقَايَا بَنِي إِسْرَائِيلَ حَتَّى أَحْدَثُوا مَا أَحْدَثُوا. فَلَمَّا عَثَرُوا عَلَيْهِ قَالُوا: وَاللَّهِ مَا كَانَ سُلَيْمَانُ بْنُ دَاوُدَ إِلَّا بِهَذَا. فَأَفْشَوُا السِّحْرَ فِي النَّاسِ وَتَعَلَّمُوهُ وَعَلَّمُوهُ، فَلَيْسَ فِي أَحَدٍ أَكْثَرَ مِنْهُ فِي يَهُودَ.[2]

وقوله تعالى: ﴿وَاتَّبَعُوا ما تَتْلُوا الشَّياطِينُ عَلى مُلْكِ سُلَيْمانَ﴾، أي اتبع اليهود ما تَتَقَوَّلُ به الشَّياطِينُ وتختلقه، وتفتريه على نبي الله سُلَيْمانَ عليه السلام بقولهم إنه كان ساحرًا، وعلى نُبُوَّتِهِ وشريعتِهِ بزعمهم أنه ما كان نبيًا، فضُمِّنَ الْفِعْلُ ﴿تَتْلُوا﴾ مَعْنَى التَقَوَّلِ والإفتراء.

﴿وَما كَفَرَ سُلَيْمانُ وَلكِنَّ الشَّياطِينَ كَفَرُوا﴾.

ولما نسب الشَّياطِينُ السِّحْرَ لسُلَيْمانَ عليه السلام، وروج ذلك اليهود تولى الله تعالى الدفاع عن نبيه سُلَيْمانَ عليه السلام فنفى عنه السحر ونسبه للشَّياطِينِ، فهم الذين أحدثوه وهم الذين علموه الناس، وبين سبحانه حكم تعاطي السحر وأنه كفر بالله تعالى؛ وقد استدل العلماء بهذه الآية على كفر من يعلم الناس السحر، فَقَوْلُهُ: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ﴾ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ لَوْ كَانَ سَاحِرًا وَحَاشَاهُ مِنْ ذَلِكَ لَكَانَ كَافِرًا، وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾. صَرِيحٌ فِي كُفْرِ مُعَلِّمِ السِّحْرِ.[3]

---

١ - رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ- كِتَابُ الطِّبِّ، بَابُ السِّحْرِ، حديث رقم: ٥٧٦٣، وَمُسْلِمٌ- كتاب السَّلَامِ، بَابُ السِّحْرِ، حديث رقم: ٢١٨٩

٢ - تفسير الطبري (٢/ ٣١٦)

٣ - أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (٤/ ٣٩)

﴿وَما أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبابِلَ هارُوتَ وَمارُوتَ﴾.

لما زعم الْيَهُودُ - لَعَنَهُمُ اللَّهُ - أَنَّ جِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ عليهما السلام نزلًا بالسحر وأنهما كانا يعلمانه للناس كَذَّبَهُمُ اللَّهُ تعالى كما تولى الدفاع عن نبيه سليمان عليه السلام، فقال: ﴿وَما أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ﴾ والمقصود بالملكين هنا جِبْرِيلُ وَمِيكَائِيلُ، و﴿مَا﴾ هُنَا نَافِيَةٌ وَمَعْطُوفَةٌ عَلَى قَوْلِهِ: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ﴾، فاللَّهُ لَمْ يُنْزِلِ السِّحْرَ، و لم يأمر بتعلمه ولا بتعليمه، وإنما هذا من افتراءات اليهود ومن فعل الشياطين، رَوَى ابْنُ جَرِيرٍ بِإِسْنَادِهِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ﴾ يَقُولُ: لَمْ يُنْزِلِ اللَّهُ السِّحْرَ.

ومما يدل على ذلك أيضًا أن السحر كان موجودًا قبل سليمان عليه السلام لِأَنَّ السَّحَرَةَ كَانُوا فِي زَمَانِ مُوسَى، عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَسُلَيْمَانُ بْنُ دَاوُدَ بَعْدَهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾.[1]

ثُمَّ ذَكَرَ الْقِصَّةَ بَعْدَهَا، وَفِيهَا: ﴿وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ﴾.[2]

وَقَالَ قَوْمُ صَالِحٍ وَهُمْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ، عَلَيْهِ السَّلَامُ، لَنَبِيِّهِمْ صَالِحٍ: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾.[3]

وَقَوْلُهُ تعالى: ﴿هَارُوتَ وَمَارُوتَ﴾ بَدَلٌ مِنَ: ﴿الشَّيَاطِينَ﴾، ففي الآية تقديم وتأخير، قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: فَتَأْوِيلُ الْآيَةِ عَلَى هَذَا: وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ مِنَ السِّحْرِ، وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ، وَلَا أَنْزَلَ اللَّهُ السِّحْرَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ، وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ بِبَابِلَ، هَارُوتَ وَمَارُوتَ، وذكر هَارُوتَ وَمَارُوتَ بعد الشَّيَاطِينِ من باب ذكر الخاص بعد العام والمعنى وأخصُّ هَارُوتَ وَمَارُوتَ بالذكر مِنْ بَيْنِ الشَّيَاطِينِ لِتَمَرُّدِهِمَا، وتوليهما تعليم الناس السحر أكثر من غيرهما.

قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ رحمه الله: فَيَكُونُ حِينَئِذٍ قَوْلُهُ: ﴿بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ﴾ مِنَ الْمُؤَخَّرِ الَّذِي مَعْنَاهُ التَّقْدِيمُ. فَإِنْ قَالَ لَنَا قَائِلٌ: وَكَيْفَ وَجْهُ تَقْدِيمِ ذَلِكَ؟ قِيلَ: وَجْهُ تَقْدِيمِهِ أَنْ يُقَالَ: وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ، وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ. فَيَكُونُ مَعْنِيًّا بِالْمَلَكَيْنِ: جِبْرِيلُ وَمِيكَائِيلُ؛ لِأَنَّ سَحَرَةَ الْيَهُودِ فِيمَا ذُكِرَ كَانَتْ تَزْعُمُ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ السِّحْرَ عَلَى لِسَانِ جِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ إِلَى سُلَيْمَانَ بْنِ دَاوُدَ.

---

١ - سورة الْبَقَرَةِ: الْآيَةَ/ ٢٤٦

٢ - سورة الْبَقَرَةِ: الْآيَةَ/ ٢٥١

٣ - سورة الشُّعَرَاءِ: الآية/ ١٥٣

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

فَأَكْذَبَهَا اللَّهُ بِذَلِكَ وَأَخْبَرَ نَبِيَّهُ مُحَمَّدًا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّ جِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ لَمْ يَنْزِلَا بِسِحْرٍ قَطُّ، وَبَرَّأَ سُلَيْمَانَ مِمَّا نَحَلُوهُ مِنَ السِّحْرِ، فَأَخْبَرَهُمْ أَنَّ السِّحْرَ مِنْ عَمَلِ الشَّيَاطِينِ، وَأَنَّهَا تُعَلِّمُ النَّاسَ بِبَابِلَ، وَأَنَّ الَّذِينَ يُعَلِّمُونَهُمْ ذَلِكَ رَجُلَانِ اسْمُ أَحَدِهِمَا هَارُوتَ وَاسْمُ الْآخَرِ مَارُوتَ؛ فَيَكُونُ هَارُوتُ وَمَارُوتُ عَلَى هَذَا التَّأْوِيلِ تَرْجَمَةً عَلَى النَّاسِ وَرَدًّا عَلَيْهِمْ.[1]

وقد شحن كثير من المفسرين كتبهم في هذا الموضع بقصص ما أنزل الله بها من سلطان، ولا أساس لها من الصحة، ولا تقوم على ساق، وكان الأولى أن تُنَزَهَ كتب التفسير عن هذه الروايات التي ليس لها مستند، وليس من ورائها طائل، بل فيها ما يسيء إلى الملائكة، وإلى رسل الله تعالى، وإلى دين الله عز وجل، لذلك أضربنا صفحًا عنها، وأعرضنا قصدًا عن ذكرها.

وَقَالَ الْقُرْطُبِيُّ بعد ذكر ما أوردناه في الآية من أن ﴿مَا﴾ هُنَا نَافِيَةٌ وَمَعْطُوفَةٌ عَلَى قَوْلِهِ: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ﴾، قَالَ: هَذَا أَوْلَى مَا حُمِلَتْ عَلَيْهِ الْآيَةُ مِنَ التَّأْوِيلِ، وَأَصَحُّ مَا قِيلَ فِيهَا وَلَا يُلْتَفَتُ إِلَى سِوَاهُ.

والسحر في اللغة: عبارة عما خفي ولطف سببه.

وفي الشرع: عزائم ورقى وعقد يؤثر في القلوب والأبدان فيمرض، ويقتل، ويُفَرِّقُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ.

وحقيقته أنه كلام مؤلف يعظم به غير الله تعالى، وتنسب إليه فيه المقادير والكائنات.[2]

والسحر أنواع منها ما هو تخييل وأوهام، ومنه ما هو حقيقة وتأثير بالموت والمرض وغير ذلك.

قال الشيخ حافظ بن أحمد الحكمي رحمه الله تعالى:

وَالسِّحْرُ حَقٌّ وَلَهُ تَأْثِيرُ ***** لَكِنْ بِمَا قَدَّرَهُ الْقَدِيرُ

أَعْنِي بِذَا التَّقْدِيرِ مَا قَدْ قَدَّرَهْ ***** فِي الْكَوْنِ لَا فِي الشِّرْعَةِ الْمُطَهَّرَهْ

١- تفسيرالطبري (٢/ ٣٣٢)

٢ - أحكام القرآن (١/ ١٤)

﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾.

قلنا أنَّ هارُوتَ وَمارُوتَ كان من الشياطين أو أنهما رجلان تعلما السحر من الشياطين وأخذا في تعليم الناس له، فإذا تعلم منهما أحدٌ من الناس السحر قالا له بعد تعلمه: ﴿إِنَّما نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ﴾، عَلَى سَبِيلِ الِاسْتِهْزَاءِ، لَا عَلَى سَبِيلِ النَّصِيحَةِ، وتقنيطًا له من رحمة الله، وتبرأً منه، وهذا شأن الشَّيْطَانِ مع الإنْسَانِ دائمًا؛ كما قَالَ تَعَالَى: ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ﴾.[1]

وكما يقول لهم يوم القيامة اسْتِهْزَاءً بهم وسخرية منها، وتبرؤًا من طاعتهم له، وتخلصًا من تبعة إضلالهم، ما حكاه اللَّهُ تَعَالَى عنه بقوله: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.[2]

وقولهم: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ﴾، الفِتْنَةُ تأتي في كتاب اللَّهِ تَعَالَى ويراد بها عدة معان:

منها الإبتلاء، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّما أَمْوالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾.[3]

ويراد بالفتنةِ العذاب، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾.[4]

ويراد بها الضلال، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلا تَفْتِنِّي أَلا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾.[5]

وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَما آمَنَ لِمُوسى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَائِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ﴾.[6]

وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لاتَّخَذُوكَ خَلِيلا﴾.[7]

---

١ – سُورَةُ الْحَشْرِ: الآية/ ١٦

٢ – سُورَةُ إبرَاهيمَ: الآية/ ٢٢

٣ – سُورَةُ التغابن: الآية/ ١٥

٤ – سُورَةُ الأنفال: الآية/ ٢٥

٥ – سورة التوبة: الآية/ ٤٩

٦ – سُورَةُ يونسَ: الآية/ ٨٣

٧ – سُورَةُ الإِسْرَاءِ: الآية/ ٧٣

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

والمراد بالفتنة هنا المعنى الأخير وهو الضلال، وكما قلنا فقد قالوا ذلك سخرية واستهزاءً، لمن تعلم منهم، وقطعًا لطريق عودته عما شرع فيه من السحر.

قال الطاهر بن عاشور رحمه الله: وَالْإِخْبَارُ عَنْ أَنْفُسِهِمْ بِأَنَّهُمْ فِتْنَةٌ إِخْبَارٌ بِالْمَصْدَرِ لِلْمُبَالَغَةِ وَقَدْ أُكِّدَتِ الْمُبَالَغَةُ بِالْحَصْرِ الْإِضَافِيِّ وَالْمَقْصِدُ مِنْ ذَلِكَ أَنَّهُمَا كَانَا يُصَرِّحَانِ أَنْ لَيْسَ فِي عِلْمِهِمَا شَيْءٌ مِنَ الْخَيْرِ الْإِلَهِيِّ وَأَنَّهُ فِتْنَةٌ مَحْضَةٌ.[1]

وقوله: ﴿فَلَا تَكْفُرْ﴾. دليلٌ ثان في هذه الآية على أن تعلمَ السحرِ كفرٌ بالله تعالى، وَعَلَى أَنَّ السَّاحِرَ كَافِرٌ بالله تعالى؛ ولذلك ثبت عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا هُنَّ؟ قَالَ: «الشِّرْكُ بِاللَّهِ، وَالسِّحْرُ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالحَقِّ، وَأَكْلُ الرِّبَا، وَأَكْلُ مَالِ اليَتِيمِ، وَالتَّوَلِّي يَوْمَ الزَّحْفِ، وَقَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ الغَافِلاَتِ».[2]

ومعنى المُوبِقَاتِ: المهلكات.

وَعَنْ جُنْدُبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «حَدُّ السَّاحِرِ ضَرْبَةٌ بِالسَّيْفِ».[3]

وَعَنْ بَجَالَةَ بْنِ عَبْدَةَ قَالَ: كُنْتُ كَاتِبًا لِجَزْءِ بْنِ مُعَاوِيَةَ عَمِّ الْأَحْنَفِ بْنِ قَيْسٍ، فَأَتَانَا كِتَابُ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَبْلَ مَوْتِهِ بِسَنَةٍ: «أَنِ اقْتُلُوا كُلَّ سَاحِرٍ وَسَاحِرَةٍ».[4]

﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ﴾.

---

١ - التحرير والتنوير (١/ ٦٤٣)

٢ - رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ- كِتَابُ الوَصَايَا، بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: {إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ اليَتَامَى ظُلْمًا، إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا} [النساء: ١٠]، حديث رقم: ٢٧٦٦، وَمُسْلِمٌ- كِتَابُ الْإِيمَانَ، بَابُ بَيَانِ الْكَبَائِرِ وَأَكْبَرِهَا، حديث رقم: ٨٩

٣ - رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ- أَبْوَابُ الْحُدُودِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بَابُ مَا جَاءَ فِي حَدِّ السَّاحِرِ، حديث رقم: ١٤٦٠، وَالدَّارَقُطْنِيُّ- كِتَابُ الْحُدُودِ وَالدِّيَاتِ وَغَيْرُهُ، حديث رقم: ٣٢٠٤، والحاكم في مستدركه- كِتَابُ الْحُدُودِ، حديث رقم: ٨٠٧٣ ، والطبراني في الكبير- حديث رقم: ١٦٦٥، بسند ضعيف

٤ - رَوَاهُ أَحْمَدُ- حديث رقم: ١٦٥٧، وَأَبُو دَاوُدَ- كِتَاب الْخَرَاجِ وَالْإِمَارَةِ وَالْفَيْءِ، بَابٌ فِي أَخْذِ الْجِزْيَةِ مِنَ الْمَجُوسِ، حديث رقم: ٣٠٤٣، بسند صحيح

يخبر الله تعالى أن هَارُوتَ وَمَارُوتَ أخذا في تعليم الناس السحرَ، فَتَعَلَّمَ النَّاسُ مِنْهما مِنْ السِّحْرِ مَا يَتَصَرَّفُونَ بِهِ فِي أحوال الناس من قطع المودات، ونشر العداوات، وإمراض الأصحاء، وإزهاق الأرواح، ولما كان أكثر الأمور وقوعًا بسبب السحر التفريق بين الزوجين، ذكره الله تعالى، فالتفريق بين الزَّوْجَيْنِ خَرَجَ عَلَى الْأَغْلَبِ، وليس كما قال بعض العلماء أَنَّ السَّاحِرَ لَيْسَ يَقْدِرُ عَلَى أَكْثَرِ مِمَّا أَخْبَرَ اللَّهُ عَنْهُ مِنَ التَّفْرِقَةِ، لِأَنَّ اللَّهَ ذَكَرَ ذَلِكَ فِي مَعْرِضِ الذَّمِّ لِلسِّحْرِ وَالْغَايَةِ فِي تَعْلِيمِهِ، فَلَوْ كَانَ يَقْدِرُ عَلَى أَكْثَرِ مِنْ ذَلِكَ لَذَكَرَهُ.

فمن سحرهم أَنَّهُمْ يُفَرِّقُونَ بَيْنَ الزَّوْجَيْنِ مَعَ مَا بَيْنَهُمَا مِنَ الْمَوَدَّةِ وَالرَحْمَةِ، كما قال تعالى: ﴿**وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً**﴾.[1]

فيُخَيِّلُ السَّاحِرُ إِلَى الزَّوْجَيْنِ أو إِلَى أحدهما أن الْآخَرَ قبيحُ الْمَنْظَرِ، سيءُ الصورةِ، فاسدُ الطبعِ، دنيءُ الأصلِ، حتى يُلقِي البغضَ في قلبه، فيؤول أمرهما إلى الفرقة بعد الاجتماع، وإلى البغض بعد المحبة.

وفي هذا دليل على أن السحر ما أنزله الله تعالى ولا أمر به، بل هو من فعل الشياطين، فإن التفريق بين المتآلفين من أفعال الشياطين، كما ثبت ذلك عَنْ جَابِرٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ إِبْلِيسَ يَضَعُ عَرْشَهُ عَلَى الْمَاءِ، ثُمَّ يَبْعَثُ سَرَايَاهُ، فَأَدْنَاهُمْ مِنْهُ مَنْزِلَةً أَعْظَمُهُمْ فِتْنَةً، يَجِيءُ أَحَدُهُمْ فَيَقُولُ: فَعَلْتُ كَذَا وَكَذَا، فَيَقُولُ: مَا صَنَعْتَ شَيْئًا، قَالَ ثُمَّ يَجِيءُ أَحَدُهُمْ فَيَقُولُ: مَا تَرَكْتُهُ حَتَّى فَرَّقْتُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ امْرَأَتِهِ، قَالَ: فَيُدْنِيهِ مِنْهُ وَيَقُولُ: نِعْمَ أَنْتَ». قَالَ الْأَعْمَشُ: أُرَاهُ قَالَ: «فَيَلْتَزِمُهُ».[2]

وهذه الْآيَةُ تَدُلُّ دلالةً قاطعةً عَلَى أَنَّ السحرَ لَهُ وُجُودٌ حَقِيقِيٌّ، وأنه يكون سَبَبًا لِلتَّفْرِيقِ بَيْنَ الرَّجُلِ وَامْرَأَتِهِ، وَمِمَّا يَدُلُّ عَلَى عَلَى أَنَّ السحرَ لَهُ وُجُودٌ حَقِيقِيٌّ أَيْضًا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿**قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ (١) مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ (٢) وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ (٣) وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ**﴾.[3]

يَعْنِي السَّوَاحِرَ اللَّاتِي يَعْقِدْنَ فِي سِحْرِهِنَّ وَيَنْفُثْنَ فِي عُقَدِهِنَّ. فَلَوْلَا أَنَّ السِّحْرَ حَقِيقَةٌ لَمْ يَأْمُرِ اللَّهُ بِالِاسْتِعَاذَةِ مِنْهُ.

---

١ - سُورَةُ الرُّومِ: الآية/ ٢١

٢ - رَوَاهُ مُسْلِمٌ- كتاب صِفَةِ الْقِيَامَةِ وَالْجَنَّةِ وَالنَّارِ، بَابُ تَحْرِيشِ الشَّيْطَانِ وَبَعْثِهِ سَرَايَاهُ لِفِتْنَةِ النَّاسِ وَأَنَّ مَعَ كُلِّ إِنْسَانٍ قَرِينًا، حديث رقم: ٢٨١٣

٣ - سورة الْفَلَقِ: الآية/ ١: ٤

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

﴿وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾.

فلا يجري شيء في الكون بغير إذن الله تعالى، ولا يخرج شيء من الخلق عن إرادته تعالى.

فَكُـــلُّ شَـــيْءٍ بِقَضَـــاءٍ وَقَـــدَرْ ***** وَالْكُلُّ فِـــي أُمِّ الْكِتَـــابِ مُسْـــتَطَرْ

فعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما، قَالَ: كُنْتُ خَلْفَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمًا، فَقَالَ: «يَاغُلَامُ إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ، احْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الأَقْلَامُ وَجَفَّتْ الصُّحُفُ».[1]

﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنْفَعُهُمْ﴾.

ضَرَرُ السحر لَا يَقْتَصِرُ عَلَى مَنْ يُعْمَلُ له، بَلْ هُوَ أَيْضًا يَضُرُّ مَنْ تَعَلَّمَهُ، وفي هذا ردٌّ على من أجاز تعلمه، وهو ضرر لا نفع فيه، وقد يكون الشيء مستويًا في الضرر والنفع، وقد يزيد ضرره على نفعه وقد يزيد نفعه على ما فيه من ضرر، وقد يكون نفعًا محضًا، وقد يكون ضررًا محضًا، والسحر من هذا النوع الأخير الذي هو ضرر لا نفع فيه.

قال أبو حيان: وَلَمَّا كَانَ إِثْبَاتُ الضَّرَرِ بِشَيْءٍ لَا يَنْفِي النَّفْعَ، لِأَنَّهُ قَدْ يُوجَدُ الشَّيْءُ فَيَحْصُلُ بِهِ الضَّرَرُ وَيَحْصُلُ بِهِ النَّفْعُ، نَفَى النَّفْعَ عَنْهُ بِالْكُلِّيَّةِ، وَأَتَى بِلَفْظِ لَا، لِأَنَّهَا يُنْفَى بِهَا الْحَالُ وَالْمُسْتَقْبَلُ.[2]

﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ﴾.

وَلَقَدْ عَلِمَ هؤلاء الذين يَتَعَلَّمُونَ السِّحْرَ، الَّذِينَ اسْتَبْدَلُوه بالْإِيمَانِ، أَنَّهم ليس لَهُم فِي الْآخِرَةِ مِنْ نصيب، لأنهم ليس لهم حظ من الْإِيمَانِ.

---

١ - رواه أحمد- حديث رقم: ٢٦٦٩، والترمذي- أَبْوَابُ صِفَةِ الْقِيَامَةِ وَالرَّقَائِقِ وَالْوَرَعِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بَابٌ، حديث رقم: ٢٥١٦، بسند صحيح

٢ - البحر المحيط في التفسير (١/ ٥٣٤)

ويحتمل أن يعود الضمير على الْيَهُودُ الَّذِينَ نبذوا كتاب الله وراءهم واشتغلوا بالسحر، فيكون المعنى وَلَقَدْ عَلِمَ الْيَهُودُ الَّذِينَ استغنوا بالسِّحْرِ عَنْ كِتَابِ اللَّهِ تعالى الذي بين أيديهم يأمرهم بمُتَابَعَةِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلِمُوا فِيمَا عَهِدَ اللَّهُ إِلَيْهِمْ أَنَّ السِّحْرَ كفرٌ، وأَنَّ السَّاحِرَ لَا حظ لَهُ فِي الْآخِرَةِ.

وَإنما ذكر الله تعالى لفظ الِاشْتِرَاءِ هنا لبيان أن من يتعاطى السحر لابد أن يبذل فيه ثمنًا، وهذا الثمن هو الإيمان، فإن الِاشْتِرَاءَ هُوَ اكْتِسَابُ شَيْءٍ بِبَذْلِ ثمنه، ولا شك أن هذه أعظم خسارة للعبد أن يبذل إيمانه في مقابل شيء مهما كان عظيما في نظره.

وهذا هو الموضع الثالث الذي يدل على أن السحر كفر بالله تعالى وأن تعلمه إفساد لدين العبد، وضياع للإيمان.

﴿وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ﴾.

بِئْسَ الفعل فعلهم فقد بَاعُوا أَنْفُسَهُمْ للشيطان عندمَا رضوا أن يستَبْدَلُوا السِّحْرَ عِوَضًا عَنِ الْإِيمَانِ، ومعنى ﴿شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ﴾ أي: بَاعُوا أَنْفُسَهُمْ بِهِ؛ لأنَّ السَّاحِرَ خَسِرَ نفسَهُ لما خَسِرَ إيمانَهُ.

لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ مدي خسارتهم وإلى أي حد بلغ غبنهم، فقد خسروا النعيم المقيم في دار الخلود، خسروا رضوان رب العلمين، وباؤوا بسخط جبار السموات والأراضين، فبئس الحال حالهم، وبئس البيع بيعهم، وبئس المآل مآلهم.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ﴾. الآية/ ١٠٣

لما ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى مَخَازِي الْيَهُودِ وَمَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنْ فسادِ الطوية وَخُبْثِ السَّرِيرَةِ، والمخالفة الظاهرة لِأَوَامِرِ اللَّهِ تَعَالَى، والصدِ عن سبيله، وَنَصْبِ الْمُعَادَاةِ لِلَمَائِكَةِ اللَّهِ وَرُسُلِهِ، إلى حَدٍ أَنَّهُمْ تَرَكُوا كِتَابَ اللَّهِ وَاتَّبَعُوا السِّحْرَ الذي أَلْقَتْهُ إِلَيْهِمُ الشَّيَاطِينُ مِنْ عَهْدِ سُلَيْمَانَ، لصدِ الناس عن الإيمان بخاتم الأنبياء صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وتنفيرِ الناس عن دينه.

ذكر الله تعالى أَنَّهُمْ لَوْ كانوا آمَنُوا باللَّهِ وَاتَّقَوْا أسباب سخطه عز وجل، واتبعوا رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لوجدوا ثواب ذلك عند الله تعالى، فإنه لا يفلح من حارب الله تعالى، ولا يفوز أبدًا من كان الله خصمًا له.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا﴾.

وفي هذه الآية دليل آخر على أن السحر كفر بالله تعالى، فإنهم اختاروا لأنفسهم السحر، والسحر لا يجامع الإيمان أبدًا، فلو أَنَّهُمْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَاتَّقَوُا ما حرمه الله تعالى عليهم ومنه السحر لكان سبب فوزهم ونجاتهم.

﴿لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ﴾.

وَمَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَمَثُوبَةٌ﴾، أَيْ لَثَوَابٌ، وَهُوَ الْجَزَاءُ وَالْأَجْرُ عَلَى الْإِيمَانِ وَالتَّقْوَى بِأَنْوَاعِ الْإِحْسَانِ.

وَوَصْفُ الْمَثُوبَةِ بِكَوْنِهَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، تَفْخِيمٌ لَهَا وَتَعْظِيمٌ لشأنها، وَالْمَعْنَى: وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِاللَّهِ تَعَالَى وَاتَّقَوُا محارمه وأسبابَ سخطهِ لتولى الله تعالى ثوابهم، فَإنه هُوَ الْمُتَكَفِّلُ بِذَلِكَ.

وفي تَنْكِيرِ لفظ مَثُوبَةِ بيان أن أدنى شَيْءٍ مِنَ الثَّوَابِ خَيْرٌ لهم من الدنيا وما فيها، لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ أثر الإيمان على صاحبه، وَعِظَم المثوبة من الله تعالى.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.
الآية/ ١٠٤

هذه صورة أخرى من صور الخزي، التي لا تنتهي عند اليهود عليهم لعائن الله، ومظهر من مظاهر الفسق الذي يلازمهم ولا ينفك عنهم بحال، وأمارة من أمارات الكفر المتجذر في نفوسهم، وذلك أنهم كانوا إِذَا أَرَادُوا مخاطبة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قالوا: يا محمد رَاعِنَا، فيظن السامع لهم أنهم أَرَادُوا أَنْ يَقُولُوا: يا محمد اسْمَعْ لَنَا، أو أَرْعِنَا سَمْعَكَ، وما قصدوا إلا السب لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ورميه بِالرُّعُونَةِ، فقد كانوا يُورُونَ بقولهم رَاعِنَا عن الرُّعُونَةِ، ولا يقصدون المعنى المتبادر للذهن وهو: اسْمَعْ لَنَا، فهتك الله عز وجل سترهم، وكشف الله عز وجل سرهم، وفضحهم بسوء فعالهم، وخبث طويتهم.

ولما كان هذا اللفظ يحمل معنيين حسنًا وقبيحًا، فالأول مِنَ الْمُرَاعَاةِ، عَلَى مَعْنَى أَرْعِنَا سَمْعَكَ، والثاني: مِنَ الرُّعُونَةِ وهي الحَمَاقَةُ، والأَرْعَنُ: الأَحْمَقُ المسْتَرْخِي ويقال: رَجُلٌ أَرْعَنُ، وَامْرَأَةٌ رَعْنَاءُ.

نهى الله عز وجل المؤمنين عن مخاطبة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ به، تكريمًا لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وتنزيها له عن هذا المعنى القبيح، وإن كان مقصد المسلم حسنًا، ونيته صالحة، وأيضًا زجرًا للمنافقين أن يتجرؤا على شخص النبي الكريم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وفضحًا لليهود الذين يظنون أن المؤمنين لا يدركون مرادهم، ولا يفهمون مغزى كلامهم.

وهذا دأبهم أبدًا، وديدنهم دائمًا، لَيُّ الكلامِ بألسنتهم، وتحريف الكلم عن مواضعه، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلا يُؤْمِنُونَ إِلا قَلِيلا﴾.[1]

وَعَنْ عَائِشَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: دَخَلَ رَهْطٌ مِنَ اليَهُودِ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالُوا: السَّامُ عَلَيْكُمْ، قَالَتْ عَائِشَةُ: فَفَهِمْتُهَا فَقُلْتُ: وَعَلَيْكُمُ السَّامُ وَاللَّعْنَةُ، قَالَتْ: فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَهْلًا يَا عَائِشَةُ، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الرِّفْقَ فِي الأَمْرِ كُلِّهِ» فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَوَلَمْ تَسْمَعْ مَا قَالُوا؟ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " قَدْ قُلْتُ: وَعَلَيْكُمْ ".[2]

---

١ – سورة النِّسَاء: الآية/ ٤٦

٢ – رواه البخاري– كِتَابُ الأَدَبِ، بَابُ الرِّفْقِ فِي الأَمْرِ كُلِّهِ، حديث رقم: ٦٠٢٤، ومسلم– كتاب السَّلَام، بَابُ النَّهْيِ عَنِ ابْتِدَاءِ أَهْلِ الْكِتَابِ بِالسَّلَامِ وَكَيْفَ يُرَدُّ عَلَيْهِمْ، حديث رقم: ٢١٦٥

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ولَمْزُ اليهودِ وتعريضُهم بالنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حياته، وسبُ النصارى وسخريتُهم بالنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في زماننا يدل على أن الكفرَ ملةٌ واحدةٌ، وأنه لا سبيل إلى إرضائهم أبدًا إلا إذا تخلى المؤمنون عن دينهم، واتبعوهم ملتهم، وأن ما يظهر منهم من السخرية والاستهزاء بشخص النبي الكريم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غيض من فيض، وقطرة من بحر، مما تنطوي عليه نفوسهم الخبيثة، وقلوبهم التي أكلها الحقدُ، ﴿قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾.[1]

وهذا مقصدٌ عظيمٌ من مقاصد الشرع الكريم، وهو مراعاة الْمُؤْمِنِينَ للآداب الشرعية في ألفاظهم، ومن ذلك ما ثبت عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا يَقُلْ أَحَدُكُمُ اسْقِ رَبَّكَ، أَطْعِمْ رَبَّكَ، وَضِّئْ رَبَّكَ، وَلَا يَقُلْ أَحَدُكُمْ رَبِّي، وَلْيَقُلْ سَيِّدِي مَوْلَايَ، وَلَا يَقُلْ أَحَدُكُمْ عَبْدِي أَمَتِي، وَلْيَقُلْ فَتَايَ فَتَاتِي غُلَامِي».[2]

ونهى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هم تسمية العنب كَرْمًا فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا يَقُولَنَّ أَحَدُكُمُ الْكَرْمُ، فَإِنَّمَا الْكَرْمُ قَلْبُ الْمُؤْمِنِ».[3]

ونهى عن تسمية الْعِشَاءِ الْعَتَمَةَ فعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَقُولُ: «لَا تَغْلِبَنَّكُمُ الْأَعْرَابُ عَلَى اسْمِ صَلَاتِكُمْ، أَلَا إِنَّهَا الْعِشَاءُ، وَهُمْ يُعْتِمُونَ بِالْإِبِلِ».[4]

ونهى عن تسمية المدينةِ يَثْرِب فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أُمِرْتُ بِقَرْيَةٍ تَأْكُلُ القُرَى، يَقُولُونَ يَثْرِبُ، وَهِيَ الْمَدِينَةُ، تَنْفِي النَّاسَ كَمَا يَنْفِي الكِيرُ خَبَثَ الحَدِيدِ».[5]

وعَنْ جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: كَانَ النَّاسُ يَقُولُونَ: يَثْرِبَ وَالْمَدِينَةَ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ اللهَ سَمَّاهَا طَابَةَ».[1]

---

١ - سُورة آل عِمْرَانَ: الآية/ ١١٨

٢ - رواه البخاري- كِتَاب العِتْق، بَابُ كَرَاهِيَةِ التَّطَاوُلِ عَلَى الرَّقِيقِ، وَقَوْلِهِ: عَبْدِي أَوْ أَمَتِي، حديث رقم: ٢٥٥٢، ومسلم- كتاب الْأَلْفَاظِ مِنَ الْأَدَبِ وَغَيْرِهَا، بَابُ حُكْمِ إِطْلَاقِ لَفْظَةِ الْعَبْدِ، وَالْأَمَةِ، وَالْمَوْلَى، وَالسَّيِّدِ، حديث رقم: ٢٢٤٩

٣ - رواه البخاري- كِتَابُ الأَدَبِ، بَابُ قَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّمَا الكَرْمُ قَلْبُ المُؤْمِنِ»، حديث رقم: ٦١٨٣، ومسلم- كتاب الْأَلْفَاظِ مِنَ الْأَدَبِ وَغَيْرِهَا، بَابُ كَرَاهَةِ تَسْمِيَةِ الْعِنَبِ كَرْمًا، حديث رقم: ٢٢٤٧

٤ - رواه مسلم- كِتَابُ الْمَسَاجِدِ وَمَوَاضِعِ الصَّلَاةِ، بَابُ وَقْتِ الْعِشَاءِ وَتَأْخِيرِهَا، حديث رقم: ٦٤٤، ورواه البخاري عن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُغَفَّلٍ الْمُزَنِيِّ- كِتَابُ مَوَاقِيتِ الصَّلَاةِ، بَابُ مَنْ كَرِهَ أَنْ يُقَالَ لِلْمَغْرِبِ: العِشَاءُ، حديث رقم: ٥٦٣

٥ - رواه البخاري- بَابُ حَرَمِ المَدِينَةِ، بَابُ فَضْلِ المَدِينَةِ وَأَنَّهَا تَنْفِي النَّاسَ، حديث رقم: ١٨٧١، ومسلم- كِتَابُ الْحَجِّ، بَابُ الْمَدِينَةِ تَنْفِي شِرَارَهَا، حديث رقم: ١٣٨٢

﴿وَقُولُوا انْظُرْنَا﴾.

ولما نهى الله عز وجل المؤمنين عن التلفظ بالقبيح من الكلام الذي لا يليق بمنزلة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بين لهم البدل الذي يقولونه في مخاطبتهم لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهو لفظ ليس فيه تعريض ولا وراءه تورية، وهو قول: ﴿انْظُرْنَا﴾.

﴿وَاسْمَعُوا﴾.

أَيْ اسْمَعُوا سَمَاعَ قَبُولٍ وَطَاعَةٍ، وَأَكَّدَ الله تعالى عَلَيْهِمْ تَرْكَ تِلْكَ الْكَلِمَةِ، حَتَّى لَا يَرْجِعُوا إليها لقبحها.

﴿وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

والمقصود بهم الْيَهُودُ ومن سلك مسلكهم، واتبع سبيلهم في التَّعْرِيضِ والتَّنْقِيصِ من رسل الله عليهم السلام.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنزلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾. الآية/ ١٠٥

يخبر الله تَعَالَى عن شِدَّةِ عَدَاوَةِ الْكُفَارِ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ الْيَهُودِ والنَّصَارَى وَالْمُشْرِكِينَ على اختلاف مللهم وتباين نحلهم أنهم لا يريدون الخير لهذه الأمة، وأنهم أحرص الناس على طمس معالم هذا الدين، كما قال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾.[٢]

وأنهم لا يرضيهم إلا أن ينسلخ المسلمون من دينهم، وأن يتبعوا ما هم عليه من الباطل والضلال، ومن ظن من المسلمين أن اليهود يمكن أن تصفو لنا محبتهم، أو أن النصارى يريدون الخير لنا، نقول له أنت جاهل بدين الله تعالى، فإن الله تعالى قال لنا: ﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾.[٣]

وجاهل كذلك بالتاريخ فلا تدري ما أحدث اليهود والنصارى بالمسلمين عندما تمكنوا من رقابهم عبر التاريخ مرورًا بمحاكم التفتيش، والحروب الصليبية، والاستعمار الذي عاث في الأرض الفساد، ونهب خيرات البلاد، وانتهاء بما يجري في زماننا من قتل على الهوية، حتى ليقول من يتأمل فيما يحدث

---

١ - رواه أحمد- حديث رقم: ٢١٠٢٢، بسند حسن

٢ - سورة الصَّفِّ: الآية/ ٨

٣ - سُورَةُ الْبَقَرَةِ: الآية/ ١٢٠

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

للمسلمين: إن هؤلاء اليهود والنصارى والمشركين أشد ضراوة من الوحوش الضوارى، وأن قانون الغابة أكثر رحمة من قوانينهم البشعة، ونظمهم الجائرة.

يقوم العالم ولا يقعد لقتل يهودي واحد، أو نصراني واحد لا يُدْرَى من قتله، ويُقْتَلُ الآلافُ من المسلمين، فلا يحرك أحدٌ ساكنًا، ولا يجدون من الناس متعاطفًا، حتى صارت بلاد المسلمين كلأً مستباحًا، ومواردهم طعامًا مستساغًا، وأموالهم غنيمةً باردةً، وأرواحهم لا قيمةَ لها، ولا يُبْكَي عليها.

﴿مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنزلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾.

ومع ايضاح القرآن لحقيقتهم، وكشف كتاب الله تعالى لفضائحهم، نرى ممن ينتسب للإسلام من يسارع في مرضاتهم، ويسعى سعيًا حثيثًا لكسب ودهم، ويعلن الولاء لهم، ولا يألوا جهدًا في مناصرتهم، وهل أدل على ذلك من اتخاذهم بطانة من دون المسلمين، والدخول في حلفهم، والقتال في صفهم، ﴿وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾.[1]

فهم تتقطع قلوبهم حسرات على ما يصيب المسلمين من خيرٍ، ويظهرون الفرحَ والبشرَ بما يصيب المسلمين من ضرٍ، كما قال تعالى: ﴿إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا﴾.[2]

﴿وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾.

ولما كانت أعظم نعمة أنعم الله تعالى بها على المسلمين أن هداهم لمعالم دينه، وخصهم بتمام نعمته، واجتباهم لخاتمة شرائعه، واختصهم بِرَحْمَتِهِ، ففي شريعته الأمن والإيمان، والسكينة والسلام، والعدل والإنصاف، وتطبيقها بين الناس رحمة، وإقامتها بين العباد نعمة تستوجب الشكر، لما كانت كذلك يسعى أعداء الله من اليهود والنصارى لمحاربة كل من يحاول أن يطبقَ شريعةَ الله تعالى، حجبًا لنورِ الله تعالى أن يصلَ للعبادِ، أو تنعمَ بظلاله الوارفةِ البلادُ.

﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾.

فلا أعظم منه فضلًا، ولا أكثر منه عطاءً، فمَنْ مِنَ الخلق يمنع فضله، أو يحجب نوره؟ ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾.[3]

---

١ - سورة المائدة: الآية/ ٨١

٢ - سورة آل عمران: الآية/ ١٢٠

٣ - سورة يُونُسَ: الآية/ ١٠٧

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾. الآية/ ١٠٦

الله تبارك وتعالى له الحكمة البالغة، وله الفضل العظيم ومن كمال حكمته، أن يُشَرِّعَ لعباده ما يشاء، فَيَحِلُّ مَا يَشَاءُ، وَيُحَرِّمُ مَا يَشَاءُ، وَيُبِيحُ مَا يَشَاءُ، وَيَحْظُرُ مَا يَشَاءُ، وَيُحوِّلُ الحلالَ حَرَامًا، وَالْحَرَامَ حَلَالًا، وَالْمُبَاحَ مَحْظُورًا، وَالْمَحْظُورَ مُبَاحًا، وَيَحْكُمُ مَا يُرِيدُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ، ولا رَادَّ لقضائِهِ، ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾.[١]

وَمن كمال حكمته ومقتضى عدله سبحانه وتعالى أن يَخْتَبِرَ إيمانَ عِبَادِهِ وَيمتحنَ طَاعَتَهُمْ له تعالى ولِرُسُلِهِ عليهم السلام وأعظم صورة يتجلى فيها هذا الإختبار النَّسْخُ، فَيَأْمُرُ بِالشَّيْءِ في وقت لِمَا فِيهِ مِنَ مَصْلَحَةٍ يَعْلَمُهَا تَعَالَى، ثُمَّ يَنْهَى عَنْهُ بعد مدة لِمَصْلَحَةٍ يَعْلَمُهَا تَعَالَى وحكمة بالغة يريدها تعالى، وهنا تتجلى العبودية، وتظهر الطَّاعَةُ، ويتميز المؤمن من غيره، فالإيمان فِي امْتِثَالِ أَوامِرِهِ، وَاتِّبَاعِ رُسُلِهِ.

وَلما كان الْيَهُودُ عليهم لعنة الله أهلَ كفرٍ وعنادٍ لا يقدرون الله حق قدره، ولا يوقرونه حق توقيره، وليسوا أهلًا لفهم الحكمة من تشريعه، لذلك شنعوا على النسخ وقالوا أنه بداء أي ظهور الأمر بعد خفائه وهم بذلك يرمون الله تعالى بالجهل، وأنه يشرع أمرًا ثم يظهر له أن هذا التشريع ليس مناسبًا في غيره لتشريع جديد.

قال الْيَهُودُ عليهم لعنة الله: النَّسْخُ محالٌ عَقْلًا وزَعَمَ ذلك بعضهم جهلًا وكفرًا، وزَعَمَ بعضهمُ أن النَّسْخَ محالٌ نَقْلًا، وما قالوا ذلك إلا افْتِرَاءً وَإِفْكًا، كما قال تعالى عنهم وعن المشركين: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.[٢]

ولما كان اليهود قد بلغوا الغايةَ من السفهِ، والنهايةَ في فسادِ العقولِ، وضربَ عليهم الجهلُ أطنَابَهُ، وخَيَّمَ عليهم الغباءَ بظلالِهِ، لَمَّا كانوا كذلك ما ذكرهم الله تعالى هنا احتقارًا لشأنهم، ولكن ذكر النسخ في سياق فضائحهم، وفي سلك مخازيهم وقبائحهم، ليحذِّرَ أهل الإيمان – من هذه الأمة – من ضلالِ عقولهم، وفسادِ عقيدتهم.

---

١ – سورة الْأَنْبِيَاءِ: الآية/ ٢٣

٢ – سورة النحل: الآية/ ١٠١

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا﴾.

النَّسْخُ في اللغة يطلق على معنيين:

الأول: النقل ومنه نسخت الكتاب أي نقلت ما فيه.

والثاني: الْإِزَالَةُ، وَمِنْهُ نَسَخَتِ الشَّمْسُ الظِّلَّ إِذَا أَذْهَبَتْهُ وَحَلَّتْ مَحَلَّهُ، وهذا المعنى هو المراد في الآية.

وفي الشرع: النسخ هو رفع الحكم الثابت بخطاب متقدم بخطاب متراخ عنه.

والنسخ قد يكون للحكم وقد يكون للتلاوة، وقد يكون للحكم والتلاوة معًا.

وَمِثَالُ نَسْخِ التِّلَاوَةِ وَالْحُكْمِ مَعًا مَا ثَبَتَ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: «كَانَ فِيمَا أُنْزِلَ مِنَ الْقُرْآنِ عَشْرُ رَضَعَاتٍ مَعْلُومَاتٍ يُحَرِّمْنَ، ثُمَّ نُسِخْنَ بِخَمْسٍ مَعْلُومَاتٍ، فَتُوُفِّيَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُنَّ مِمَّا يُقْرَأُ مِنَ الْقُرْآنِ».[1]

وَمِثَالُ نَسْخِ التِّلَاوَةِ وَبَقَاءِ الْحُكْمِ، آيَةُ الرَّجْمِ فَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: خَطَبَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ وَقَالَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، أَلَا إِنَّ الرَّجْمَ حَدٌّ مِنْ حُدُودِ اللَّهِ فَلَا تُخْدَعُنَّ عَنْهُ، أَلَا إِنَّ آيَةَ ذَلِكَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ رَجَمَ، وَرَجَمَ أَبُو بَكْرٍ، وَرَجَمْنَا مِنْ بَعْدِهِمَا، وَلَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ أَكْتُبَ فِي نَاحِيَةِ: الْمُصْحَفِ شَهِدَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ، وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ وَفُلَانٌ وَفُلَانٌ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَجَمَ، أَلَا إِنَّهُ سَيَأْتِي مِنْ بَعْدِكُمْ أَقْوَامٌ يُكَذِّبُونَ بِالرَّجْمِ وَبِالدَّجَّالِ، وَبِعَذَابِ الْقَبْرِ، وَالشَّفَاعَةِ، وَقَوْمٌ يُخْرَجُونَ مِنَ النَّارِ بَعْدَمَا امْتَحَشُوا».[2]

وَمِثَالُ نَسْخِ الْحُكْمِ وَبَقَاءُ التِّلَاوَةِ آيَةُ القبلة، وَآيَةُ الوصية، وَآيَةُ حق التقوى، وَآيَةُ الْمُصَابَرَةِ، وَآيَةُ الْعِدَّةِ، وَآيَةُ التَّخْيِيرِ بَيْنَ الصَّوْمِ وَالْإِطْعَامِ، وَآيَةُ حَبْسِ الزَّوَانِي، وغيرها، وَغَالِبُ مَا فِي الْقُرْآنِ مِنَ الْمَنْسُوخِ، من هذا القسم.

﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ﴾، فتزيل الحكم المذكور فيها، أو يبقى الحكم ولا يتعبد بتلاوتها، أو نمنع الأمرين معًا التلاوة والحكم فَلَا يُعْمَلُ بها.

---

١ - رواه مسلم- كِتَابُ الرِّضَاعِ، بَابُ التَّحْرِيمِ بِخَمْسِ رَضَعَاتٍ، حديث رقم: ١٤٥٢

٢ - رواه أحمد- حديث رقم: ١٥٦

﴿أَوْ نُنْسِهَا﴾.

مِنَ النِّسْيَانِ الَّذِي بِمَعْنَى التَّرْكِ، أَيْ نَتْرُكُهَا فَلَا نُبَدِّلُهَا وَلَا نَنْسَخُهَا، قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ وَالسُّدِّيُّ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾، أَيْ تَرَكُوا عِبَادَتَهُ فَتَرَكَهُمْ فِي الْعَذَابِ.

قَالَ النَّابِغَةُ:

كَأَنَّهُ خَارِجًا مِــنْ جَنْــبِ صَــفْحَتِهِ ***** سَفُّودُ شَرْبٍ نَسُــوهُ عِنْــدَ مُفْتَــأَدِ

أي: تركوه.

وَحَكَى الْأَزْهَرِيُّ: ﴿نُنْسِها﴾ نَأْمُرُ بِتَرْكِهَا، يُقَالُ: أَنْسَيْتُهُ الشَّيْءَ أَيْ أَمَرْتُ بِتَرْكِهِ، وَنَسِيتُهُ تَرَكْتُهُ.

قَالَ أَبُو إِسْحَاق الزَّجَّاجُ: النَّسْخُ فِي اللُّغَة: إِبْطَالُ شَيْء وإقامَةُ آخَرَ مُقَامَه.[1]

قَالَ أَبُو إِسْحَاق الزَّجَّاجُ: وَإِنَّمَا مَعْنَى أَوْ نُنْسِها، أَو نُتْرِكْها أَي نأْمُرْكُم بِتَرْكِهَا؛ قَالَ أَبو مَنْصُورٍ: وَمِمَّا يُقَوِّي هَذَا مَارَوى ثَعْلَبٌ عَنِ ابْنِ الأَعرابي أَنه أَنشده:

إِنَّ علــــــيَّ عُقْبــــــةً أَقضِــــــيها ***** لَسْــــتُ بناسِــــيها وَلَــــا مُنْسِــــيها

قَالَ: بناسِيها بتارِكها، وَلَا مُنْسِيها وَلَا مؤخِّرها.[2]

فإذا كان النَّسْخُ فِي اللُّغَة كما قَالَ الزَّجَّاجُ: إِبْطَالُ شَيْء وإقامَةُ آخَرَ مُقَامَه، فإن معنى ﴿نُنْسِهَا﴾، نأْمُرْكُم بِتَرْكِهَا ونسيانها، ولعل هذا القول هو أعدل الأقوال، لأنه يفسر قِرَأَةَ أَبِي عَمْرٍو وَابْنِ كَثِيرٍ: ﴿أَوْ نَنْسَأْهَا﴾، والقراءات يفسر بعضُها بعضًا، بدليل قوله تعالى: ﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا﴾.

وقيل: ﴿أَوْ نُنْسِهَا﴾، أي: نَرْفَعُهَا مِنْ عِنْدِكُمْ ونبدِّلها بآية أخرى، فالمقصود بالنَّسْخِ هُنَا التَّبْدِيلُ، ويستوي فِي ذلك تَبْدِيلُ الْحُكْمِ مَعَ ثُبُوتِ الْخَطِّ، وتَبْدِيلُ الْحُكْمِ مَعَ رَفْعِ الْخَطِّ.

وعلى القراءة الأخرى: ﴿أَوْ نَنْسَأْهَا﴾، وهي قِرَأَةُ أَبِي عَمْرٍو وَابْنِ كَثِيرٍ بِفَتْحِ النُّونِ وَالسِّينِ وَالْهَمْزِ، أي نُؤَخِّرْهَا عَنِ النَّسْخِ فَلَا نَنْسَخْهَا وَلَا نُبَدِّلْهَا.

---

١ - تهذيب اللغة (٧/ ٨٤)

٢ - لسان العرب (١٥/ ٣٢٣)

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا﴾.

لما فِيهَا مِنْ الْمَنْفَعَةِ لَكُمْ، وَالرِّفْقِ بِكُمْ، فإن الغالبَ في النسخ أنه شُرِعَ للتَخْفِيفِ.

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

هذا سؤالٌ المقصودُ منه التَّقْرِيرُ، ومثالهُ في القرآن قوله تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ﴾.[1]

وَحِكْمَةُ الْخِطَابِ بالإِفْرَادِ: في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ﴾، أَنَّ يظنَ كلُ شَخْصٍ أَنَّهُ الْمُخَاطَبُ بِذَلِكَ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، يُفِيدُ أَنَّ النَّسْخَ مِنْ مَقْدُورَاتِهِ، وَأَنَّ إِنْكَارَهُ إِنْكَارٌ لِلْقُدْرَةِ الْإِلَهِيَّةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ﴾. الآية/ ١٠٧

قدمنا أن الله تبارك وتعالى يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ، ولا رَادَّ لقضائِهِ، يَحِلُّ مَا يَشَاءُ، وَيُحَرِّمُ مَا يَشَاءُ، وَيُبِيحُ مَا يَشَاءُ، وَيَحْظُرُ مَا يَشَاءُ، ويقرر الله تبارك وتعالى هذا الأمر في نفوس عباده حتى لا يداخلهم، ولا يعتريهم منه ريب.

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾.

سؤال دَخَلَ عَلَى النَّفْيِ وَهُوَ يفيد التَقْرِيرَ، وَالتَّقْرِيرَ مَعْنَاهُ الْإِيجَابُ، أَيْ قَدْ عَلِمْتَ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ، وهذا تقرير بعد تقرير، وفي التَّقْرِيرَيْنِ دلالة على بيان كَمَالُ التَّصَرُّفِ، فالله عز وجل له كَمَالُ الْقُدْرَةِ وله كَمَالُ الملكِ، لِأَنَّ الشَّخْصَ قَدْ يَكُونُ قَادِرًا، ولكنه غير مالك، وقد يكون مالكًا ولكنه غير قادر، فإذا اجتمع الملك والقدر دل على كمال كَمَالُ التَّصَرُّفِ.

فالله عز وجل أَعْلَمُ بِمَصَالِحِ عِبَادِهِ، وَمَا فِيهِ النَّفْعُ لَهُمْ مِنْ أَحْكَامِهِ الَّتِي تَعَبَّدَهُمْ بِهَا، وَشَرَعَهَا لَهُمْ، وَقَدْ يَخْتَلِفُ ذَلِكَ بِاخْتِلَافِ الْأَحْوَالِ وَالْأَزْمِنَةِ وَالْأَشْخَاصِ، فيجب على العباد أَنْ يَتَلَقَّوا تشريعه بِالْقَبُولِ وَالِامْتِثَالِ وَالتَّعْظِيمِ وَالْإِجْلَالِ.

---

١ - سورة الْعَنْكَبُوتِ: الآية/ ١٠

والمناسبة بين ذكر النسخ وكونه سبحانه وتعالىلَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ، التَّنْبِيهُ عَلَى أَنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى له الْأَمْرُ وَالنَّهْيُ لِكَوْنِهِ مَالِكًا لِلْخَلْقِ، فَكَمَا أَنَّ لَهُ الْمُلْكَ بِلَا مُنَازِعٍ، فَكَذَلِكَ لَهُ الْحُكْمُ بِمَا يَشَاءُ، كما قال تعالى: ﴿أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ﴾.[1]

﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ﴾.

الْوَلِيُّ: فَعِيلٌ لِلْمُبَالَغَةِ، مِنْ وَلِيَ الشَّيْءَ جَاوَرَهُ وَلَصِقَ بِهِ، وَنَصِيرٌ صِيغَةُ مُبَالَغَةٍ فِي النَّصْرِ، أي فليس لكم من يتولى أموركم، ولا من ينصركم في الدنيا والآخرة سوى الله تعالى، فهو أرحم الراحمين، وأحكم الحاكمين، وصلاحكم في اتباع أمره واجتناب نهيه، وصلاح أموركم في استقامتكم على شرعه.

قَالَ الْإِمَامُ أَبُو جَعْفَرِ بْنُ جَرِيرٍ، رَحِمَهُ اللَّهُ: فَتَأْوِيلُ الْآيَةِ إِذًا: أَلَمْ تَعْلَمْ يَا مُحَمَّدُ أَنَّ لِيَ مُلْكَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَسُلْطَانَهُمَا دُونَ غَيْرِي أَحْكُمُ فِيهِمَا وَفِيمَا فِيهِمَا مَا أَشَاءُ، وَآمُرُ فِيهِمَا وَفِيمَا فِيهِمَا بِمَا أَشَاءُ، وَأَنْهَى عَمَّا أَشَاءُ، وَأَنْسَخُ وَأُبَدِّلُ وَأُغَيِّرُ مِنْ أَحْكَامِي الَّتِي أَحْكُمُ بِهَا فِي عِبَادِي مَا أَشَاءُ إِذَا أَشَاءُ، وَأُقِرُّ مِنْهَا مَا أَشَاءُ؟

وَهَذَا الْخَبَرُ وَإِنْ كَانَ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ خِطَابًا لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى وَجْهِ الْخَبَرِ عَنْ عَظَمَتِهِ، فَإِنَّهُ مِنْهُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ تَكْذِيبٌ لِلْيَهُودِ الَّذِينَ أَنْكَرُوا نَسْخَ أَحْكَامِ التَّوْرَاةِ وَجَحَدُوا نُبُوَّةَ عِيسَى، وَأَنْكَرُوا مُحَمَّدًا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لِمَجِيئِهِمَا بِمَا جَاءَا بِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ بِتَغْيِيرِ مَا غَيَّرَ اللَّهُ مِنْ حُكْمِ التَّوْرَاةِ. فَأَخْبَرَهُمُ اللَّهُ أَنَّ لَهُ مُلْكَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَسُلْطَانَهُمَا، فَإِنَّ الْخَلْقَ أَهْلُ مَمْلَكَتِهِ وَطَاعَتِهِ، عَلَيْهِمُ السَّمْعُ لَهُ وَالطَّاعَةُ لِأَمْرِهِ وَنَهْيِهِ، وَإِنَّ لَهُ أَمْرَهُمْ بِمَا شَاءَ وَنَهْيَهُمْ عَمَّا شَاءَ، وَنَسْخَ مَا شَاءَ، وَإِقْرَارَ مَا شَاءَ، وَإِنْسَاءَ مَا شَاءَ مِنْ أَحْكَامِهِ وَأَمْرِهِ وَنَهْيِهِ.[2]

---

١ - سورة الْأَعْرَافِ: الآية/ ٥٤

٢ - تفسير الطبري (٢/ ٤٨٨)

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾. الآية/ ١٠٨

لما قال الْيَهُودُ عليهم لعنة الله: النَّسْخُ محالٌ عَقْلًا ونَقْلًا وأنكروا وقوعه جهلا منهم وكفرًا، وتمحلوا في رده افْتِرَاءً وَإِفْكًا، حَذَّرَ الله تعالى المؤمنين من أن تؤثر فيهم شبههم، أو أن يسلكوا في العناد مع رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سبيلهم، فقال: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ.....﴾.

والخطابُ في الآيتين وإن كان خاصًا بالنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إلا أن المرادَ منه العمومُ؛ لأن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يداخله شك في قدرة الله تبارك وتعالى، فهو في الحقيقة خطاب لأمته، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾.[١]

ودل على ذلك الجمع في ﴿لَكُمْ﴾، و﴿تُرِيدُونَ﴾ من قوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ * أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ.....﴾.

﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ﴾.

ولما حذر الله تعالى المؤمنين من حال اليهود بين سبحانه وتعالى أن اليهود يترددون بين الشك في قدرة الله تعالى، والتعنت في سؤالهم نبيهم مُوسَى عليه السلام الكفر والمحال، فحذرهم الله تعالى من الأمرين معا من الشك في قدرة الله، ومن التعنت في سؤالهم لنبي الله محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإنما لم يذكر الله تعالى اليهود استهانةً بهم واحتقارًا لشأنهم، ومن تعنتهم مع نبيهم عليه السلام ما حكاه الله تعالى من قولهم: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾.[٢]

وقولهم: ﴿يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾.[٣]

وأم هنا بمعنى بَلْ، فيكون المعنى: بَلْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ إن سلكتم مسلك المغضوب عليهم اليهود.

---

١ - سورة الزُّمَر: الآية/ ٦٥

٢ - سورة الْبَقَرَةِ: الآية/ ٥٥

٣ - سورة الْأَعْرَافِ: الآية/ ١٣٨

وقيل هِيَ عَلَى بَابِهَا فِي الِاسْتِفْهَامِ، فيكون الِاسْتِفْهَامُ إِنْكَارِيًّا، ويكون المعنى هل تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ، ويكون الخطاب هنا عامًا لِلْمُؤْمِنِينَ وَالْكُفَّارِ.

قال ابن الأنباري: «أَمْ» جارية مجرى «هل»، غير أن الفرق بينهما: أن «هل» استفهام مبتدأ، لا يتوسط ولا يتأخر، و«أَمْ»: استفهام متوسط، لا يكون إلا بعد كلام.[1]

﴿وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾.

فإن مَنْ سَأَلَ رسولَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سؤالًا عَلَى وَجْهِ التعنُّت وَالتَكْذِيب له، وَالعِنَادِ لشرع الله فقد كفر بعد إيمانه، ومن كان هذا شأنه فَقَدْحاد عن الطَّرِيقِ الْقَوِيمِ، وتنكب السراط الْمُسْتَقِيمِ، وَهَذَا حَالُ أهل الشقاء، الَّذِينَ استنكفوا عن اتِّبَاعِ الْأَنْبِيَاءِ، وَالِانْقِيَادِ لَهُمْ، وعمدوا إِلَى مُخَالَفَتِهِمْ وَتَكْذِيبِهِمْ.

ولقد كانت طاعة الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُم لنبيهم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مضربَ المثلِ، وحسنُ أدبهم معه مثارَ الإعجابِ من أعدائهم، فامتثلوا الأمر، و لم يقع منهم ما وقع من اليهود من نبيهم، فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: «نُهِينَا أَنْ نَسْأَلَ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ شَيْءٍ، فَكَانَ يُعْجِبُنَا أَنْ يَجِيءَ الرَّجُلُ مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ الْعَاقِلُ، فَيَسْأَلَهُ، وَنَحْنُ نَسْمَعُ..... ».[2]

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: مَا رَأَيْتُ قَوْمًا خَيْرًا مِنْ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ما سألوه إلا عن ثِنْتَي عَشْرَةَ مَسْأَلَةً، كُلُّهَا فِي الْقُرْآنِ: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ﴾.[3]

وَ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ﴾.[4]

وَ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى﴾.[5]

قَالَ فَلَمَّا نَزَلَتْ: ﴿وَلا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ﴾، عَزَلُوا طَعَامَهُمْ مِنْ طَعَامِهِمْ فَنَزَلَتْ: ﴿وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ﴾.[6]

---

١ – زاد المسير في علم التفسير (١/ ١٠٠)

٢ – رواه مسلم– كِتَابُ الْإِيمَانَ، بَابٌ فِي بَيَانِ الْإِيمَانِ بِاللهِ وَشَرَائِعِ الدِّينِ، حديث رقم: ١٢

٣ – سورة الْبَقَرَةِ: الآية/ ٢١٩

٤ – سورة الْبَقَرَةِ: الآية/ ٢١٧

٥ – سورة الْبَقَرَةِ: الآية/ ٢٢٠

٦ – رواه الْبَزَّارُ– حديث رقم: ٥٠٦٥

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾. الآية/ ١٠٩

هذا تحذير ممن يعلم السر وأخفى، من الله تعالى الذي يعلم ما تكنه النفوس وما تنطوى عليه الضمائر، ﴿أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾.[١]

يُحَذِّرُ اللَّهُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ من الركون إلى أَهْلِ الْكِتَابِ ومن الثقة في مودتهم، ومن اتخاذهم بطانة يتدخلون في كل صغيرة وكبيرة من حياة المسلمين، لأنهم لن يجدوا منهم إلا العنت والمشقة، وإلا الحسد والكراهية، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلالَةَ وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ﴾.[٢]

وكما قال تعالى: ﴿وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾.[٣]

وسلكوا في سبيل تحقيق ذلك كل سبيل، واستعملوا لذلك كل حيلة؛ كما قال الله تعالى: ﴿وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.[٤]

وفي هذه الآيات الثلاث ذكر الله تعالى أن هذا حال طَائِفَةٍ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، وفي آية أخرى أن هذا حال كَثِيرٍ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، وفي آية ثالثة يخبرنا الله تعالى أن هذا حال أَهْلِ الْكِتَابِ ولا يستثني منهم أحدًا، ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلالَةَ وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ﴾. وللجمع بين الآيات الثلاث نقول: الذي يباشر الإضلال منهم طائفة، فالذين قالوا: ﴿آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ﴾، والذين قاموا بعمل الرسوم المسيئة للرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والذين قاموا بإنتاج الأفلام المسيئة للإسلام، وَنَبِي الإسلام صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، طَائِفَةٌ مِنْهُم، والذي أحب ذلك منهم وفرح قلبه بذلك كَثِيرٌ مِنْهُم، وأما سائرهم فَمُقِرٌّ لهم ومتابعٌ.

---

١ - سورة الْمُلْكِ: الآية/ ١٤

٢ - سورة آل عمران: الآية/ ٤٤

٣ - سورة آل عمران: الآية/ ٧٠

٤ - سورة آل عمران: الآية/ ٧٢

ولا معنى لِقَوْلِ الْقَائِلِ أَنَّ المراد بقَوْلِهِ تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ هو: كَعْبُ بْنُ الْأَشْرَفِ؛ لِأَنَّ كَعْبَ بْنَ الْأَشْرَفِ وَاحِدٌ، وَقَدْ أَخْبَرَ اللَّهُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ أَنَّ هذا حَال كَثِيرٍ مِنْهُمْ.

﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾.

وإنما ذكر الله تعالى أَنهم يودون ذلك و لم يخبر أنهم يحبونه؛ لأن الْحبّ لا يكون إلا فِي مَا يُوجبهُ ميل الطباع وَالْحكمَة جَمِيعًا، والود يكون في ميل الطباع فَقَط، وهذا يدل على أن تصرفهم أهوج لا يشتمل على شيء من الحكمة، ولا صلة له بالعقل، وأي عقل عند من يسعى في الضلال والإضلال.

ذكرت الآية في معرض الحديث عن بني إسرائيل، وتعديد مخازيهم، وفضح مساوئهم، ويشاركهم في هذا النصارى.

وإنما ذكر أهل الكتاب و لم يذكر الكفار وإن كانوا يودون ذلك، تشنيعًا عليهم، فإن ذلك منهم أقبح من الوثنيين، لما يعلمونه من صدق نبوة محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولأنهم أهل ديانة سماوية، وتجعل المسلمين أقرب إليهم من عباد الأوثان، ولكن كما قال الله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾.[1]

﴿لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿يَرُدُّونَكُمْ﴾، أي يرجعونكم إلى ما كنتم عليه من الوثنية وعبادة غير الله تعالى، مع تكفيرهم للوثنين، واعتقادهم أنهم ضُلَّالٌ، ولكنهم ودوا ذلك لشدة بغضهم لمؤمنين.

﴿حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ﴾.

هذا بيانٌ للسبب الذي من أجله ظهر بغضهم لأهل الإيمان، كما قال الله تعالى: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾.[2]

والحسد هو تمني زوال النعمة عن المحسود، وفي الآية بيان لخطر الحسد على صاحبه، لأنه يجعله يرضى بالكفر ويتمناه للمحسود، ولا أعظم من هذا خطرا على العبد.

---

١ - سورة الحج: الآية/ ٤٦

٢ - سورة النساء: الآية/ ٥٤

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

لذلك نهى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن الحسد، وحذر منه فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «لَا تَبَاغَضُوا، وَلَا تَحَاسَدُوا، وَلَا تَدَابَرُوا، وَكُونُوا عِبَادَ اللهِ إِخْوَانًا، وَلَا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلَاثٍ».[1]

﴿مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾.

أي ظهر لهم أن القرآن كلام الله تعالى، وأن محمدًا رسول الله حقًا، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾.[2]

﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾.

الأمر بالعفو والصفح عن اليهود والنصارى على جرائمهم المتمثلة في الطعن في الدين وَإِلْقَاءِ الشُّبَهِ، وَالْإِعْرَاضُ عَنِ الْجَوَابِ عنها؛ احتقارًا لشأنهم؛وَلِأَنَّ ذَلِكَ أَقْرَبُ إِلَى تَسْكِينِ الثَّائِرَةِ فِي الْوَقْتِ، وإماتة لهذه الشُّبَهِ التي يثيرونها، فإن فعلهم هذا لا يعدو كونه إغاظة للمؤمنين؛ كما قال تعالى: ﴿لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ﴾.[3]

حتى يكون للمسلمين قُوَّةٌ يرتدعُ بها أمثال هؤلاء.

﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

فلم يتركهم الله تعالى لغفلته عنهم، ولا لأنهم يعجزونه تعالى الله عن ذلك علوا كبيرًا، ففيه تطمين للمؤمنين، وتَحْذِيرٌ لِأهل الكتاب من مغبة التمادي في باطلهم، فهم في قبضته وتحت سلطانه.

---

١ - رواه البخاري- كِتَابُ الأَدَبِ، بَابُ مَا يُنْهَى عَنِ التَّحَاسُدِ وَالتَّدَابُرِ، حديث رقم: ٦٠٦٥، ومسلم- كتاب الْبِرِّ وَالصِّلَةِ وَالْآدَابِ، بَابُ النَّهْيِ عَنِ التَّحَاسُدِ وَالتَّبَاغُضِ وَالتَّدَابُرِ، حديث رقم: ٢٥٥٨

٢ - سورة البقرة: الآية/ ١٤٦

٣ - سورة آل عمران: الآية/ ١١١

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾. الآية/ ١١٠

لما كشف الله تعالى لعِبَادَهِ الْمُؤْمِنِينَ حال الْكُفَّارِ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، وبين لهم مدى ما تكنه لهم نفوسهم من العداوة والبغضاء، وما تنطوي عليه نفوسهم مِنَ الْحَسَدِ، أمر الله تعالى الْمُؤْمِنِينَ بِالصَّفْحِ وَالْعَفْوِ وَالِاحْتِمَالِ، فإن ما يفعله هؤلاء الْكُفَّارِ لا يعدو كونه أذى، ينبغي ألا يفت من عضد الْمُؤْمِنِينَ، ولا يؤثر على عبادتهم لله تعالى، فإن في مكاشفتهم بذلك اهدارًا لطاقات المؤمنين، وذهابًا للأعمار فيما لا يجدى نفعًا، وهل ينفع الجدال مع أقوام يعتبرون حرق كتاب الله حرية شخصية، والسخرية والاستهزاء برسول الله محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حرية تعبير، في الوقت الذي يحاكم فيه من ينكر المحرقة المزعومة لليهود، وتستباح دماء وأعراض وأموال المسلمين على ما يجول في الضمائر والنوايا.

وفي الإعراض عنهم إماتة لما يثيرونه من شبهات، وكبتًا لما يريدونه من إظهار الشماتة بالمسلمين، على حد قول القائل:

إذا تحـــدث الســـفيه فـــلا تجبـــه ***** فخـــير مـــن إجابتـــه الســـكوت

فـــإن أجبتـــه فرجـــت عنـــه ***** وإن تركتـــه كمـــدًا يمـــوت

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾.

يأمر الله تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ بعدم الالتفات إلى أَهْلِ الْكِتَابِ، والِاشْتِغَالُ عوضًا عن ذلك بِمَا يَعُودُ عَلَيْهِمْ بالنفع في الدنيا والآخرة، ولما كانت الصَّلَاةُ أكثرَ العبادات نفعًا في الآخرة، والزكاة أكثرَ العبادات نفعًا في الدنيا، أمر الله تعالى الْمُؤْمِنِينَ بإِقَامِ الصَّلَاةِ وإيتاء الزكاة، تحصيلا للنفع الدنيوي والأخروي، فإِنَّ الصَّلَاةَ فِيهَا مُنَاجَاةُ اللَّهِ تَعَالَى، وَفيها تَلَذُّذٌ بالْوُقُوفِ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَالزَّكَاةُ فِيهَا إِحْسَانٌ إِلَى الْخَلْقِ بِالْإِيثَارِ عَلَى النَّفْسِ، فَأُمِرُوا بالوقوف بين يدي الْحَقِّ، وَالْإِحْسَانِ إِلَى الْخَلْقِ.

﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ﴾.

ثم أرشد الله تعالى عباده إلى الإجتهاد في طاعته، والجد في عبادته، وَأَنَّهُ تَعَالَى يُجَازِي عَلَى الْقَلِيلِ من العمل، ولا يضيع أجر الطائعين، ويعطي عَلَى الْقَلِيلِ الْكَثِيرَ، تكرمًا، وقوله تعالى: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

﴿لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ﴾، بعد قوله: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾، من باب عطف العام على الخاص؛ فإن إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة من أفضل الخير الذي يقدمه العبد بين يديه.

ومعنى ﴿تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ﴾؛ تجدوا الأعمال في موازين حسناتكم، وتجدوا جزاء الأعمال كذلك يوم القيامة.

وقوله تعالى: ﴿مِنْ خَيْرٍ﴾، استقصاءٌ لكل خيرٍ يفعله العبدُ ولو كان حقيرًا في نظره كما قال تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ. وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾.[1]

وكما قَالَ الْحُطَيْئَةُ:

مَنْ يَفْعَلِ الخَيْرَ لَـــا يَعْـــدَمْ جَوَازِيَـــهُ ***** لَا يَذْهَبُ الْعُرْفُ بَيْنَ اللَّـــهِ وَالنَّـــاسِ

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾، تَذْيِيلٌ لقوله تعالى: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ﴾، فهو سبحانه بَصِيرُ بِمَا يَعْمَلُ الْمُسْلِمُونَ، وَهَذَا وَعْدٌ لَهُمْ بأنه لا يخفى عليه شيء من طاعاتهم وعباداتهم، وَإِذَا كَانَ بَصِيرًا بِمَا يَعْمَلُ الْمُسْلِمُونَ كَانَ بَصِيرًا بِمَا يعْمل غَيرهم.

---

١ - سورة الزَّلْزَلَةِ: الآية/ ٧، ٨

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾. الآية/ ١١١

هذه صورة جديدة من صور الافتراء على الله تعالى، والاغترار به سبحانه، أن يدعي الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى أن دخول الجنة قاصرٌ عليهم، والعجيب أن يقع هذا من الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى مع إقرار اليهود بأنهم ملعونون، ومع إقرار النصارى بأنهم ضلوا عن سواء السبيل، وقد تكلمنا عن هذا عند الكلام على تفسير قول الله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً﴾.[١]

ومع أن سياق الكلام في بيان مخازي بني إسرائيل، وكشف فضائحهم، إلا أنه لما وقع النصارى فيما وقع فيه اليهود، من الإفتراء على الله تعالى، وتزكية أنفسهم بما ليس فيهم، وجعلهم الجنة قاصرة عليهم دون غيرهم، لا جرم نالهم ما نال اليهود من الخزي، فخيب الله مسعاهم، وكذب دعواهم، وزيف أمانيهم.

﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾.

ادَّعَتْ كُلُّ واحدةٍ مِنَ الطَائِفَتين- الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى- أَنَّهُ لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ عَلَى مِلَّتِهَا، فزعمت الْيَهُودُ أَنَّهُ لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ مِنَ الْيَهُودِ، وزعمت النَّصَارَى أَنَّهُ لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ مِنَ النَّصَارَى، وليس كما يتبادر إلى أذهان بعض الناس أن المقصود من كلامهم أَنَّهُ لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا الْيَهُود والنَّصَارَى، فهم يكفر بعضُهُم بعضًا، ويلعنُ بعضُهُم بعضًا، و لم يجتمعوا يومًا إلا على حرب الإسلام والمسلمين، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ﴾.[٢]

﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾.

وكما أَكْذَبَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى في كل فرية يفترونها، وفي كل دعوى يدعونها، أَكْذَبَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى في تلك الدعوى، وردَّ عَلَيْهِمْ تَعَالَى تلك الفرية، ﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾، تَمَنَّوْهَا عَلَى اللَّهِ بِغَيْرِ حَقٍّ، ما عهد الله تعالى إليهم فيها عهدًا، ولا عندهم من الله تعالى فيها برهانٌ.

وإنما قال الله تعالى: ﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾، وهي أُمْنِيَةٌ واحدة؛ لِأَنَّهَا لَمَّا كَانَتْ أُمْنِيَةَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ صَارَتْ أَمَانِيَّ كَثِيرَةً، أَوْ أن المقصودَ بذلك الإخبارُ عنهم أَنَّ كُلَّ أَمَانِيهِمْ كَهَذِهِ الأُمْنِيَةِ، أَوْ أن المقصودَ بذلك الإشارة إلى الأماني المذكورة عنهم في الآيات السابقة، في قوله تعالى: ﴿مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ

---

١ - سُورَةُ الْبَقَرَةِ: الآية/ ٨٠

٢ - سُورَةُ الْبَقَرَةِ: الآية/ ١١٣

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا﴾.

وَجُمْلَةُ: ﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾، اعْتِرَاضٌ بين قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾،وقوله تعالى: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾.

وَفَائِدَةُ الاعْتِرَاضِ هنا: تفنيدُ دَعْوَاهُمْ والرَّدُّ على افترائهم عَلَى اللهِ تعالَى بادعَائِهم مَا ليسَ لَهُم، وَتَقَوُّلِهم على اللهِ تعَالَى.

﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾.

ولأنهم كانوا يتبجحون بذلك أمام المسلمين، قال الله تعالى لنبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾، هَاتُوا حُجَّتَكُمْ ودَلِيلَكُمْ عَلَى مَا تَقُولُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ في دعواكم؛ فإن كُلَّ قَوْلٍ لَا دَلِيلَ عَلَيْهِ، فَهُوَ بَاطِلٌ.

وما أسهل الدعوى إذا كانت بلا دليل، وأيسر منها تلك التي يدعيها من لا يستحقها، وصدق رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «لَوْ يُعْطَى النَّاسُ بِدَعْوَاهُمْ، لَادَّعَى نَاسٌ دِمَاءَ رِجَالٍ وَأَمْوَالَهُمْ».[1]

١ - رواه البخاري- كِتَابُ تَفْسِيرِ القُرْآنِ، بَابُ {إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا، أُولَئِكَ لاَ خَلاَقَ لَهُمْ} [آل عمران: ٧٧]، حديث رقم: ٤٥٥٢، ومسلم- كِتَابُ الْأَقْضِيَةِ، بَابُ الْيَمِينِ عَلَى الْمُدَّعَى عَلَيْهِ، حديث رقم: ١٧١١

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾. الآية/ ١١٢

﴿بَلَى﴾، كَلِمَةٌ يُجَابُ بِهَا الْمَنْفِيُّ لِإِثْبَاتِ نَقِيضِ النَّفْيِ وَهُوَ الْإِثْبَاتُ، سَوَاءٌ وَقَعَتْ بَعْدَ اسْتِفْهَامٍ عَنْ نَفْيٍ وَهُوَ الْغَالِبُ، أَوْ بَعْدَ خَبَرٍ مَنْفِيٍّ.

قَالَ تَعَالَى: ﴿بَلَى﴾، رَدًّا عَلَيْهِمْ وَتَكْذِيبًا لَهُمْ، أَيْ لَيْسَ كَمَا تَقُولُونَ أَنَّهُ لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى، بَلَى يَدْخُلُها مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ، بل لَايَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ هذه صفته؛ فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَمَرَ بِلاَلًا يُنَادَى بِالنَّاسِ: «إِنَّهُ لاَ يَدْخُلُ الجَنَّةَ إِلَّا نَفْسٌ مُسْلِمَةٌ».[1]

وَمَعْنَى: ﴿أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ﴾، اسْتَسْلَمَ لِلَّهِ وَخَضَعَ، وانقاد لأمره، وَقِيلَ: أَخْلَصَ عَمَلَهُ لوَجْهِ اللَّهِ، فمن أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وأخلص له بالتوحيد، وأحسن في عبادته، باتباع الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فهذا لا يُضِيعُ اللهُ أَجْرَهُ.

واشتملت الآية على شَرْطَيْ قبول العمل.

الشرط الأول: الإخلاصُ ودل عليه قوله تعالى: ﴿مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ﴾.

والشرط الثاني: المتابعةُ للرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ودل عليه قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾، فَلَا نَجَاةَ للعبد إِلَّا بِهِمَا، وَرَحْمَةُ اللَّهِ قبل ذَلِكَ.

قال القرطبي: وَخَصَّ الْوَجْهَ بِالذِّكْرِ لِكَوْنِهِ أَشْرَفَ مَا يُرَى مِنَ الْإِنْسَانِ، وَلِأَنَّهُ مَوْضِعُ الْحَوَاسِّ، وَفِيهِ يَظْهَرُ الْعِزُّ وَالذُّلُّ. وَالْعَرَبُ تُخْبِرُ بِالْوَجْهِ عَنْ جُمْلَةِ الشَّيْءِ.[2]

﴿فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

وَمَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ، فقد ضَمِنَ اللهُ تَعَالَى لَهُ أجره في الدنيا والآخرة، وَآمَنَهُمْ مِمَّا يَخَافُونَهُ مِنَ الْمَحْذُورِ فَـ ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ فِيمَا يَسْتَقْبِلُونَهُ، ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ عَلَى مَا يَتْرُكُونَهُ، وَلَا يَكُونُ

---

١ - رواه البخاري- كِتَابُ الجِهَادِ وَالسِّيَرِ، بَابُ إِنَّ اللَّهَ يُؤَيِّدُ الدِّينَ بِالرَّجُلِ الفَاجِرِ، حديث رقم: ٣٠٦٢، ومسلم- كِتَابُ الْإِيمَانَ، بَابُ غِلَظِ تَحْرِيمِ قَتْلِ الْإِنْسَانِ نَفْسَهُ، وَأَنَّ مَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِشَيْءٍ عُذِّبَ بِهِ فِي النَّارِ، وَأَنَّهُ لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِلَّا نَفْسٌ مُسْلِمَةٌ، حديث رقم: ١١١

٢ - تفسير القرطبي (٢/ ٧٥)

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الْخَوْفُ إِلَّا مِنَ الْمُسْتَقْبَلِ، وَأَمَّا الْحُزْنُ فَقَدْ يَكُونُ مِنَ الْوَاقِعِ وَالْمَاضِي، ولا يتحقق النَّعِيمُ إلا إِذَا دَامَ، وَخَلاَ مِنَ الْخَوْفِ وَالْحُزْنِ، فَنَبَّهَ تَعَالَى بنفي الْخَوْفِ وَالْحُزْنِ عَلَى نِهَايَةِ السَّعَادَةِ فِي الآخرة.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾. الآية/ ١١٣

هذه صورة جديدة من صور الضلال التي يتسم بها اليهود والنصارى على حد سواء، وهي اغْتِرَارُ كُلُّ طَائِفَةٍ مِنهمَا عندهَا، وأنهَا أولى بالحق من غيرهَا وأحق بالهدى ممن سواهَا، شأنهم في ذلك شأن أجهل الخلق مع أنبياء الله ورسله عليهم السلام: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾.[1]

سبب نزول الآية:

ورد في سبب نزول هذه الآية عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: لما قَدِمَ أَهْلُ نَجْرَانَ مِنَ النَّصَارَى عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَتَتْهُمْ أَحْبَارُ يَهُودَ، فَتَنَازَعُوا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ رَافِعُ بْنُ حُرَيْملة مَا أَنْتُمْ عَلَى شَيْءٍ، وَكَفَرَ بِعِيسَى وَبِالْإِنْجِيلِ.

وَقَالَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ نَجْرَانَ مِنَ النَّصَارَى لِلْيَهُودِ: مَا أَنْتُمْ عَلَى شَيْءٍ. وَجَحَدَ نُبُوَّةَ مُوسَى وَكَفَرَ بِالتَّوْرَاةِ.

فَأَنْزَلَ اللَّهُ فِي ذَلِكَ مِنْ قَوْلِهِمَا: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾ قَالَ: إِنَّ كُلًّا يَتْلُو فِي كِتَابِهِ تَصْدِيقَ مَنْ كَفَرَ بِهِ، أَيْ: يَكْفُرُ الْيَهُودُ بِعِيسَى وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَاةُ، فِيهَا مَا أَخَذَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ عَلَى لِسَانِ مُوسَى بِالتَّصْدِيقِ بِعِيسَى، وَفِي الْإِنْجِيلِ مَا جَاءَ بِهِ عِيسَى بِتَصْدِيقِ مُوسَى، وَمَا جَاءَ مِنَ التَّوْرَاةِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، وَكُلٌّ يَكْفُرُ بِمَا فِي يَدِ صَاحِبِهِ.[2]

وفي نفي كُلِّ طَائِفَةٍ الْخَيْرَ عَنِ الْأُخْرَى، وَإِثْبَاتِ الْخَيْرِ لِنَفْسِهَا، دلالة على تباغض الفريقين في حقيقة الأمر، وإن كنا نرى منهم غير هذا في الظاهر.

---

١ - سُورَةِ غَافِرٍ: الآية/ ٨٣

٢ - رواه ابن هشام- انظر السيرة النبوية (٣/ ٨٥)، وابن جرير- انظر تفسير الطبري (٢/ ٤٣٥)

ومعنى قولهم: ﴿لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ﴾، وَ﴿لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ﴾؛ أَيْ لَيْسوا عَلَى شَيْءٍ يَصِحُّ وَيُعْتَدُّ بِهِ، وَهَذِهِ مُبَالَغَةٌ عَظِيمَةٌ، في نفي كل طائفة الحق عن الأخرى كقَوْلِ القائل: فلان أَقَلُّ مِنْ لَا شَيْءَ.

وإنما ذمهم الله تعالى في مقالتهم هذه مع الحكم بضلالهم وبعدهم عن الحق لأن مقالتهم تضمن أمورا منها، إنكار اليهود لنبوة عيسى عليه السلام، وإنكار النصارى لنبوة موسى عليه السلام، وانكار اليهود أن يكون الإنجيل منزلًا على عيسى عليه السلام، وإنكار النصارى أن تكون التوراة كلام الله، وتزكية كل طائفة لأنفسهم دون ما عداهم.

﴿وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾.

جُمْلَةٌ حَالِيَّةٌ، أَيْ وَهُمْ يَقرأونَ كِتَابَ الله، ويعلمون مافيه، من صِحَّةِ نُبُوَّةِ مُوسَى وَعِيسَى وَمُحَمَّدٍ عليهم السلام، وَهَذَا نَعْيٌ عَلَيْهِمْ وتقريع لهم فِي مَقَالَتِهِمْ تِلْكَ، فإن كِتَابَ الله نَاطِقٌ بِخِلَافِ مَا يَقُولُونَهُ، شَاهِدٌ بِنُبُوَّةِ مُوسَى وَعِيسَى وَمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِم وَسَلَّمَ، إِذْ كُتُبُ اللَّهِ يُصَدِّقُ بَعْضُهَا بَعْضًا. وَالمراد بالْكِتَابِ هُنَا التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ.

وفيه إشارة إلى أن مجرد تلاوة كتاب الله تعالى لا تغني شيئًا إذا كان العبد لا يقيم حدوده ولا يعمل بما فيه؛ قال الله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾.[1]

﴿كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾.

الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ يدخل فيهم كل من كذب الرسل، وجحد نبوتهم من مُشْرِكِي الْعَرَبِ وغيرهم، وفيه إشارة إلى أن علم أهل الكتاب كالعدم، فقد سوي الله تعالى بينهم وبين الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ، وكل علم لا يظهر أثره على صاحبه، فليس علمًا؛ لذلك قيل العلم الخشية، وفي الآية تسلية لرسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فإذا جحد اليهود نبوة عيسى وجحد النصارى نبوة موسى، فلا تتعجب أن يجحد اليهود والنصارى ومشركوا العرب نبوتك، فهذا شأن أعداء الله مع الأنبياء والرسل عليهم السلام.

١ - سورة الْمَائِدَةِ: الآية/ ٦٨

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

﴿فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾.

اللَّهُ تعالى يَفْصِلُ بَيْنَ هَؤُلَاءِ الْمُخْتَلِفِينَ الْقَائِلُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ مِنْ دِينكُمْ يَوْمَ قِيَامِ الْخَلْقِ لِرَبِّهِمْ مِنْ قُبُورِهِمْ، فَيَتَبَيَّنَ الْمُحِقُّ مِنْهُمْ مِنَ الْمُبْطِلِ، وَقَالَ الزَّجَّاجُ: يُرِيهِمْ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ عِيَانًا، وَمَنْ يَدْخُلُ النَّارَ عِيَانًا.

وفي هذه الآية تهديد شديد لليهود والنصارى والمشركين أنهم سيعرضون على الله تعالى يوم القيامة، فيجازيهم عن سوء أعمالهم وقبيح فعالهم؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصارى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾.[1]

١ - سُورَةِ الْحَجِّ: الآية/ ١٧

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَساجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعى فِي خَرابِها أُولئِكَ مَا كانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوها إِلاَّ خائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذابٌ عَظِيمٌ﴾. الآية/ ١١٤

لما أخبرنا الله تعالى بما ادعاه اليهود والنصارى والمشركون في الآية السابقة بإن كل طائفة تدعي لنفسها الخيرية، وأنها أولى بالحق من غيرها، مع ما تتصف به كل طائفة منهم بالكفر والضلال والبغي والعدوان، وكأنه تعالى يقول لهم فمن غيركم مَنَعَ مَساجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعى فِي خَرابِها، فليس أحدٌ من الخلق أَشَدَّ تَعَدِّيًا وَجَرَاءَةً عَلَى اللَّهِ مِمنِ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُعْبَدَ فِيهَا وَأَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ تعالى.

سبب نزول الآية:

ورد في سبب نزول الآية عدة أقوال الأول: أنها نزلت فِي مُشْرِكِي الْعَرَبِ: مَنَعُوا الْمُسْلِمِينَ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، قَالَهُ عَطَاءٌ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ.

والثاني: أنها نزلت فِي نَطُّوسَ بْنِ اسْبِيسْيَانُوسَ الرُّومِيِّ، الَّذِي خَرَّبَ بَيْتَ الْمَقْدِسِ، وَلَمْ يَزَلْ خَرَابًا إِلَى أَنْ عُمِّرَ فِي زَمَانِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ.

وَقِيلَ: نزلت فِي النَّصَارَى، كَانُوا يَوَدُّونَ خَرَابَ بَيْتِ الْمَقْدِسِ، وَيَطْرَحُونَ بِهِ الْأَقْذَارَ.

وَقِيلَ: نزلت فِي بُخْتَ نَصَّرَ الَّذِي خَرَّبَ بَيْتَ الْمَقْدِسِ، وحرق التوراة.

والراجح أن سبب النزول يشمل مشركي قريش، حيث منعوا المسلمين في مكة من الصلاة في المسجد الحرام، ومن ذكر الله تعالى فيه، ولا شك أن هذا تخريبٌ منهم لبيت الله الحرام، ونزلت في اليهود كذلك الذين منعوا الحواريين والمؤمنين من أتباع المسيح عليه السلام من عبادة الله تعالى في المسجد الأقصى، ونزلت في النصارى عندما انحرفوا عن عقيدة التوحيد فتتبعوا الموحدين منهم بالقتل والتعذيب، وخربوا بيت المقدس كذلك.

وَإِنْ كَانَ سَبَبُ النُزُولِ خَاصًّا بما ذكرناه، فَإن الْعِبْرَةَ بِعُمُومُ اللفظ لَا بِخُصُوصِ السَّبَبِ.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَساجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾.

وَالْآيَةُ كما ذكرنا عامةٌ فِي كُلِّ مَنْ مَنَعَ عبادَ الله من الصلاة وذكر الله تعالى والاعتكاف في بيوت الله، وهي كذلك تعم كُلَّ مَسْجِدٍ يذكر فيه اللَّهُ تعالى ويعبد، والوعيد في الآية يشمل كل طاغية، هدم بيوت الله تعالى، وحرقها، وأغلقها في وجوه المصلين، أو منع الدعاة إلى الله تعالى من الدعوة فيها بزعم أنها تسبب التطرف والإرهاب، فإن لبيوت الله تعالى حرمة، لا يَنْتَظِرُ من انتهكها أو نال منها إلا الخِزْيَ والذلَ فِي الدُّنْيا، وَالعَذابَ العَظِيمَ فِي الْآخِرَةِ، وقوله: ﴿أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾، يشمل المنع من الصلاة،

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ومن تلاوة كلام الله تعالى، ويشمل تعليم الناس العلم الشرعي، فإنه من ذكر الله تعالى؛كما قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلا اللَّهَ﴾.[1]

وَلَيْسَ الْمُرَادُ مِنْ عِمَارَتِهَا تشيدَهَا وزَخْرَفَتَهَا فَقَطْ، إِنَّمَا عِمَارَتُهَا بِذِكْرِ اللَّهِ فِيهَا وَإِقَامَةِ شَرْعِهِ.

وَالْمَسَاجِدُ جَمْعُ مَسْجِدٍ وَهُوَ كُلُّ مَوْضِعٍ يُسْجَدُ لِلَّهِ فِيهِ، ويُعْبَدُ اللَّهُ فِيهِ كَمَا يُقَالُ لِلْمَوْضِعِ الَّذِي يُجْلَسُ فِيهِ: الْمَجْلِسُ، وَلِلْمَوْضِعِ الَّذِي يُنْزَلُ فِيهِ: المَنْزِلُ.

﴿وَسَعى فِي خَرابِها﴾.

وتَخْرِيبُ الْمَسَاجِدِ كما يكون بالهدم والإحراق والإغلاق، يكون بمنع العباد من الصلاة فيها، ولا يفعل هذا إلا من ساءت سيرته، وفسدت سريرته، وقبح معتقده؛ قَالَ الْمَرْوَزِيُّ: قَالَ تعالى:﴿وَمَنْ أَظْلَمُ...﴾ لِيُعْلِمَ أَنَّ قُبْحَ الِاعْتِقَادِ يُورِثُ تَخْرِيبَ الْمَسَاجِدِ، كَمَا أَنَّ حُسْنَ الِاعْتِقَادِ يُورِثُ عِمَارَةَ الْمَسَاجِدِ.

﴿أُولئِكَ مَا كانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوها إِلاَّ خائِفِينَ﴾.

أُولئِكَ الذين خَرَّبُوا الْمَسَاجِدَ قد يَدْخُلُوها أحيانًا من باب خداع السذج من الناس، والتمويه على العامة، كما نرى من الطغاة الذين هذا شأنهم، في مناسبة من المناسبات، فإذا دخل أحدهم مسجدًا يظل ترتعد فرائصه، ويرجف فؤاده فرقًا وخوفًا حتى يخرج منه، والجزاء من جنس العمل، لما أخاف عباد الله، أخافه الله تعالى في موطن الأمن، ولو كان هذا الظالمُ في بيت الله الحرام، وهي سنة كونية لا تتبدل ولا تتغير.

﴿لَهُمْ فِي الدُّنْيا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذابٌ عَظِيمٌ﴾.

ومن كان هذا شأنه فقد توعده الله تعالى بعقابين عقاب دنيوي، وعقاب أخروي، العقاب الدنيوي ذلٌ لا يفارق قلوبهم، فهم وإن ركبوا المراكب الفارهة، وسكنوا القصور الشاهقة، إلا أنهم أذلة في أعين الناس، وفي أعينهم أنفسهم، أبى الله إلا أن يذل من عصاه.

وَعَذابٌ عَظِيمٌ في النار يوم القيامة، فالله تعالى خلق الخلق لعبادته، وهم منعوا الناس من الغاية التي من أجلها خلقهم الله.

---

١ - سورة التَّوْبَةِ: الآية/ ١٨

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾. الآية/ ١١٥

لما أخبر الله تعالى في الآية السابقة عن حال أولئك الطغاة الذين منعوا عباد الله المؤمنين من الصلاة في المساجد، وسعوا في خرابها، أخبرنا الله تعالى أن ذلك ليس عذرا لترك الصلاة، أو التفريط في تلك العبادة العظيمة، فليست الصلاة قاصرة على المساجد، بل لو حيل بين العباد وبين استقبال بيت الله الحرام، فإنَّ الْمَشْرِقَ وَالْمَغْرِبَ لِلَّهِ تَعَالَى فَأَيْنَمَا وَلَّوا وجوههم فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ، وياله من شعور تهون معه الدنيا بما فيها أن تستشعر معية الله تعالى، عندما تضيق عليك الدنيا بما رحبت، وتمنع من الصلاة في المسجد، ويحال بينك وبين السجود لله مع الساجدين، فيفتح الله تعالى لك الآفاق فيتحول الكون كله لك قبلة، فتكون الطاعة فيه أيسر، وتتحول الأرض بأسرها لك مسجدًا، فتكون الأرض لك أرحب.

﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾.

الْمَشْرِقُ هو مَوْضِعُ شُرُوقِ الشمس، وَالْمَغْرِبُ مَوْضِعُ غُرُوبِ الشمس، وهُمَا مِلْكٌ لِلَّهِ تَعَالَى وَمَا بَيْنَهُمَا مِنَ الْجِهَاتِ وَمَا بَيْنَ تلك الْجِهَاتِ مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ الكلُ مِلْكٌ لِلَّهِ تَعَالَى، والكل تحت سلطانه، وفيه إشارة إلى فقر وعجز أولئك الذين صنعوا من أنفسهم أربابًا من دون الله، فادعى بعضهم الربوبية، وادعى بعضهم الألوهية، وما يملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضرًا، وما يملكون في الكونِ من قطميرٍ.

﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾.

ورد في سبب نزول هذه الآية عدة آثار، ولا يصح منها شيء، لذلك أضربنا عنها صفحًا، وكما ذكرنا، فإن سياق الآيات يدل على أن الله تعالى فتح لعباده المستضعفين أفاقًا أرحب، وأوسع من المساجد إذا منعوا من الصلاة في المساجد، وكذلك مَنْ صَلَّى فِي الْغَيْمِ لِغَيْرِ الْقِبْلَةِ ثُمَّ اسْتَبَانَ لَهُ بَعْدَ ذَلِكَ أَنَّهُ صَلَّى لِغَيْرِ الْقِبْلَةِ فَإِنَّ صَلَاتَهُ صحيحةٌ على قول جمهور العلماء.

واختلف العلماء في هذه الآية هل هي منسوخة أو محكمة؟ على قولين:

الأول: أنها منسوخة، وعليه أكثر العلماء فَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: أَوَّلُ مَا نُسِخَ مِنَ الْقُرْآنِ فِيمَا ذُكِرَ لَنَا - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - شأنُ الْقِبْلَةِ: قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾. فاستقبل رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَصَلَّى نَحْوَ بَيْتِ الْمَقْدِسِ، وَتَرَكَ الْبَيْتَ الْعَتِيقَ، ثُمَّ صَرَفَهُ إِلَى بَيْتِهِ الْعَتِيقِ

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وَنَسَخَهَا، فَقَالَ: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُمَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾.[1]

الثاني: أَنَّهَا مُحْكَمَةٌ، وهو قولُ مُجَاهِدٍ وَالضَّحَّاكِ.

ومَعْنَى الآية على قولهما: أَيْنَمَا كُنْتُمْ مِنْ شَرْقٍ وَغَرْبٍ فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ الَّذِي أَمَرَنَا بِاسْتِقْبَالِهِ وَهُوَ الْكَعْبَةُ. وهو قول ظاهر التكلف.

﴿إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾.

﴿وَاسِعٌ﴾ قيل: معنى وَاسِعٌ أي غَنِيٌّ، وَقِيلَ: مَعْنَاهُ جَوَادٌ، وَقِيلَ: مَعْنَاهُ عَالِمٌ.

والأولى أن يقال هُوَ سبحانه وَاسِعُ الْجَوَادِ، مُتَفَضِّلٌ عَلَى عِبَادِهِ بإنعامِهِ، وَغَنِيٌّ عَنْ أَعْمَالِهِمْ، كما قال تَعَالَى: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾.[2]

وَهُوَ سبحانه وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ لَا يَتَعَاظَمُهُ ذَنْبٌ، وَهُوَ سبحانه وَاسِعُ الرحمة كما قال تَعَالَى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾.[3]

وَهُوَ سبحانه وَاسِعُ العلم، ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ﴾.[4]

قالت الْمَلَائِكَةُ وهم يَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينِ آمَنُوا: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا﴾.[5]

فالله تبارك وتعالى وَسِعَ خَلْقَهُ كُلَّهُمْ بِالْكِفَايَةِ، وَالْإِفْضَالِ، وَالْجُودِ، وَالْعَطَاءِ، وَالْمَغْفِرَةِ، والرحمة، والعلم، وَالْقُدْرَةِ ولكل وصف من هذه الأوصاف شاهد من كتاب الله تعالى، وهي صفة من صفات الله تعالى العلية، التي تليق بذاته، وهي أوسع من أن يحدها حد أو يقيدها قيد.

---

١ - رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ فِي تَفْسِيرِهِ (٣٤٦/١)، والحاكم في المستدرك- كِتَابُ التَّفْسِيرِ، مِنْ سُورَةِ الْبَقَرَةِ، حديث رقم: ٣٠٦٠، (٢٦٧/٢)، والبيهقي في السنن الكبرى- كِتَابُ الصَّلَاةِ، جُمَّاعُ أَبْوَابِ اسْتِقْبَالِ الْقِبْلَةِ، بَابُ اسْتِبَانَةِ الْخَطَأِ بَعْدَ الِاجْتِهَادِ، حديث رقم: ٢٢٤٥

٢ - سورة البقرة: الآية/ ٢٦٨

٣ - سورة الْأَعْرَافِ: الآية/ ١٥٦

٤ - سورة سَبَأٍ: الآية/ ٣

٥ - سورة غَافِرٍ: الآية/ ٧

وَأَمَّا قَوْلُهُ: ﴿عَلِيمٌ﴾، فَإِنَّهُ سبحانه عَلِيمٌ بخلقه، عَلِيمٌ بِمَنْ يسعى منهم لِمَرْضَاتِهِ، وعَلِيمٌ بِأَعْمَالِهِمْ، مَا يَغِيبُ عَنْهُ مِنْهَا شَيْءٌ، وَلَا يعْزُب عَنْ عِلْمِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾، تَذْيِيلٌ للآية الْمُرَادُ منه بيانُ سَعَةِ مُلْكِ اللهِ، وعَظِيمِ قدرته، وَاسِعِ فضله، وسَعَةِ رحمته سبحانه، غهو سبحانه أكرم وأرحم وأجلُّ من أن يخيب رجاء من رجاه، أو يحبط سعي من مخلصًا لمرضاته، وهو سبحانه محيطٌ علمه بخلقه، لَا يَغِيبُ عَنْهُ مِنْهُم شَيْءٌ، وَلَا يَعْزُبُ عَنْهُ من أعمالهم شَيْءٌ.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ (١١٦) بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾. الآية/ ١١٦، ١١٧

هذه صورة جديدة من صور الضلال التي يشترك فيها اليهود، والنصارى، ومشركوا العرب، والضمير في: ﴿قَالُوا﴾ يرجع إلى هذه الطوائف الثلاث، فقد زعمت اليهود أن عزيرًا ابن الله، وزعمت أن المسيح ابن الله، وزعم مشركوا العرب أن الملائكة بنات الله، تعالى الله عما يقولون علوًا كبيرًا، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾.[1]

وَقَالَ تَعَالَى عن مشركي قريش: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُمْ مُفْرَطُونَ﴾.[2]

فهم يَجْعَلُونَ لِلَّهِ تَعَالَى مَا يَكْرَهُونَهُ لِأَنْفُسِهِمْ، فجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا، وَجَعَلُوهَا بَنَاتِ اللَّهِ، فَنَسَبُوا إِلَيْهِ سبحانه مَا لَا يَرْتَضُونَهُ لِأَنْفُسِهِمْ.

ولهذا قَالَ تَعَالَى مُنْكِرًا عَلَيْهِمْ: ﴿أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾.[3]

ونسبة الولد لله تعالى من أعظم الكفر، لأنه فيه سب صريح لله تعالى؛ فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "قَالَ اللَّهُ: كَذَّبَنِي ابْنُ آدَمَ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ، وَشَتَمَنِي وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ، فَأَمَّا تَكْذِيبُهُ إِيَّايَ فَقَوْلُهُ: لَنْ يُعِيدَنِي، كَمَا بَدَأَنِي، وَلَيْسَ أَوَّلُ الخَلْقِ بِأَهْوَنَ عَلَيَّ مِنْ إِعَادَتِهِ، وَأَمَّا شَتْمُهُ إِيَّايَ فَقَوْلُهُ: اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا وَأَنَا الأَحَدُ الصَّمَدُ، لَمْ أَلِدْ وَلَمْ أُولَدْ، وَلَمْ يَكُنْ لِي كُفُئًا أَحَدٌ".[4]

ولعظم هذه الكلمة تَكَادُ السَّمَاوَاتِ يَتَشَقَّقْنَ فَرَقًا مِنْ عَظَمَةِ اللَّهِ، وَتَكَادُ الأَرْضُ أن تَنْشَقَّ غَضَبًا لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَتَكَادُ الْجِبَالُ أن تَخِرَّ هَدًّا إشفاقًا من سخط الله تعالى على قائل هذه الكلمة، لعظم مقولتهم، وشناعة معتقدهم؛ كما قَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا * لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا * تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا * أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا * وَمَا يَنْبَغِي

١- سورة التَّوْبَة: الآية/ ٣٠

٢- سورة النَّحْل: الآية/ ٦٢

٣- سورة الإسراء: الآية/ ٤٠

٤ - رواه البخاري-كِتَابُ تَفْسِيرِ القُرْآنِ، بَابُ قَوْلِهِ: (وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةُ الحَطَبِ)، حديث رقم: ٤٩٧٤

لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا * إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ إِلا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا * لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا * وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا﴾.[1]

﴿سُبْحَانَهُ﴾.

ولما قالوا ما قالوا، وسبوا الله تعالى بنسبتهم له الولد، نزه نفسه أن تكون له صاحبة أو يكون له ولد، كما كما ادعى اليهود المغضوب عليهم وكما ادعى النصارى الضلال، وكما زعم المشركون والسفهاء فقال: ﴿سُبْحَانَهُ﴾، أَيْ: تَقَدَّسَ وَتَنَزَّهَ وَتَعَالَى عَنْ ذَلِكَ عُلُوًّا كَبِيرًا.

﴿بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾.

بَلْ تفيدُ الإِضْرَابَ، فهذا إِضْرَابٌ عَنْ قَوْلِهِمْ لِإِبْطَالِهِ، ثم بَيَّنَ سُبْحَانَهُ الدَّلِيلَ عَلَى إِبْطَالِ زَعْمهم بِقَوْلِهِ: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾.

فَالْكلُ عَبِيدٌ لَهُ، وَالْكلُ مِلْكٌ لَهُ، تجري عليهم مشيئتهُ، وينفُذُ فيهم قَدَرُهُ، وَكَيْفَ يَكُونُ لَهُ مِنْهُمْ وَلَدٌ، وَالْوَلَدُ صنو أبيه، وشبيه به، وَاللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ليس كمثله شيء ولَيْسَ لَهُ صَاحِبَةٌ.

وذكر الله تعالى: ﴿مَا﴾ التي تستعملُ لغَيْرِ الْعَاقِلِ ليشمل الكلام كل شيء في السَّمَوَاتِ والأرض، وقيل ذكرت ﴿مَا﴾ تَغْلِيبًا لِغَيْرِ الْعَاقِلِ لأن الكل مربوبٌ للَّهِ تعالى مشتركون في مَنْزِلَةِ العبودية وفيه تَصْغِيرٌ لِشَأْنِ كُلِّ مخلوقٍ.

﴿كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ﴾.

الكُلُّ لَهُ خاضعٌ، وَالكُلُّ منه خائفٌ وَجِلٌ، فَالْقُنُوتُ خُضُوعٌ وَانْقِيَادٌ مَعَ خَوْفٍ، وَإِنَّمَا جَاءَ لفظ: ﴿قَانِتُونَ﴾ بِجَمْعِ الْمُذَكَّرِ السَّالِمِ الْمُخْتَصِّ بِالْعُقَلَاءِ تَغْلِيبًا؛ لِأَنَّهُمْ هُمْ أَهْلُ الْقُنُوتِ عَنْ إِرَادَةٍ وَبَصِيرَةٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾. الآية/ ١١٧

لما نسب اليهود والنصارى ومشركوا العرب لله تعالى الولد – تعالى الله عن ذلك علوا كبيرًا – كذبهم الله تعالى وَأخبر سبحانه أن كل فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ مِلْكٌ لَهُ، والكُلَّ لَهُ خَاضِعٌ، تجري عليهم مشيئتهُ، وكلهم تحت قهره وسلطانه.

١- سورة مَرْيَمَ: الآيات/ ٨٨- ٩٥

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾.

ثم أخبر سبحانه أنه خلق السَّمَوَاتِ والأرض على غير مثال سابق، و﴿بَدِيعُ﴾ على وزن "فعيل"، بمعنى مبدع على وزن "مُفْعِل" مثل "أليم" بمعنى "مؤلم"، وهو الْمُنْشِئُ وَالْمُحْدِثُ مَا لَمْ يَسْبِقْهُ إِلَى إِنْشَاءِ مِثْلِهِ وَإِحْدَاثِهِ أَحَدٌ؛ وَلِذَلِكَ سُمِّيَ الْمُبْتَدِعُ فِي الدِّينِ مُبْتَدِعًا لِإِحْدَاثِهِ فِيهِ مَا لَمْ يَسْبِقْهُ إِلَيْهِ غَيْرُهُ.

وقوله تعالى: ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾. ردٌ عليهم، وبيانٌ لفساد قولهم؛ لأنّ الولد لابد أن يكون على مثالِ الوالدِ، والله تعالى مبدعُ الأشياء كلها وموجدها من العدم.

﴿وَإِذَا قَضَى أَمْرًا﴾.

فهو سبحانه إِذَا أراد إيجاد شيءٍ قال: له كن، وأصل وَالْقَضَاءِ إتمام الشيء قولاً، أوحكمًا، أو فعلاً.

ويطلقُ الْقَضَاءُ فِي الْقُرْآنِ عَلَى خمسةِ معانٍ.

الأول: يَأْتِي بِمَعْنَى الْخَلْقِ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ﴾.[1]

يَعْنِي خَلَقَهُنَّ.

وَالثَانِي: يَأْتِي بِمَعْنَى الْأَمْرِ وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقَضى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾.[2]

وَالثَالِثُ: يَأْتِي بِمَعْنَى الْحُكْمِ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ﴾.[3]

وَالرَابِعُ: بِمَعْنَى الْإِخْبَارِ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقَضَيْنا إِلى بَنِي إِسْرائِيلَ فِي الْكِتابِ﴾.[4]

أَيْ: أَخْبَرْنَاهُمْ.

وَالخَامِسُ: يَأْتِي بِمَعْنَى الْفَرَاغِ مِنَ الشَّيْءِ وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ﴾.[5]

وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ﴾.[6]

يَعْنِي فُرِغَ مِنْ إِهْلَاكِ الْكُفَّارِ.

---

١ - سورة فُصِّلَتْ: الآية/ ١٢

٢ - سورة الْإِسْرَاءِ: الآية/ ٢٣

٣ - سورة يُونُسَ: الآية/ ٩٣، وَسورة النَّحْلِ: الآية/ ٧٨

٤ - سورة الْإِسْرَاءِ: الآية/ ٤

٥ - سورة الْأَحْقَافِ: الآية/ ٢٩

٦ - سورة هُودٍ: الآية/ ٤٤

وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ﴾.[1]

يَعْنِي إذا فَرَغتم مِنْ أداء الصَّلاةِ.

وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ﴾.[2]

يَعْنِي إذا فَرَغتم مِنْ أداء مَنَاسِكَكُمْ، وأتممتم الحجَ.

﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾.

إِذَا قَدَّرَ الله تعالى أَمْرًا وَأَرَادَ كَوْنَهُ، فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ، مَرَّةً وَاحِدَةً فَيُوجَدُ، عَلَى وَفْقِ مَا أَرَادَ، وَكَمَا شَاءَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّما أَمْرُهُ إِذا أَرادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾.[3]

وَكما قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّما قَوْلُنا لِشَيْءٍ إِذا أَرَدْناهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾.[4]

وفِي هذَا دليلٌ على كَمَالِ قُدْرَتِهِ وَعَظِيمِ سُلْطَانِهِ، ونفاذِ أمرِهِ في جميعِ خلقِهِ.

وفي الآية إشارة إلى أَنَّ خَلْقَ عِيسَى عليه السلام كان بِكَلِمَةِ "كُنْ"، فَكَانَ كَمَا أَمَرَهُ اللَّهُ، كما قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ قالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾.[5]

---

١ – سورة الجمعة: الآية/ ١٠

٢ – سورة الْبَقَرَةِ: الآية/ ٢٠٠

٣ – سورة يس: الآية/ ٨٢

٤ – سورة النَّحْلِ: الآية/ ٤٠

٥ – سورة آل عمران: الآية/ ٥٩

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾. الآية/ ١١٨

يخبرنا الله تعالى عن تعنت الكفار وسوء أدبهم مع الله تعالى ومع أنبيائه، وأن تعنتهم منشؤه الجهل بالله تعالى، فهم لم يقدروا الله تعالى حق قدره، و لم يعرفوه حق المعرفة، لذلك علقوا إيمانهم بالله تعالى على رؤية المعجزات، وخوارق العادات، والمراد بالآية هنا المعجزة، والأمر الخارق للعادة، والعلامة الدالة على صدق النبوة.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

اختلف العلماء في المراد بالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ على أقوال ثلاثة: فقال ابن عباس: هم اليهود، وقال مجاهد: هم النصارى، وقال قتادة والسدي:هم مشركوا العرب، والطوائف الثلاثة يدخلون في هذا الوصف فليست طائفة أولى بهذا الوصف من طائفة أخرى، وإن كانوا يتفاوتون في الجهل، ويتفاضلون في العناد للرسل، فقد أخبر الله تعالى عن اليهود أن سألوا نبيهم موسى عليه السلام رؤية الله تعالى جهرة، قَالَ تَعَالَى: ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنزلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ﴾.[١]

وَقَالَ تَعَالَى عن النصارى: ﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنزلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.[٢]

وَقَالَ تَعَالَى عن مشركي العرب: ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنْبُوعًا﴾.[٣]

والراجح أن المراد بقول الله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ هم مشركوا العرب، لأن الجهل بهم ألصق، فليس عندهم من العلم شيء، بخلاف أهل الكتاب الذين كان عندهم شيء من العلم.

﴿لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ﴾.

لَوْلَا معناها هلَّا، ومرادهم هلَّا كَلَّمَنَا اللَّهُ كَمَا يُكَلِّمُ رُسُلَهُ وَأَنْبِيَاءَهُ، وما قالوا ذلك إلا كبرًا منها، كما قَالَ اللَّهُ: ﴿لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا﴾.[٤]

---

١ - سورة النِّسَاءِ: الآية/ ١٥٣

٢- سورة الْمَائِدَة: الآية/ ١١٢

٣- سورة الْإِسْرَاءِ: الآية/ ٩٠

٤ - سورة الفرقان: الآية/ ٢١

وما أُجْمِلَ هُنَا من قَولِهم: ﴿أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ﴾، أتي مفصلًا فِي سُورة الْإِسْرَاءِ، ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنْبُوعًا * أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا * أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا * أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾.[1]

﴿كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾.

كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ مَقَالَتِهِمْ، وفيه تعريضٌ باليهودِ والنَّصَارَى، فهؤلاء سَأَلُوا مِنَ الْآيَاتِ مَا لَيْسَ لَهُمْ، كما سَأَلَها اليهود والنصارى، ومَنْ قبلهم من الكفار تَحَكُّمًا، مِنْهُمْ وعنادًا لرسل ربهم، فكما تعنت هؤلاء تعنت الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ.

﴿تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾.

أي: تَشَابَهَتْ قُلُوبُ كُفَّارِ الْعَرَبِ وَالْيَهُودِ وَالنَّصَارَى وَغَيْرِهِمْ من الكُفَّارِ فِي عَدَمِ الإِيمَانِ، والضَّلَالِ.

﴿قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾.

قَدْ بَيَّنَّا الْعَلَامَاتِ الدالة على صدق الأنبياء والرسل، فما من نبي إلا وأعطاه الله تعالى من الأدلة والبراهين على صدق دعوته، وصحة نبوته ما يغني طالب الحق ومريده، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آياتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآياتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّما أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ * أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ يُتْلى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.[2]

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "مَا مِنْ الْأَنْبِيَاءِ نَبِيٌّ إِلَّا قَدْ أُعْطِيَ مِنْ الْآيَاتِ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيتُهُ وَحْيًا أَوْحَاهُ اللَّهُ إِلَيَّ فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ".[3]

وَالْيَقِينُ هُوَ الْعِلْمُ بِالشَّيْءِ بَعْدَ أَنْ كَانَ صَاحِبُهُ شَاكًّا فِيهِ، ولا ينتفع بالآيات إلا أهل اليقين، أما من كان شاكًا، متذبذبًا، مرتابًا، فهو بعيد كل البعد عن الهداية.

---

١ - سورة الْإِسْرَاءِ: الآية/ ٩٠: ٩٣

٢ - سورة الْعَنْكَبُوتِ: الآية/ ٥٠، ٥١

٣ - رواه أحمد- حديث رقم: ٩٨٢٨

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ﴾. الآية/ ١١٩

لما ازداد عناد المشركين لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حتى أنهم سألوا الْمُعْجِزَاتِ عَلَى سَبِيلِ التَّعَنُّتِ، بقولهم: ﴿لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ﴾.[1]

وطعنوا في رسالته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أنزل الله تعالى تلك الآية تطمينًا لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وبيانًا لحال أولئك المعاندين المكذبين.

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾.

أي أنت رسول الله حقًا، ونبي الله صدقًا، أَرْسَلْنَاكَ بَشِيرًا وَنَذِيرًا، فلا يحزنك كفرهم، ولا تغتم لعنادهم.

وَقيل: أَنَّ قوله: ﴿بِالْحَقِّ﴾ مُتَعَلِّقٌ بِالْبَشِيرِ وَالنَّذِيرِ أَيْ أَنْتَ مُبَشِّرٌ بِالْحَقِّ وَمُنْذِرٌ بِهِ.

وَقِيلَ: الْمُرَادُ ﴿بِالْحَقِّ﴾، الْقُرْآن، أَيْ أَرْسَلْنَاكَ بِالْقُرْآنِ حَالَ كَوْنِهِ بَشِيرًا لِمَنْ أَطَاعَ اللَّهَ بِالثَّوَابِ وَنَذِيرًا لِمَنْ كَفَرَ بِالْعِقَابِ، ووجه أنهم لما سألوا الْآيَاتِ الدالة على صدقه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أخبر سبحانه أن أعظم آيات الله هو الْقُرْآن كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ يُتْلى عَلَيْهِمْ﴾.[2]

وَقِيلَ: الْمُرَادُ ﴿بِالْحَقِّ﴾، أَيْ أَرْسَلْنَاكَ بِالْإِسْلَامِ حَالَ كَوْنِهِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا.

ومعنى: ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾.أي: مُبَشِّرًا لِمَنْ آمَنَ بالله وأَطَاعَهُ بِالْجَنَّةِ، وَنَذِيرًا لِمَنْ كَفَرَ باللَّهِ تعالى وَكَذَّبَ بِآيَاتِهِ بِالنَّارِ.

وَالْأَوْلَى أَنْ يَكُونَ الْبَشِيرُ وَالنَّذِيرُ صِفَةً لِلرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَكَأَنَّهُ تَعَالَى قَالَ: إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ يَا مُحَمَّدُ بِالْحَقِّ لِتَكُونَ مُبَشِّرًا لِمَنِ لِمَنْ باللَّهِ تعالى وأَطَاعَكَ، وَاهْتَدَى بِدِينِكَ، وَمُنْذِرًا لِمَنْ كَفَرَ باللَّهِ تعالى وعصاكَ، وَصَدَّ عَنْ دِينِكَ.

ومما يدل على ذلك ما ثبت عَنْ عَطَاءِ بْنِ يَسَارٍ، قَالَ: لَقِيتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَمْرِو بْنِ العَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قُلْتُ: أَخْبِرْنِي عَنْ صِفَةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي التَّوْرَاةِ؟ قَالَ: "أَجَلْ، وَاللَّهِ إِنَّهُ لَمَوْصُوفٌ فِي التَّوْرَاةِ بِبَعْضِ صِفَتِهِ فِي القُرْآنِ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾، وَحِرْزًا لِلْأُمِّيِّينَ، أَنْتَ عَبْدِي وَرَسُولِي، سَمَّيْتُكَ المتَوَكِّلَ لَيْسَ بِفَظٍّ وَلاَ غَلِيظٍ، وَلاَ سَخَّابٍ فِي الأَسْوَاقِ،

---

١ - سُورَةُ الْبَقَرَةِ: الآية/ ١١٨

٢ - سورة الْعَنْكَبُوتِ: الآية/ ٥١

وَلاَ يَدْفَعُ بِالسَّيِّئَةِ السَّيِّئَةَ، وَلَكِنْ يَعْفُو وَيَغْفِرُ، وَلَنْ يَقْبِضَهُ اللَّهُ حَتَّى يُقِيمَ بِهِ المِلَّةَ العَوْجَاءَ، بِأَنْ يَقُولُوا: لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَيَفْتَحُ بِهَا أَعْيُنًا عُمْيًا، وَآذَانًا صُمًّا، وَقُلُوبًا غُلْفًا ".[1]

﴿وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ﴾.

أَيْ: لَا نَسْأَلُكَ عَنْ كُفْرِهم،كما قال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾.[2]

وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِنَّما عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسابُ﴾.[3]

وهو كِنَايَةٌ عَنِ عَدَمِ الْمُؤَاخَذَةِ وَاللَّوْمِ، أَيْ: لَسْتَ مُؤَاخَذًا عَلَى كُفْرِ مَنْ كَفَرَ، وضَلَالِ مَنْ ضَلَّ.

وَقَرَأَ نَافِعٌ وَيَعْقُوبُ: «وَلَا تَسْأَلْ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ» بِفَتْحِ التَّاءِ عَلَى النَّهْيِ، أَيْ: لَا تَسْأَلْ عَنْ أَحْوَالِهم؛ لِأَنَّهَا لَا يَبْلُغُ إِلَى كُنْهِهَا الْعَقْلُ، ولا تُتَخيلُ فِي شَنَاعَتِهَا، وَهُوَ كِنَايَةٌ عَنْ فَظَاعَةِ أَحْوَالِهم وَشَنَاعَتِهَا.

وَالْجَحِيمُ: ما اشتدّ حرُّه من النارِ.

وَفِي التعبير بقوله تعالى: ﴿أَصْحَابِ الْجَحِيمِ﴾، بيان لشدة ملازمتها لهم، كما قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾.[4]

---

١ – رواه البخاري– كتاب التفسير، سورة الفتح، باب "إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا، حديث رقم: ٤٨٣٨

٢ – سورة البقرة: الآية/ ٢٧٢

٣ – سورة الرَّعْدِ: الآية/ ٤٠

٤ – سورة الفرقان: الآية/ ٦٥

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ﴾. الآية/ ١٢٠

فضح الله تعالى بهذه الآية اليهود والنصارى، وأنهم لا رغبة لهم في اتباع الحق، ولا نية عندهم في الإيمان، وإنما كان الذي سألوه من الآيات هو محض تعنت، ومجرد عناد، كَمَا قَالَ تَعَالَى: كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ * وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ﴾.[١]

﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾.

في هذه الآية الكريمة تسلية لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فقد كان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أحرص الناس على هدايتهم هم والمشركون، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾.[٢]

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾.[٣]

وكان أرغب الناس في إيمانهم، ونجاتهم من العذاب؛ و لم لا؟ وهو الرحمة المهداة؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾.[٤]

ولكن الهداية لا يملكها إلا الله تعالى؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾.[٥]

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾.[٦]

فلَوْ أَتَيْتَهُمْ يا محمد بِكُلِ مَا يَسْأَلُونَ من الآيات لَمْ يَرْضَوْا عَنْكَ، وَإِنَّمَا يُرْضِيهِمْ تَرْكُ مَا أَنْتَ عَلَيْهِ مِنَ الْإِسْلَامِ وَاتِّبَاعُهُمْ.

﴿حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾.

وفي قوله سبحانه: ﴿حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾، دليل على أن معاداة اليهود والنصارى للمسلمين باعثها اختلاف الدين، وكل عداء سببه الدين فمحال أن ينقلب إلى محبة إلا إذا تخلى أحد الخصمين عن دينه،

---

١ - سورة يُونُسَ: الآية/ ٩٦، ٩٧

٢ - سورة الشُّعَرَاءِ: الْآيَةُ/ ٣

٣ - سورة الْكَهْفِ: الْآيَةُ/ ٧

٤ - سورة الأنبياء: الْآيَةُ/ ١٠٧

٥ - سورة الْبَقَرَةِ: الْآيَةُ/ ٢٧٢

٦ - سورة الْقِصَصِ: الْآيَةُ/ ٥٦

ومع أن هذا أوثق عرى الإسلام، فقد انحرف عنه كثير من الناس، وكم ضلت في هذا الباب أفهام، وزلت فيه أقدام، نسأل الله المعافاة.

وَالْملَّة: هي النِّحلة الَّتِي ينتحلها الْإِنْسَان من الدّين.[1]

والفرق بين الملة والدين: أن الملة اسم لجملة الشريعة، والدين إسم لما عليه كل واحد من أهلها ألا ترى انه يقال فلان حسن الدين ولا يقال حسن الملة وإنما يقال هو من أهل الملة ويقال لخلاف الذمي الملي نسب إلى جملة الشريعة فلا يقال له ديني.[2]

وعلى هذا فالملة أعم من الدين، فبينهما عموم وخصوص مطلق، فكل ملة دين وليس كل دين ملة، فاليهودية ملة لان فيها شرائع وليس الشرك ملة.

﴿قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى﴾.

لما أعرض اليهود والنصارى عن الحق، وامتنعوا من الإستجابة له، زعمًا أنهم على الدين الحق، وعلى الهدى القويم، وأن النجاة في اتباع ملتهم، بين الله تعالى أَنَّ الهُدَى كل الْهُدَى في الاستجابة لأمر اللَّهِ ومتابعة رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وليس وراء ذلك من الْهُدَى شيءٌ.

﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ﴾.

ثم أخبر الله تعالى أنهم لا يتمسكون من دين الله بشيء، وإنما هي أهواء وضلالات وبدع ما أنزل الله بها من سلطان، كما قال تعالى: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ﴾.[3]

﴿أَهْوَاءَهُمْ﴾.

الأَهْوَاءُ جمع هوى، والهوى: محبة الإنسان الشيء، وغلبته على قلبه، كما قال الله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى﴾.[4]

وإنما سمي الهوى هوىً، لأنه يهوي بصاحبه في النار.[5]

---

١ – جمهرة اللغة (١/ ١٦٨)

٢ – الفروق اللغوية (ص: ٥٠٩)

٣ – سورة الحديد: الآية/ ٢٧

٤ – سورة النازعات: الآية/ ٤٠

٥ – الزاهر في معاني كلمات الناس (٢/ ٣٨٨)

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وإنما وردت بالجمع لتدل على ما هم فيه من الإختلاف، ووردت الملة بالإفراد لأن المقصود بها الطريقة، وطريقتهم في الكفر واحدة.

﴿بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾.

مِنَ الْعِلْمِ بِضَلَالَتِهِمْ وَكُفْرِهِمْ بِرَبِّهِمْ.

﴿مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ﴾.

يعني لَيْسَ لَكَ يَا مُحَمَّدُ إن اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ، ووافقتهم على مرادهم، بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ لَيْسَ لَكَ مِنَ دونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ يَلِي أَمْرَكَ، وَلَا مَنْ يَنْصُرُكَ مِنَ اللَّهِ، فَيُدْفَعُ عَنْكَ مَا يَنْزِلُ بِكَ مِنْ عُقُوبَتِهِ، وَيَمْنَعُكَ مِنْ ذَلِكَ إِنْ أَرَادَهُ بِكَ رَبُّكَ.

وهذا من الخاص الذي يراد به العموم؛ فإن اتباع النَّبِيِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأهلِ الكتاب محالٌ، فالمقصود بالنهي عن اتباع أَهْوَاءِ أهل الكتاب، هم أمته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كما قال الله تعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾.[1]

فإنه من الخاص الذي يراد به العموم.

---

١ - سورة الزّمر: الآية/ ٦٥

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾. الآية/ ١٢١

لما أخبر الله تعالى عن حال أهل الكتاب من اليهود والنصارى في الآيات السابقة، بأنهم أهل عناد وشقاق، وأهل كفر وضلال، وَأن كَثِيرًا مِنْهم يتمنون أن يَرْتَدَّ المسلمون عن دينهم مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِمْ كُفَّارًا حَسَدًا للمسلمين وحقدًا لهم، بين الله تعالى في هذه الآية أن مجرد الإنتساب لكتابٍ من كتب الله المنزلة مع الإعراض عما فيه لا ينفع صاحبه، حتى يكون متبعًا له عاملًا بما فيه، مقيمًا له، محلًا لحلاله ومحرمًا لحرامه.

﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾.

ورد في المراد بقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾، أقولٌ ثلاثة للعلماء:

الأول: أن المراد بهم اليهود والنصارى لأنهم الذين تقدم ذكرهم في الآيات، وهو قول جمهور المفسرين.

والثاني: أن المرادَ بهم أصحابُ محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهو قولُ قتادةَ وعكرمةَ.

الثالث: أنهم أَهْلُ السَّفِينَةِ الَّذِينَ قَدِمُوا مَعَ جَعْفَرِ بْنِ أَبِي طَالِبٍ، وَكَانُوا اثْنَيْنِ وَثَلَاثِينَ مِنْ أَهْلِ الْحَبَشَةِ، وَثَمَانِيَةً مِنْ رُهْبَانِ الشَّامِ. قَالَه ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

والراجح القول الأول؛ لأن أصحاب النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يتقدم لهم ذكر في الآيات.

ومعنى: ﴿يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ﴾. أي يتبعونه حق اتباعه، ويقرأونه حق قِرَاءَته، وَالتِّلَاوَةُ لَهَا مَعْنَيَانِ. أَحَدُهُمَا: الْقِرَاءَةُ. الثَّانِي: الِاتِّبَاعُ فِعْلًا، لِأَنَّ مَنِ اتَّبَعَ غَيْرَهُ يُقَالُ تَلَاهُ فِعْلًا.

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: يَتَّبِعُونَهُ حَقَّ اتِّبَاعِهِ، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَالْقَمَرِ إِذَا تَلاهَا﴾.[1]

يَقُولُ: اتَّبَعَها.[2]

وإن كان المعنى يَقَعُ عَلَيْهِمَا مَعًا، إلا أن معنى الإتباع أظهر وأقرب.

والصحيح أن جملة: ﴿يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ﴾، في موضع الحال، ويكون الخبر أولئك يؤمنون، وعلى هذا يكون المعنى الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ حال كونهم يتبعونه حق اتباعه أُولَئِكَ هم المؤمنون به وليس من

---

١ - سورة الشَّمْسِ: الآية/ ٢

٢ - تفسير ابن كثير (١/ ٤٠٣)

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

انتسب إليه مجرد انتساب، وهو لا يقيم له وزنا، ولا يحل له حلالا، ولا يحرم له حرامًا، كما قال الله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾.[1]

ومن لوازم اتِّبَاعِهِم للكتاب الإيمان بمَا فِيهِ مِنَ الْأَخْبَارِ الدالة على مَبْعَثِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَوجوب اتِّبَاعِهِ وَنَصْرِهِ وَمُؤَازَرَتِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ﴾.[2]

والألف واللام في: ﴿الْكِتَابَ﴾ للعهد، والمراد بالكتاب التَّوْرَاةُ وَالإِنْجِيلُ، وقيل التَّوْرَاةُ وَالإِنْجِيلُ والقرآن، والراجح الأول لدلالة السياق عليه.

﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾.

أي: وَمَنْ يَكْفُرْ بالكتاب الذي أنزله الله تعالى فلم يتبع أمر الله تعالى فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ.

وَقِيلَ: يَعُودُ الضَّمِيرُ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لأنه تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ فِي قَوْلِهِ تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ....﴾، ويكون هذا من باب الْإِلْتِفَاتِ مِنْ الخِطَابِ إِلَى الغَيْبَةِ، ولما ثبت عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَهُودِيٌّ، وَلَا نَصْرَانِيٌّ، ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ، إِلَّا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ».[3]

وَالظَّاهِرُ أَنْ الضَّمِيرَ فِي ﴿بِهِ﴾ يَعُودَ عَلَى الْكِتَابِ لِتَتَنَاسَبَ الضَّمَائِرُ وَلَا تَخْتَلِفَ.[4]

وأصل الخُسْرَانِ: الغُبنُ والنقصانُ؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾.[5]

ويطلق الخُسْرَانُ ويرادُ به الهَلَاكُ كما في هذه الآية، وكما في قوله تعالى: ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾.[6]

---

١ - سورة المائدة: الآية/ ٦٨

٢ - سورة الْأَعْرَافِ: الْآيَةَ/ ١٥٧

٣ - رواه مسلم- كتاب الإيمان، باب وُجُوبِ الإِيمَانِ بِرِسَالَةِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى جَمِيعِ النَّاسِ وَنَسْخِ الْمِلَلِ بِمِلَّتِهِ، حديث رقم: ٤٠٣

٤ - البحر المحيط في التفسير (١/ ٥٩٢)

٥ - سورة الْمُطَفِّفِينَ: الآية/ ٣

٦ - سورة غَافِرٍ: الآية/ ٨٥

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَابَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (١٢٢) وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾. الآية/ ١٢٢، ١٢٣

تَقَدَّمَ الكلام على هَذِهِ الْآيَةِ فِي صَدْرِ السُّورَةِ، وَكُرِّرَتْ هُنَا لِحِكَمٍ بالغةٍ منها: التذكير بالله تعالى، والتذكير بآلائه، والتحذير من سخطه وأليم عقابه، والتذكير لا حد له يقف عنده، ولا منتهى ينتهي إليه.

وَفِي هَذِهِ الْآيَةُ عِظَةٌ وتذكير مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لِلْيَهُودِ بِمَا سَلَفَ مِنْ الله تعالى إِلَيْهِمْ من نعمه السابغة عليهم وآلائه العظيمة إليهم، وَصَنَائِعِهِ الكثيرة عِنْدَهُمْ، وَاسْتِنْفَاذِهِ إِيَّاهُمْ مِنْ أَيْدِي عَدُوِّهِمْ، وَإِنْزَالِهِ عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى، وَتَفْضِيلِهِم عَلَى أهل زمانهم، وأن ذلك موجب لطاعته سبحانه، ومتابعة رسوله محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ومن الحكم ألا يقطع الداعية إلى الله تعالى الرجاء من إسلام كافر أو طاعة عاصٍ؛ فإن القلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن جل وعلا.

ومن الحكم كذلك من تكرار هاتين الآيتين أنه قد سبق في ثنايا الكلام مَا صَدَرَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، مِنَ مُخَالَفَاتٍ لأوامر الله تعالى ورسله، ومن العناد الذي لا يليق بالعبد مع مولاه، ومِنْ الأَفْعَالِ الَّتِي لَا ينبغي أن تُقَابَلَ بها نِعَمُ اللَّهِ تعالى، فكررت هاتان الآيتان تقريرًا لهم على أَفْعَالِهِمُ الَّتِي لَا تَلِيقُ بِمَنْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ، ولا شك أن هذا أدعى للقبول، وأجدر بالاستجابة.

ومن الحكم كذلك إعلام الله تعالى لهم أن باب التوبة مازال مفتوحًا، مهما اقترف العبد، ومهما بلغت ذنوبه، وأن رحمة الله تعالى واسعة، لا منتهى لها، كما قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾.[١]

وَقَالَ تَعَالَى فِي حَقِّ الْمُنَافِقِينَ: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا *إِلا الَّذِينَ تَابُوا﴾.[٢]

وَقَالَ تَعَالَى فِي حَقِّ النصارى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.[١]

---

١ - سورة النِّسَاءِ: الآية/ ١١٠

٢ - سورة النِّسَاءِ: الآية/ ١٤٥، ١٤٦

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ثُمَّ قَالَ: ﴿أَفَلا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.[٢]

وَقَالَ تَعَالَى فِي حَقِّ الذين قَتَلُوا أَوْلِيَاءَهُ وحَرَّقُوهُم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا﴾.[٣]

ومن الحكم كذلك إعلام الله تعالى لهم أنهم انحرفوا عن منهج إبراهيم الخليل عليه السلام، الذي يزعمون أنه منهم وأنهم ينتسبون إليه، لذا كانت هاتان الآيتان بمثابة التقديم لذكر إبراهيم الخليل عليه السلام، ومن أحق الناس بالانتساب إليه.

ومن الحكم كذلك التأكيد على استحضار النعم، ووجوب شكرها، وعلى الحذر من سخط الله تعالى، وأنه لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا يوم القيامة، ولا تنفع الشفاعة من لقي الله تعالى كافرًا.

هنا قال الله تعالى: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ﴾، وفي الموضع الأول قال تعالى: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾، ليجمع الله تعالى بين نفي القبول، ونفي المنفعة للشفاعة التي يرجونها في الآخرة، والعَدْلُ الذي يظنونه وهو الفِدَاءُ.

قال الحرالي: أجراها تعالى في هذا التكرار على حدها في الأول إلا ما خالف بين الإيرادين في قوله:﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا.....﴾ إلى آخره ليجمع النبأ في كل واحد من الشفاعة والعدل بين مجموع الردين من الأخذ والقبول، فيكون شفاعتها لا مقبولة ولا نافعة، ويكون عدلها لا مأخوذًا ولا مقبولًا.[٤]

---

١ - سورة الْمَائِدَةِ: الآية/ ٧٣

٢ - سورة الْمَائِدَةِ: الآية/ ٧٤

٣ - سورة الْبُرُوجِ: الآية/ ١٠

٤ - نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٢/ ١٤٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾. الآية/ ١٢٤

لما أقام الله تعالى الْحُجَجَ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ، وبين انحرافهم عن منهج الله تعالى وعن سبيل أنبيائه عليهم السلام، وأنهم لا يتمسكون بشيء مما أنزله الله تعالى على رسله، وكان مما يزعمونه أنهم على ملة إبراهيم، وأن دينهم هو دينه، بَيَّنَ اللهُ تعالى لهم ما كان عليه إبراهيم الخليل عليه السلام، ومن أولى الناس باتباعه، فالْيَهُودُ هم المخاطبون أصالة بهذه الآية وما بعدها، بدلالة الآيات التي تأتي في ثنايا الحديث ومن ذلك قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ﴾.[١]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾.[٢]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.[٣]

ودخل معهم في الخطاب بهذه الآية وما بعدها تبعًا النَّصَارَى، وَمُشْرِكُوا الْعَرَبِ؛ وذلك لأن كلا من اليَهُودِ والنَّصَارَى وَمُشْرِكُي الْعَرَبِ كانوا ينتسبون لإِبْرَاهِيمَ عليه السلام كما قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ردًا على اليَهُودِ والنَّصَارَى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.[٤]

وأما مُشْرِكُوا الْعَرَبِ فقد كانوا يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ أَفْضَلُ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ، وَأَنَّهُمْ يَتَعَلَّقُونَ بِمِلَّتِهِ، وَأَنَّهُمْ زَرْعُ إِسْمَاعِيلَ، وَسَدَنَةُ الْبَيْتِ الَّذِي بَنَاهُ،كما قَالَ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ:

نَحْـــنُ آلُ اللَّـــهِ فِـــي كَعْبَتِـــهِ ***** لَمْ نَزَلْ ذَاكَ عَلَـــى عَهْـــدِ إبـــراهيم

---

١ - سورة الْبَقَرَةِ: الآية/ ١٣٠

٢ - سورة الْبَقَرَةِ: الآية/ ١٣٣

٣ - سورة الْبَقَرَةِ: الآية/ ١٣٥

٤ - سورة آلِ عمران: الآية/ ٦٧

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وَكما قَالَ زَيْدُ بْنُ عَمْرِو بْنِ نُفَيْلٍ:

عُــذْتُ بِمَــا عَــاذَ بِــهِ إِبْــرَهِمُ ***** إِذْ قَالَ وَجْهِي لَــكَ عَــانٍ رَاغِــمُ

وَقَالَ أَبُو طَالِبٍ فِي قَصِيدَتِهِ الْمَعْرُوفَةِ اللَّامِيَّةِ:

ومَوطِئُ إِبْرَاهِيمَ فِي الصَّخْرِ رَطْبَــةٌ ***** عَلَى قَدَمَيْــهِ حَافِيًــا غَيْــرَ نَاعِــلِ

فبين الله تعالى في هذه الآيات أن إِبْرَاهِيمَ عليه السلام مَا كَانَ يَهُودِيًّا وَلا نَصْرَانِيًّا، وأن من انتسب إليه يجب أن يكون على دينه، فلقد كَانَ إِبْرَاهِيمُ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ.

﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾.

هذا ثناء من الله تعالى على خليلِهِ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام بأن الله تعالى اخْتَبَرَهُ وكَلَّفَهُ بصنوفٍ مِنَ الْأَوَامِرِ وَالنَّوَاهِي، ﴿فَأَتَمَّهُنَّ﴾ أَيْ: قَامَ بِهِنَّ كُلِّهِنَّ أتم قيامٍ، فحقق الطاعة المطلقة لله تعالى، وَوَفَّى لله تعالى بِمَا شَرَعَ لَهُ، وَعَمِلَ بجميع ما أمره الله تعالى به؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾.[1]

ولا شك أن هذا القول أعني أنه كَلَّفَهُ بصنوفٍ مِنَ الْأَوَامِرِ وَالنَّوَاهِي يجمع ما ذكره المفسرون من تفسير لفظ: ﴿كَلِمَاتٍ﴾.

قال ابن كثير رحمه الله: وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿بِكَلِمَاتٍ﴾، أَيْ: بِشَرَائِعَ وَأَوَامِرَ وَنَوَاهٍ، فَإِنَّ الْكَلِمَاتِ تُطْلَقُ، وَيُرَادُ بِهَا الْكَلِمَاتُ الْقَدَرِيَّةُ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى عَنْ مَرْيَمَ، عَلَيْهَا السَّلَامُ: ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ﴾.[2]

وَتُطْلَقُ وَيُرَادُ بِهَا الشَّرْعِيَّةُ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾.[3]

أَيْ: كَلِمَاتُهُ الشَّرْعِيَّةُ. وَهِيَ إِمَّا خَبَرُ صِدْقٍ، وَإِمَّا طَلَبُ عَدْلٍ إِنْ كَانَ أَمْرًا أَوْ نَهْيًا، وَمِنْ ذَلِكَ هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ: ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾، أَيْ: قَامَ بِهِنَّ.[1]

---

١ - سورة النَّجْمِ: الآية/ ٣٧

٢ - سورة التَّحْرِيمِ: الاية/ ١٢

٣ - سورة الْأَنْعَامِ: الآية/ ١١٥

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾.

الْإِمَامُ: هو الْقُدْوَةُ، وَمِنْهُ قِيلَ لِلطَّرِيقِ: إِمَامٌ، لِأَنَّهُ يُؤَمُّ فِيهِ لِلْمَسَالِكِ، أَيْ يُقْصَدُ، كما قَالَ تعالى: ﴿وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُبِينٍ﴾.[2]

وقوله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾، يحتمل أن يكون تَفْسِيرًا للابتلاء المذكور، وهو قول مُجَاهِد، وَالرَّبِيعِ بْنِ أَنَسٍ، فتكون كَالْبَيَانِ عَنِ الْكَلِمَاتِ التِي ذَكَرَ اللَّهُ أَنَّهُ ابْتَلَى بِهِنَّ إِبْرَاهِيمَ.

ويحتمل أن يكون كلامًا مستأنفًا، جَزَاءً عَلَى مَا قَامَ بِهِ من أمتثال الْأَوَامِرِ وتَرَكِ النَوَاهِي والزَّوَاجِرَ، فَجَعَلَهُ اللَّهُ لِلنَّاسِ قُدْوَةً يُقْتَدَى بِهِ، وَإِمَامًا يحتذى حذوه، وهو الراجح لأَنَّ الْكَلِمَاتِ أَشْمَلُ وأعم من ذلك.

﴿قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾.

وَلَمَّا بشرَ اللَّهُ تعالى إِبْرَاهِيمَ عليه السلام بإنه سيكون إِمَامًا للناس، سَأَلَ اللَّهَ أَنْ يجعل الإمامةَ مِنْ بَعْدِهِ فِي ذُرِّيَّتِهِ، فَاستجَابَ اللَّهُ تعالى له، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾.[3]

لكنه استثنى مِنْ ذُرِّيَّتِهِ الظَّالِمِينَ، بِأَنَّهُم لَا يَنَالُهُمْ عَهْدُ اللَّهِ، وَلَا يَكُونُونَ أَئِمَّةً يُقْتَدَى بِهِمْ، وَهذا تعْرِيضٌ بِمَنْ لَمْ يَقْتَفِ آثَارَهَ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ، وممن ينتسب إليهمن اليهود والنصارى ومشركي العرب، وأنهم لا ينفعهم الانتساب إليه إذا خالفوا دينه فإِنَّ الْجَزَاءَ بِالْأَعْمَالِ، ولَيس بِالِاتِّكَالِ على الأنساب.

---

١ - تفسير ابن كثير (١/ ٤٠٥)

٢ - سورة الْحِجْرِ: الآية/ ٧٩

٣ - سورة الْعَنْكَبُوتِ: الآية/ ٢٧

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾. الآية/ ١٢٥

يقول اللَّهُ تَعَالَى: وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا قَالَ ذَلِكَ لِلْيَهُودِ والنَّصَارَى وَمُشْرِكُي الْعَرَبِ، فَهُوَ مَعْطُوفٌ عَلَى قوله: ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾، وقيل: معطوف على قوله: ﴿اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ.....﴾.

وَالمعنى اذْكُرُوا إِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَرْجِعًا لِلنَّاسِ وَمَعَاذًا يَأْتُونَهُ كُلَّ عَامٍ وَيَرْجِعُونَ إِلَيْهِ، فَلَا يَنْصَرِفُ عَنْهُ مُنْصَرِفٌ وَهُوَ يَرَى أَنَّهُ قَدْ قَضَى مِنْهُ وَطَرًا، بل يتعلق قلبه به، ويهوى الرجوع إليه، ومعنى:﴿مَثَابَةً﴾، مَرْجِعًا ومَثابةُ الناسِ ومثابُهم مُجتَمَعُهم بعد التَّفَرُّق، وهذا معنى قول الله تعالى: ﴿فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾.[١]

فَلَيْسَ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ إِلَّا وَهُوَ يَحِنُّ إِلَى رُؤْيَةِ الْكَعْبَةِ وَالطَّوَافِ بِهَا والصلاة عندها، ولهذا يَقْصِدُهَا النَّاسُ مِنْ جميع بقاع الأرض.

وَوَصِفُ اللهِ تَعَالَى الْبَيْتَ الحرام بِأَنَّهُ أَمْنًا، فَمَنْ دَخَلَهُ أَمِنَ على نفسه، وعرضه، وماله، فَقَدْ كَانَ الرَّجُلُ يَرَى قَاتِلَ أَبِيهِ فِي الْحَرَمِ فَلَا يُزْعِجُهُ، مع أنهم مَعْرُوفٌ عَنْهُمْ حُبِّ الِانْتِقَامِ وَالتَّفَاخُرِ بِأَخْذِ الثَّأْرِ، وكان في الجاهلية والإسلام على حد سواء، وقد امتن الله تعالى على أهل مكة بهاتين النعمتين العظيمتين نعمة الرزق المسوق لهم من أقطار الأرض، ونعمة الأمن؛ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا﴾.[٢]

وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾.[٣]

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ * الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾.[٤]

---

١ - سورة إِبْرَاهِيمَ: الآية/ ٣٧

٢ - سورة الْقَصَصِ: الآية/ ٥٧

٣ - سورة الْعَنْكَبُوتِ: الآية/ ٦٧

٤ - سورة قُرَيْشٍ: الآية/ ٣، ٤

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾.

مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ هو الحَجَرُ الذي كَانَ يَقُومُ عَلَيْهِ عند بنائه للبيت وَيُنَاوِلُهُ إِسْمَاعِيلُ الْحِجَارَةَ، والحكمة من اتخاذه مُصَلًّى تَكْرِمَةً لِإِبْرَاهِيمَ عليه السلام وتشريفًا له، وتنويهًا بعظيم فضلة، ورفعة مترلته عند الله تعالى.

وسببُ نزول هَذِهِ الآيَةِ مَا ثَبَتَ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: قَالَ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، " وَافَقْتُ رَبِّي فِي ثَلَاثٍ: فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَوِ اتَّخَذْنَا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى، فَنَزَلَتْ: ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾، وَآيَةُ الحِجَابِ، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَوْ أَمَرْتَ نِسَاءَكَ أَنْ يَحْتَجِبْنَ، فَإِنَّهُ يُكَلِّمُهُنَّ البَرُّ وَالفَاجِرُ، فَنَزَلَتْ آيَةُ الحِجَابِ، وَاجْتَمَعَ نِسَاءُ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الغَيْرَةِ عَلَيْهِ، فَقُلْتُ لَهُنَّ: ﴿عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبَدِّلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ﴾، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ.[1]

﴿وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾.

أَمَرَهُمَا اللَّهُ تعالى أَنْ يُطَهِّرَا مَكَانَ الْبَيْتِ قَبْلَ بُنْيَانِهِ وَأَنْ يُطَهِّرَا الْبَيْتَ بَعْدَ بُنْيَانِهِ مِنَ الْأَصْنَامِ وَعِبَادَةِ الْأَوْثَانِ وَالشِّرْكِ بالله تعالى، وَمِنَ الْأَذَى والنَّجَس، حتى لَا يكون فيه مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ.

ومعنى: ﴿وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ﴾ أَيْ: أَمَرْنَاهُ. وَإِنَّمَا عُدِّيَ بِإِلَى، لِأَنَّهُ ضُمِّنَ مَعْنَى تَقَدَّمْنَا وَأَوْحَيْنَا.

ومعنى: ﴿لِلطَّائِفِينَ﴾، الذين يطفون بِهِ، فإن الطواف بالبيت عبادة من أجل العبادات.

﴿وَالْعاكِفِينَ﴾، أي الْمُقِيمِينَ الْمُجَاوِرِينَ فِي الحرم، وَالْعُكُوفُ فِي اللُّغَةِ: اللُّزُومُ وَالْإِقْبَالُ عَلَى الشَّيْءِ.

﴿وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾.

أَيِ الْمُصَلُّونَ عِنْدَ الْكَعْبَةِ، وذكرُ الرُّكُوعِ وَالسُّجُودِ من قَبِيلِ ذكْرِ الشَّيْءِ بِبَعْضِ أَجْزَائِهِ.

وَخُصَّ الرُّكُوعُ وَالسُّجُودُ بِالذِّكْرِ لِأَنَّهُمَا أَقْرَبُ أَحْوَالِ الْمُصَلِّي إِلَى اللَّهِ تَعَالَى.

١- رواه البخاري- كِتَاب الصَّلَاةِ، بَاب مَا جَاءَ فِي الْقِبْلَةِ وَمَنْ لَمْ يَرَ الْإِعَادَةَ عَلَى مَنْ سَهَا فَصَلَّى إِلَى غَيْرِ الْقِبْلَةِ وَقَدْ سَلَّمَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي رَكْعَتَيْ الظُّهْرِ وَأَقْبَلَ عَلَى النَّاسِ بِوَجْهِهِ ثُمَّ أَتَمَّ مَا بَقِيَ، حديث رقم: ٣٨٧

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾. الآية/ ١٢٦

وَاذْكُرُوا إِذْ دعا إِبْرَاهِيمُ رَبَّهُ سبحانه بالأمن لمكة والرزق لمن سكنها، فاستجاب الله تعالى له فجعل مكةَ أكثر البلدان أمنًا، وساق إليها الثَّمَرَاتِ مَنْ كل صوب وحدب، فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ زَيْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَنَّ إِبْرَاهِيمَ حَرَّمَ مَكَّةَ وَدَعَا لَهَا، وَحَرَّمْتُ المَدِينَةَ كَمَا حَرَّمَ إِبْرَاهِيمُ مَكَّةَ، وَدَعَوْتُ لَهَا فِي مُدِّهَا وَصَاعِهَا مِثْلَ مَا دَعَا إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلاَمُ لِمَكَّةَ».[١]

وأما ما ثبت عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ مَكَّةَ، وَلَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي وَلاَ لِأَحَدٍ بَعْدِي، وَإِنَّمَا حَلَّتْ لِي سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ لاَ يُخْتَلَى خَلاَهَا، وَلاَ يُعْضَدُ شَجَرُهَا، وَلاَ يُنَفَّرُ صَيْدُهَا، وَلاَ يُلْتَقَطُ لُقْطَتُهَا إِلَّا لِمُعَرِّفٍ».[٢]

فالجواب عن ذلك أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى حَرَّمَ مَكَّةَ قَبْلَ خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ، وَأَنَّ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام بَلَّغ عَنِ اللَّهِ حُكْمه فِيهَا وَتَحْرِيمَهُ إِيَّاهَا.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا﴾.

قال الرازي: إِنَّمَا قَالَ فِي هَذِهِ السُّورَةِ: بَلَداً آمِناً عَلَى التَّنْكِيرِ وَقَالَ فِي السورة إبراهيم: هَذَا الْبَلَدَ آمِناً عَلَى التَّعْرِيفِ لِوَجْهَيْنِ. الْأَوَّلُ: أَنَّ الدَّعْوَةَ الْأُولَى وَقَعَتْ وَلَمْ يَكُنِ الْمَكَانُ قَدْ جُعِلَ بَلَدًا، كَأَنَّهُ قَالَ:اجْعَلْ هَذَا الْوَادِيَ بَلَدًا آمِنًا لِأَنَّهُ تَعَالَى حَكَى عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: ﴿رَبَّنا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بوادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ﴾ [إبراهيم: ٣٧] فقال: هاهنا اجْعَلْ هَذَا الْوَادِيَ بَلَدًا آمِنًا، وَالدَّعْوَةُ الثَّانِيَةُ وَقَعَتْ وَقَدْ جُعِلَ بَلَدًا، فَكَأَنَّهُ قَالَ: اجْعَلْ هَذَا الْمَكَانَ الَّذِي صَيَّرْتَهُ بَلَدًا ذَا أَمْنٍ وَسَلَامَةٍ، كَقَوْلِكَ: جَعَلْتُ هَذَا الرَّجُلَ آمِنًا. الثَّانِي: أن تكون الدعوتان وقعتا بعد ما صَارَ الْمَكَانُ بَلَدًا، فَقَوْلُهُ: اجْعَلْ هَذَا بَلَداً آمِناً تَقْدِيرُهُ: اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ بَلَدًا آمِنًا، كَقَوْلِكَ: كَانَ الْيَوْمُ يَوْمًا حَارًّا، وَهَذَا إِنَّمَا تَذْكُرُهُ لِلْمُبَالَغَةِ فِي وَصْفِهِ بِالْحَرَارَةِ، لِأَنَّ التَّنْكِيرَ يَدُلُّ

١- رواه البخاري- كِتَابُ البُيُوعِ، بَابُ بَرَكَةِ صَاعِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمُدِّهِ، حديث رقم: ٢١٢٩، ومسلم- كِتَابُ الحَجِّ، بَابُ فَضْلِ الْمَدِينَةِ، وَدُعَاءِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيهَا بِالْبَرَكَةِ، وَبَيَانِ تَحْرِيمِهَا، وَتَحْرِيمِ صَيْدِهَا وَشَجَرِهَا، وَبَيَانِ حُدُودِ حَرَمِهَا، حديث رقم: ١٣٦٠

٢- رواه البخاري- كِتَابُ الجَنَائِزِ، بَابُ الإِذْخِرِ وَالحَشِيشِ فِي القَبْرِ، حديث رقم: ١٣٤٩، ومسلم- كِتَابُ الحَجِّ، بَابُ تَحْرِيمِ مَكَّةَ وَصَيْدِهَا وَخَلَاهَا وَشَجَرِهَا وَلُقَطَتِهَا، إِلَّا لِمُنْشِدٍ عَلَى الدَّوَامِ، حديث رقم: ١٣٥٣

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

عَلَى الْمُبَالَغَةِ، فَقَوْلُهُ: رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَداً آمِناً مَعْنَاهُ: اجْعَلْهُ مِنَ الْبُلْدَانِ الْكَامِلَةِ فِي الْأَمْنِ، وَأَمَّا قَوْلُهُ: رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِناً فَلَيْسَ فِيهِ إِلَّا طَلَبُ الْأَمْنِ لَا طَلَبُ الْمُبَالَغَةِ.[1]

﴿وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾.

لَمَّا أَعْلَمَ اللهُ تعالى نبيه إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ سيكون مِنْ ذريته قَوْمًا كُفَّارًا بِقَوْلِهِ: ﴿لَا يَنالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾.[2]

خَصَّصَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ الدُعَاءَ لِلْمُؤْمِنِينَ دُونَ الْكُفارِ، تأدبًا مع الله تعالى؛ لأنه رأى أناللَّهَ تَعَالَى قد مَيَّزَ الْمُؤْمِنِينَ عَنِ الْكَافِرِينَ فِي بَابِ الْإِمَامَةِ.فعَزَلَ الدَّعْوَةَ عمَّن أَبَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ لَهُ الْوِلَايَةَ، فِرَاقًا لِمَنْ خَالَفَ أَمْرَاللَّهِ، وَإِنْ كَانُوا مِنْ ذُرِّيَّتِهِ.

﴿قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾.

فقَالَ اللَّهُ وَمَنْ كَفَرَ أَيْضًا أَرْزُقُهُمْ كَمَا أَرْزُقُ الْمُؤْمِنِينَ أَأَخْلُقُ خَلْقًا لَا أَرْزُقُهُمْ؟

ومعنى الكلام: قَالَ اللَّهُ: يَا إِبْرَاهِيمُ قَدْ أَجَبْتُ دَعْوَتَكَ، وَرَزَقْتُ مُؤْمِنِي أَهْلِ هَذَا الْبَلَدِ مِنَ الثَّمَرَاتِ وَكُفَّارَهُمْ فَأَجْعَلُ مَا أَرْزُقُهُم مِنْ ذَلِكَ فِي حَيَاتِهِم مَتَاعًا يَتَمَتَّعُون بِهِ إِلَى بُلُوغِ آجَالِهِمْ، وَقْتِ مَمَاتِهِم، ثُمَّ اضْطَرُّ كُفَّارَهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى النَّارِ.

وَمَعْنَى الِاضْطِرَارِ: الْإِكْرَاهُ، يُقَالُ: اضْطَرَرْتُ فُلَانًا إِلَى هَذَا الْأَمْرِ: إِذَا أَلْجَأْتُهُ إِلَيْهِ وَحَمَلْتُهُ عَلَيْهِ.

وفي معنى الِاضْطِرَارِ بيان أن كل من تنعم في الدنيا بنعيم – مهما عظم وطالت مدته – سيتركه راغمًا.

وفيه مدى الإهانة التي سيلقاها، حتى لا يغتر بحاله في الدنيا وينسى مآله في الآخرة، فإنه لا أقبحَ مآلًا ممن مآلهُ النار، ولا أسوءَ مصيرًا ممن مصيره جهنم.

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يُؤْتَى بِأَنْعَمِ أَهْلِ الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُصْبَغُ فِي النَّارِ، ثُمَّ يُقَالُ: يَا ابْنَ آدَمَ هَلْ رَأَيْتَ خَيْرًا قَطُّ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ نَعِيمٌ قَطُّ؟ فَيَقُولُ: لَا، وَاللهِ يَا رَبِّ وَيُؤْتَى بِأَشَدِّ النَّاسِ بُؤْسًا فِي الدُّنْيَا، مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَيُصْبَغُ فِي الْجَنَّةِ، فَيُقَالُ لَهُ:

---

١ – مفاتيح الغيب (٤/ ٤٩)

٢ – سورة البقرة: الآية/ ١٢٤

يَا ابْنَ آدَمَ هَلْ رَأَيْتَ بُؤْسًا قَطُّ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ شِدَّةٌ قَطُّ؟ فَيَقُولُ: لَا، وَاللهِ يَا رَبِّ مَا مَرَّ بِي بُؤْسٌ قَطُّ، وَلَا رَأَيْتُ شِدَّةً قَطّ».[1]

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾. الآية/ ١٢٧

الْقَوَاعِدُ: جَمْعُ قَاعِدَةٍ، وَهِيَ أَسَاسُ الْبَيْتِ، يخبر الله تعالى عن حال إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ عليهما السلام، عند بنائهما البيت الحرام، وهو أول بيت وضع في الأرض لعبادة اللهِ تَعَالَى، كما قَالَ سُبحانه وتَعَالَى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾.[2]

وَعَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيُّ مَسْجِدٍ وُضِعَ فِي الأَرْضِ أَوَّلَ؟ قَالَ: «المَسْجِدُ الحَرَامُ» قَالَ: قُلْتُ: ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ «المَسْجِدُ الأَقْصَى» قُلْتُ: كَمْ كَانَ بَيْنَهُمَا؟ قَالَ: «أَرْبَعُونَ سَنَةً، ثُمَّ أَيْنَمَا أَدْرَكَتْكَ الصَّلاَةُ بَعْدُ فَصَلِّهْ، فَإِنَّ الفَضْلَ فِيهِ».[3]

وكان ذلك بأمر الله تعالى لِإِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ عليهما السلام؛ فعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: لَمَّا كَانَ بَيْنَ إِبْرَاهِيمَ وَبَيْنَ أَهْلِهِ مَا كَانَ، خَرَجَ بِإِسْمَاعِيلَ وَأُمِّ إِسْمَاعِيلَ، وَمَعَهُمْ شَنَّةٌ فِيهَا مَاءٌ، فَجَعَلَتْ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ تَشْرَبُ مِنَ الشَّنَّةِ، فَيَدِرُّ لَبَنُهَا عَلَى صَبِيِّهَا، حَتَّى قَدِمَ مَكَّةَ فَوَضَعَهَا تَحْتَ دَوْحَةٍ، ثُمَّ رَجَعَ إِبْرَاهِيمُ إِلَى أَهْلِهِ، فَاتَّبَعَتْهُ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ، حَتَّى لَمَّا بَلَغُوا كَدَاءً نَادَتْهُ مِنْ وَرَائِهِ: يَا إِبْرَاهِيمُ إِلَى مَنْ تَتْرُكُنَا؟ قَالَ: إِلَى اللَّهِ، قَالَتْ: رَضِيتُ بِاللَّهِ، قَالَ: فَرَجَعَتْ فَجَعَلَتْ تَشْرَبُ مِنَ الشَّنَّةِ وَيَدِرُّ لَبَنُهَا عَلَى صَبِيِّهَا، حَتَّى لَمَّا فَنِيَ المَاءُ، قَالَتْ: لَوْ ذَهَبْتُ فَنَظَرْتُ لَعَلِّي أُحِسُّ أَحَدًا، قَالَ فَذَهَبَتْ فَصَعِدَتِ الصَّفَا فَنَظَرَتْ، وَنَظَرَتْ هَلْ تُحِسُّ أَحَدًا، فَلَمْ تُحِسَّ أَحَدًا، فَلَمَّا بَلَغَتِ الوَادِيَ سَعَتْ وَأَتَتِ المَرْوَةَ، فَفَعَلَتْ ذَلِكَ أَشْوَاطًا، ثُمَّ قَالَتْ: لَوْ ذَهَبْتُ فَنَظَرْتُ مَا فَعَلَ، تَعْنِي الصَّبِيَّ، فَذَهَبَتْ فَنَظَرَتْ فَإِذَا هُوَ عَلَى حَالِهِ كَأَنَّهُ يَنْشَغُ لِلْمَوْتِ، فَلَمْ تُقِرَّهَا نَفْسُهَا، فَقَالَتْ: لَوْ ذَهَبْتُ فَنَظَرْتُ، لَعَلِّي أُحِسُّ أَحَدًا، فَذَهَبَتْ فَصَعِدَتِ الصَّفَا،

١- رواه مُسْلِمٌ- كِتَابُ صِفَةِ الْقِيَامَةِ وَالْجَنَّةِ وَالنَّارِ، بَابُ صَبْغِ أَنْعَمِ أَهْلِ الدُّنْيَا فِي النَّارِ وَصَبْغِ أَشَدِّهِمْ بُؤْسًا فِي الْجَنَّةِ، حديث رقم: ٢٨٠٧

٢ - سورة آلِ عِمْرَانَ: الآية/ ٩٦

٣ - رواه البخاري- كِتَابُ أَحَادِيثِ الأَنْبِيَاءِ، بَابٌ، حديث رقم: ٣٣٦٦

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

فَنَظَرَتْ وَنَظَرَتْ فَلَمْ تُحِسَّ أَحَدًا، حَتَّى أَتَمَّتْ سَبْعًا، ثُمَّ قَالَتْ: لَوْ ذَهَبْتُ فَنَظَرْتُ مَا فَعَلَ، فَإِذَا هِيَ بِصَوْتٍ، فَقَالَتْ: أَغِثْ إِنْ كَانَ عِنْدَكَ خَيْرٌ، فَإِذَا جِبْرِيلُ، قَالَ: فَقَالَ بِعَقِبِهِ هَكَذَا، وَغَمَزَ عَقِبَهُ عَلَى الأَرْضِ، قَالَ: فَانْبَثَقَ الْمَاءُ، فَدَهَشَتْ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ، فَجَعَلَتْ تَحْفِزُ، قَالَ: فَقَالَ أَبُو القَاسِمِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَوْ تَرَكَتْهُ كَانَ المَاءُ ظَاهِرًا». قَالَ: فَجَعَلَتْ تَشْرَبُ مِنَ المَاءِ وَيَدِرُّ لَبَنُهَا عَلَى صَبِيِّهَا، قَالَ: فَمَرَّ نَاسٌ مِنْ جُرْهُمَ بِبَطْنِ الوَادِي، فَإِذَا هُمْ بِطَيْرٍ، كَأَنَّهُمْ أَنْكَرُوا ذَاكَ، وَقَالُوا: مَا يَكُونُ الطَّيْرُ إِلَّا عَلَى مَاءٍ، فَبَعَثُوا رَسُولَهُمْ فَنَظَرَ فَإِذَا هُمْ بِالْمَاءِ، فَأَتَاهُمْ فَأَخْبَرَهُمْ، فَأَتَوْا إِلَيْهَا فَقَالُوا: يَا أُمَّ إِسْمَاعِيلَ، أَتَأْذَنِينَ لَنَا أَنْ نَكُونَ مَعَكِ، أَوْ نَسْكُنَ مَعَكِ، فَبَلَغَ ابْنُهَا فَنَكَحَ فِيهِمُ امْرَأَةً، قَالَ: ثُمَّ إِنَّهُ بَدَا لِإِبْرَاهِيمَ، فَقَالَ لِأَهْلِهِ: إِنِّي مُطَّلِعٌ تَرِكَتِي، قَالَ: فَجَاءَ فَسَلَّمَ، فَقَالَ: أَيْنَ إِسْمَاعِيلُ؟ فَقَالَتِ امْرَأَتُهُ: ذَهَبَ يَصِيدُ، قَالَ: قُولِي لَهُ إِذَا جَاءَ غَيِّرْ عَتَبَةَ بَابِكَ، فَلَمَّا جَاءَ أَخْبَرَتْهُ، قَالَ: أَنْتِ ذَاكِ، فَاذْهَبِي إِلَى أَهْلِكِ، قَالَ: ثُمَّ إِنَّهُ بَدَا لِإِبْرَاهِيمَ، فَقَالَ لِأَهْلِهِ: إِنِّي مُطَّلِعٌ تَرِكَتِي، قَالَ: فَجَاءَ، فَقَالَ: أَيْنَ إِسْمَاعِيلُ؟ فَقَالَتِ امْرَأَتُهُ: ذَهَبَ يَصِيدُ، فَقَالَتْ: أَلاَ تَنْزِلُ فَتَطْعَمَ وَتَشْرَبَ، فَقَالَ: وَمَا طَعَامُكُمْ وَمَا شَرَابُكُمْ؟ قَالَتْ: طَعَامُنَا اللَّحْمُ وَشَرَابُنَا المَاءُ، قَالَ: اللَّهُمَّ بَارِكْ لَهُمْ فِي طَعَامِهِمْ وَشَرَابِهِمْ، قَالَ: فَقَالَ أَبُو القَاسِمِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «بَرَكَةٌ بِدَعْوَةِ إِبْرَاهِيمَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِمَا وَسَلَّمَ» قَالَ: ثُمَّ إِنَّهُ بَدَا لِإِبْرَاهِيمَ، فَقَالَ لِأَهْلِهِ: إِنِّي مُطَّلِعٌ تَرِكَتِي، فَجَاءَ فَوَافَقَ إِسْمَاعِيلَ مِنْ وَرَاءِ زَمْزَمَ يُصْلِحُ نَبْلًا لَهُ، فَقَالَ: يَا إِسْمَاعِيلُ، إِنَّ رَبَّكَ أَمَرَنِي أَنْ أَبْنِيَ لَهُ بَيْتًا، قَالَ: أَطِعْ رَبَّكَ، قَالَ: إِنَّهُ قَدْ أَمَرَنِي أَنْ تُعِينَنِي عَلَيْهِ، قَالَ: إِذَنْ أَفْعَلَ، أَوْ كَمَا قَالَ: قَالَ فَقَامَا فَجَعَلَ إِبْرَاهِيمُ يَبْنِي، وَإِسْمَاعِيلُ يُنَاوِلُهُ الحِجَارَةَ وَيَقُولاَنِ: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ العَلِيمُ﴾. قَالَ: حَتَّى ارْتَفَعَ البِنَاءُ، وَضَعُفَ الشَّيْخُ عَنْ نَقْلِ الحِجَارَةِ، فَقَامَ عَلَى حَجَرِ المَقَامِ، فَجَعَلَ يُنَاوِلُهُ الحِجَارَةَ وَيَقُولاَنِ: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ العَلِيمُ﴾.[1]

والشاهد قول إِبْرَاهِيمَ عليه السلام: «يَا إِسْمَاعِيلُ، إِنَّ رَبَّكَ أَمَرَنِي أَنْ أَبْنِيَ لَهُ بَيْتًا، قَالَ: أَطِعْ رَبَّكَ، قَالَ: إِنَّهُ قَدْ أَمَرَنِي أَنْ تُعِينَنِي عَلَيْهِ، قَالَ: إِذَنْ أَفْعَلَ».

وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَوَّلَ مَا اتَّخَذَ النِّسَاءُ المِنْطَقَ مِنْ قِبَلِ أُمِّ إِسْمَاعِيلَ، اتَّخَذَتْ مِنْطَقًا لِتُعَفِّيَ أَثَرَهَا عَلَى سَارَةَ، ثُمَّ جَاءَ بِهَا إِبْرَاهِيمُ وَبِابْنِهَا إِسْمَاعِيلَ وَهِيَ تُرْضِعُهُ، حَتَّى وَضَعَهُمَا عِنْدَ البَيْتِ عِنْدَ دَوْحَةٍ، فَوْقَ زَمْزَمَ فِي أَعْلَى المَسْجِدِ، وَلَيْسَ بِمَكَّةَ يَوْمَئِذٍ أَحَدٌ، وَلَيْسَ بِهَا مَاءٌ، فَوَضَعَهُمَا هُنَالِكَ، وَوَضَعَ عِنْدَهُمَا جِرَابًا فِيهِ تَمْرٌ، وَسِقَاءً فِيهِ مَاءٌ، ثُمَّ قَفَّى إِبْرَاهِيمُ مُنْطَلِقًا، فَتَبِعَتْهُ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ فَقَالَتْ: يَا إِبْرَاهِيمُ، أَيْنَ تَذْهَبُ وَتَتْرُكُنَا بِهَذَا الوَادِي، الَّذِي لَيْسَ فِيهِ إِنْسٌ وَلاَ شَيْءٌ؟ فَقَالَتْ لَهُ ذَلِكَ مِرَارًا، وَجَعَلَ لاَ يَلْتَفِتُ

---

١ - رواه البخاري- كِتَاب أَحَادِيثِ الْأَنْبِيَاءِ، بَاب قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: {وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا}، حديث رقم: ٣١١٤

إِلَيْهَا، فَقَالَتْ لَهُ: آللَّهُ الَّذِي أَمَرَكَ بِهَذَا؟ قَالَ نَعَمْ، قَالَتْ: إِذَنْ لاَ يُضَيِّعُنَا، ثُمَّ رَجَعَتْ، فَانْطَلَقَ إِبْرَاهِيمُ حَتَّى إِذَا كَانَ عِنْدَ الثَّنِيَّةِ حَيْثُ لاَ يَرَوْنَهُ، اسْتَقْبَلَ بِوَجْهِهِ البَيْتَ، ثُمَّ دَعَا بِهَؤُلاَءِ الكَلِمَاتِ، وَرَفَعَ يَدَيْهِ فَقَالَ: رَبِّ ﴿إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ الصَّلاَةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾، [ابراهيم: ٣٧]، وَجَعَلَتْ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ تُرْضِعُ إِسْمَاعِيلَ وَتَشْرَبُ مِنْ ذَلِكَ المَاءِ، حَتَّى إِذَا نَفِدَ مَا فِي السِّقَاءِ عَطِشَتْ وَعَطِشَ ابْنُهَا، وَجَعَلَتْ تَنْظُرُ إِلَيْهِ يَتَلَوَّى، أَوْ قَالَ يَتَلَبَّطُ، فَانْطَلَقَتْ كَرَاهِيَةَ أَنْ تَنْظُرَ إِلَيْهِ، فَوَجَدَتِ الصَّفَا أَقْرَبَ جَبَلٍ فِي الأَرْضِ يَلِيهَا، فَقَامَتْ عَلَيْهِ، ثُمَّ اسْتَقْبَلَتِ الوَادِيَ تَنْظُرُ هَلْ تَرَى أَحَدًا فَلَمْ تَرَ أَحَدًا، فَهَبَطَتْ مِنَ الصَّفَا حَتَّى إِذَا بَلَغَتِ الوَادِيَ رَفَعَتْ طَرَفَ دِرْعِهَا، ثُمَّ سَعَتْ سَعْيَ الإِنْسَانِ المَجْهُودِ حَتَّى جَاوَزَتِ الوَادِيَ، ثُمَّ أَتَتِ المَرْوَةَ فَقَامَتْ عَلَيْهَا وَنَظَرَتْ هَلْ تَرَى أَحَدًا فَلَمْ تَرَ أَحَدًا ، فَفَعَلَتْ ذَلِكَ سَبْعَ مَرَّاتٍ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فَذَلِكَ سَعْيُ النَّاسِ بَيْنَهُمَا» فَلَمَّا أَشْرَفَتْ عَلَى المَرْوَةِ سَمِعَتْ صَوْتًا، فَقَالَتْ صَهٍ — تُرِيدُ نَفْسَهَا —، ثُمَّ تَسَمَّعَتْ، فَسَمِعَتْ أَيْضًا، فَقَالَتْ: قَدْ أَسْمَعْتَ إِنْ كَانَ عِنْدَكَ غِوَاثٌ، فَإِذَا هِيَ بِالْمَلَكِ عِنْدَ مَوْضِعِ زَمْزَمَ، فَبَحَثَ بِعَقِبِهِ، أَوْ قَالَ بِجَنَاحِهِ، حَتَّى ظَهَرَ المَاءُ، فَجَعَلَتْ تُحَوِّضُهُ وَتَقُولُ بِيَدِهَا هَكَذَا، وَجَعَلَتْ تَغْرِفُ مِنَ المَاءِ فِي سِقَائِهَا وَهُوَ يَفُورُ بَعْدَ مَا تَغْرِفُ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " يَرْحَمُ اللَّهُ أُمَّ إِسْمَاعِيلَ، لَوْ تَرَكَتْ زَمْزَمَ – أَوْ قَالَ: لَوْ لَمْ تَغْرِفْ مِنَ المَاءِ –، لَكَانَتْ زَمْزَمُ عَيْنًا مَعِينًا " قَالَ: فَشَرِبَتْ وَأَرْضَعَتْ وَلَدَهَا، فَقَالَ لَهَا المَلَكُ: لاَ تَخَافُوا الضَّيْعَةَ، فَإِنَّ هَا هُنَا بَيْتَ اللَّهِ، يَبْنِي هَذَا الغُلاَمُ وَأَبُوهُ، وَإِنَّ اللَّهَ لاَ يُضِيعُ أَهْلَهُ، وَكَانَ البَيْتُ مُرْتَفِعًا مِنَ الأَرْضِ كَالرَّابِيَةِ، تَأْتِيهِ السُّيُولُ، فَتَأْخُذُ عَنْ يَمِينِهِ وَشِمَالِهِ، فَكَانَتْ كَذَلِكَ حَتَّى مَرَّتْ بِهِمْ رُفْقَةٌ مِنْ جُرْهُمَ، أَوْ أَهْلُ بَيْتٍ مِنْ جُرْهُمَ، مُقْبِلِينَ مِنْ طَرِيقِ كَدَاءٍ، فَنَزَلُوا فِي أَسْفَلِ مَكَّةَ فَرَأَوْا طَائِرًا عَائِفًا، فَقَالُوا: إِنَّ هَذَا الطَّائِرَ لَيَدُورُ عَلَى مَاءٍ، لَعَهْدُنَا بِهَذَا الوَادِي وَمَا فِيهِ مَاءٌ، فَأَرْسَلُوا جَرِيًّا أَوْ جَرِيَّيْنِ فَإِذَا هُمْ بِالْمَاءِ، فَرَجَعُوا فَأَخْبَرُوهُمْ بِالْمَاءِ فَأَقْبَلُوا، قَالَ: وَأُمُّ إِسْمَاعِيلَ عِنْدَ المَاءِ، فَقَالُوا: أَتَأْذَنِينَ لَنَا أَنْ نَنْزِلَ عِنْدَكِ؟ فَقَالَتْ: نَعَمْ، وَلَكِنْ لاَ حَقَّ لَكُمْ فِي المَاءِ، قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فَأَلْفَى ذَلِكَ أُمَّ إِسْمَاعِيلَ وَهِيَ تُحِبُّ الإِنْسَ» فَنَزَلُوا وَأَرْسَلُوا إِلَى أَهْلِيهِمْ فَنَزَلُوا مَعَهُمْ، حَتَّى إِذَا كَانَ بِهَا أَهْلُ أَبْيَاتٍ مِنْهُمْ، وَشَبَّ الغُلاَمُ وَتَعَلَّمَ العَرَبِيَّةَ مِنْهُمْ، وَأَنْفَسَهُمْ وَأَعْجَبَهُمْ حِينَ شَبَّ، فَلَمَّا أَدْرَكَ زَوَّجُوهُ امْرَأَةً مِنْهُمْ، وَمَاتَتْ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ، فَجَاءَ إِبْرَاهِيمُ بَعْدَمَا تَزَوَّجَ إِسْمَاعِيلُ يُطَالِعُ تَرِكَتَهُ، فَلَمْ يَجِدْ إِسْمَاعِيلَ، فَسَأَلَ امْرَأَتَهُ عَنْهُ فَقَالَتْ: خَرَجَ يَبْتَغِي لَنَا، ثُمَّ سَأَلَهَا عَنْ عَيْشِهِمْ وَهَيْئَتِهِمْ، فَقَالَتْ نَحْنُ بِشَرٍّ، نَحْنُ فِي ضِيقٍ وَشِدَّةٍ، فَشَكَتْ إِلَيْهِ، قَالَ: فَإِذَا جَاءَ زَوْجُكِ فَاقْرَئِي عَلَيْهِ السَّلاَمَ، وَقُولِي لَهُ يُغَيِّرْ عَتَبَةَ بَابِهِ، فَلَمَّا جَاءَ إِسْمَاعِيلُ كَأَنَّهُ آنَسَ شَيْئًا، فَقَالَ: هَلْ جَاءَكُمْ مِنْ أَحَدٍ؟ قَالَتْ: نَعَمْ، جَاءَنَا شَيْخٌ كَذَا وَكَذَا، فَسَأَلَنَا

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

عَنْكَ فَأَخْبَرْتُهُ، وَسَأَلَنِي كَيْفَ عَيْشُنَا، فَأَخْبَرْتُهُ أَنَّا فِي جَهْدٍ وَشِدَّةٍ، قَالَ: فَهَلْ أَوْصَاكِ بِشَيْءٍ؟ قَالَتْ: نَعَمْ، أَمَرَنِي أَنْ أَقْرَأَ عَلَيْكَ السَّلَامَ، وَيَقُولُ غَيِّرْ عَتَبَةَ بَابِكَ، قَالَ: ذَاكِ أَبِي، وَقَدْ أَمَرَنِي أَنْ أُفَارِقَكِ، الحَقِي بِأَهْلِكِ، فَطَلَّقَهَا، وَتَزَوَّجَ مِنْهُمْ أُخْرَى، فَلَبِثَ عَنْهُمْ إِبْرَاهِيمُ مَا شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ أَتَاهُمْ بَعْدُ فَلَمْ يَجِدْهُ، فَدَخَلَ عَلَى امْرَأَتِهِ فَسَأَلَهَا عَنْهُ، فَقَالَتْ: خَرَجَ يَبْتَغِي لَنَا، قَالَ: كَيْفَ أَنْتُمْ؟ وَسَأَلَهَا عَنْ عَيْشِهِمْ وَهَيْئَتِهِمْ، فَقَالَتْ: نَحْنُ بِخَيْرٍ وَسَعَةٍ، وَأَثْنَتْ عَلَى اللَّهِ، فَقَالَ: مَا طَعَامُكُمْ؟ قَالَتِ اللَّحْمُ، قَالَ فَمَا شَرَابُكُمْ؟ قَالَتِ المَاءُ. قَالَ: اللَّهُمَّ بَارِكْ لَهُمْ فِي اللَّحْمِ وَالمَاءِ، قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ يَوْمَئِذٍ حَبٌّ، وَلَوْ كَانَ لَهُمْ دَعَا لَهُمْ فِيهِ». قَالَ: فَهُمَا لاَ يَخْلُو عَلَيْهِمَا أَحَدٌ بِغَيْرِ مَكَّةَ إِلَّا لَمْ يُوَافِقَاهُ، قَالَ: فَإِذَا جَاءَ زَوْجُكِ فَاقْرَئِي عَلَيْهِ السَّلَامَ، وَمُرِيهِ يُثْبِتُ عَتَبَةَ بَابِهِ، فَلَمَّا جَاءَ إِسْمَاعِيلُ قَالَ: هَلْ أَتَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ؟ قَالَتْ: نَعَمْ، أَتَانَا شَيْخٌ حَسَنُ الهَيْئَةِ، وَأَثْنَتْ عَلَيْهِ، فَسَأَلَنِي عَنْكَ فَأَخْبَرْتُهُ، فَسَأَلَنِي كَيْفَ عَيْشُنَا فَأَخْبَرْتُهُ أَنَّا بِخَيْرٍ، قَالَ: فَأَوْصَاكِ بِشَيْءٍ، قَالَتْ: نَعَمْ، هُوَ يَقْرَأُ عَلَيْكَ السَّلَامَ، وَيَأْمُرُكَ أَنْ تُثْبِتَ عَتَبَةَ بَابِكَ، قَالَ: ذَاكِ أَبِي وَأَنْتِ العَتَبَةُ، أَمَرَنِي أَنْ أُمْسِكَكِ، ثُمَّ لَبِثَ عَنْهُمْ مَا شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ جَاءَ بَعْدَ ذَلِكَ، وَإِسْمَاعِيلُ يَبْرِي نَبْلًا لَهُ تَحْتَ دَوْحَةٍ قَرِيبًا مِنْ زَمْزَمَ، فَلَمَّا رَآهُ قَامَ إِلَيْهِ، فَصَنَعَا كَمَا يَصْنَعُ الوَالِدُ بِالوَلَدِ وَالوَلَدُ بِالوَالِدِ، ثُمَّ قَالَ يَا إِسْمَاعِيلُ، إِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي بِأَمْرٍ، قَالَ: فَاصْنَعْ مَا أَمَرَكَ رَبُّكَ، قَالَ: وَتُعِينُنِي؟ قَالَ: وَأُعِينُكَ، قَالَ: فَإِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي أَنْ أَبْنِيَ هَا هُنَا بَيْتًا، وَأَشَارَ إِلَى أَكَمَةٍ مُرْتَفِعَةٍ عَلَى مَا حَوْلَهَا، قَالَ: فَعِنْدَ ذَلِكَ رَفَعَا القَوَاعِدَ مِنَ البَيْتِ، فَجَعَلَ إِسْمَاعِيلُ يَأْتِي بِالحِجَارَةِ وَإِبْرَاهِيمُ يَبْنِي، حَتَّى إِذَا ارْتَفَعَ البِنَاءُ، جَاءَ بِهَذَا الحَجَرِ فَوَضَعَهُ لَهُ فَقَامَ عَلَيْهِ، وَهُوَ يَبْنِي وَإِسْمَاعِيلُ يُنَاوِلُهُ الحِجَارَةَ، وَهُمَا يَقُولاَنِ: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ العَلِيمُ﴾، قَالَ: فَجَعَلاَ يَبْنِيَانِ حَتَّى يَدُورَا حَوْلَ البَيْتِ وَهُمَا يَقُولاَنِ: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ العَلِيمُ﴾.[1]

﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.

وهذا من كمال إخلاصهما لله تعالى، ومن عظيم معرفتهما بالله عز وجل، فمع ما هما فيه من القيام بطاعة هي من أجل الطاعات وقربة هي من أعظم القربات، يشفق إبراهيم وإسماعيل أَنْ لَا يَتَقَبَّلَ الله منهما، وهذا حال أهل الإخلاص، كما الله تعالى عنهم بقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾.[2]

---

١ - رواه البخاري- كِتَاب أَحَادِيثِ الْأَنْبِيَاءِ، بَاب قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: {وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا}، حديث رقم: ٣١١٣

٢ - سورة الْمُؤْمِنُونَ: الآية/ ٦٠

عَنْ عَائِشَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ هَذِهِ الآيَةِ: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ قَالَتْ عَائِشَةُ: أَهُمُ الَّذِينَ يَشْرَبُونَ الخَمْرَ وَيَسْرِقُونَ؟ قَالَ: "لَا يَا بِنْتَ الصِّدِّيقِ، وَلَكِنَّهُمُ الَّذِينَ يَصُومُونَ وَيُصَلُّونَ وَيَتَصَدَّقُونَ، وَهُمْ يَخَافُونَ أَنْ لَا تُقْبَلَ مِنْهُمْ ﴿أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾.[1]

وَقَرَأَ وُهَيْبُ بْنِ الْوَرْدِ هذه الآية: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا﴾، ثُمَّ بَكَى وَقَالَ: يَا خَلِيلَ الرَّحْمَنِ، تَرْفَعُ قَوَائِمَ بَيْتِ الرَّحْمَنِ وَأَنْتَ مُشْفق أَنْ لَا يَتَقَبَّلَ مِنْكَ.

وفي هذا تأديب للمؤمنين الطائعين، ألا يغتر أحد منهم بعمله مهما كان جليلًا، وألا يركن أحدٌ منهم إلى طاعته مهما كانت في نظره عظيمةً، بل الواجب أن يجتهد في سؤال الله تعالى القبولَ، ويشفق أن يرد الله تعالى عليه طاعته، لما قد يشوبها من الشوائب.

١ - رواه الترمذي- أبواب تفسير القرآن عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، باب وَمِنْ سُورَةِ الْمُؤْمِنُونَ، حديث رقم: ٣١٧٥، بسند صحيح

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾. الآية/ ١٢٨

هذا من تمام دعاء إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ عليهما السلام، عند بنائهما البيت الحرام، ومعنى: ﴿وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ﴾، أي خَاضِعَيْنِ لِطَاعَتِكَ، مُسْتَسْلِمَيْنِ لِأَمْرِكَ فإن الْإِسْلَامَ هو الْخُضُوعَ لِلَّهِ بِالطَّاعَةِ، كما قيل: لا تثبت قدم الإسلام إلا على ظهر التسليم.

قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: يَعْنِيَانِ بِذَلِكَ: وَاجْعَلْنَا مُسْتَسْلِمَيْنِ لِأَمْرِكَ خَاضِعَيْنِ لِطَاعَتِكَ، لَا نُشْرِكُ مَعَكَ فِي الطَّاعَةِ أَحَدًا سِوَاكَ، وَلَا فِي الْعِبَادَةِ غَيْرَكَ.[١]

وقيل معناه: اجْعَلْنَا ثَابِتَيْنِ عَلَى الإسلام حتى نلقاك، وهذا كقول يُوسُفَ، عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾.[٢]

وعلى هذا القول يكون المراد بِالْإِسْلَامِ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ: مجموع الدين من الْإِيمَانِ وَالْأَعْمَالِ جَمِيعًا، والإسلام والإيمان إذا اجتمعا افترقا، فدل الإسلام على الأعمال الظاهرة، ودل الإيمان على الاعتقاد والأعمال الباطنة، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾.[٣]

وَكَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾.[٤]

فالْإِيمَانُ هنا غَيْرُ الْإِسْلَامِ، وَهُوَ أَخَصُّ مِنْهُ.

وإذا افترقا اجتمعا، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلامُ﴾.[٥]

---

١ - تفسير الطبري (٢/ ٥٦٥)

٢ - سورة يُوسُفَ: الآية/ ١٠١

٣ - سورة الْأَحْزَابِ: الْآيَةَ/ ٣٥

٤ - سورة الْحُجُرَاتِ: الْآيَةَ/ ١٤

٥ - سورة آلِ عِمْرَانَ:الْآيَةَ/ ١٩

﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ﴾.

وَ﴿مِنْ﴾ هنا لِلتَّبْعِيضِ، وإنما خَصَّا بَعْضَ الذُّرِّيَّةِ بالدَّعْوَةِ دون جميعهم؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى كَانَ قَدْ أَعْلَمَ إِبْرَاهِيمَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ مَنْ لَا يَنَالُ عَهْدَهُ لِظُلْمِهِ.

وقد نالت هذه الدعوة أَهْلَ طَاعَةِ الله تعالى وَالْمُسْتَجِيبِينَ لِأَمْرِهِ، مِنْ وَلَدِ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام من الْعَرَبِ وَغَيْرِ الْعَرَبِ، وَإن كان السِّيَاقُ فِي الْعَرَبِ من ولد إسماعيل بدليل؛ الآية التي بَعْدَهُ: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ﴾.[1]

وَالذُّرِّيَّةُ: اسمٌ يَجْمعُ نَسل الْإِنْسَانِ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى، وتُجمعُ عَلَى ذُرِّيَّاتٍ، وذَرَارِيّ.

وَالْأُمَّةُ تُطْلَقُ فِي القرآن وَيُرَادُ بِهَاعدة معان:

الأول: الْجَمَاعَةُ من الناس كما في هذه الآية، وَكما في قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ﴾.[2]

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولا﴾.[3]

وَتُطْلَقُ وَيُرَادُ بِهَا الدِّينُ، وَالْمِلَّةُ، والشَرِيعَةُ؛ كما في قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾.[4]

أَيْ: هَذِهِ شَرِيعَتُكُمُ الَّتِي بَيَّنْتُ لَكُمْ وَوَضَّحْتُ لَكُمْ شَرِيعَةٌ وَاحِدَةٌ.

وكَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ﴾.[5]

وَتُطْلَقُ الْأُمَّةُ وَيُرَادُ بِهَا الرَّجُلُ الْمُطِيعُ لِلَّهِ، الذي يُقْتَدَى بِهِ فِي الْخَيْرِ، كما في قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.[6]

وَتُطْلَقُ وَيُرَادُ بِهَا الْحِينُ مِنَ الدَّهْرِ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾.[1]

---

١ – سورة البقرة: الآية/ ١٢٩

٢ – سورة الْقَصَصِ: الآية/ ٢٣

٣ – سورة النَّحْلِ: الآية/ ٣٦

٤ – سورة الْأَنْبِيَاءِ: الآية/ ٩٢

٥ – سورة الزُّخْرُفِ: الآية/ ٢٣

٦ – سورة النَّحْلِ: الآية/ ١٢٠

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

أَيْ: بَعْدَ حِينٍ وَزَمَنٍ.

قيل: لَمْ يَدْعُ نَبِيٌّ إِلَّا لِنَفْسِهِ وَلِأُمَّتِهِ إِلَّا إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّهُ دَعَا مَعَ دُعَائِهِ لِنَفْسِهِ وَلِأُمَّتِهِ ولهذه الامة.

﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾.

لما أتم إِبْرَاهِيمُ عليه السلام بناءَ البيتِ أَمَرَهُ اللهُ تعالى أن يؤذنَ في الناسِ بالحجِ، كما قال تعالى: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾.[٢]

فسأل الله تعالى أن يعلمه الْمَنَاسِكَ فأتاه جِبْرِيلُ عليه السلام فَأَرَاهُ الْمَنَاسِكَ كُلَّهَا: الطواف والسعي بين الصفا والمروة ومنى والمزدلفة وعرفات.

قَالَ قَتَادَةُ: فَأَرَاهُمَا اللَّهُ مَنَاسِكَهُمَا الطَّوَافَ بِالْبَيْتِ، وَالسَّعْيَ بَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ، وَالْإِفَاضَةَ مِنْ عَرَفَاتٍ، وَالْإِفَاضَةَ مِنْ جَمْعٍ، وَرَمْيَ الْجِمَارِ، حَتَّى أَكْمَلَ اللَّهُ الدِّينَ.[٣]

وأَصْلُ التَّوْبَةِ الرجوع مِنْ مَكْرُوهٍ إِلَى مَحْبُوبٍ، فَتَوْبَةُ الْعَبْدِ إِلَى رَبِّهِ: أَوْبَتُهُ مِمَّا يَكْرَهُهُ اللَّهُ مِنْهُ بِالنَّدَمِ عَلَيْهِ، وَالْإِقْلَاعِ عَنْهُ، وَالْعَزْمِ عَلَى تَرْكِ الْعُودِ فِيهِ. وَتَوْبَةُ الرَّبِّ عَلَى عَبْدِهِ: عَوْدُهُ عَلَيْهِ بِالْعَفْوِ لَهُ عَنْ جُرْمِهِ وَالصَّفْحِ لَهُ عَنْ عُقُوبَةِ ذَنْبِهِ، مَغْفِرَةً لَهُ مِنْهُ، وَتَفَضُّلًا عَلَيْهِ.

وإنما سألا الله التَّوْبَةَ وليس لَهُمَا ذُنُوبٌ تستوجب التَّوْبَةَ؛ لِيَكون ذَلِكَ سُنَّةً يَقْتَدَى بِهَا مَنْ بَعْدَهُمَا، وَيَتَّخِذُ النَّاسُ تِلْكَ الْبُقْعَةَ بَعْدَهُمَا مَوْضِعَ تَنَصُّلٍ مِنَ الذُّنُوبِ إِلَى اللَّهِ.

---

١ - سورة يُوسُفَ: الآية/ ٤٥

٢ - سورة الحج: الآية/ ٢٧

٣ - تفسير الطبري (٢/ ٥٦٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾. الآية/ ١٢٩

لما دعا إِبْرَاهِيمُ وَإِسْمَاعِيلُ عليهما السلام، ربهما عز وجل أن يَجْعَلَهُمَا مُسْلِمَيْنِ، وأن يجْعَلَ مِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَه سبحانه، خصَّا نَبِيَّنَا مُحَمَّدً صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بدعوة خَاصَّةٍ، وَهِيَ أن يبعث الله تعالى في هذه الأمة التي تقدم الدعاء لها رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِ الله تعالى، وَيُعَلِّمُهُمُ شرائع دينهم وَيُزَكِّيهِمْ، فاستجاب الله تعالى دعاء خليله إبراهيم، ووافق ذلك الدعاءُ قدر الله تعالى السابق في جعل النبي خَاتَمَ النَّبِيِّينَ قبل خلق آدم عليه السلام؛ فعَنِ الْعِرْبَاضِ بْنِ سَارِيَةَ الْفَزَارِيِّ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «إِنِّي عِنْدَ اللَّهِ مَكْتُوبٌ بِخَاتَمِ النَّبِيِّينَ، وَإِنَّ آدَمَ لَمُنْجَدِلٌ فِي طِينَتِهِ، وَسَأُخْبِرُكُمْ بِأَوَّلِ ذَلِكَ: دَعْوَةُ أَبِي إِبْرَاهِيمَ، وَبِشَارَةُ عِيسَى، وَرُؤْيَا أُمِّيَ الَّتِي رَأَتْ حِينَ وَضَعَتْنِي أَنَّهُ خَرَجَ مِنْهَا نُورٌ أَضَاءَتْ لَهَا مِنْهُ قُصُورُ الشَّامِ».[١]

وَعَنْ أَبِي أُمَامَةَ قَالَ: قُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللهِ، مَا كَانَ أَوَّلُ بَدْءِ أَمْرِكَ؟ قَالَ: دَعْوَةُ أَبِي إِبْرَاهِيمَ وَبُشْرَى عِيسَى، وَرَأَتْ أُمِّي أَنَّهُ يَخْرُجُ مِنْهَا نُورٌ أَضَاءَتْ مِنْهُ قُصُورُ الشَّامِ.[٢]

وموافقة دعاء إبراهيم لقدر الله السابق في هذه المسألة كموافقة تحريم إبراهيم عليه السلام مكة، تحريم الله تعالى إياها يوم خلق السموات والأرض.

﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ﴾.

قيل: البعث في أصل اللغة هو الإرسال، وسُمِّيَ الْجَيْشُ بَعْثًا لِأَنَّهُ يُبْعَثُ أي يُرْسَلُ.

والصواب أن بين البعث والإرسال فارقًا؛ لأنه لا ترادف في القرآن على الصحيح، وأصل البَعْثِ الْإِثَارَةُ وَالْإِزْعَاجُ إِلَى الشَّيْءِ الْمُهِمِّ، وفيه إشارة إلى عظم شأن بَعْثَةِ نَبِيِّنَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ،

---

١ - رواه أحمد- حديث رقم: ١٧٢٠٣، وابن حبان- كِتَابُ التَّارِيخِ، بَابُ مِنْ صِفَتِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَأَخْبَارِهِ، ذِكْرُ كِتْبَةِ اللَّهِ جَلَّ وَعَلَا عِنْدَهُ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَاتَمَ النَّبِيِّينَ، حديث رقم: ٦٤٠٤، بسند صحيح

٢ - رواه أحمد- حديث رقم: ٢٢٣١٥، بسند صحيح

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

قال صاحب المنار عن الْبَعْثِ: (وَهُوَ أَخَصُّ وَأَبْلَغُ مِنْ لَفْظِ الْإِرْسَالِ؛ لِأَنَّهُ يُفِيدُ مَعْنَى الْإِثَارَةِ وَالْإِزْعَاجِ إِلَى الشَّيْءِ الْمُهِمِّ، وَلَمْ يُذْكَرْ فِي الْقُرْآنِ إِلَّا فِي بَعْثِ الْمَوْتَى، وَفِي الرِّسَالَةِ الْعَامَّةِ؛ أَيْ: بَعْثُ عِدَّةٍ مِنَ الرُّسُلِ، وَفِي بَعْثَةِ نَبِيِّنَا وَمُوسَى خَاصَّةً).[1]

وفائدة وصفهِ بالرسول بعد الْبَعْثِ: ﴿فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ﴾؛ لبيانِ أَنَّهُ تَعَالَى حَمَّلَهُ رِسَالَةً يُؤَدِّيهَا إلى قومِهِ.

وَإنما دعا إِبْرَاهِيمُ رَبَّهُ أن يَبْعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ وليس من غيرهم؛ لِيَكُونُوا أَقْرَبَ لِلْإِجَابَةِ، لأنهم أَعْرِفُ بنَسَبِهِ وَصِدْقِهِ وَأَمَانَتِهِ وَعَفَافِهِ، وَلِيَكُونَ بحالهم أعلمَ، وبهم أرفق وأرحم، وعلى هدايتهم أحرص.

﴿يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ﴾.

ثم ذكر إبراهيم الخليل عيه السلام صِفَاتِ هذا الرَّسُولِ الذي دعا الله تعالى أن يرسله وأنها صِفَاتٌ أربعة، الصِّفَةُ الأولى: ﴿يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ﴾، أي يَقْرَأُ عَلَيْهِمْ آيَاتِ الله المترلة إليه، وَالتِّلَاوَةُ هي الْقِرَاءَةُ.

﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ﴾، الصِّفَةُ الثَّانِيةُ: مِنْ صِفَاتِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه يُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ؛ أي يُعَلِّمُهُمْ كِتَابَكَ الَّذِي تُنَزِّلُهُ عَلَيْهِمْ، وهو الْفُرْقَانُ الَّذِي أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَيُعَلِّمُهُمْ الأَحْكَامَ الَّتِي تُعَلِّمُهُ إِيَّاهَا من كِتَابِكَ.

﴿وَالْحِكْمَةَ﴾، أَيْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْحِكْمَةَ، والْحِكْمَةُ هِيَ: الْإِصَابَةُ فِي الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ، وَلَا يُسَمَّى حَكِيمًا إِلَّا مَنِ اجْتَمَعَ لَهُ الْأَمْرَانِ.

الصِّفَةُ الثَّالِثَةُ: مِنْ صِفَاتِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه يُعَلِّمُهُمُ الْحِكْمَةَ، والمراد بالْحِكْمَةِ هنا السُّنَّةُ، كما قال الله تعالى لِنِسَاءِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ﴾.[2]

أي: اعْمَلْنَ بِمَا يُنْزِلُ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ.

---

١ - تفسير المنار (٩/ ٣٤)

١ - سورة الأحزاب: الآية/ ٣٤

﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾.

الصِّفَةُ الرَّابِعَةُ: مِنْ صِفَاتِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه يُزَكِّيهِمْ؛ أي يطهرهم مِن أدران الشرك ومن أوضار الذنوب، ورَذَائِلِ الأخلاق وَسائر النَّقَائِصِ.

وأصل التزكية النَمَاءُ وَالزِيَادَةُ والتطهيرُ، وقيلَ لما يُخْرَجُ من المالِ للفقراء والمساكين: زَكَاةٌ لأنَّه تطهيرٌ لِلْمَالِ وتثميرٌ وإصلاحٌ ونماءٌ.

وهذا ما حدث لأصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَكَانُوا فِي الْجَاهِلِيَّةِ يَقْطَعُونَ الْأَرْحَامَ وَيُسِيؤن الْجِوَارَ وَيَأْكُلُ الْقَوِيُّ مِنْهُمُ الضَّعِيفَ، فَانْتَقَلُوا بِبَرَكَةِ رِسَالَتِهِ، ويُمن سِفَارَتِهِ، إِلَى حَالِ الْأَوْلِيَاءِ، وَسَجَايَا الْعُلَمَاءِ فَصَارُوا أَعْمَقَ النَّاسِ عِلْمًا، وَأَبَرَّهُمْ قُلُوبًا، وَأَقَلَّهُمْ تَكَلُّفًا، وَأَصْدَقَهُمْ لَهْجَةً.

كما قَالَ جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ للنجاشي: "أَيُّهَا الْمَلِكُ، كُنَّا قَوْمًا أَهْلَ جَاهِلِيَّةٍ نَعْبُدُ الأَصْنَامَ، وَنَأْكُلُ الْمَيْتَةَ وَنَأْتِي الْفَوَاحِشَ، وَنَقْطَعُ الأَرْحَامَ، وَنُسِيءُ الْجِوَارَ يَأْكُلُ الْقَوِيُّ مِنَّا الضَّعِيفَ، فَكُنَّا عَلَى ذَلِكَ حَتَّى بَعَثَ اللَّهُ إِلَيْنَا رَسُولاً مِنَّا نَعْرِفُ نَسَبَهُ، وَصِدْقَهُ، وَأَمَانَتَهُ، وَعَفَافَهُ، فَدَعَانَا إِلَى اللهِ لِنُوَحِّدَهُ، وَنَعْبُدَهُ، وَنَخْلَعَ مَا كُنَّا نَعْبُدُ نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ دُونِهِ مِنَ الحِجَارَةِ وَالأَوْثَانِ، وَأَمَرَنَا بِصِدْقِ الْحَدِيثِ، وَأَدَاءِ الأَمَانَةِ، وَصِلَةِ الرَّحِمِ، وَحُسْنِ الْجِوَارِ، وَالْكَفِّ عَنِ الْمَحَارِمِ، وَالدِّمَاءِ، وَنَهَانَا عَنِ الْفَوَاحِشِ، وَقَوْلِ الزُّورِ، وَأَكْلِ مَالَ الْيَتِيمِ، وَقَذْفِ الْمُحْصَنَةِ، وَأَمَرَنَا أَنْ نَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ لاَ نُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، وَأَمَرَنَا بِالصَّلاَةِ، وَالزَّكَاةِ، وَالصِّيَامِ، فَعَدَّدَ عَلَيْهِ أُمُورَ الإِسْلاَمِ".[1]

﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

الْعَزِيزُ الذِي لا يُغْلَبُ فلَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ، وَهُوَ قَادِرٌ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، الْحَكِيمُ أي: ذُو الْحِكْمَةِ فهو حَكِيمٌ فِي أَفْعَالِهِ وَأَقْوَالِهِ، فَيَضَعُ الْأَشْيَاءَ فِي مواضعها.

---

٢ - رواه أحمد- حديث رقم: ١٧٤٠، بسند حسن

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾. الآية/ ١٣٠

لما ذكر الله تعالى حال إِبْرَاهِيمَ الخليل صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأنه وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، كما يزعم المشركون، ومَا كَانَ يَهُودِيًّا وَلا نَصْرَانِيًّا، كما يزعم اليهود والنصارى، وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا؛ كما قَالَ تَعَالَى: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ﴾.[١]

وَكَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.[٢]

وَكَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.[٣]

وَكَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.[٤]

رَدَّ الله تعالى عَلَى الْكُفَّارِ على اختلاف مللهم وتباين نحلهم، الذين خالفوا معتقد إبراهيم عليه السلام، وأن من خالف سبيله وحاد عن منهجه، فليس من الله في شيء، لأن الدين القيم الذي ارتضاه الله تعالى هو الإسلام الذي هو دين إبراهيم ودين كل الأنبياء، فمن خالفه وابتغى سواه فلن يقبل، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾.[٥]

﴿وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ﴾.

رَغِبَ عَن الشَّيْءِ: إِذَا كَرِهَهُ، و لم يُرِدْه، والمعنى أنه لا يكْرَهُ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ، وَيَتْرُكُهَا رَغْبَةً عَنْهَا إِلَى غَيْرَهَا، إلا السُفَهَاءُ.

وَالسَّفَهُ نَقْصٌ فِي الْعَقْلِ.

وضُمِّنَ الفِعْلُ: ﴿سَفِهَ﴾ معنى أهلك، فيكون المعنى: مَنْ كَرِهَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ، وَتَرَكَهَا رَغْبَةً عَنْهَا إِلَى غَيْرَهَا إلا من أهلك نَفْسَهُ.

١- سورة البقرة: الآية/ ١٢٨

٢- سورة آلِ عِمْرَانَ: الآية/ ٦٧

٣- سورة الْأَنْعَامِ: الآية/ ١٦١

٤- سورة النَّحْلِ: الآية/ ١٢٠

5- سورة آلِ عِمْرَانَ: الآية/ ٨٥

وَإِنَّمَا عَنَى اللَّهُ بِذَلِكَ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى؛ لِاخْتِيَارِهِمْ الْيَهُودِيَّةَ وَالنَّصْرَانِيَّةَ عَلَى الْإِسْلَامِ؛ لِأَنَّ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ هِيَ الْحَنِيفِيَّةُ الْمُسْلِمَةُ.

﴿وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا﴾.

معنى: ﴿وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ﴾، أي اخْتَرْنَاهُ وفَضَّلْنَاهُ، قَالَ الرَّاغِبُ: (الاصْطِفاءُ تَناوُلُ صَفْوَ الشَّيْءِ؛ كَمَا أنَّ الاخْتِيارَ تَناوُلُ خَيْرَه، والاجتباءُ: تناول جبايته.

واصْطِفاءُ اللَّهِ عبْدَه قد يكونُ بإيجادِهِ إيَّاه صافِيًا عَن الشَّوْبِ المَوْجودِ فِي غيرِهِ، وَقد يكونُ باخْتِيارِه وحكْمِه).[1]

وَكَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾.[2]

واصطفاء الله تعالى لإبراهيم عليه السلام بأمور منها: الرسالة كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي﴾.[3]

فرسل الله تعالى هم الصفوة من خلقه؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ * إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ * وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ﴾.[4]

ومنها أن اللهَ تعالى اتخذَهُ خَلِيلًا كما ثَبَتَ عن جُنْدَب، قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَبْلَ أَنْ يَمُوتَ بِخَمْسٍ، وَهُوَ يَقُولُ: «إِنِّي أَبْرَأُ إِلَى اللهِ أَنْ يَكُونَ لِي مِنْكُمْ خَلِيلٌ، فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى قَدِ اتَّخَذَنِي خَلِيلًا، كَمَا اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا».[5]

ومنها أن اللَّهُ تَعَالَى جَعَلَ فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾.[6]

---

١ – المفردات في غريب القرآن (ص: ٤٨٨)

٢ – سورة آلِ عِمْرَانَ: الآية/ ٣٣

٣ – سورة الْأَعْرَافِ: الآية/ ١٤٤

٤ – سورة الصافات: الآية/ ٤٥: ٤٧

٥ – رواه مسلم– كتاب الْمَسَاجِدِ، باب النَّهْيِ عَنْ بِنَاءِ الْمَسَاجِدِ عَلَى الْقُبُورِ وَاتِّخَاذِ الصُّوَرِ فِيهَا وَالنَّهْيِ عَنِ اتِّخَاذِ الْقُبُورِ مَسَاجِدَ، حديث رقم: ١٢١٦

٦ – سُورَةُ الْعَنْكَبُوتِ: الْآيَةَ/ ٢٧

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ومنها أن الله تعالى بوأ له مكان البيت، وجعله أَوَّلَ من بنى بَيْتًا لله تعالى، وَأَرَاه مَنَاسِكَ الحج؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا﴾.[1]

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ * فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾.[2]

﴿وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾.

أي وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ جُمْلَةِ الصَّالِحِينَ، الذين سَبَقَتْ لَهُمْ مِن الله الْحُسْنَى، فجَمَعَ اللَّهُ لَهُ بَيْنَ سَعَادَةِ الدُّنْيَا وَسَعَادَةِ الْآخِرَةِ.

قَالَ الْكِرْمَانِيُّ: خُصَّ الْأَنْبِيَاءُ بِذِكْرِ الصَّلَاحِ لِأَنَّهُ لَا يَتَخَلَّلُ صَلَاحَهُمْ خِلَافُ ذَلِكَ.

وَقَالَ الزَّجَّاجُ: الصَّالِحُ هُوَ الَّذِي يُؤَدِّي مَا افْتُرِضَ عَلَيْهِ وَإِلَى النَّاسِ حُقُوقَهُمْ.[3]

وَقِيل: فِي الْكَلَامِ تَقْدِيمٌ وَتَأْخِيرٌ، مَجَازُهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّالِحِينَ.[4]

وفي الآية من الأساليب البلاغية التضمين في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ﴾.

فإن الأصل في الفعل (رَغِبَ) أَنْ يَتَعَدَّ بفِي يقال: رغِب في الشَّيء، إذا أراده وحرَص عليه وطمِع فيه وأحبَّه، ويقال: رَغِبَ في الزواج، إذا أراده، ورَغِبَ في فلانة: أراد الزَّواج منها.

فلما عدي الفعل: ﴿يَرْغَبُ﴾ ب: ﴿عَنْ﴾ في قوله: ﴿وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ﴾، ضُمِّنَ مَعْنَى الكرهِ، والإعراضِ عَنِ الشَّيءِ، والْعُدُولِ عَنْه.

قال الطاهر بن عاشور رحمه الله: وَالرَّغْبَةُ طَلَبُ أَمْرٍ مَحْبُوب، فَحَقُّ فِعْلِهَا أَنْ يَتَعَدَّى بِفِي وَقَدْ يُعَدَّى بِعَنْ إِذَا ضُمِّنَ مَعْنَى الْعُدُولِ عَنْ أَمْرٍ وَكَثُرَ هَذَا التَّضْمِينُ فِي الْكَلَامِ حَتَّى صَارَ مَنْسِيًّا.[5]

وفيها كذلك تضمين في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ﴾.

---

١ - سورة الْحَجِّ: الآية/ ٢٦

٢ - سورة آلِ عِمْرَانَ: الآية/ ٩٦، ٩٧

٣ - البحر المحيط في التفسير (٣/ ١٣٤)

٤ - تفسير القرطبي (٢/ ١٣٣)

٥ - التحرير والتنوير (١/ ٧٢٥)

ضمن الفعل ﴿سَفِهَ﴾، معنى جَهِلَ، أَوْ أَهْلَكَ، وعدي تعديةَ الفعل: (سَفَّهَ)، كأنه قيل: جهل نفسه لخفة عقله أي: لم يعرفها بالتفكر، أو أهلك نفسه بعدم اتباعه لخير الملل وأزكاها، مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ وأعرض وَتَرَكَهَا رَغْبَةً عَنْهَا إِلَى غَيْرِهَا.

قال أبو حيان رحمه الله: ضَمِنَ مَعْنَى مَا يَتَعَدَّى، أَيْ جَهِلَ، وَهُوَ قَوْلُ الزَّجَّاجِ وَابْنُ جِنِّيٍّ، أَوْ أَهْلَكَ، وَهُوَ قَوْلُ أَبِي عُبَيْدَةَ.[1]

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ * وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَابَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾. الآية/ ١٣١: ١٣٢

لما أخبر الله تعالى أنه اصْطَفَى إِبْرَاهِيمَ عليه السلام فِي الدُّنْيَا، واختاره في الآخرة من جملة الصالحين من عباده، بين الله تعالى سبب ذلك فقال: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

أمر الله تعالى إبراهيم عليه السلام بالاسْتِسْلامِ للهِ تعالى، والخضوع له، والانقياد لأمر، فقام بذلك إبراهيم الخليل أتم قيام، إذ الإسلام هو: الاسْتِسْلامُ للهِ بِالتَّوْحِيدِ وَالانْقِيَادُ لَهُ بِالطَّاعَةِ، وَالْبَرَاءَةُ من الشرك وأهله، فما تردد إبراهيم في ذلك لحظة، ولا ارتاب في الانْقِيَادِ لأمر الله طرفة عين، بل بادر بقوله: أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ، وهذا معنى قول إبراهيم عليه السلام: ﴿يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ * إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.[2]

وفي قَوْلِ الله تَعَالَى: ﴿وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ * إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.[3]

الْتِفَاتٌ مِنَ الحضور إلى الْغَيْبَةِ، إِذْ لَوْ جَرَى الْكَلَامُ على النهج السَّابِقِ، لَكَانَ تقديره: (إِذْ قُلْنَا لَهُ أَسْلِمْ)، فَإِنْ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ﴾، إِخْبَارٌ عَنِ النَّفْسِ، وَقَوْلُهُ: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ﴾، إِخْبَارٌ عَنِ الْغَيْبَةِ.

---

١ - البحر المحيط في التفسير (١/ ٦٢٨)

٢ - سورة الْأَنْعَامِ: الآية/ ٧٨، ٧٩

٣ - سورة البقرة: الآية/ ١٣٠، ١٣١

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

﴿وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ﴾.

الإِيصَاءُ: طلبُ شيءٍ مِنَ الغيرِ ليفعلَهُ عَلَى غيْبٍ منْهُ حَالَ حياتِهِ وَبَعْدَ وفاتِهِ.

من تمام قيام إبراهيم ويعقوب عَلَيْهِمَا السَّلَامُ بأمر الله تعالى لهما بالإسلام والانقياد لأمره؛ وصى بها كل واحد منهما بنيه وفي هذه الوصية جملة من الأمور التي ترغب فِي قَبُولِ الدِّينِ، وتحض على التمسك به وعدم التفريط فيه.

أَحَدُهَا: أَنَّ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ جعلها وَصِيَّةً، و لم يجعلها أمرًا وَلَفْظُ الْوَصِيَّةِ أَبلغُ مِنَ لَفْظِ الْأَمْرِ، وأدعى للإستجابة وأقرب للقبول.

وَثَانِيهَا: أَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ خَصَّصَ بَنِيهِ بِذَلِكَ، وَذَلِكَ لِأَنَّ شَفَقَةَ الرَّجُلِ عَلَى أَبْنَائِهِ أَكْثَرُ مِنْ شَفَقَتِهِ عَلَى غَيْرِهِمْ.

وَثَالِثُهَا: أَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَمَّمَ بِهَذِهِ الْوَصِيَّةِ جَمِيعَ بَنِيهِ وَلَمْ يَخُصَّ أَحَدًا مِنْهُمْ بِهَذِهِ الْوَصِيَّةِ، وَذَلِكَ أَيْضًا يَدُلُّ عَلَى شِدَّةِ الِاهْتِمَامِ.

وَرَابِعُهَا: أَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ حذرهم أَشَدَّ التحذير أَنْ يَمُوتُوا غَيْرَ مُسْلِمِينَ، وَذَلِكَ يَدُلُّ أَيْضًا عَلَى شِدَّةِ الِاهْتِمَامِ بِهَذَا الْأَمْرِ.

ويعقوب هو ابن اسحاق بن إبراهيم عليهم السلام، وإنما ذكر الله تعالى يعقوب هنا ردًا على اليهود والنصارى الذين يزعمون أنهم على ملة إبراهيم وأنهم أبناء يعقوب وإليه ينتسبون كما سيأتي بيان ذلك.

﴿يَابَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾.

هذا نص وصية إبراهيم ويعقوب عليهما السلام لأبنائهما، ومعنى: ﴿اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ﴾، أي اختار لكم الدين؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا﴾.[1]

وقوله: ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾، هذا الكلام يتضمن الوصية بالمداومة على الطاعة، والإخلاص لله تعالى في السر والعلن، فإن ذلك سبب الموت على الإسلام، ودل على ذلك ما ثبت عَنْ عَبْدُ اللَّهِ بن مسعود قَالَ: حَدَّثَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ الصَّادِقُ الْمَصْدُوقُ قَالَ: «إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، ثُمَّ يَكُونُ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَبْعَثُ اللَّهُ

---

١ - سورة الْمَائِدَةِ: الآية/ ٣

مَلَكًا، فَيُؤْمَرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ، وَيُقَالُ لَهُ اكْتُبْ عَمَلَهُ وَرِزْقَهُ وَأَجَلَهُ وَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ. ثُمَّ يُنْفَخُ فِيهِ الرُّوحُ، فَإِنَّ الرَّجُلَ مِنْكُمْ لَيَعْمَلُ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ إِلاَّ ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ كِتَابُهُ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ، وَيَعْمَلُ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّارِ إِلاَّ ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ».[1]

وقد دل على أن دوام الطاعة، وتحري الإخلاص في كل حركة وسكنة سبب الموت على الإسلام، وأن الله لا يظلم الناسَ شيئًا، ما ثبت عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ السَّاعِدِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، التَقَى هُوَ وَالْمُشْرِكُونَ، فَاقْتَتَلُوا، فَلَمَّا مَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى عَسْكَرِهِ، وَمَالَ الآخَرُونَ إِلَى عَسْكَرِهِمْ، وَفِي أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَجُلٌ، لاَ يَدَعُ لَهُمْ شَاذَّةً وَلاَ فَاذَّةً إِلَّا اتَّبَعَهَا يَضْرِبُهَا بِسَيْفِهِ، فَقَالَ: مَا أَجْزَأَ مِنَّا اليَوْمَ أَحَدٌ كَمَا أَجْزَأَ فُلاَنٌ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَمَا إِنَّهُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ»، فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ القَوْمِ: أَنَا صَاحِبُهُ، قَالَ: فَخَرَجَ مَعَهُ كُلَّمَا وَقَفَ وَقَفَ مَعَهُ، وَإِذَا أَسْرَعَ أَسْرَعَ مَعَهُ، قَالَ: فَجُرِحَ الرَّجُلُ جُرْحًا شَدِيدًا، فَاسْتَعْجَلَ المَوْتَ، فَوَضَعَ نَصْلَ سَيْفِهِ بِالأَرْضِ، وَذُبَابَهُ بَيْنَ ثَدْيَيْهِ، ثُمَّ تَحَامَلَ عَلَى سَيْفِهِ، فَقَتَلَ نَفْسَهُ، فَخَرَجَ الرَّجُلُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: أَشْهَدُ أَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ، قَالَ: «وَمَا ذَاكَ؟» قَالَ: الرَّجُلُ الَّذِي ذَكَرْتَ آنِفًا أَنَّهُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، فَأَعْظَمَ النَّاسُ ذَلِكَ، فَقُلْتُ: أَنَا لَكُمْ بِهِ، فَخَرَجْتُ فِي طَلَبِهِ، ثُمَّ جُرِحَ جُرْحًا شَدِيدًا، فَاسْتَعْجَلَ المَوْتَ، فَوَضَعَ نَصْلَ سَيْفِهِ فِي الأَرْضِ وَذُبَابَهُ بَيْنَ ثَدْيَيْهِ ثُمَّ تَحَامَلَ عَلَيْهِ فَقَتَلَ نَفْسَهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عِنْدَ ذَلِكَ: «إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ عَمَلَ أَهْلِ الجَنَّةِ، فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ، وَهُوَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ عَمَلَ أَهْلِ النَّارِ، فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ، وَهُوَ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ».[2]

---

١ - رواه البخاري- كِتَابُ بَدْءِ الخَلْقِ، بَابُ ذِكْرِ المَلاَئِكَةِ، حديث رقم: ٣٢٠٨، ومسلم- كتاب الْقَدَرِ، بَابُ كَيْفِيَّةِ خَلْقِ الْآدَمِيِّ فِي بَطْنِ أُمِّهِ وَكِتَابَةِ رِزْقِهِ وَأَجَلِهِ وَعَمَلِهِ وَشَقَاوَتِهِ وَسَعَادَتِهِ، حديث رقم: ٢٦٤٣

٢ - رواه البخاري- كِتَابُ الجِهَادِ وَالسِّيَرِ، بَابُ لاَ يَقُولُ فُلاَنٌ شَهِيدٌ، حديث رقم: ٢٨٩٨، ومسلم- كِتَابُ الْإِيمَانِ، بَابُ غِلَظِ تَحْرِيمِ قَتْلِ الْإِنْسَانِ نَفْسَهُ، وَأَنَّ مَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِشَيْءٍ عُذِّبَ بِهِ فِي النَّارِ، وَأَنَّهُ لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِلَّا نَفْسٌ مُسْلِمَةٌ، حديث رقم: ١١٢

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وحديثُ سَهْلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ تفسير وبيان لحديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فإن الله تبارك وتعالى، أرحم من أن يعذب عبدًا أرد بعمله وجه ربه، وأخلص له في سره وعلانيته طول عمره، ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.[1]

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾. الآية/ ١٣٣

هذا أيضًا ردٌ على اليهود والنصارى والمشركين من العرب الذين ادعوا أنهم على ملة إبراهيم عليه السلام، ورد على اليهود خاصة الذين ينتسبون ليعقوب عليه السلام وسموا أنفسهم بني إسرائيل نسبة إليه، فإن إسرائيل هو يعقوب عليه السلام، وقد حكى الله تعالى عنه أنه لما وافته المنية، وحضره الأجل جمع بنيه وسألهم سؤال تقرير ليستوثق منهم، ويتثبت من حسن اعتقادهم، ويكون جوابهم عهدًا وميثاقًا في أعناقهم إلى يوم القيامة.

وقول الله تعالى: ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ﴾، بيان لكذبهم على أنبياء الله ورسله، وأنهم ليس في أيديهم متمسك لما كان عليه أنبياؤهم بل هي مزاعم وافتراءات وأكاذيب، وهذا حال هذه الطوائف الثلاث، الْمُشْرِكِينَ مِنَ الْعَرَبِ أَبْنَاءِ إِسْمَاعِيلَ، وَالْكُفَّارِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ؛ وكما زعم اليهود والنصارى أَنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى، زعم مشركوا العرب أَنَّ إِبْرَاهِيمَ كان عابدًا للأوثان، وأنه كان يستقسم بالأزلام؛ فعَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: "دَخَلْنَا مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَكَّةَ فِي الْبَيْتِ وَحَوْلَ الْبَيْتِ ثَلَاثُمِائَةٍ وَسِتُّونَ صَنَمًا تُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ، قَالَ: فَأَمَرَ بِهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَكُبَّتْ كُلُّهَا لِوُجُوهِهَا، ثُمَّ قَالَ: ﴿جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١]، ثُمَّ دَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْبَيْتَ فَصَلَّى فِيهِ رَكْعَتَيْنِ، فَرَأَى فِيهِ تِمْثَالَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَقَدْ جَعَلُوا فِي يَدِ إِبْرَاهِيمَ الْأَزْلَامَ يَسْتَقْسِمُ بِهَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «قَاتَلَهُمُ اللَّهُ، مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَسْتَقْسِمُ بِالْأَزْلَامِ»، ثُمَّ دَعَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِزَعْفَرَانٍ فَلَطَّخَهُ بِتِلْكَ التَّمَاثِيلِ".[2]

---

١ - سورة يونس: الآية/ ٤٤

٢- رواه ابن أبي شيبة- حَدِيثُ فَتْحِ مَكَّةَ، حديث رقم: ٣٦٩٠٥

فكأنه يقول لهم هذا الذي تزعمونه إفتراء على الله وكذب على أنبيائه؟ أم أنكم كنتم شاهدين لحال يعقوب حين حضرته الوفاة فسأل بنيه عما يعبودنه من بعد موته، وعن دينهم الذي يدينون به، وبما أوصاهم به عند موته؟ وهذا إنما قاله الله تعالى توبيخًا لهم، لأنهم ما شهدوا يعقوب عند الوفاة، وما سمعوا ما جرى بينه وبين بنيه، فلم يبق إلا إفتراؤهم على الله تعالى وكذبهم على رسل الله وأنبيائه عليهم السلام.

﴿إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي﴾.

وإنما قال يعقوب عليه السلام: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي﴾، ولم يقل: مَنْ تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي، حتى لا يكون قد لقنهم حجتهم لأنه أراد اختبارهم، والمقصود أي شيء تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي، ومعنى مِنْ بَعْدِي أي مِنْ بَعْدِ موتي ومفارقتي لكم.

﴿قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾.

فكانت إِجَابَتُهُمْ أنهم لن يغيروا ولن يبدلوا ما كان عليه رسل الله وأنبياؤه، بل هم على العهد باقون، ولربهم ورب أبائهم عابدون، ﴿قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ...﴾، وأكدوا إِجَابَتَهُمْ بجملة من التأكيدات منها إِظْهَارُ الْفِعْلِ ﴿قَالُوا نَعْبُدُ..﴾، تَأْكِيدًا لِمَا أَجَابُوهُ بِهِ، وما قَالُوا إِلَهَكَ مباشرة ردًا على سؤاله، وَمنها إِضَافَةُ الْإِلَهِ إِلَى يَعْقُوبَ، فِيهِ دَلِيلٌ عَلَى اتِّحَادِ مَعْبُودِ السَّائِلِ وَالْمُجِيبِ لَفْظًا. وَمنها: تكرار لفظ: (الإله) الآباء فقالو: ﴿وَإِلَهَ آبَائِكَ﴾ تَأْكِيدًا عَلَى اتِّحَادِ الْمَعْبُودِ أَيْضًا مِنْ حَيْثُ اللَّفْظُ.

وَبَدَؤا بِإِضَافَةِ الْإِلَهِ إِلَى يَعْقُوبَ في قولهم: ﴿نَعْبُدُ إِلَهَكَ﴾، لِأَنَّهُ هُوَ السَّائِلُ، وَقَدَّمَوا إِبْرَاهِيمَ بعد ذلك، لِأَنَّهُ الْأَصْلُ، وَقَدَّمَوا إِسْمَاعِيلَ عَلَى إِسْحَاقَ، لِأَنَّهُ أَسَنُّ أَوْ أَفْضَلُ، وَاقْتَصَرَوا عَلَى هَؤُلَاءِ، لِأَنَّهُمْ كَانُوا خَيْرَ النَّاسِ فِي أَزْمَانِهِمْ، ولأنهم أبنياؤهم الذين أرسلوا إليهم.

ثم أكدوا تأكيدًا آخر بإن هذا الإله الذي يعبدونه ليس كسائر المعبودات بل هو إلهٌ واحدٌ لا يستحق العبادة غيره، هو الخالق للكائنات، ومدبر أمر المخلوقات، من بيده النفع والضر.

ثم أكدوا تأكيدًا آخر فقالوا: ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾، كما كان جميع الأنبياء، ولأنه الدين الذي ارتضاه الله تعالى لعباده، والملة التي اختارها لأوليائه.

وفي قوله تعالى: ﴿قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾، من الأساليب البلاغية التَّغْلِيبُ فإنَّ إِسْمَاعِيلَ عليه السلام عَمُّ يَعْقُوبَ عليه السلام وَإنما سموه أبًا له مِنْ بَابِ التَّغْلِيبِ.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلاَ تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

الآية/ ١٣٤

الخطاب في هذه الآية لبني إسرائيل، الذين يظنون أن انتسابهم إلى أنبياء الله تعالى يغني عنهم إذا قصرت بهم أعمالهم، وقعدت بهم طاعتهم عن السير على نهجهم واتباع سبيلهم، فكان حكم الله تعالى أن: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ﴾، يعني: إبراهيم، وإسماعيل، وإسحاق، ويعقوب، والأسباط، وتقدم معنى الْأُمَّةِ، والمراد بالْأُمَّةِ هُنَا الْجَمَاعَةُ مِنَ النَّاسِ، وهم إِبْرَاهِيمُ وَأَوْلَادُهُ وَأَحْفَادُهُ كما ذكرنا، ومعنى: ﴿قَدْ خَلَتْ﴾، أي: مَضَتْ وَذَهَبَتْ مِنْ هَذَا الْعَالَمِ.

﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ﴾.

لَهَا مَا كَسَبَتْ مِنْ عَمَلٍ سَتُجْزَى بِهِ، وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ مِنْ عَمَلٍ سَتُجْزَوْنَ بِهِ، وَلَا يُجْزَى أَحَدٌ بِعَمَلِ غَيْرِهِ، وهذه سنة كونية لا تتبدل ولا تتغير كما قال تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لأنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾.[1]

وكما قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾.[2]

أن من أحسن فلنسفه ومن أساء فعليها، وقد دل على هذا جملة من الآيات والأحاديث من ذلك قول الله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾.[3]

وقول الله تعالى: ﴿وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾.[4]

وقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا﴾.[5]

---

١ - سورة الأسراء: الآية/ ٧

٢ - سورة فصلت: الآية/ ٤٦

٣ - سورة البقرة الآية/ ٤٨

٤ - سورة الأنعام: الآية/ ١٦٤

٥ - سورة لقمان: الآية/ ٣٣

وقول الله تعالى: ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾.[1]

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ اشْتَرُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ اللَّهِ لاَ أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ لاَ أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا يَا عَبَّاسَ بْنَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ لاَ أُغْنِي عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا يَا صَفِيَّةُ عَمَّةَ رَسُولِ اللَّهِ لاَ أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا يَا فَاطِمَةُ بِنْتَ رَسُولِ اللَّهِ سَلِينِي بِمَا شِئْتِ لاَ أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا».[2]

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ نَفَّسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ الدُّنْيَا، نَفَّسَ اللهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ يَسَّرَ عَلَى مُعْسِرٍ، يَسَّرَ اللهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا، سَتَرَهُ اللهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَاللهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ، وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا، سَهَّلَ اللهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ، وَمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللهِ، يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ، وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ، إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمِ السَّكِينَةُ، وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ وَحَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ، وَذَكَرَهُمُ اللهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ، وَمَنْ بَطَّأَ بِهِ عَمَلُهُ، لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ».[3]

والشاهد قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَمَنْ بَطَّأَ بِهِ عَمَلُهُ لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ».

﴿وَلاَ تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

لَا تُسْئَلُونَ يَوْمَ الْحِسَابِ وَالْجَزَاءِ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ سُؤَالَ حِسَابٍ وَجَزَاءٍ، وَلَا يُسْئَلُونَ عَمَّا كنتم تَعْمَلُونَ كَذَلِكَ، بَلْ كُلٌّ يُسْأَلُ عَنْ عَمَلِهِ وَيُجَازَى بِهِ دُونَ عَمَلِ غَيْرِهِ.

وفي الآية من الأساليب البلاغية الحَذْفُ المقدر في نهاية الآية، وتقديره: (ولا يُسْأَلون عمّا كنتم تَعملون).

---

١ - سورة عبس: الآية/ ٣٧

٢ - رواه البخاري- كتابُ المناقب، بَابُ مَنِ انْتَسَبَ إِلَى آبَائِهِ فِي الإِسْلاَمِ وَالجَاهِلِيَّةِ، حديث رقم: ٣٥٢٧، ومسلم- كتابُ الإيمانِ، بَابٌ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: {وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ} [الشعراء: ٢١٤]، حديث رقم: ٢٠٥

٣ - رواه مسلم- كتاب الذِّكْرِ وَالدُّعَاءِ وَالتَّوْبَةِ وَالِاسْتِغْفَارِ، بَابُ فَضْلِ الِاجْتِمَاعِ عَلَى تِلَاوَةِ الْقُرْآنِ وَعَلَى الذِّكْرِ، حديث رقم: ٢٦٩٩

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُواْ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾. الآية/ ١٣٥

يخبرنا الله تعالى عن هاتين الطائفتين، وعن جلدهما في مناصرة الباطل، وعن دعوتهما إليه، فالعجب كل العجب من خجل أهل الحق في الدعوة لدينهم، مع جرأة هؤلاء في الدعوة إلى دينهم مع ظهور بطلانه، ووضوح فساده.

﴿وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُواْ﴾.

قالت اليهود كُونُواْ هُودًا تَهْتَدُواْ، وقالت النصارى: كُونُواْ نَصَارَى تَهْتَدُواْ، ومعناه أن كل فرقة منهما ترى أن الحق قاصرٌ عليها، وأن ما عداها مخالف للحق مجانب للصواب، بعيد عن الهدى، وأو هنا للتفصيل وليست للتخيير؛ لأن كل فرقة منهما تعتقد كفر الفرقة الأخرى وضلالها؛ كما حكى الله تعالى عنهم بقوله: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ﴾.[١]

ولا يدعوا اليهود للنصرانية، ولا يدعوا النصارى لليهودية، بل تدعوا كل فرقة إلى نفسها ومعتقدها، وفي قولهم: ﴿تَهْتَدُواْ﴾، تصريح فج قبيح من هؤلاء الضلال اليهود النصارى، وهم يخاطبون أهدى الخلق محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُم، والعجب كل العجب ممن يخجل من المسلمين من وصف اليهود والنصارى بالضلال، أو يتورع من إطلاق لفظ الكفر عليهم مع أنه حكم الله تعالى عليهم؛ كما قال تعالى عن اليهود: ﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا﴾.[٢]

وقال تعالى عن النصارى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾.[٣]

---

١ - سُورَةُ الْبَقَرَةِ: الآية/ ١١٣

٢ - سورة النساء: الآية/ ١٥٦

٣ - سورة المائدة: الآية/ ٧٢

وقال تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلا إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾.[1]

﴿قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

تكلمنا قبل ذلك عن تفسير لفظ الْملَّةِ وَقلنا إن الْملَّةَ: هي النِّحلة الَّتِي ينتحلها الْإِنْسَان من الدّين.[2]

وبيَّنَا الفرق بين الدين والْملَّةِ عند قول الله تعالى: ﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾.[3]

اختلف العلماء في سبب انتصاب لفظ: ﴿مِلَّةَ﴾، من قوله تعالى: ﴿قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾، على خمسة أقوال:

الأول: لأنه عطف في المعنى على قوله: ﴿كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾. وتقديره قالوا: اتبعوا اليهودية قل: (بَلْ اتبعوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ).

الثاني: على تقدير حذف الفعل المضارع والفاعل، فيكون تقدير الكلام: (بَلْ نَتَّبِعُ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ).

الثالث: على تقدير حذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه وتقديره: (بَلْ نكون أهل مِلَّة إِبْرَاهِيمَ)، كقوله: ﴿وَسْئَلِ الْقَرْيَةَ﴾.[4]

الرابع: على تقدير حذف فعل الأمر والفاعل،فيكون تقدير الكلام: (اتبعوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ).[5]

الخامس: على تقدير حذف الفعل وحرف الجر، فيكون التقدير: (بَلْ نهتدي بِمِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ)، فلما حذف حرف الجر صار منصوبا.[6]

١- سورة المائدة: الآية/ ٧٢

٢- انظر جمهرة اللغة (١/ ١٦٨)

٣ - سُورَةُ الْبَقَرَةِ: الآية/ ١٢٠

٤ - سورة يوسف: الآية/ ٨٢

٥ - انظر مفاتيح الغيب (٤/ ٧٣)

٦ - تفسير القرطبي (٢/ ١٣٩)

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ومعنى قوله: ﴿حَنِيفًا﴾ أي مائلًا عن الشرك وأهله، فإن معنى الحَنِفِيَّةِ في اللُّغَةِ: المَيْلُ، والحنيف: هو المائل عن الشرك قصدا، أي تاركًا له عن بصيرة، ومقبل على الحق بكليته، قال الزَّجَّاجُ: نُصِبَ: ﴿حَنِيفاً﴾، علَى الحالِ، والمَعْنَى: بل نَتَّبِعُ مِلَّةَ إبراهِيمَ في حالِ حَنِيفِيَّتِهِ.[1]

أي ميله عن الشرك إلى دِينِ الإِسْلامِ.

﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

تعريضٌ بالْيَهُودِ الذين قالوا: عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ، والنَّصَارَى الذين قالوا: الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ، كما قال الله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتْ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾.[2]

والمعنى كان إبراهيم مسلمًا لله تعالى موحدًا له، مائلًا عن سبيل الشرك، مفارقًا لحال المشركين فلم يكن كحال هؤلاء الْيَهُودِ والنَّصَارَى، الذين يزعمون أنهم ينتسبون إليه وهو منهم بريء.

وفي هذه الآية من الأساليب البلاغية حذف الاختصار في قوله تعالى: ﴿قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾، والتعريض في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

---

١ - تاج العروس من جواهر القاموس (٢٣/ ١٧٠)

٢ - سورة التوبة: الآية/ ٣٠

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾. الآية/ ١٣٦

هذا أمر من الله تعالى لهذه الأمة بأن يؤمنوا بالله تعالى وكتبه المترلة على أنبيائه ورسله ومنهم إِبْرَاهِيمُ وَإِسْمَاعِيلُ وَإِسْحَاقُ وَيَعْقُوبُ وَالْأَسْبَاطُ وَمُوسَى وَعِيسَى وأمرهم أن يعلنوا إيمانهم ليواطئ اللسان القلب في الإيمان، وليكون ردًا منهم على اليهود والنصارى الذين يأمرونهم باتباع ما هم عليه من الباطل، وإن أخذ تزيينهم للباطل صورة النصيحة، وإظهار الحرص عليهم؛ فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ كَانَ أَهْلُ الْكِتَابِ يَقْرَؤُونَ التَّوْرَاةَ بِالْعِبْرَانِيَّةِ وَيُفَسِّرُونَهَا بِالْعَرَبِيَّةِ لأَهْلِ الإِسْلاَمِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "لاَ تُصَدِّقُوا أَهْلَ الْكِتَابِ، وَلاَ تُكَذِّبُوهُمْ وَقُولُوا ﴿آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ﴾الآيَةَ".[1]

﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ﴾.

يرى جمهور المفسرين واللغويين أن أصل الْإِيمَانِ فِي اللُّغَة عِبَارَة عَنِ التَّصْدِيقِ، قَالَ تعالى حكاية عَنْ إِخْوَة يُوسُفَ: ﴿وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾.[2]

أي وَمَا أَنْتَ بِمُصَدِّقٍ لَنَا.

ويرى شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى أن الإيمان تصديق وزيادة، فهو تصديقٌ وطمأنينة، وإقرار والتزام بما آمن به.

وشرعًا: هو اعتقاد بالقلب وقول باللسان وعمل بالجوارح.

والإيمان بالله تعالى معناه اعتقاد أنه الخالق والرازق والمحي والمميت، وأنه مدبر أمر الكائنات، وأنه المستحق للعبادة وحده دون سواه، فلا يصرف شيء من العبادات إلا إليه، وأن له أسماء حسنى وصفات عُلى تليق بذاته سبحانه، وأنه ليس كمثله شيء، وليس له نظير، وأنه الرب الجليل الأكبر، الخالق والبارئ والمصور.

---

١ - رواه البخاري- كِتَاب تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ، بَاب: {قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا}، حديث رقم: ٤١٢٥

٢ - سورة يوسف: الآية/ ١٧

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ولا يتحقق الإيمان بالله تعالى إلا بالكفر بكل ما يعبد من دون الله؛ كما قال تعالى: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.[1]

وإنما قدم الإيمان بالله تعالى لأنه أصل الإيمان وأعظم أركانه.

﴿آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ﴾.

الركن الثاني من أركان الإيمان التي أمرنا الله تعالى بها في هذه الآية هو الإيمان بكتب الله المنزلة، وما أنزل إلينا هو القرآن، وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ أتى بَيَّانُه فِي سُورَةِ الْأَعْلَى أَنَّهُ صُحُفٌ، وَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى﴾.[2]

وَمَا أُوتِيَ مُوسَى هُوَ التَّوْرَاةُ، قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾، ودل على أن هذا الكتاب المذكور في الآية هو التوراة ما ثبت عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أن النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «احْتَجَّ آدَمُ وَمُوسَى فَقَالَ مُوسَى يَا آدَمُ أَنْتَ أَبُونَا خَيَّبْتَنَا وَأَخْرَجْتَنَا مِنَ الْجَنَّةِ. فَقَالَ آدَمُ أَنْتَ مُوسَى اصْطَفَاكَ اللَّهُ بِكَلَامِهِ وَخَطَّ لَكَ التَّوْرَاةَ بِيَدِهِ تَلُومُنِي عَلَى أَمْرٍ قَدَّرَهُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَنِي بِأَرْبَعِينَ سَنَةً فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى».[3]

وَمَا أُوتِيَ عِيسَى هُوَ الْإِنْجِيلُ، قال الله تعالى: ﴿وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ﴾.[4]

وما ورد ذكره مفصلًا كالقرآن وصحف إبراهيم والتوراة والإنجيل والزبور يجب الإيمان به على التفصيل، وما ورد مجملا كالذي أُنْزِلَ إِلَى إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وسَائِرِ النَّبِيِّينَ، يجب الإيمان به مجملا؛ كما قال تعالى: ﴿وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنزلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ﴾.[5]

---

١ - سورة البقرة: الآية/ ٢٥٦

٢ - سُورَةُ الْأَعْلَى: الآية/ ١٨، ١٩

٣ - رواه البخاري- كِتَابُ أَحَادِيثِ الأَنْبِيَاءِ، بَابُ وَفَاةِ مُوسَى وَذِكْرِهِ بَعْدُ، حديث رقم: ٣٤٠٩، ومسلم- كتاب الْقَدَرِ، بَابُ حِجَاجِ آدَمَ وَمُوسَى عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، حديث رقم: ٢٦٥٢

٤ - سورة الحديد: الآية/ ٢٧

٥ - سورة الشورى: الآية/ ١٥

وإنما ذكر الله تعالى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ وَمُوسَى وَعِيسَى لأنهم الذين ينتسب إليهم بنو إسرائيل، والمعنى أن من آمن بأنبياء الله تعالى وبما جاءوا به من عند الله تعالى أولى من أولئك الذين ليس بينهم وبينهم إلا مجرد الإنتساب إليهم، وهم أبعد الناس عن سبيلهم.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ﴾، من باب عطف العام على الخاص.

﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾.

أي نؤمن بهم، ونجلهم، ونوقرهم جميعًا، ولا نؤمن ببعضهم ونكفر ببعضهم، كما فعل أعداء الله، وأعداء الرسل، وفي الآية تعريض باليهود والنصارى فإنهم هم الذين فرقوا بين أنبياء الله تعالى في الأيمان؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلا * أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾.[1]

وقد أخبر الله تعالى أن المؤمنين من هذه الأمة الذين قيل لهم: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ.....﴾، قد امتثلوا الأمر واستجاب لربهم وقد أثنى الله تبارك وتعالى عليهم بذلك؛ فقال تعالى: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾ الآية.[2]

ووعدهم الله تعالى على ذلك عظيم الأجر، وجزيل المثوبة؛ فقال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾.[3]

﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾.

خاضعون لأمره، مستسلمون لحكمه، متبعون سبيل أنبيائه، ندين له بما شرع، وننتهي عما نهى عنه وردع.

---

١ – سورة النساء: الآية/ ١٥٠، ١٥١

٢ – سورة البقرة: الآية/ ٢٨٥

٣ – سورة النساء: الآية/ ١٥٢

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾. الآية/ ١٣٧

يَقُولُ اللهُ تَعَالَى للمؤمنين الذين امتثلوا أمره: ﴿فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا﴾، يعني اليهود والنصارى الذين قالوا: ﴿كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا﴾.[١]

وفي ذلك دليل قاطع على أن أهل الكتاب لا حظ لهم من الإيمان، وليسوا على شيء من الهدى؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾.[٢]

فَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ وَغَيْرُهُمْ مِنْ الْكُفَّارِ بالله تعالى إيمانًا لا تشوبه شائبة شركٍ وأثبتوا له ما أثبته لنفسه من الأسماء والصفات، وكفروا بما يعبد من دونه، وآمنوا بِجَمِيعِ كُتُبِ اللَّهِ، ولم ينكروا شيئا منها، وآمنوا بِجَمِيعِ رُسُلِ اللَّهِ، فلم يفرقوا بين أحد منهم، فكان اعتقادهم كاعتقادكم، وإيمانهم كإيمانكم فَقَدِ اهْتَدَوْا، ولا سبيل لهم إلى الهدى غير هذا السبيل، ولو سلكوا إلى الله تعالى كل طريق.

قال الطبري رحمه الله: فَإِنْ صَدَّقَ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ، وَمَاأُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى، وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ، وَأَقَرُّوا بِذَلِكَ مِثْلَمَا صَدَّقْتُمْ أَنْتُمْ بِهِ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ وَأَقْرَرْتُمْ، فَقَدْ وُفِّقُوا وَرَشَدُوا وَلَزِمُوا طَرِيقَ الْحَقِّ وَاهْتَدَوْا، وَهُمْ حِينَئِذٍ مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مِنْهُمْ بِدُخُولِهِمْ فِي مِلَّتِكُمْ بِإِقْرَارِهِمْ بِذَلِكَ. فَدُلَّ تَعَالَى ذِكْرُهُ بِهَذِهِ الْآيَةِ عَلَى أَنَّهُ لَمْ يَقْبَلْ مِنْ أَحَدٍ عَمَلًا إِلَّا بِالْإِيمَانِ بِهَذِهِ الْمَعَانِي الَّتِي عَدَّهَا قَبْلَهَا.[٣]

ولا يفهم من قوله: ﴿فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ﴾، أن هناك دينًا مماثلًا لدين الإسلام لو اعتقده أحدٌ يغنيه عن دين الإسلام، وإنما هذا أسلوب من أساليب العرب في كلامهم، فإن الْعَرَبَ تعبر عن النَّفْسِ بالْمَثَلِ، وَتُقِيمُ الْمَثَلَ مَقَامَ النَّفْسِ.

---

١ - سورة البقرة: الآية/ ١٣٥

٢ - سورة آلِ عِمْرَانَ: الآية/ ١١٠

٣ - تفسير الطبري (٢/ ٥٩٩)

قَالَ ابْنُ قُتَيْبَةَ رحمه الله: الْعَرَبُ تُقِيمُ الْمَثَلَ مَقَامَ النَّفْسِ، فَتَقُولُ: مِثْلِي لَايُقَالُ لَهُ هَذَا، أَيْ: أَنَا لَا يُقَالُ لِي.[1]

ومن ذلك قول الله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾.[2]

وَمِنْهُ أيضًا قَوْلُ الشَّاعِرِ:

لَـــيْسَ كَمِثْـــلِ الْفَتَـــى زُهَيْـــرٍ **** خُلُـــقٌ يُوَازِيـــهِ فِـــي الْفَضَـــائِلِ

وَقَالَ آخَرُ:

عَلَى مِثْلِ لَيْلَى يَقْتُـــلُ الْمَـــرْءُ نَفْسَـــهُ **** وَإِنْ بَاتَ مِنْ لَيْلَى عَلَى الْيَـــأْسِ طَاوِيَـــا

وَقَالَ آخَرُ:

سَعْدُ بْنُ زَيْـــدٍ إِذَا أَبْصَـــرْتَ فَضْـــلَهُمُ **** فَمَا كَمِثْلِهِمِ فِي النَّـــاسِ مِـــنْ أَحَـــدِ

وَقَالَ الزَّمَخْشَرِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ مِنْ بَابِ التَّبْكِيتِ، لِأَنَّ دِينَ الْحَقِّ وَاحِدٌ، لَا مِثْلَ لَهُ، وَهُوَ دِينُ الْإِسْلَامِ. وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ، فَلَا يُوجَدُ إِذًا دِينٌ آخَرُ يُمَاثِلُ دِينَ الْإِسْلَامِ فِي كَوْنِهِ حَقًّا، حَتَّى إِنْ آمَنُوا بِذَلِكَ الدِّينِ الْمُمَاثِلِ لَهُ، كَانُوا مُهْتَدِينَ، فَقِيلَ: فَإِنْ آمَنُوا بِكَلِمَةِ الشَّكِّ، عَلَى سَبِيلِ الْعَرْضِ، وَالتَّقْدِيرِ: أَيْ فَإِنْ حَصَّلُوا دَيْنًا آخَرَ مِثْلَ دِينِكُمْ، مُسَاوِيًا لَهُ فِي الصِّحَّةِ وَالسَّدَادِ فَقَدِ اهْتَدَوْا. وَفِيهِ أَنَّ دِينَهُمُ الَّذِي هُمْ عَلَيْهِ، وَكُلَّ دِينٍ سِوَاهُ مُغَايِرٌ لَهُ غَيْرُ مُمَاثِلٍ، لِأَنَّهُ حَقٌّ وَهُدًى، وَمَا سِوَاهُ بَاطِلٌ وَضَلَالٌ، وَنَحْوُ هَذَا قَوْلُكَ لِلرَّجُلِ الَّذِي تُشِيرُ عَلَيْهِ: هَذَا هُوَ الرَّأْيُ الصَّوَابُ، فَإِنْ كَانَ عِنْدَكَ رَأْيٌ

---

١ - فتح القدير للشوكاني (٤/ ٦٠٥)

٢ - سورة الشُّورَى: الآية/ ١١

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

أَصْوَبُ مِنْهُ، فَاعْمَلْ بِهِ، وَقَدْ عَلِمْتَ أَنْ لَا أَصْوَبَ مِنْ رَأْيِكَ، وَلَكِنَّكَ تُرِيدُ تَبْكِيتَ صَاحِبِكَ وَتَوْقِيفَهُ عَلَى أَنَّ مَا رَأَيْتَ لَا رَأْيَ وَرَاءَهُ.[1]

﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.

وَإِنْ تَوَلَّوْا وأعرضوا عَنِ الْحَقِّ وأصروا عَلَى ما هم عليه من الْبَاطِلِ، بَعْدَ قِيَامِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ، فَإِنَّمَا هُمْ معاندون لكم، مخالفون للحق، محاربون لله ورسوله.

وأصل الشِّقاقِ: الخِلافُ، والتراعُ، والعَداوَةُ، وأن يكون كل واحد فِي شِقٍّ غيرِ شِقِّ صاحِبِهِ، وَمِنْه قَوْله تَعَالَى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.[2]

أَي: يكون فِي شِقٍّ غيرِ شِقِّ أَوْلِيائِهِ.

وَمِنْه قَوْله تَعَالَى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾.[3]

﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ﴾.

أي سَيَكْفِيكَ اللَّهُ عداوتهم وَهَذَا وَعْدٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ سَيَكْفِيهِ مَنْ عَانَدَهُ وَخَالَفَهُ مِنَ الْمُعرضينَ عنْ دينه المخالفين لهَدِيهِ، وقد أَنْجَزَ الله تعالى لَهُ وَعْدَه، فكَانَ ذَلِكَ فِي قَتْلِ بَنِي قَيْنُقَاعَ وَبَنِي قُرَيْظَةَ وَإِجْلَاءِ بَنِي النَّضِيرِ، لما ظهرت عداوتهم لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وللمؤمنين.

﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.

وفي تذييل الآية بِهَاتَيْنِ الصِّفَتَيْنِ وَعِيدٌ شديدٌ لهؤلاء الذين تولوا عن الإيمان الصحيح، وشاقوا الله ورسوله، فَهُوَ السَّمِيعُ لِأَقْوَالِهِم، ومنها قولهم: ﴿كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُواْ﴾.[4]

الْعَلِيمُ بِنِيَّاتِهِم وَاعْتِقَادِهِم فَيُجَازِيهِمْ بِمَا يَكُونُ مِنْهُم.

وقُدِّمَتْ صِفَةُ السَّمِيعِ عَلَى الْعَلِيمِ، لأن الْأَقْوَالَ هِيَ الظَّاهِرَةُ لَنَا.

---

١ - الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (١/ ١٩٥)

٢ - سورة الأنفال: الآية/ ١٣

٣ - سورة النساء: الآية/ ٣٥

٤ - سورة البقرة: الآية/ ١٣٥

وفي الآية من الأساليب البلاغية، الإلتفات من الجمع إلى الإفراد في قوله: ﴿بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ﴾،إلى الإفراد في قوله:﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ﴾.

والتذييل بقوله: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾. لِمَا تكلموا به من قولهم: ﴿كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُواْ﴾، ولِمَا انطوت عليه نفوسهم من سوء الاعتقاد، والانحراف في قضايا الإيمان.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ﴾. الآية/ ١٣٨

ما أمرنا الله تعالى به من الإيمان به تعالى والإيمان بكتبه المنزلة ورسله الكرام، هو السمة الظاهرة التي تمييز هذه الأمة عن غيرها من الأمم، والفطرة التي فطرنا وفطر الناس عليها، وهو الدين الذي ارتضاه الله تعالى لنا ولسائر خلقه، ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾.[١]

﴿صِبْغَةَ اللَّهِ﴾.

قال ابن عباس، ومجاهد، وأبو العالية، وعكرمة، وإبراهيم، والحسن، وقتادة، والضحاك، وعبد الله بن كثير، وعطية العوفي، والربيع بن أنس، والسدي، دين الله.

وسمي الدين صبغة لأن اليهود يهودون أولادهم فيصبغونهم بصبغتهم، والنصارى ينصرون أولادهم فيصبغونهم بصبغتهم، كما ثبت ذلك عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلاَّ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ وَيُنَصِّرَانِهِ وَيُمَجِّسَانِهِ كَمَا تُنْتَجُ الْبَهِيمَةُ بَهِيمَةً جَمْعَاءَ هَلْ تُحِسُّونَ فِيهَا مِنْ جَدْعَاءَ». ثُمَّ يَقُولُ أَبُو هُرَيْرَةَ وَاقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ: ﴿فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِى فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ الآيَةَ.[٢]

وذلك لأن النصارى إذا ولد لهم ولد فأتى عليه سبعة أيام غمسوه في ماء لهم يقال له ماء المعمودية، فصبغوه بذلك ليكون نصرانيا، ومثل ذلك يفعله اليهود، والمجوس، كما أخبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

---

١ - سورة الروم: الآية/٣٠

٢ - رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ- كِتَاب الْجَنَائِزِ، بَاب مَا قِيلَ فِي أَوْلَادِ الْمُشْرِكِينَ، حديث رقم: ١٢٩٦، وَمُسْلِمٌ- كتاب القدر، باب مَعْنَى كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ وَحُكْمِ مَوْتِ أَطْفَالِ الْكُفَّارِ وَأَطْفَالِ الْمُسْلِمِينَ، حديث رقم: ٦٩٢٦

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وقال بعض شعراء همدان:

وَكُـــلٌ أُنَـــاسٍ لَهُـــمْ صِـــبْغَةٌ ***** وَصِـــبْغَةُ هَمْـــدَانَ خَيْـــرُ الصِّـــبَغْ

صَـــبَغْنَا عَلَـــى ذَاكَ أَبْنَاءَنَـــا ***** فَـــأَكْرِمْ بِصِـــبْغَتِنَا فِي الصِّـــبَغْ

وقيل سمي الدين صِبْغَةً؛ لأن هيئته تظهر بالمشاهدة على صاحبها؛ فيقال له متدين لما يُرى من أثر الدين على سمته وهيئته؛ كما قال تعالى: ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾.[1]

وقيل سمي الدين صِبْغَةً؛ لملازمته لصاحبه، كملازمة اللون للثوب.

وسبب انتصاب ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ﴾، قيل على الإغراء؛ كقوله تعالى: ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ﴾.[2]

أي: الزموا صِبْغَةَ اللَّهِ، أو عليكم صِبْغَةَ اللَّهِ.

وقيل: نصب ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ﴾ لأنه بدل من قوله: ﴿مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾.

وقال سيبويه: هو مصدر مؤكد انتصب على قوله: ﴿آمَنَّا بِاللَّهِ﴾ كما انتصب ﴿وَعْدَ اللَّهِ﴾. عما تقدمه

وقد رد صاحب الكشاف القولين الأولين قال: لما فيه من فكِ النظمِ، وإخراجِ الكلامِ عن التئامِهِ واتساقِهِ. وانتصابها على أنها مصدرٌ مؤكدٌ هو الذي ذكره سيبويه، والقول ما قالت حذام.[3]

---

١ - سورة الفتح: الآية/ ٢٩

٢ - سورة الروم: الآية/ ٣٠

٣ - تفسير الكشاف (١/ ١٩٦)

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً﴾.

ولما كان الإسلام الذي هو الملة الحنيفية صبغة اللّه، فلا صبغة أحسن منها، وهل هناك أحسن مما ارتضاه اللّه تعالى لعباده، واختاره لهم وفطرهم عليه؛ كما قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا﴾.[1]

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً﴾، سؤال ومعناه: النفي، أي لا أحد أحسن من اللّه صبغة. وليس المراد هنا حقيقة التفضيل أن هذا حسن وهذا أحسن، فإن كل صبغةٍ غير صبغة اللّه فالحسن منتف عنها.

وفي الكلام تعريض باليهود والنصارى الذين كانوا يغمسون أولادهم في ماء أصفر يسمونه المعمودية، ويقولون: هو تطهير لهم، وإذا فعل الواحد منهم بولده ذلك قال: الآن صار نصرانيًا حقًا.

﴿وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ﴾.

وأي: وَنَحْنُ لَهُ موحدون غير مشركين به، ومنه قوله تعالى: ﴿وَما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾.[2]

أي: وَما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا ليوحدون.

وقيل: مطيعون متبعون ملة إبراهيم وصبغة اللّه تعالى، وقيل: خاضعون مستكينون في اتباع ملة إبراهيم، غير مستكبرين.

وفي قوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ﴾، تذييل لإيضاح المعنى وتأكيده.

وفي الآية من الأساليب البلاغية التوكيد في قوله تعالى: ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ﴾.

والتعريض في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً﴾.

والتذييل في قوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ﴾.

رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ.

---

١ – سورة المائدة: الآية/ ٣

٢ – سورة الذاريات: الآية/ ٥٦

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ﴾. الآية/ ١٣٩

يزعم اليهود والنصارى أنهم أَوْلَى بِاللَّهِ مِنَ المؤمنين من هذه الأمة، وقالوا لِأَنَّا أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ، وَلِتَقَدُّمِ آبَائِنَا وَكُتُبِنَا، وَلِأَنَّا لَمْ نَعْبُدِ الْأَوْثَانَ، وهي شبه يثيروها في كل عصر وفي كل مصر، أن التوراة أقدم من القرآن فهي أولى بالإتباع من القرآن بزعمهم، وأنهم شعب الله المختار، أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ، وأنهم أقرب لله لأنهم لم يعدوا الأوثان، كما حكى الله تعالى عنهم فقال: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾.[١]

وكذلك قولهم: ﴿لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾.[٢]

فقال اللَّهُ تَعَالَى مُرْشِدًا نَبِيَّهُ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ: ﴿قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾، ومنكرًا عليهم احتجاجهم على المسلمين بأنهم أولى بالله تعالى منهم، وأولى بدين الله تعالى لقدم كتبهم وآبائهم، أرشد الله تعالى نَبِيَّهُ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ إلى ترك مجادلتهم، ومناظرتهم؛ لأن مقصودهم ليس الهدى، وغايتهم ليست رضى الله تعالى؛ كما قال تعالى: ﴿وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ﴾.[٣]

والحُجّةُ: هي مَا دوفعَ بِهِ الخَصمُ، والجمعُ حُجَجٌ وحِجاجٌ، وإنما أنكر الله تعالى عليهم الجدال لأمرين:

الأول: أنهم جادلوا بغير علم كما قال الله تعالى: ﴿هَا أَنْتُمْ هؤُلاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾.[٤]

والثاني: أنهم جادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق، ويطمسوا نور الإسلام بزعمهم، كما قال تعالى: ﴿وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾.[٥]

---

١ - سورة المائدة: الآية/ ١٨

٢ - سورة البقرة: الآية/ ١١١

٣ - سورة الْعَنْكَبُوتِ: الْآيَةَ/ ٤٦

٤ - سورة آل عمران: الآية/ ٦٦

٥ - سورة غافر: الآية /٥

وفي قوله تعالى: ﴿قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ﴾. بيان لفساد احتجاجهم، ورد على دعواهم الباطلة أنهم أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ، فإن الله تعالى ﴿هُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾ نشترك نحن وأنتم في ربوبيته لنا، وعبوديتنا له، فكيف تدّعون أنكم أولى به منا وتُحَاجُّونَنَا في ذلك.

﴿وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ﴾.

أي: لنا أعمال ندين لله تعالى بها، ولكم أعمال تدينون لله تعالى بها، فلستم بأولى بالله منا، فنحن برآء منكم، لا نسأل عن أعمالكم، وأنتم بُرَآء منالا تسألون عن أعمالنا، وهذا كما قال الله تعالى: ﴿ وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾.[1]

وكما قال تعالى: ﴿فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنزلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾.[2]

﴿وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ﴾.

أي: نحن أهل الإخلاص في العبادة دونكم، وهو: المعيار الذي يكون به التفاضل، والخصلة التي يكون صاحبها أولى بالله سبحانه من غيره،فكيف تدّعون لأنفسكم ما نحن أولى به منكم وأحق؟ وأنتم تشركون به في عبادتكم له غيره.

وَالْإِخْلَاصُ من خَلَصَ الشَّيْءُ مِنْ التَّلَفِ خُلُوصًا إذا سَلِمَ وَنَجَا، وَخَلَصَ الْمَاءُ مِنْ الْكَدَرِ صَفَا، وَخَلَّصْتُهُ بِالتَّثْقِيلِ مَيَّزْتُهُ مِنْ غَيْرِهِ، وَخُلَاصَةُ الشَّيْءِ بِالضَّمِّ مَا صَفَا مِنْهُ، وَأَخْلَصَ لِلَّهِ الْعَمَلَ إذا صفاه من الرياء وشوائب الشرك.

وحقيقته تصفية الفعل عن ملاحظة المخلوقين.

وَالْإِخْلَاصُ هو أحد ركني العبادة، والمتابعة لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، الركن الثاني، وقد جمعهما الله تعالى في قوله: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلا صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾.[3]

وَقَالَ فُضَيْلُ بْنُ عِيَاضٍ رحمه الله في قوله تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلا﴾.[1]

---

١ – سورة يونس: الآية/ ٤١

٢ – سورة الشورى: الآية/ ١٥

٣ – سورة الكهف: الآية/ ١١٠

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

﴿أَحْسَنُ عَمَلًا﴾، أَخْلَصُهُ وَأَصْوَبُهُ. وَقَالَ: الْعَمَلُ لَا يُقْبَلُ حَتَّى يَكُونَ خَالِصًا صَوَابًا الْخَالِصُ: إِذَا كَانَ لِلَّهِ وَالصَّوَابُ: إِذَا كَانَ عَلَى السُّنَّةِ.[٢]

فإذا كان الْعَمَلُ خَالِصًا وَ لَمْ يَكُنْ صَوَابًا لَمْ يُقْبَلْ، وإذا كَانَ صَوَابًا و لم يكن خَالِصًا لَمْ يُقْبَلْ، حَتَّى يَكُونَ خَالِصًا صَوَابًا.

وَالْإِخْلَاصُ هو المحك الذي تقبل العبادة على أساسه أو ترد؛ كما ثبت عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ مَنْ عَمِلَ عَمَلاً أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ».[٣]

وفي قوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ﴾، تعريض باليهود والنصارى الذين نسبوا لله تعالى الصاحبة والولد، وعبدوا الأحبار والرهبان من دون الله تعالى؛ كما قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (٣٠) اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لا إِلَهَ إِلا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.[٤]

وفيه كذلك توبيخ لهم على شركهم، وادعائهم ما ليس لهم، وجدالهم بالباطل، وقطع لما جاءوا به من المجادلة والمناظرة.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾. الآية/ ١٤٠

لما أمر الله تعالى نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أن يقول لهؤلاء الذين يجادلون بالباطل، ويدافعون الحق بغير برهان، ﴿أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ .....﴾ الآية، أمره أن يقول لهم كذلك: ﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى.....﴾ الآية، وتكون ﴿أَمْ﴾ على هذا التقدير مُتَّصِلَةً وَتَقْدِيرُ الكلام: بِأَيِّ الْحُجَّتَيْنِ تَتَعَلَّقُونَ؟ بِتَوْحِيدِ اللهِ؟ فَنَحْنُ مُوَحِّدُونَ، أَمْ بِاتِّبَاعِ دِينِ الْأَنْبِيَاءِ؟ فَنَحْنُ مُتَّبِعُونَ لهم مستنون بسنتهم.

---

١ - سورة الملك: الآية/ ٢

٢ - تفسير البغوي (٨/ ١٧٦)

٣ - رواه مسلم- كتاب الزهد والرقائق، باب مَنْ أَشْرَكَ فِي عَمَلِهِ غَيْرَ اللَّهِ، حديث رقم: ٧٦٦٦

٤ - سورة التوبة: الآية/ ٣٠، ٣١

وهذا التفسير على قراءة من قَرَأَ: ﴿أَمْ تَقُولُونَ﴾ بتاء الخطاب، وهم ابْنُ عَامِرٍ وَحَمْزَةُ وَالْكِسَائِيُّ وَحَفْصٌ عَنْ عَاصِمٍ، كَأَنَّهُ قَالَ: أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ ....

وَعلى القرآءة الأخرى، قراءة الْبَاقِينَ بِالْيَاءِ هكذا: ﴿أَمْ يَقُولُونَ﴾، فتفسيره أَنَّهُ إِخْبَارٌ من الله تعالى عَنِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى أنهم يقولون ذلك،فتَكُون ﴿أَمْ﴾ مُنْقَطِعَةً بِمَعْنَى: بَلْ، فيكون تقدير الكلام بَلْ يَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا قَبْلَ نُزُولِ التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ هُودًا أَوْ نَصَارَى.

وإِنَّمَا أَنْكَرَ اللَّهُ تَعَالَى ذَلِكَ الْقَوْلَ عَلَيْهِمْ لأَنَّ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ أُنْزِلَا بَعْدَهُمْ؛ كما قال تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالإِنْجِيلُ إِلا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾.[1]

ولأَنَّهُمُ ادَّعَوْا ذَلِكَ مِنْ غَيْرِ بُرْهَانٍ؛ كما قال تعالى: ﴿هَا أَنْتُمْ هَؤُلاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.[2]

﴿قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ﴾.

توبيخ من الله تعالى لهم على مخالفتهم لبدائه العقول، وادعائهم على أنبياء الله تعالى ما ليس فيهم بغَيْرِ بينة ولا بُرْهَانٍ، فإن اللَّه تعالى شهد لهؤلاء الأنبياء بأنهم كانوا على ملة الإسلام وذلك في قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.[3]

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ﴾.

قد أعلمهم الله تعالى بشهادته لأنبيائه عليهم السلام بأنهم أعني إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا على الحنيفية السمحة، ملة الإسلام، واليهود قد قرأوا ذلك في كتبهم، وعلموا ذلك علم اليقين، ومع ذلك فقد كتموا تلك الشهادة، وَلا أَظْلَمَ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ فلا أحد أظلم من أهل الكتاب، لأنهم كتموا هذه الشهادة حال كونهم عالمين بها.

وفي الكلام تعريض بكتمانهم شهادة اللَّهِ تعالى لنبيه محمد صلى اللَّه عليه وسلم بالنبوّة في كتبهم، كما قَالَ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ﴾.[1]

---

١ - سورة آل عمران: الآية/ ٦٥

٢ - سورة آل عمران: الآية/ ٦٦

٣ - سورة آل عمران: الآية/ ٦٧

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

فَوَبَّخَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى كَلَامِهِم، وأتىبذلك فِي مَعْرِضِ السؤال عَلَى سَبِيلِ الْإِنْكَارِ، وَالْغَرَضُ مِنْهُ الزَّجْرُ وَالتَّوْبِيخُ.

﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

هذا وَعِيدٌ من الله تعالى لهم على سوء اعتقادهم في الله تعالى، وافترائهم عليه وعلى أنبيائه ورسله، وعلى كتمانهم الحق، وَإِعْلَامٌ بِأَنَّهُ لَن يَتْرُكَهم سُدًى وَأَنَّهُ سيُجَازِيهِمْ عَلَى أَعْمَالِهِمْ.

وَالْغَافِلُ: هو الَّذِي لَا يَفْطِنُ لِلْأُمُورِ إِهْمَالًا مِنْهُ، يقال أَغْفَلْتُ الشَّيْءَ: إذا تَرَكْتُهُ عَلَى ذِكْرٍ مني إِهْمَالًا له وعدم مبالاة به، والله تعالى منزه عن ذلك، فهو يمهل ولكن لا يهمل، كما قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ﴾.[٢]

---

١ - سورة الْأَعْرَافِ: الآية/ ١٥٧

٢ - سورة إِبْرَاهِيمَ: الآية/ ٤٢

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.
الآية/ ١٤١

تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ مَضَتْ لَهُمْ أَعْمَالُهُمْ وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ، وَلَا يُغْنِي عَنْكُمُ انْتِسَابُكُمْ إِلَيْهِمْ، مِنْ غَيْرِ مُتَابِعَةٍ مِنْكُمْ لَهُمْ، فلا تَغْتَرُّوا بِمُجَرَّدِ النِّسْبَةِ إِلَيْهِمْ حَتَّى تَكُونُوا مِثْلَهُمْ مُنْقَادِينَ لِأَوَامِرِ اللَّهِ وَحَتَّى تَكُونُوا متبعين لرُسُلِهِ عليهم السلام.

وكُرِّرَت الآية لِأَنَّهَا تَضَمَّنَتْ مَعْنَى التَّهْدِيدِ وَالتَّخْوِيفِ، أَيْ إِذَا كَانَ أُولَئِكَ الْأَنْبِيَاءُ عَلَى إِمَامَتِهِمْ وَفَضْلِهِمْ يُجَازَوْنَ بِكَسْبِهِمْ فَأَنْتُمْ أَحْرَى وأولى بذلك، ولتأكيدِ معنى أن مجردَ الإنتسابِ للأنبياءِ والرسلِ لا يُغني صاحِبَهُ شَيئًا إذا كان على غيرِ اعتقادٍ صحيحٍ، وعملٍ صالحٍ.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الفهرس

الموضوع

المقدمة .

تَعْرِيفُ التَّفْسِيرِ.

الْفَرْقُ بَيْنَ التَّفْسِيرِ وَالتَّأْوِيلِ.

فَضْلُ عِلْمِ التَّفْسِيرِ وَأَهَمِّيَّتُهُ.

سُورَةُ الْفَاتِحَةِ.

فَضْلُ سُورَةِ الْفَاتِحَةِ.

أَسْمَاءُ سُورَةِ الْفَاتِحَةِ.

الكَلَامُ عَنْ الِاسْتِعَاذَةِ.

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾. الآية/ ١

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾. الآية/ ٢

﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾. الآية/ ٣

﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾. الآية/ ٤

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾. الآية/ ٥

﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾. الآية/ ٦

﴿ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ .....﴾. الآية/ ٧

سُورَةُ الْبَقَرَةِ.

أَسْمَاءُ سُورَةِ الْبَقَرَةِ.

فَضْلُ سُورَةِ الْبَقَرَةِ.

﴿الم﴾. الآية/١

﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾. الآية/ ٢

﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾.الآية/ ٣

﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِما أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَما أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ.....﴾.الآية/ ٤

﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾. الآية/ ٥

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ .....﴾. الآية/ ٦

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ.....﴾.الآية/ ٨- ١٠

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا.....﴾. الآية/ ١١، ١٢

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا....﴾. الآية/ ١٣

﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ....﴾. الآية/ ١٧، ١٨

﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ..﴾. الآية/ ١٩- ٢٠

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ...﴾.الآية/ ٢١، ٢٢

﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا..... ﴾. الآية/ ٢٣، ٢٤

﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ.....﴾. الآية/ ٢٥

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾.الآية/ ٢٦

﴿الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا...﴾. الآية/ ٢٧

﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ ..﴾. الآية/ ٢٨

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى..﴾. الآية/ ٢٩

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً....﴾. الآية/ ٣٠

﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ..﴾. الآية/ ٣١،٣٢

﴿قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ.. ﴾. الآية/ ٣٣

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلا إِبْلِيسَ....﴾. الآية/ ٣٤

﴿وَقُلْنَا يَاآدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا..﴾. الآية/ ٣٥

﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ .....﴾. الآية/ ٣٦

﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ..﴾. الآية/ ٣٧

﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى.....﴾. الآية/ ٣٨

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ.....﴾. الآية/ ٣٩

﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ..﴾. الآية/ ٤٠، ٤١

﴿وَلا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ.....﴾. الآية/ ٤٢، ٤٣

﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ.....﴾. الآية/ ٤٤

﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾. الآية/٤٥

﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾. الآية/ ٤٦

﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي...﴾. الآية/ ٤٧

﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا.﴾. الآية/٤٨

﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ....﴾. الآية/ ٤٩

﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ.....﴾. الآية/ ٥٠

﴿وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ...﴾. الآية/ ٥١، ٥٢

﴿وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾. الآية/ ٥٣

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ.....﴾. الآية/ ٥٤

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ....﴾.الآية/ ٥٥، ٥٦

﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى.....﴾. الآية/ ٥٧

﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ....﴾. الآية/ ٥٨

﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ.....﴾. الآية/ ٥٩

﴿وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ..﴾ الآية/ ٦٠

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ.....﴾. الآية/ ٦١

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ...﴾. الآية/ ٦٢

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا....﴾. الآية/ ٦٣، ٦٤

﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ.....﴾. الآية/ ٦٥، ٦٦

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً.....﴾. الآية/

٦٧

﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ..﴾. الآية/ ٦٨- ٧٠

﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ.....﴾. الآية/ ٧١- ٧٣

﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ﴾. الآية/ ٧٤

﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ.....﴾. الآية/ ٧٥

﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلا بَعْضُهُمْ..﴾. الآية/ ٧٦، ٧٧

﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَايَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْهُمْ إِلَّا ....﴾. الآية/ ٧٨

﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا....﴾. الآية/ ٧٩

﴿وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ...﴾. الآية/ ٨٠

﴿بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ.....﴾. الآية/ ٨١، ٨٢

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ.....﴾. الآية/ ٨٣

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ.....﴾. الآية/ ٨٤، ٨٥

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ فَلا يُخَفَّفُ....﴾. الآية/ ٨٦

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ.....﴾. الآية/ ٨٧

﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَا.....﴾. الآية/ ٨٨

﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ ....﴾. الآية/ ٨٩

﴿بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنزلَ اللَّهُ بَغْيًا ...﴾. الآية/ ٩٠

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا.....﴾. الآية/ ٩١،

٩٢

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ﴾. الآية/ ٩٣- ٩٥

﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا..﴾. الآية/ ٩٦

﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نزلَهُ عَلَى قَلْبِكَ....﴾. الآية/ ٩٧، ٩٨

﴿وَلَقَدْ أَنزلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلا.﴾. الآية/ ٩٩- ١٠١

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

﴿وَاتَّبَعُوا ما تَتْلُوا الشَّياطِينُ عَلى مُلْكِ سُلَيْمانَ.....﴾. الآية/ ١٠٢

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَوْ كانُوا﴾. الآية/ ١٠٣

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا وَاسْمَعُوا.﴾.الآية/ ١٠٤

﴿مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلا الْمُشْرِكِينَ....﴾.الآية/ ١٠٥

﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا..﴾. الآية/ ١٠٦

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأرْضِ..... ﴾. الآية/ ١٠٧

﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ.﴾الآية/ ١٠٨

﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ.﴾.الآية/ ١٠٩

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ..﴾. الآية/ ١١٠

﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ...﴾. الآية/ ١١١، ١١٢

﴿بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ.﴾. الآية/ ١١٢

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ.....﴾. الآية/ ١١٣

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَساجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ....﴾. الآية/ ١١٤

﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ .....﴾. الآية/ ١١٥

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ...﴾. الآية/ ١١٦

﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ...﴾. الآية/ ١١٧

﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ...﴾. الآية/ ١١٨

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ﴾. الآية/ ١١٩

﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ.﴾ الآية/ ١٢٠

﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ أُولَئِكَ.....﴾. الآية/ ١٢١

﴿يَابَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ.﴾.الآية/ ١٢٢، ١٢٣

﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ.﴾الآية/ ١٢٤
﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ..﴾. الآية/ ١٢٥
﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ.﴾. الآية/ ١٢٦
﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا....﴾. الآية/ ١٢٧
﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ.﴾. الآية/ ١٢٨
﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ.....﴾. الآية/ ١٢٩
﴿وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ..﴾. الآية/ ١٣٠
﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ*﴾. الآية/١٣١، ١٣٢
﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ.....﴾. الآية/ ١٣٣
﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ..﴾. الآية/ ١٣٤
﴿وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُواْ قُلْ بَلْ مِلَّةَ.....﴾.الآية/ ١٣٥
﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ ....﴾. الآية/ ١٣٦
﴿فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا.﴾. الآية/ ١٣٧
﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ﴾. الآية/ ١٣٨
﴿قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ.﴾ الآية/
١٣٩
﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ....﴾. الآية/ ١٤٠
﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ...﴾. الآية/ ١٤١
الفهرس.....

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة